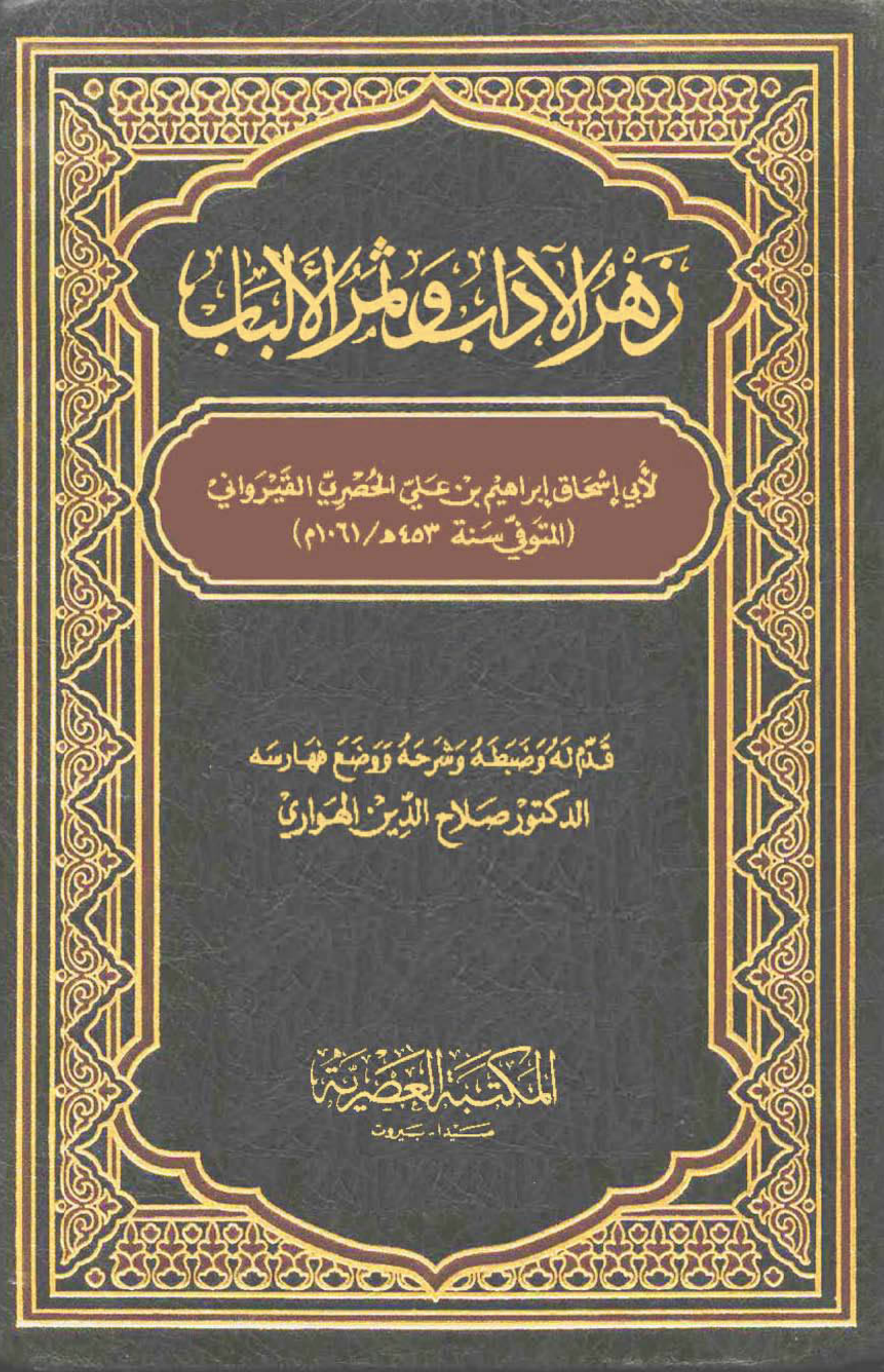

زهر الآداب وثمر الألباب
لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني
(المتوفى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م)
قدم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه
الدكتور صلاح الدين الهواري
المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

زهر الآداب وثمر الألباب

لأبي إسحاق إبراهيم بن عليّ الحُصْريّ القيرواني
(المتوفى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م)

قدّم له وضبطه وشرحه ووضع فهارسه
الدكتور صلاح الدّين الهواري

المجلّد الثالث



الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - 2001 م

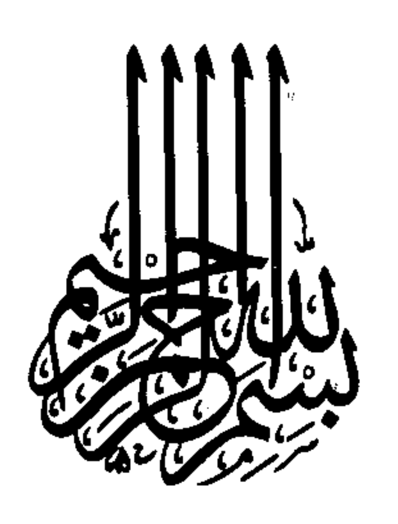
شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة العصرية للطباعة والنشر

الدار النموذجية — المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ١١/٨٣٥٥ - تلفاكس ٠٠٩٦١١٦٥٥٠١٥

صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٠٠٩٦١٧٧٢٠٣١٧


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذ من ألفاظ بلغاء أهل العصر

تجرى في المدح مجرى الأمثال؛ لحسن استعارتها، وبراعة تشبيهاتها.

فلان مُسْتَرْضَعٌ ثَدْيَ المجد، مُفْتَرِشٌ حِجْرَ الفضل، له صَدْرٌ تَضِيق به الدَّهْنَاء، وتَفْزَع إليه الدَّهْمَاء[1]، له في كل مكرمة غُرَّة الإصباح[2]، وفي كل فضيلة قادِمَةُ الْجَناح[3]، له صورة تستنطق الأَفْوَاهَ بالتسبيح، وَيتَرقْرَقُ فيها ماءُ الكرم، وتقرأُ فيها صحيفةَ حُسْن البشر، تحيا القلوب بلقائه، قبل أن يُمِيتَ الفَقْرَ بعطائه، له خُلقٌ لو مُزِجَ به البحرُ لنفى مُلُوحَتَهُ، وكفى كدورته. هو غذاءُ الحياة، ونسيم العشق، ومادَّة الفَضْل؛ آراؤُهُ سكاكين في مفاصل الْخُطوب، له هِمَّةٌ تعزل السماكَ الأعْزَل، وتجرّ ذَيْلها على المجرَّةِ، هو راجحٌ في موازين العَقْل، سابقٌ في ميادين الفَضْلِ، يَفْتَرِع[4] أبكارَ المكارم، ويَرْفَع مَنَارَ المحاسن. ينابيع الجود تتفجَّر من أنامله، وربيعُ السماء يَضْحَك من فَوَاضِلِه. هو بيتُ القصيدة، وأول الْجَرِيدة، وعَيْن الكتيبة، وواسطة القِلاَدة، وإنسانُ الحدَقة[5]، ودُرَّة التاج، ونقش الفصّ! وهو مِلْحُ الأرض، ودِرْعُ المِلَّة، ولسان الشريعة، وحِصْنُ الأمة. هو غُرّة الدّهر والزمان، وناظر الإيمان. له أخلاقٌ خُلِقْنَ من الفَضْلِ وشِيَمٌ تُشَامُ منها بَوَارِقُ المَجْد[6]، أَرِجَ الزمانُ بِفَضْلِه، وعَقِمَ النساءُ عن الإتيان بمثلِه. الجميلُ لديه مُعْتَاد، والفضْلُ منه مبدوءٌ ومُعَاد، مَالُهُ

---

(١) الدهناء: الفلاة. الدهماء: ليلة تسع وعشرين من الشهر القمري، سميت بذلك لأنها تكون شديدة السواد.

(٢) الغُرَّةُ من كل شيء: أوله وأكرمه.

(٣) القادمة: إحدى ريشات عشر كبار، أو إحدى أربع في مقدم الجناح.

(٤) يفترع: يَفْتَضُّ.

(٥) إنسان الحدقة: ناظرها، سوادها.

(٦) الشِّيَمُ: جمع شيمة: الخُلُق. وشام البرق والسحاب: نظر إليه يتحقق أين يكون مطره.

للعُفَاة[١] مُبَاح، وفعالُه في ظلمة الدهر مِصْبَاح، كأن قلبَه عَيْن، وكأن جسمه سَمْع، يرى بأوّل رَأْيه آخرَ الأمر، جوهرٌ من جواهر الشرف لا من جواهر الصَّدَف، وياقوتة من يواقيت الأحرار لا يواقيت الأحجار، طلعتُه للبشاشة عليها ديباجة خُسْرَوَانيّة، وفيها للطلاقة روضة رَبيعية. وَجْهٌ كأن بَشَرته نشر البِشْر، ومواجهته أمانٌ من الدَّهر. يصل ببشره، قبل أنْ يَصِلَ ببِرّه، قد لحظت من وجهه الأنوار، ومن بَنَانِه النّوار. أنا من كرم عشرته، وطلاقَة أسِرَّته، في روضةٍ وغدير، وجنّةٍ وحرير، وهو بَحْرٌ من العلم ممدود بسبعة أبحر، ويومُه من يوم الأدب كعمر سبعة أنْسُر. العلم حَشْوُ ثيابه، والأدب مِلْء إهَابه[٢]. هو شَخْصُ الأدب ماثلاً، ولسانُ العلم قائلاً. شَجَرة فَضْلٍ عُودُها أدب، وأغصانها عِلْم، وثمرتها عَقْل، وعروقها سَرْوٌ، تسقيها سماءُ الحريّة، وتغذّيها أرضُ المروءة. هم ملح الأرض إذا فسدت، وعمارةُ الأرض إذا خَرِبت، ومعرض الأيام إذا احتشدَتْ؛ وهم جمالُ الأيام، وخواصُّ الأنام، وفرسان الكلام، وفلاسفة الإسلام. فلان غُصْنُ طَبْعِهِ نَضير، ليس له في مَجْدِه نظير، قد جمع الْحِفظَ الغزير، والفَهْمَ الصحيح، والأدب القويّ القويم، وما يُؤْنِسُه من الوَحْشَةِ إلا الدفاتر، ولا يَصْحَبُهُ في الوَحْدَةِ إلاّ المحابر. فلان يحلُّ دقائقَ الأشكال، ويُزِيل معترض الإشكال. له خُلُقٌ كنسيم الأسْحَار، على صفحات الأنوار. كالماء صَفَاءً، والمسك ذكاءً. أخلاق قد جمعت المروءةُ أطرافَهَا، وحرست الحرية أكْنافَها[٣]. أخلاق تجمع الأهواءَ المتفرّقة على محبته، وتؤلّف الآراء المتشتّة على مودَّتِه. أخلاق أعذبُ من ماء الغَمام، وأحلى من رِيق النّحل، وأطيب من زمان الوَرْد. أخلاق أحسن من الدرّ والعِقْيَان، في نحور الْحِسَان، وأَذْكى من حركات الروحِ والرَّيحان. فلانٌ يستحطّ القمر[٤] بِطَرْفِه، ويستنزل النّجم بِلُطْفه[٥]. هو حُلْوُ المَذَاق، سهل المَسَاغ. أجمل الناس في جدّ، وأحلاهم في هَزْل. يتصرَّفُ مع القلوب، كَتَصَرُّفِ السحاب مع الجَنُوب. ذو جِدّ كَعُلُوّ الجدّ[٦]، وهَزْل كحديقة

(١) العُفَاةُ: طالبو المعروف، مفردها عافٍ.

(٢) الإهاب: الجِلْدُ.

(٣) الأكناف: النواحي والأرجاء.

(٤) استحطَّ الشيء: نقصه، وحَطَّهُ: وضعه، وأنزله، وألقاه.

(٥) اللُّطْفُ: الرقة، واللَّطَفُ: الرِّفْقُ. وقد تلطَّف للأمر، وفيه، وبه: تَرَفَّق، واللُّطْفُ من قبل الله تعالى: التوفيق والعصمة.

(٦) الجَدُّ (بالفتح): أبو الأب، وأبو الأم، والحظُّ، والمكانة والمنزلة عند الناس. والجِدُّ (بالكسر): وجه الأرض، ويقال: هذا خطر جِدُّ عظيم، أي: عظيم جداً. والجُدُّ (بالضم): جانب الشيء.

الوَرْدِ. له عِشْرَةٌ ماؤها يقطر، وصَحْوُها من الغَضَارة يمطر[١]. هو رَيْحَانة على القَدَح، وذريعة إلى الفَرَح. عِشْرَتُـهُ أَلْطَفُ من نسيم الشمال، على أديم الزّلال، وأَلْصَقُ بالقلب، من علائق الحب. إذا أردت فهو سُبْحَة ناسك، أو أحببت فهو تُفَّاحة فاتك، أو اقترحتَ فهو مدرعة راهب، أو آثرت فهو نخبة شارب. أخباره زكيّة، وآثاره ذكية. أخباره تأتينا كما وَشَى بالمسك رَيَّاه، ونَمَّ على الصباح مُحَيَّاه[٢]. قد انتشر من طيب أخباره ما زاد على المسك الفَتِيق، وأَوْفَى على الزَّهْر الأنِيق. مناقب تَشْدَخ[٣] في جبينها غُرَّة الصباح، وتتهادى أنباءَها وُفُودُ الرياح. فلان أخبارُه آثاره، وعينه فراره، وقد حصل له من حَميد الذكر، وجميل النَّشْر، ما لا تزال الرواةُ تدرسه، والتواريخ تحرسه. سألت عن أخباره فكأني حرّكت المسك فتيقاً[٤]، أو صبّحت الروض أنيقاً. أخباره متضوعة كتضوّع المِسْك الأذفر[٥]، ومُشْرقة إشراقَ الفجر الأنور. أَحْبَبْتُه بالخَبَر، قبل الأثر، وبالوصف قبل الكَشْف. هو ممن يثقل ميزانُ ودّه، ويُحْصف ميثاق عَهْدِه. هو كريم العهد، صحيح العَقْد، سليم الصَّدْرِ في الودّ، حميد الوِرْد فيه والصدَر. هو لإخوانه عُدَّة تشدّهم وتقويهم، ونورٌ يسعى بين أيديهم. هو ركن الإخاء، صَافي شِرْب الوَفاء، حافظٌ على الغيب ما يحفظه على اللقاء. هو ممن لا تدومُ المُدَاهنة في عَرَصاتِ قَلْبه[٦]، ولا تَحُومُ المُوَاربة على جنبات صدره. هو يَسْري إلى كرم العهد، في ضياء من الرّشد. عهده نَقْشٌ في صَخْر، ووده نَسَبٌ ملآن من فخر. يقبلُ من إخوانه العَفْوَ، كما يوليهم من إحسانه الصَّفْو. في وُدِّه غِنى للطالب، وكفاية للراغب، ومَرَادٌ للصَّحْب، وَزَادٌ للركب. هو في حَبْلِ الوفاء حَاطِب، وعلى فرض الإخاء مواظب. النُّجْحُ[٧] معقودٌ في نواصي آرائه، واليُمْنُ معتاد في مذاهب أنحائه. له الرَّأْيُ الثاقب الذي تَخْفَى مَكايده، وتَظْهَر عوائده، والتدبيرُ النافذ التي تَنْجَعُ مَبَاديه، وتبهج تَوَاليه. رَأْيٌ كالسَّهْم أصاب غِرَّة الهَدَفِ، ودهاء كالبحر في بُعْد الغَوْر وَقُرْب المُغْتَرف، لا يضعُ رَأيه إلا مواضع الأصالة، ولا يصرف تدبيره إلاّ على مواقع السداد والإصابة. يعرفُ من مبادىء الأقوالِ

---

(١) الغضارة: السعة والنعمة.

(٢) نَمَّ الحديثُ: ظهر، ونمَّ الشيءُ: انتشرت رائحته، ونمَّ الحديثَ: سعى به ليوقع فتنةً بين الناس.

(٣) شدخ الشيء شَدْخاً: شجَّهُ.

(٤) فتق المسك: خلط به ما يُذكيه.

(٥) مِسْكٌ أذفر: جيد إلى الغاية، وقد ذَفِر المسك وغيره: اشتدت رائحته.

(٦) العرصات: جمع عرصة، وهي ساحة الدار.

(٧) النُّجْحُ: النجاح: الفوز والظفر.

خواتِمَ الأفعال، ومن صدور الأمور أعجاز ما في الصدور. رُؤْيته رَأْي صَلِيت[١]، وبديهته قدرٌ مصيب. يسافرُ رَأْيه وهو دَانٍ لم يبرح، ويسير تدبيره وهو ثَاوٍ[٢] لم ينزح. له رأيٌ لا يخطىء شَاكِلَةَ الصَّوَابِ، [ولا يخشى بادرة العِثَار. فلان يخمّر الرأْيَ ويُحيله، ويجيد الفكر ويجيله، حتى يحصل على لب الصواب]، ومحض الرأي. إذا أذكى سراج الفكر، أضاء ظَلامَ الأمر، هو قطب صَوابٍ تَدُورُ به الأمور، ومستنبط صلاح يردُّ إليه التدبير. يرى العواقبَ في مِرْآة عقله، وبصيرةِ ذكائه وفَضْله. وله رَأْيٌ يردُّ الْخَطْبَ مُصَلماً[٣]، والرمح مُقَلَّما. [آراؤه سكاكين في مفاصل الخطوب]، كأنه ينظرُ إلى الغيب من وراء سِتْرٍ رقيق، ويطالعه بِعَيْن السَّداد والتوفيق. يستنبطُ حقائقَ القلوب، ويستخرج ودائع الغيوب. قد سَرَيْنَا من مشورته في ضياءٍ ساطع، ومن رأيه الصائب في حُكم قاطع.

نبذ من مفردات الأبيات في فرائد المدح

أبو نواس:[٤]

وَكَلْتَ بالدَّهْرِ عَيْناً غَيْرَ نَائِمَةٍ مِنْ جُودِ كَفَّيْكَ تَأْسُو كُلَّما جَرَحَا

الطائي:[٥]

فلو صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لم تَزِدْها على ما فِيكَ من كَرمِ الطِّباعِ

البحتري:

وَلَوْ لم يكُنْ فِي كَفِّه غَيْرُ نَفْسِهِ لَجادَ بِها فَلْيَتَّقِ اللَّهَ سَائِلُهْ

وله:[٦]

وَلم أَرَ أَمثالَ الرجالِ تَفاوتوا لَدى المَجْدِ حَتَّى عُدَّ ألفٌ بِوَاحِدِ

كشاجم:

عَرفَ الفاضلونَ فَضْلَكَ بالعِلْـ ـمِ وَقال الجُهَّالُ بالتقليدِ

---

(١) صليت: واضح، بارز، وقد أصلت الشيء: أبرزه، وأصلت السيف: جرّده من غمده.
(٢) ثاوٍ: مُقيم.
(٣) صلم الشيء: قطعه واستأصله.
(٤) أبو نواس، الديوان: ص ٤٥٧. وفيه: «عيناً غير غَافِلةٍ»، و«من جود كَفِّك». وتأسو: تداوي.
(٥) أبو تمام، الديوان: ١/ ٤٠٦. والبيت من قصيدة مدح بها مهدي بن أصرم.
(٦) البحتري، الديوان: ١/ ٦٤. والبيت من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان وابنه.

المتنبي: (١)

شَخَصَ الأَنامُ إلى كَمالِكَ فَاسْتَعِذْ ... مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِم بِعَيْبٍ وَاحِدِ

وله: (٢)

وَلَمَّا رأَيتُ النـاسَ دُونَ مَحلّهِ ... تَيَقّنتُ أَنّ الدهرَ لِلناسِ نَاقِدُ(٣)

وله أيضاً: (٤)

إنْ خُوطبوا أَو لُقُوا أَو كُوتبوا وُجِدُوا ... في اللفظِ والخطِّ والهيجاءِ فُرْسَانَا(٥)

وله أيضاً: (٦)

ذُكِرَ الأنامُ لنا فَكانَ قَصيدةً ... كُنْتَ البَديعَ الفَرْدَ في أَبياتِها(٧)

أبو العباس الناشىء:

خُلِقْتَ كما أَرادَتْكَ المَعَالِي ... فَأَنْتَ لِمَنْ رَجاكَ كَما يُرِيدُ

المأموني:

وَخلائقٌ كالخمرِ دُونَ فَعالِه ... حَبَبٌ لَهُنَّ ومَا لَهُنّ خُمارُ(٨)

[في مجالس الخلفاء والملوك والحكماء والأمراء]

بين الموصلي والهادي

وقال إبراهيم الموصلي لِموسَى الهادي، وهو نديمُه، وقد غنَّاه صوتاً فأعجبه: إنَّ مَنْ

(١) لم نجد هذا البيت في ديوانه (شرح اليازجي).

(٢) المتنبي، الديوان: ٢/ ٧٨. والبيت من قصيدة قالها في سيف الدولة، وقد أراد قصد خرشنة فعاقه الثلج عن ذلك.

(٣) يقول: لما رأيت الناس دونه في المنزلة تيقنت أن الدهر ناقد لهم، يعطي كل إنسانٍ على قدر ما يستحقه.

(٤) المتنبي، الديوان: ١/ ٣٣٦. والبيت من قصيدة مدح بها أبا سهل سعيد بن عبيدالله بن الحسن الأنطاكي.

(٥) يقول: إذا كاتبهم أحد، أو حاضرهم، أو نازلهم في الحرب، وجدهم في جميع ذلك فرسان مجالهم. والبيت مرتبٌ على الطي والنشر.

(٦) المتنبي، الديوان: ١/ ٣٤٣.

(٧) الأنام: الخلق. والبديع: صفة لمحذوف، أي البيت البديع، وهو المبتكر. أي كنت من الناس بمنزلة البيت المبتكر من القصيدة.

(٨) الحَبَبُ: الحَبَابُ: طرائق تظهر على وجه الماء تصنعها الريح، والفقاقيع على وجه الماء. الخُمار: ما خالط الإنسان من سُكْرِ الخمر، أو ما يصيب شاربها من ألم وصداع.

كان محلّه من أمير المؤمنين مَحَلّي في الانبساط وتَقَدُّم النِّدَام جرأه البَسْطُ على الطلب، وبعثَتْهُ المنادمةُ على الرجاء، وقد نصَب لي أميرُ المؤمنين بِقُرْبي منه مَشَارِعَ الرغبة إليه، وحثّني مَحَلّي عنده على الكُرُوع في المَنْهَلِ بين يديه. فقال: سَلْ شِفَاها؛ فإني جاعِلٌ فِعْلي عن إجابتك إليه حاضراً؛ فسأله ما قيمته خمسون ألف درهم؛ فأمر له بمائة ألف درهم.

بين الإسكندر ودارا بن دارا

ولما ظَفِر الإسكندرُ بدارا بن دارا قال له: بمَ اجترأ عليك صاحبُ شُرطتك؟ قال: بتَرْكِي تَرْهِيبَهُ وَقْتَ إساءتِه وتفريطِه، وإعطائه وَقْتَ الإحسانِ اليسيرِ من فعله نهايةَ رغبته. فقال الإسكندر: نِعْمَ العونُ على استصلاح القلوب المُوغَرَةِ الترغيبُ بالأموال، وأصلح منه عاجلاً الترهيبُ وقت الحاجة إليه.

حكيم يصف أحزم الملوك

وقال الحسنُ بن سهل: خرج بعضُ ملوكِ الفرس مُتَنَزِّهاً، فلقي بعضَ الحكماء، فسأله عن أَحزم الملوك، فقال: من ملك جِدُّه هَزْله، وقهر لُبُّه هَوَاه، وأَعرب لسانُه عن ضميره، ولم يَخْدَعْه رضاه عن سخطه، ولا غضبُه عن صِدْقِه. فقال الملك: لا، بل أَحزمُ الملوكِ من إذا جاع أَكل، وإذا عطش شرِب، وإذا تعب استراح. فقال الحكيم: أَيها الملك، قد أَجَدْتَ الفِطْنَة، هذا العلم مستفاد أَم غريزي؟ قال: كان عندنا مُعلِّم من حكماء الهند، وكان هذا نقشَ خاتمه. قال: فهل علَّمك غير هذا؟ قال: ومِنْ أين يُوجَدُ مثل هذا عند رجل واحدٍ؟ ثم قال له الملكُ: علّمني من حكمتك أيُّها الحكيم. قال: نعم، احفَظْ عني ثلاثَ كلمات. قال: ما هنّ؟ قال: صَقْلُك السيفَ ليس له جوهرٌ من سِنْخِه[١] خَطَأ، وصبُّك الحَبَّ في الأرضِ السَّبِخَة[٢] ترجُو نباته جَهْلٌ، وحَمْلُك المُسِنّ على الرياضة عناء.

قال أبو تمّام الطائي:[٣]

وَالسَّيْفُ ما لَمْ يُلْفَ فيهِ صَيْقَلٌ ... مِنْ سِنْخِه لَمْ يَنْتَفِعْ بِصِقَالِ[٤]

---

(١) السِّنْخُ: الأصل من كل شيء.

(٢) سَبِخَت الأرض سَبخاً: كانت ذات نَزٍّ وملح، فهي سَبِخَةٌ.

(٣) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٧٠. والبيت من قصيدة يمدح بها المعتصم، ويذكر فتح الخُرَّمية.

(٤) في الديوان: «من طبعه». يقول: السيف إذا لم تكن فيه جودة حديد تتحمل الصقال، لم ينتفع بصقاله، وكذلك غزوة المعتصم لو لم يكن فيها جودة تدبيره، لم ينتفع فيها بتدبير سواه من الوزراء والمستشارين.

وقيل لبعض الحكماء: ما الدليل الناصح؟ قال: غريزة الطبع. قيل: ما القائدُ المشفِق؟ قال: حسن المنطق. قيل: فما العناء المُعَنِّي؟ قال: تطبيعك ما لا طبعَ له.

أنوشروان يبين سياسة الدولة

وكان أنوشروان يقول: الناس ثلاث طبقات تسوسهم ثلاث سياسات: [طبقة من خاصة الأحرارِ تسوسهم بالعَطْفِ واللين والإحسان، و] طبقة من خاصة الأشرار تسوسُهم بالغِلْظَة والعُنْف والشدّة، وطبقة من العامة تسوسهم باللين والشدة، لئلا تُحْرِجهم الشدَّةِ، ولا يُبْطِرَهم[1] اللّين.

واصل بن عطاء يصف أخلاق السفلة

وقال واصل بن عَطَاء: ألا قاتلَ الله هذه السفلة! تُوَادُّ مَنْ حَادَّ الله[2] ونبيَّه، وتحادُّ من وَادَّ الله ونبيَّه، وتذمّ مَن مدحه الله، وتمدح من ذمّه الله؛ على أنه بِهِم عُلِمَ الفَضْلُ لأهل الطبقة العالية، وبهم أُعطِيت الأوساط حظًّا من النّبل.

ما يبلغ أقصى درجات الفضل

وقيل لبعض الملوك، [وقد بلغ في القدر ما لم يبلغه أحد من ملوكِ زمانه]: ما الذي بلغ بكَ هذه المنزلة؟ قال: عَفْوي عند قدرتي، ولِيني عند شِدَّتي، وبَذْلي الإنصاف ولو من نفسي، وإبقائي في الحب والبغض مكاناً لموضع الاستبدال.

أحزم الرأي

وقال الإسكندر لأحد الحكماء، وأراد سفراً: أَرْشِدْني لأَحزم أَمري. قال: لا تملأنّ قلبك من محبّةِ الشيء، ولا يَسْتَوْلينّ عليك بغضه، واجعلهما قَصْداً[3]؛ فإن القلبَ كاسْمِهِ ينزع ويرجع، واجعل وَزِيرَكَ التثبت، وسَمِيرَكَ التيقّظ، ولا تُقْدِم إلاّ بعد المشورة؛ فإنها نِعْمَ الدليل، فإذا فعلتَ ذلك ملكت قلوب رَعِيَّتِك.

---

(١) بَطِرَ فلان: غلا في المرح والزهو، وبطر النعمة: استخفَّها فكفرها، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾. (سورة القصص، آية ٥٨).

(٢) حَادَّ الله: غاضبه وعصاه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ الله وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالداً فِيها﴾. (سورة التوبة، آية ٦٣).

(٣) قصداً: أي بغير إفراطٍ ولا تفريط، وقصد فلان في الأمر: توسَّط فلم يُفْرِط أو يُفَرِّط.

حكيم يصف خلال الفضل

وقيل لبعض الحكماء: ما الحزم؟ قال: سوء الظن. قيل: فما الصواب؟ قال: حكيم يصف المشورة. قيل: فما الرأيُ الذي يجمعُ القلوبَ على المودّة؟ قال: كفٌّ بَذُول، وبشر جميل. قيل: فما الاحتياط؟ قال: الاقتصاد في الحبّ والبغض.

بزرجمهر يصف

وسُئل بزرجمهر: ما المروءةُ؟ قال: تَرْكُ ما لا يعني. قيل: فما الحَزْم؟ قال: انتهازُ الفُرْصَة. قيل: فما الحلمُ؟ قال: العفوُ عند المقدرة. قيل: فما الشدة؟ قال: ملك الغضب. قيل: فما الخُرْق[١]؟ قال: حب مُغْرِق؛ وبغض مُفْرِط.

وصية معاوية لزياد

قال معاوية رضي الله عنه لزياد حين ولّاه العراق: يا زياد؛ ليكن حبُّك وبغضك قَصْداً؛ فإن العَثْرة فيهما كامنة، واجعل للنزوع[٢] والرجوع بقيّة من قلبك، واحذَرْ صَوْلَة الانهماك[٣]، فإنها تؤدي إلى الهلاك.

ومن كلام بلغاء أهل العصر في ذكر السلطان

للصاحب

أبو القاسم الصاحب: مَرْضَاة السلطان، لا تغلو بشيء من الأثمان، ولا بِبَذْلِ الروح والجَنَان[٤]. تهيُّب السلطانِ فَرْضٌ وَكِيد[٥]، وحَتْمٌ على منْ أَلْقَى السمعَ وهو شهيد.

للصابي

أبو إسحاق الصابي: المَلِكُ أحقُّ باصطفاءِ رجاله منه باصطفاء أمْواله؛ لأنه مع اتساع الأمر وجَلالَةِ القَدْر لا يكتَفِي بالوَحْدَة، ولا يستغني عن الكَثْرَة؛ وَمَثَلُهُ في ذلك مَثَلُ المسافرِ في الطريق البعيد الذي يجب أن تكونَ عنايتُه بفرسه المَجْنُوبِ، كعنايته بفرسِه المركوب.

---

(١) الخُرْقُ: الجهل، والحمق، وفي الحديث: «الرِّفْقُ يُمْنٌ والخُرْقُ شُؤْمٌ».
(٢) النزوع: يقال: نَزَعَ عن الأمر: كفَّ وانتهى، ونزع إلى أهله: حَنَّ واشتاق.
(٣) الصَّوْلَةُ: السطوة في الحرب ونحوها.
(٤) الجَنَانُ: القَلْبُ.
(٥) الوكيد: الوثيق، المُحْكَم، يقال: وكد العقد: أوثقه وأحكمه، ووكد الأمر: مارسه وقصده.

فصل للصابي: الملك بمن غلط من أتْبَاعِه فاتَّعظ أشدّ انتفاعاً منه بمن لم يغلط ولم يتعظ؛ فالأول كالقارح[١] الذي أدَّبَتْهُ الغرَّة[٢]، وأصلحَتْهُ القَدَامَة[٣]، والثاني كالجَذَع المُتَهَوِّك[٤] الذي هو راكب للغِرَّة وراكن إلى السلامة.

وقيل: إن العظم إذا جبر من كَسْره عاد صاحبُه أشدّ بطشاً وأقوى أيداً.

للخوارزمي

أبو بكر الخوارزمي: لا صغيرَ مع الولاية والعِمالة، كما لا كبيرَ مع العُطلة والبَطَالة؛ وإنما الولاية أنثى تصغر وتكبر بواليها، ومطيَّة تحسن وتقبح بِمُمْتَطيها، والصَّدْر لمن يليه، والدَّست لمن جلس فيه، والأعمال بالعمّال، كما أنّ النساء بالرجال.

فصل له: إنّ ولايةَ المرء ثوبُه؛ فإن قَصُرَ عَرِي منه، وإنْ طَالَ عَثَرَ فيه. قليلُ السلطان كثير، ومُدَارَاتُه حَزْمٌ وتدبير، ومكاشفته غُرُورٌ وتَغْرير.

للبستي

أبو الفتح البستي: أجهلُ الناس مَنْ كان على السلطان مُدِلاّ، وللإخوان مُذِلاّ.

لابن العميد

أبو الفضل ابن العميد: الإبقاءُ على حَشَم السلطان وعُمّاله عدلُ الإبقاء[٥] على ماله، والإشفاقُ [على حاشيته وحشمه مثل الإشفاق على ديناره ودرهمه].

وله من رسالة طويلة، جواب لأبي شجاع عضد الدولة عن كتاب اقتضاه فيه صَدْرَ كتاب ألّفه أبو الحسن الصوفي في نوع من علوم الهيئة.

أنا أقدم الإجابة بحمد الله تعالى جَدُّه، على ما وهب لنا معاشرَ عبيدِه وخدمه خاصة،

---

(١) القارح: الذي تمت قوته واستحكمت شدته، وأصله في ذي الحافر، يقال: قرح ذو الحافر: استتم الخامسة، وسقطت سِنّه التي تلي الرباعية، ونبت مكانها نابه.

(٢) الغِرَّةُ: الغفلة. والغُرَّة (بالضم): بياض الأسنان وأولها، وبياض في جبهة الفرس.

(٣) القِدَامَةُ: القِدَامُ: ما يُوضع على الفم سِدَاداً له.

(٤) الجَذَعُ (بالتحريك): الحدث. والجذع من الإبل: ما استكمل أربعة أعوام ودخل في السنة الخامسة، ومن الخيل والبقر: ما استكمل سنتين ودخل في الثالثة. المتهوك: يقال: تَهَوَّك فلان: سقط في هُوَّة الرَّدى، وَهَوِكَ هَوْكاً: حَمُقَ وفيه بقية من عَقْلٍ.

(٥) يقال: هذا عدل هذا: أي مساويه ومكافئه.

بل لرعاياه عامّة، بل لأهل الأرض كافة، من عظيم النعمة بمكانه، وجسيم الموهبة بإنفاق أَعمارنا في زمانه، حتى شَارَكْنَاهُ في أَسباب السعادة التي لم تَزَلْ مَذْخُورة عليه، حتى صارت إليه، وساهمناه في موادّ الفضيلةِ التي لم تَزَلْ محفوظةً له حتى اتَّصَلَت به؛ فإنّ المرءَ أَشْبَه شيءٍ بزمانه، وصفات كل زمانٍ مُنْتَسِخة من سجايا سُلْطَانه؛ فإن فَضَلَ شاعَ الفضلُ في الزمان وأهله، وتحلَّى الدَّهرُ بأفضل حِلْيته، وتجلّى للعيونِ والقلوبِ بأحسن زينته، وكسا بَنِيه والناشئين فيه بشرفِ جَوْهَرِه، وأَورثهم نَيْلَ فضله، وعزَّ العِلم وأهله، وعرف لمقتبسه قَدْرَه، وتوجَّهت الأذهانُ نحوه، وتعلَّقت الخواطرُ به، وصرفت الفِكر فيه، ونشدت ضَوَالّه، ونظم أَشْتَاته، وجمعت أَفْرَادهُ، وَوَثِقَتْ نفوسُ الساعين في استفادته بِحُسْنِ عائدته، فحرصت عليه، وَصَرفَتْ نظرَها إليه، وأيقنت في بضاعتها بالنَّفاق، وفي تجارتها بالإِرْفَاق؛ فصار ذلك إلى نَمَاءِ العلوم وزيادتها داعية، ولتكثير قليلها وأيضاح مجهولها سبباً وعلَّةً، وإلى انخراط جواهرها المتفرقة في سلوك التصنيف سبيلاً، وإلى تقييد شوارِدها بعُقُل[١] التأليف طريقاً. وإن رَذَلَ السلطان اتُّبِعَت الرذيلةُ اتباعاً، وذَهبتِ الفضائلُ ضَيَاعاً، وبطلت الأقدارُ والقيم، وَسُلِبَت الأخطار والهِمم، وزال العلم والتعلم، ودَرَس الفَهْمُ والتفهم، وَضَرَبَ الجهلُ بِجِرَانِه[٢]، ووطيء بمنسمه، واستَعْلَى الخمولُ على النباهة، واستولى الباطلُ على الحقّ، وصارُ الأدبُ وبالاً على صاحبه، والعلمُ نَكَالاً على حامله. وبحسب عظيم المحنة بمن هذه صِفَتُه، والبلوى مَعَ مَنْ هذه صورتُه، تَعْظُمُ بِمُلْك سلطانٍ عالم، كالأمير الجليل عضد الدولة، أَطال اللهُ تعالى بقاءَه، وأدام قُدْرَته، الذي أَحله اللهُ عزَّ وجل من الفضائل بملتقى طُرُقها وَمُجْتَمَعِ فرقها، فهي نَوَادُّ ممن لاقت حتى تَصيرَ إليه، وشوارِدُ نوازِعُ حيث حلّت حتى تقعَ عليه، تتلفتُ تلفتَ الرامِقِ، وتتشوَّفُ إليه تشوفَ الصبِّ العاشقِ[٣]، قد ملكها أنّى توجهت وحشة المضاع وحَيرة المرتاع.

فَـإِنْ تَغْـشَ قَـوْمـاً غَيْـرَهُ أَو تَـزُرْهُـمُ فَكالوَحْشِ يُدْنِيها من الأَنَسِ المَحْلُ

حتى إذا قابلته أسرعت إليه إسراعَ السيلُ ينصَبُّ في الحدور، والطير يَنْقَضُّ إلى الوكور.

---

(١) العُقُل: جمع عقال، وهو في الأصل: ما تُرْبَط به الدابة.
(٢) الجِران: باطن العنق من البعير وغيره، يقال: ألقى فلان على هذا الأمر جرانه: وَطَّن نفسه عليه، وضرب الجهل بجرانه: ثبت واستقر.
(٣) تَشَوَّف له وإليه: تَطَلَّعَ، واشتافه: تَتَبَّعه بنظره.

لأبي الطيب المتنبي

وقال أبو الطيب المتنبي:(١)

أَحَقُّ عافٍ بِدَمْعِكَ الهِمَمُ ... أَحْدَثُ شيءٍ عَهْداً بها القِدَمُ(٢)
وَإنما النَّاسُ بِالمُلوكِ، وَما ... تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ
لا أدبٌ عِنْدَهمْ ولا حَسَبٌ ... ولا عُهُودٌ لَهُمْ ولا ذِمَمُ
بِكُلِّ أرضٍ وَطِئتَها أُمَمٌ ... تُرْعَى بِعَبْدٍ كأنّها غَنَمُ(٣)
يَسَتَخْشِنُ الخزَّ حينَ يَلْمِسُهُ ... وَكانَ يُبْرَى بِظُفْرِه القَلَمُ(٤)

بين ابن ميادة وعبد الواحد بن سليمان

وقال الزبير بن بكار: قَدِم ابنُ ميّادة، واسمه الرَّمَّاحُ بن أبرد(٥)، زائراً لعبد الواحد بن سليمان، وهو أميرُ المدينة، فكان عنده ليلةً في سُمّارِه؛ فقال عبدُ الواحد لأصحابه: إني لأهم أن أتزوج فابْغُوني أيِّما، قال ابن ميادة: أنا ـ أصلحك الله ـ أدلُّك، قال: على مَن يا أبا بشر نَميل؟ قال: قدمتُ عليك أيها الأمير، فلما قدمت ألفيتُ المسجد وإذا أشبه شيءٍ به وبمن فيه الجنة ومَنْ فيها، فبينا أنا أمشي إذ قادتني رائحةُ رجلٍ عطر حتى وقفت عليه، فلما وقع بصري عليه استَلْهَى حُسْنُه ناظري، فما أقلعت ناظري حتى تكلَّم فما زال يتكلَّم كأنما يَنْثُر دُرًّا، ويتلو زَبوراً، ويدرس إنجيلاً، ويقرأ فُرْقَاناً، حتى سكت، فلولا معرفتي بالأمير ما شككت أنه هو، ثم خرج من مُصَلاَّه إلى داره، فسألت عنه، فأُخْبِرْتُ أنه من الحسن بمكانةٍ، وأنه للخليفتين، وأنه قال نالَتْهُ ولادَةٌ من رسول الله ﷺ ساطعٌ من غُرَّتِه؛ فإن اجتمعتَ أنْتَ وهو على ولدٍ ساد العبادَ، وجابَ ذِكْرُه البلاد.

---

(١) المتنبي، الديوان: ١/ ٢١٧. والأبيات من قصيدة يمدح بها علياً بن إبراهيم التنوخي.
(٢) أَحَقُّ: بمعنى: أولى وأجدر. العافي: الدارس. والقِدَمُ: ضد الحُدوث.
(٣) ترعى بعبدٍ: المراد عبيد الخلفاء من الأتراك.
(٤) الخَزُّ: ضرب من الثياب الحريرية.
(٥) هو أبو شرحبيل، وأبو حرملة، الرماح بن أبرد بن ثوبان بن سراقة الذبياني الغطفاني المضري: شاعر رقيق هجّاء، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. اشتهر بنسبته إلى أمه ميادة، وهي امرأة صقلبية من أهل الأندلس، وَعُرِف بسلامة الطبع، وفصاحة الإعراب. توفي سنة ١٤٩ هـ/ ٧٦٦ م.
(ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٦٥٥؛ ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١٠٥).

فلما قضى ابنُ ميَّادة كلامه قال عبد الواحد ومَنْ حضر: ذلك محمد بن عبد اللَّه بن عمرو بن عثمان رضي الله تعالى عنه لفاطمة بنت الحسين بن علي رضي الله عنهم.

وقال ابن ميادة:

لَهُمْ سيرةٌ لم يُعْطِها اللَّهُ غَيْرَهُمْ وَكُلُّ قَضاءِ اللَّهِ فهو مُقَسَّمُ

لعويف القوافي يمدح طلحة الزهري

هذا في تقابل نسبه، وكمال منصبه، كقول عُوَيْفِ القوافي[1] في طلحة بن عبد اللَّه الزهري:

يُصَمُّ رِجالٌ حين يُدْعَوْنَ للندى وَيَدْعُونَ ابنَ عَوْفٍ للندى فَيُجيبُ
وَذاكَ امرؤٌ من أيِّ عِطْفَيه يَلْتَفِتْ إلى المجدِ يَحْوِي المجدَ وَهْوَ قَرِيبُ

للقطامي يمدح عبد الواحد بن سليمان

وعبد الواحد بن سليمان هذا هو الذي يقول فيه القطامي:

أَقولُ لِلحَرْفِ لما أَنْ شَكَتْ أُصُلاً طُولَ السِّفارَ وأَفْنَى نَيَّها الرَّحلُ[2]
إن تَرْجِعي مِنْ أبي عُثمانَ مُنْجِحَةً فَقَدْ يَهُونُ على المُسْتَنْجِحِ العَمَلُ[3]
أَهْلُ المدينةِ لا يَحْزُنْكَ شَأنُهُم إذا تَخطَّأ عَبْدَ الواحدِ الأَجَلُ

ومن قول القطامي: «إن ترجعي من أبي عثمان منجحة» أخذ الآخر قوله:

إذا ما تَعَنَّى المَرْءُ في إثْرِ حاجةٍ فَأَنْجَحَ لم يَثْقُلْ عليهِ عَناؤه[4]

---

(١) هو عويف بن معاوية، من بني حُذَيْفَة بن بدر الفزاري: شاعر أموي، من البيوتات المقدمة في العرب، ومن ساكني الكوفة. سُمّي «عويف القوافي» لبيت شعر قاله ردًّا على من عَيَّره بقلة شعره. مدح عدداً من خلفاء بني أمية، وأصدق مدحه في طلحة بن عبد اللَّه الزهري الذي أغدق عليه مالاً كثيراً قبل أن يمدحه أو يعرفه.
توفي سنة ١٠٠ هـ/ ٧١٨ م. (الجاحظ، البيان والتبيين: ١/ ٣٧٤؛ المرزباني، معجم الشعراء: ١٢٧؛ ياسين الأيوبي، معجم الشعراء في لسان العرب: ٢٦٧).

(٢) الحرف: الناقة الضامرة الصلبة. ونَيّها: شحمها.

(٣) مُنْجِحةٌ: يقال: أنجح الله طلبته: أظفره بها، وأنجحت الحاجة: قُضيت، وأنجح فلان: صار ذا نُجْح، وهو النجاح والظفر.

(٤) تَعَنَّى المرء: تعب.

نسب عبد الواحد

وهو عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك بن مروان، قال الكلبي: هو عبد الواحد بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، والأول قول ابن السكيت.

والقصيدة التي منها هذه الأبيات من أجْوَدِ قوله[١]، وفيها يقول مما يتمثل به:

والعيشُ لا عَيْشَ إلا ما تقرُّ به ... عَيْنٌ ولا حَالَ إلا سَوْفَ يَنْتَقِلُ[٢]

والناسُ مَنْ يَلْقَ خيراً قائلون لهُ ... ما يَشْتَهِي وَلِأُمِّ المُخْطِىءِ الهَبَلُ[٣]

قَدْ يُدْرِكُ المُتأَنّي بَعْضَ حاجتِه ... وَقدْ يكونُ مع المُسْتَعجلِ الزَّلَلُ[٤]

قوله: «والناس مَنْ يَلْقَ خيراً قائلون له» مأخوذٌ من قول المرقش:[٥]

ومَنْ يَلْقَ خيراً يحمد النّاسُ أَمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغيِّ لائِما

منزلة شعر القطامي

وقال عمرو بن سعيد للأخطل: أيسرك أنَّ لك بشعرك شعراً؟ قال: لا، ما يسرُّني أن لي بقولي مقوَلاً من مَقَاوِيل العرب، غير أنّ رجلاً من قومي قال أبياتاً حَسَدْتُه عليها، وايم الله، إنه لَمُغْدِفُ القناع، ضيِّقُ الذراع، قليل السماع، قال: ومَنْ هو؟ قال: القُطامي، قال: وما هذه الأبيات؟ فأنشد له يَصِفُ إبلاً من هذه القصيدة:

يَمْشِينَ رَهْواً فلا الأعْجَازُ خاذِلَةٌ ... وَلا الصدورُ عَلَى الأَعْجَازِ تَتَّكِلُ[٦]

---

(١) القصيدة في جمهرة أشعار العرب: ٢/ ٢٨٤ ـ ٢٩٤، وقد عَدَّها أبو زيد من القصائد السبع المشوبات.

(٢) تقرّ به: تنعم. تنتقل: تتغيّر.

(٣) الهبل: الثكل. يقول: من يلق خيراً فالناس قائلون له ما يشتهي، ومن أخطأ قيل لأمه الثكل.

(٤) زلت الدراهم: نقصت في وزنها، ويقال: زلَّ في منطقه وفي فعله زللاً: أخطأ، وزلت قدمه: زَلقت.

(٥) هو عوف، وقيل عمرو بن سعد بن مالك بن ضبيعة، من بني بكر بن وائل، والمرقش لقب غلب عليه لقوله:

الدَّارُ وَحْشٌ وَالرُّسُوم كَما ... رَقَّشَ فـي ظَهْرِ الأَديمِ قَلَمْ

وهو شاعر جاهلي، ولد باليمن، ونشأ بالعراق، واتصل بالحارث الغساني، وهو أحد المتيمين المشهورين، أحب ابنة عمه أسماء، فزوجت غيره، فضني ومرض، وقال فيها شعراً كثيراً. توفي سنة ٥٥٠ م. (الآمدي، المؤتلف والمختلف: ٢٨١؛ شيخو، شعراء النصرانية: ١/ ٢٨٢).

(٦) تمشي رهواً: أي على رِسْلِها، والرهو: السير السهل، ويقال: جاءت الإبل رهواً: أي يتبع بعضها بعضاً.

فَهُـنَّ مُعْتَـرِضـاتٌ وَالْحَصَـى رَمِـضٌ وَالـرِّيـحُ سَـاكِنَـةٌ وَالظِـلُّ مُعْتَـدِلُ[١]
يَتْبَعْـنَ سَـامِيـةَ العَيْنَيْـنِ تَحْسَبُهَـا مَجْنُونَةً أو تَرَى ما لا تَرَى الإبلُ[٢]

[نغم الألفاظ ونغم الألحان]

بين مخارق وأبي العتاهية

قال أبو العتاهية لمخارق: أنت بِنَغَمِ ألفاظك دون نَغَمِ ألحانك، تُطْرِبُ إذا تكلّمت، فكيف إذا ترنّمت!

وقال له يوماً: يا حكيم هذه الأقاليم؛ أصبُبْ في هذه الآذان من جيِّدِ تلك الألحان، فَأُقْسِـمُ لو كانَ الكلامُ طعاماً، لكان غناؤك له إداما.

إسحاق الموصلي يصف جارية للمعتصم

قال إسحاقُ بن إبراهيم الموصلي: دخلتُ على المعتصم يوماً وقد خلاَ، وعنده جاريةٌ تُغَنِّيه، وكان مُعْجَباً بها، فلما جلست قال لي: يا أبا إسحاق، كيف تَراها؟ فقلت: يا أميرَ المؤمنين، أراها تقهره بِحِذْقٍ، وتختله بِرِفْقٍ[٣]، ولا تخرج من حَسَن إلاَّ إلى أحسن منه، وفي حلقها شذورُ نَغَم أحسنُ من دوام النعم، قال: يا إسحاق؛ هن غاياتُ الأمل، ومُنْسِيات الأجل، والسقم الداخل، والشُّغْل الشاغل، وإن صِفَتَك هذه لو سمعها مَنْ لم يَرَها لفقد لُبَّه[٤]، وقَضَى نَحْبَه[٥].

ويصف المجيد من المغنين

وسُئِل إسحاق عن المُجِيد من المغنين، فقال: مَنْ لَطُفَ في اختلاسه، وتمكَّن من

(١) يقول: هُنَّ معترضات من النشاط وقت الهاجرة، أي الوقت الذي تكلّ فيه الإبل وتسدر، وقوله: رمض: أي يشتد عليه حَرُّ الشمس. وقوله: والظل معتدل: أي صار ظل كل شيء تحته في انتصاف النهار.

(٢) في الجمهرة: «يتبعن مائرة العينين». يقول: يتبعن ناقةً مرتفعة العينين ترى من بعيد. وقوله: تحسبها مجنونة: أي لشدة نشاطها، ولأنها ترى شيئاً يفزعها لا تراه الإبل التي معها.

(٣) تختله: تخدعه.

(٤) اللبُّ: العقل.

(٥) قضى نحبه: مات.

أنفاسه، وتفرَّع في أجناسه، يكادُ يَعْرِفُ ضمائرَ مُجَالِسِيهِ، وشهواتِ مُعَاشِرِيهِ، يَقْرَعُ مسمع كلِّ واحد منهم بالنحو الذي يُوَافِقُ هواه، ويُطَابِقُ معناه.

من ترجمة إسحاق الموصلي

وكان إسحاقُ بن إبراهيم قد جمع إلى حِذْقِه بصناعَتِه حُسْنَ التصرف في العلوم، وجَوْدَةَ الصنعة للشعر، وحَدَّث عن نفسه فقال: كنت أيام الرشيد أُبكِّر إلى هُشَيم ووكيع فأسمعُ منهما، ثم أنصرف إلى عاتكة بنت شُهَيد؛ فتُطَارِحُني صوتين، ثم أَصِير إلى زلزل الضارب فآخذُ منه طريقين، ثم أسير إلى منزلي فأبعث إلى أبي عبيدة والأصمعي، فلا يَزَالانِ عندي إلى الظهرِ، ثم أذهبُ إلى الخليفة.

ونزل أبوه بالموصل وليس من أهلها فنُسِب إليها، وهو مولى خزيمة بن خازم التميمي، وفي ذلك يقول إسحاق:[١]

إذا مُضَرُ الحَمْراءُ كانت أَرُومَتِي ... وَقامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وابنُ خَازِمِ[٢]
عَطَسْتُ بِأَنْفِي شامخاً وَتَنَاوَلَتْ ... بَنَانِي الثريّا قاعداً غَيْرَ قَائِمِ[٣]

وفيه يقول محمد بن عامر الجرجاني يرثيه:

على الجدَثِ الشرقيِّ عُوجَا فَسَلِّما ... ببَغْدادَ لما صَدّ عَنْهُ عَوائِدُهْ[٤]
أإسْحَاقُ لا تَبْعُدْ، وَإن كان قَدْ رَمَى ... بِكَ الموتُ مَرْمًى لَيْسَ يَصْدرُ وَارِدُهْ
مَتَى تَأْتِهِ يَوْماً تحاولُ مُنْفِساً ... مِنَ الدين والدنيا فَإِنَّكَ وَاجِدُهْ
إذا هَزَلَ اخْضَرَّتْ فُروعُ حَدِيثِهِ ... وَرقَّتْ حَوَاشِيه وَطابَتْ مَشَاهِدُهْ[٥]
وَإنْ جَدَّ كان القولُ جِدًّا وأَقْسَمَتْ ... مَخَارِجُهُ ألَّا تلينَ شَدائِدُهْ

ومن جَيّد شعر إسحاق قصيدته في إسحاق بن إبراهيم المصعَبيّ بعد إيقاعه بالخرّمية:

---

(١) البيتان في العمدة: ٢/١٤٦، وقد نسبهما ابن رشيق لإبراهيم الموصلي والد اسحاق المذكور أعلاه، وعدّهما من أفخر ما قاله المولدون في الفخر.
(٢) الأرومُ والأرومة: أصل الشجرة، واستعملت للحسب، يقال: هو طيب الأرومة: كريم الأصل. وفي العمدة: «وقام بمجدي».
(٣) في العمدة: «وتناولت يداي الثريا».
(٤) الجدث: القبر.
(٥) رَقَّت حواشيه: لَطُفَت صحبته وَسَهُلَت ولانت.

تَقَضَّتْ لُبَانَاتٌ وَجَدَّ رَحِيلُ ... وَلم يُشْفَ مِنْ أَهْلِ الصفاءِ غَلِيلُ(١)
وَمُدَّت أَكُفٌّ للوداعِ فَصافَحَتْ ... وَفاضَتْ عُيونٌ للفراقِ تَسِيلُ
وَلا بُدّ لِلأُلاَّفِ مِن فَيْضِ عَبْرَةٍ ... إذا ما خَليلٌ بَانَ عَنْهُ خَليلُ(٢)
فَكَمْ مِنْ دَمٍ قَدْ طُلَّ يوم تَحمّلَتْ ... أَوَانِسُ لا يُودَى لَهُنَّ قَتِيلُ(٣)
غَدَاةَ جَعَلْتُ الصبرَ شيئاً نَسِيتُهُ ... وَأَعْوَلْتُ لو أَجْدَى عَلَيَّ عَوِيلُ(٤)
وَلم أَنْسَ مِنْهَا نظرةً هَاجَ لي بِها ... هَوًى مِنْهُ بادٍ ظاهِرٌ وَدَخِيلُ
كما نَظَرَتْ حَوْرَاءُ في ظلِّ سِدْرَةٍ ... دَعَاهَا إلى ظِلِّ الكِنَاسِ مَقِيلُ(٥)
فلا وَصْلَ إلاَّ أن تلافاه أَيْنُقٌ ... عِتَاقٌ نَمَاهَا شَدْقَمٌ وجَدِيلُ(٦)
إذا قَلَّبَتْ أجفانها بِتَنُوفَةٍ ... طَوى البُعْدَ منها هِزَّةٌ وَذَمِيلُ(٧)
تَفَرَّد إسحاقٌ بِنُصْحِ أميرِه ... فَلَيْسَ لَهُ عِنْدَ الإمامِ عَدِيلُ(٨)
يُفَرِّجُ عَنْهُ الشكَّ صِدْقُ عَزِيمةٍ ... وَلُبٌّ به يَعْلُو الرجالَ أَصِيلُ
أغرّ نَجِيبُ الوالدين كأَنَّهُ ... حُسامٌ جَلَتْ عَنْهُ العُيونُ صقيلُ(٩)
بَني مُصْعَبٍ لِلمَجْدِ فيكم إذا بدتْ ... وُجُوهُكُم للناظرين دَلِيلُ
كَرُمْتُمْ فما فيكم جَبَانٌ لَدَى الوغى ... وَلا منكمُ عند العطاءِ بَخِيلُ
غَلبْتُمْ على حُسْنِ الثناءِ فَرَاقَكُمْ ... ثَناءٌ بأَفْواهِ الرجالِ جَمِيلُ

---

(١) لبانات: جمع لبانة: الحاجة، الوطر.
(٢) الألاَّفُ: المحبون يألف بعضهم بعضاً، ومفرده: آلف. وبان عنه: فارقه. والخليل: الصديق.
(٣) طُلَّ الدَّمُ: أُهْدِر. والأوانس: جمع آنسة، وهي الفتاة الجميلة التي يؤنس بها. ولا يُودَى قتيلهن: لا تُعْطى دِيَتُه.
(٤) أَعولت: بكيت.
(٥) حوراء: بيضاء، والحور في العين شدّة بياض بياضها مع شدّة سواد سوادها. السدرة: السِّدْر، وهو شجر النبق. والكناس: مولج في الشجر يأوي إليه الظبي ليستتر. المقيل: النوم في القائلة (وسط النهار).
(٦) أنيق: جمع ناقة. والعتاق: الكرائم. وشدقم وجديل: فحلان من فحولة الإبل المعروفة، كانا للنعمان بن المنذر.
(٧) التنوفة: الصحراء المترامية الأطراف. والذميل: ضرب من السير السريع.
(٨) العديل: المِثْلُ والنظير.
(٩) أَغرّ: أبيض، واضح الجبين. النجيب: الفاضل على مثله، النفيس في نوعه.

إذا اسْتَكْثَرَ الأعداءُ ما قُلْتُ فيكُم ... فَإنَّ الذي يَسْتَكْثِرونَ قَليلُ

وهذا نمط الحُذَّاق الفُحول، وقال:

وَمَدْرَجةٍ للريح غَبْرَاء لم يكُنْ ... لِيَجْشَمها زُمَّيْلةٌ غَيْرُ صَارِمِ(١)
يَضِلُّ بها السارِي وإنْ كان هادياً ... وَتقطَعُ أنفاسَ الرياحِ النَّواسِم
تَعسَّفتُ أَبْرِي جَوْزَها بِشمِلّةٍ ... بَعيدةِ ما بين العُرَى والمَحازِمِ(٢)
كأنَّ شَرَارَ المَرْوِ من نَبْذِها بِهِ ... نُجومٌ هَوَتْ إحدى الليالي العواتِمِ(٣)
إذا ضَمَّها والسَّفْرَ لَيْلٌ فَغيَّبَتْ ... دَياجيرُهُ عَنْهُمْ رُؤُوس المَعالِمِ(٤)
تَنادَوْا فصاروا تَحْتَ أَكنافِ رَحْلِها ... لِيَهْدِيهم قَدْحُ الحَصَى بالمَناسِمِ

وقال:

وَلمَّا رأَيْنَ البَيْنَ قد جَدّ جِدّهُ ... وَلم يَبْقَ إلاَّ أنْ تَبينَ الركائبُ(٥)
دَنَوْنَا فَسلَّمنا سَلاماً مُخالساً ... فَردَّتْ علينا أعينٌ وَحَواجبُ(٦)
تَصُدُّ بلا بُغْضٍ وَنَخْلِسُ لَمْحَةً ... إذا غَفلَتْ عَنَّا العُيونُ الرواقبُ
نُذَادُ إذا حُمْنَا لِنَشْفِي غلةً ... كما ذِيدَ عن وِرْدِ الحِياض الغَرَائبُ(٧)

وما أحسن ما قال أبو العباس الناشىء في هذا المعنى:

وَلمَّا رَأَيْنَ البَيْنَ زُمَّتْ رِكابهُ ... وَأيقَنَّ منا بِانْقِطاعِ المطالبِ
طَلبْنَ على الرَّكْبِ المُجِدِّين عِلَّةً ... فَعُجْنَ علينا مِنْ صُدور الركائبِ
فلما تلاقَيْنا كَتَبْنَ بِأَعْيُنٍ ... لنا كُتُباً أعْجَمْنَها بِالحواجبِ

---

(١) مدرجة الريح: مكان هبوبها، وأراد الصحراء. جَشِمَ الأمْرَ: تكلفه على مشقة، وتَجشَّم الأرض: قصد إليها. والزميلة: الضعيف الجبان الرَّذْل.
(٢) تَعسَّفْتُ: قطعت. والجَوْزُ من كل شيء: وسطه. والشِّمِلَّةُ: الناقة الخفيفة السريعة. والمحازم: جمع مِحْزَم: الحزام: ما حُزِم به من حبل ونحوه.
(٣) المرو: حجارة بيض براقة توري النار إذا قدحت.
(٤) السَّفْرُ: المسافرون.
(٥) البين: الفرقة والهجر. وبان منه، وعنه بَيْناً وَبُيُوناً وبينونةً: بَعُدَ وانفصل.
(٦) خلس الشيء خَلْساً: استلبه في نُهْزَةٍ ومخاتلة.
(٧) نُذَادُ: نُمْنَعُ، نُدْفَعُ. حُمْنا: طُفْنَا.

فَلمـا قَـرأنـاهُـنَّ سِـرًّا طَـوِيْنَهـا حِذَار الأعادي بازْوِرَارِ المناكبِ[١]

وقال إسحاق:

ألا مَـنْ لِقَلْـبٍ لا يَـزالُ رَمِيّـةً لِلَمْحَـةِ طَـرْفٍ أو لِكَسْـرَةِ حَـاجِـبِ
وَلِلخُمُـر الـلاتـي تَسـاقَـط لَـوْثُهـا فُتُور الخطا عَنْ وَارِدَات الذوَائبِ[٢]

[استطراد في ذكر جمال الذوائب]

لابن المعتز

وعلى ذكر الذوائب قال ابن المعتز:

سَقَتْنِـيَ فـي لَيْـلٍ شَبيـهٍ بِشَعْـرِهـا شَبيهَـةَ خَـدَّيْهَـا بِغَيْـرِ رَقيـبِ
فَأَمْسَيْتُ في لَيْلَيْنِ بالشَّعْرِ والدُّجَىٰ وَخَمْـرَيْـنِ مـن راحٍ وخَـدٍّ حَبيـبِ

لابن النطاح

وقال بكر بن النطاح:

بَيْضَـاءُ تَسْحَـبُ مِنْ قِيامِ شَعْـرَهـا وَتَغيـبُ فيـه وَهْـوَ جَثْـلٌ أَسْحَـمُ[٣]
فَكَـأَنَّهـا فيـه نَهـارٌ مُبْصِـرٌ وَكَـأَنَّـهُ لَيْـلٌ عليهـا مُظْلِـمُ

للمتنبي

وقال المتنبي:[٤]

نَشَـرَتْ ثـلاثَ ذَوائـبٍ مِـن شَعْـرِهَـا فـي لَيْلَـةٍ فَـأَرَتْ لَيـالـيَ أَرْبَعـا[٥]

---

(١) ازْوَرَّ عنه: مال وانحرف.

(٢) الخُمُرُ: جمع خِمار، وهو ثوب تغطي به المرأة رأسها، والخمار: العِمامة. ولوث الخمار: التفاف بعضه على بعض، يقال: لاث العِمامة: لَفَّها وعصبها، ولاث الشجر لوثاً: لبس بعضه بعضاً والتفَّ بعضه ببعض. والوارد من الشعر: الطويل المسترسل يرد الكفل لطوله.

(٣) الجَثْلُ: الكثير أو الكثيف، يقال: جثل الشجر والنبات والشعر جَثالةً وَجُثُولةً: طال وغلظ والتف، فهو جَثِيلٌ وَجَثْلٌ. والأسحم: الأسود.

(٤) المتنبي، الديوان: ٢/ ٢٤٩. والبيتان من قصيدة يمدح بها عبد الواحد بن العباس بن أبي الإصبع الكاتب.

(٥) الذوائب: جمع ذؤابة، وهي الخصلة من الشعر. يقول: صارت تلك الليلة بذوائبها الثلاث أربع ليالٍ، لأن كل ذؤابة منها كأنها ليلة لسوادها.

وَاستقبلَتْ قَمرَ السماءِ بِوَجْهِهَا فَأَرَتْنِيَ القمَرَيْنِ في وَقْتٍ مَعَا

لابن الرومي

وقال ابن الرومي:(١)

وَفَاحِمٍ وَاردٍ يُقَبِّلُ مَمْـ ـشاه إذا اختال مُسْبِلاً غُدُرَهْ(٢)
أقْبَلَ كالليلِ في مَفَارِقِهِ مُنْحَدِراً لا يُرَام مُنْحَدَرُهْ(٣)
حتى تناهَى إلى مواطِئِهِ يَلْثُمُ من كلِّ مَوْطِىءٍ عَفَرَهْ
كأنهُ عَاشِقٌ دَنَا شَغَفاً حتّى قَضَى مِنْ حَبِيبِهِ وَطَرَهْ(٤)
يُغْشِي غَوَاشِي قُرونِهِ قَدَماً بَيضاءَ للناظرين مُقْتَدِرَهْ(٥)
مِثلُ الثريّا إذا بَدَتْ سَحَراً بَعْدَ غَمَامٍ وَحاسِرٍ حَسَرَهْ

لمحمد بن مطران

أخذه بعض أهل العصر ـ وهو محمد بن مطران ـ فقال:

ظِبَاءٌ أَعَارَتْهَا الظّبَا حُسْنَ مَشْيِها كما قد أَعارَتهَا العُيونَ الجآذِرُ(٦)
فَمِنْ حُسْنِ ذاك المشي قَامَتْ فَقبَّلَتْ مَواطىء مِنْ أَقْدامِهنَّ الغَدائِرُ

وقال مسلم بن الوليد:

أجِدّكِ هَلْ تَدرينَ أنْ رُبَّ لَيْلَةٍ كَأَنَّ دُجَاهَا من قُرونِكِ يُنْشَرُ
نَصَبْتُ لها حَتَّى تَجلَّتْ بِغُرَّةٍ كَغُرَّةِ يَحيى حِينَ يُذْكَرُ جَعْفَرُ(٧)

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٣/ ٤١ ـ ٤٢. والأبيات من قصيدة قالها في سالم بن عبد الله بن عمر.
(٢) الفاحم: الشديد السواد. الغُدُرُ: جمع غديرة، وهي الذؤابة. وفي الديوان: «مُسْبِلاً عُذَرَهْ»، والعُذَر: جمع عذرة، وهي الخصلة من الشعر، وقيل: العُذر: شعرات ما بين القفا إلى وسط العنق، واحدتها عذرة.
(٣) في الديوان: «من مفارقه»، و«لا تَذِمُّ مُنْحَدَرَهْ». والمنحدر: الانحدار.
(٤) الوطر: الحاجة.
(٥) في الديوان: «تغشى غواشي قُرونه».
(٦) الجآذر: جمع جؤذر، وهو ولد البقرة الوحشية.
(٧) نصب: سَوَّى حيلةً، ونصب عليه: احتال، ومنه: نصب الأمر فلاناً: أتعبه وأعياه. الغُرَّةُ من الرجل: وجهه، ومن الفرس: بياض في جبهته، والغُرَّةُ من كل شيء: أوّلُه وأكرمه.

[وَحْدة القصيدة واتساقها]

قال الحاتمي: مَثَلُ القصيدةِ مَثَلُ الإنسان في اتِّصَالِ بعض أعضائه ببعض؛ فمتى انفصلَ واحدٌ عن الآخر وَبايَنَهُ في صحَّةِ التركيب، غادر الجسمَ ذا عاهَةٍ تتخوَّنُ[١] محاسنَهُ، وتُعَفِّي معالِمَهُ؛ وقد وجدت حُذَّاقَ المتقدّمين وأربابَ الصناعةِ من المُحْدَثين يحترسون في مثل هذا الحال احتراساً يُجنِّبُهم شوائبَ النقصان، ويقفُ بهم على محَجَّةِ الإحسان، حتى يقعَ الاتِّصَالُ، ويُؤْمَن الانفصال، وتأْتِي القصيدةُ في تَنَاسُب صدورها وأعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة، والخُطْبَة الموجَزَة، لا ينفصلُ جزءٌ منها عن جزء، وهذا مذهبٌ اختصَّ به المُحْدَثون؛ لتوقّدِ خواطرهم، ولُطْفِ أفكارِهم، واعتمادهم البديع وأفانينه في أشعارهم، وكأنه مذهبٌ سهّلُوا حَزْنَهُ[٢]، ونهجوا رَسْمَهُ؛ فأمَّا الفحول الأوائل، ومَنْ تَلَاهُمْ منَ المخضرمين والإسلاميين فمذهبُهم المُتَعالم «عَدِّ عن كذا إلى كذا»[٣] وقُصَارَى كلِّ واحدٍ منهم وَصْفُ ناقتِه بالعِتْق، والنَّجَابة والنجاء[٤]، وأنه امتَطَاها؛ فادّرع عليها جِلْبَابَ اللّيل؛ وربما اتَّفق لأحدِهم معنى لطيف يتخلّص به إلى غرضٍ لم يتعمّده إلا أن طبعه السليم، وصِراطه في الشعر المستقيم، نصبا مَنَارَه، وأوقدا باليفاع نارَه[٥]؛ فمِنْ أحسن تَخلُّص شاعر إلى معتمده قولُ النابغة الذبياني:[٦]

فَكَفْكَفْــتُ مِنّــي عَبْــرَةً فَــرَدَدْتُهــا   علـى النَّحْـرِ منهـا مُسْتَهِـلٌّ ودَامِـعُ[٧]

---

(١) تتخوّن محاسنه: تنقصها.

(٢) الحزن: ضد السهل.

(٣) من ذلك قول زهير بن أبي سلمى يتخلص من النسيب إلى المدح، في قصيدة يمدح بها هرم بن سنان:

دَعْ ذا وَعــدِّ القَــوْلَ فــي هَــرِمٍ   خَيْـــرِ البُــدَاةِ وَسَيِّـــدِ الحَضَـــرِ

(ديوانه: ص ٢٧).

(٤) العِتْقُ: النجابة والكرم. والنجابة: النباهة وظهور الفضل على المثل، ونجائب الإبل: خيارها. والنجاء: السرعة، والناجية من الإبل: السريعة.

(٥) اليفاع: المرتفع من كل شيء، يكون في المشرف من الأرض، والجبل، والرمل، وغيرها.

(٦) النابغة الذبياني، الديوان: ص ٧٩، والأبيات من قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه، ويهجو مرة بن ربيع بن قريع.

(٧) كفكف الدمع: مسحه. العبرة: الدمعة. المستهل: السائل المنصب. الدامع: الذي يرافق الدمعة في الخروج من العين.

على حِينَ عاتبتُ المشيبَ على الصِّبَا وَقُلْتُ: أَلَمَّا أَصْحُ والشَّيْبُ وَازِعُ[١]
وَقـدْ حَـال هَـمٌّ دُونَ ذلِـكَ شـاغِـلٌ مَكـانَ الشِّغـافِ تَبْتَغِيـه الأصـابِـعُ[٢]
وَعيـدُ أبـي قـابـوسَ فـي غيـرِ كُنْهِـهِ أتاني وَدُوني رَاكِسٌ فالضَّواجعُ[٣]

وهذا كلام متناسخ[٤] تقتضي أوائلُه أَواخره، ولا يتميز منه شيء عن شيء:

أَتـانـي، أَبَيْـتَ اللعـنِ، أَنَّـكَ لُمْتَنِـي وَتِلْكَ التي تَسْتَكُّ منها المَسَامِعُ[٥]
مَقَـالَـةَ أَنْ قَـدْ قُلْـتَ سَـوْفَ أَنـالُـهُ وَذلِـك مِـن تِلْقَـاءِ مِثْلِـكَ رائِـعُ[٦]

ولو توصَّل إلى ذلك بعضُ الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعاني، وفتحوا أبوابَ البديع، واجتنوا ثمرَ الآداب، وفتَحُوا زَهْرَ الكلام لكان معجزاً عجباً، فكيف بجاهلٍ بَدَوي إنما يغترفُ من قليب قَلْبِه، ويستمدُّ عفوَ هاجسه.

وقال عليّ بن هارون المنجم عن أبيه: لم يتوصل أحدٌ إلى مدح بمثل قول ابن وهيب:

مـــا زالَ يُلْثِمُنِـــي مَـــراشِفَـــهُ وَيُعِلُّنِـــي الإبـــريـــقُ والقَـــدَحُ[٧]
حَتَّـــى اسْتَـــرَدَّ الليـــلُ خُلْعَتَـــهُ وَبَـــدَا خِـــلاَلَ ســـوادِه وَضَـــحُ[٨]
وَبَـــدا الصبـــاحُ كـــأَنَّ غُـــرَّتـــهُ وَجْـــهُ الخليفـــةِ حيـــنَ يُمْتَـــدَحُ

وقال عليّ بن الجهم:

وَلَيْلَـــةٍ كَحلـــتْ بـــالنَّقْـــسِ مُقْلَتَهـــا أَلْقَتْ قِنَاعَ الدُّجى فِي كُلِّ أُخْدُودِ[٩]

---

(١) صحا: أفاق. الوازع: الكاف الزاجر عن اللهو.
(٢) الشغاف: حجاب القلب.
(٣) كُنْهُهُ: حقيقته، وفي غير كنهه: أي على غير ذنب مني. راكس: واد. الضواجع: منحنى الوادي.
(٤) لعله أراد: «متناسق».
(٥) تستك: تضيق. يقول: أتتني عنك ملامة تمنيت أن أكون أصمّ ولا أسمعها.
(٦) الرائع: المفزع المخيف.
(٧) المراشف: جمع مرشف: موضع الرشف: الثغر أو الشفاه. والعَلَلُ: الشرب الثاني، يقال: شرب عللاً بعد نهل.
(٨) الوضح: البياض.
(٩) النِّقْسُ: المداد. الأخدود: الشقُّ المستطيل في الأرض.

قَـدْ كـادَ يُغْـرِقُنـي أمـواجُ ظُلْمَتِهـا لَوْلاَ اقتباسي سَنَا وَجْهِ ابنِ دَاوُدِ[(١)]

قوله: «كحلَتْ بالنِّقْس مقلتها» مأخوذ من قول أعرابي: «والليل قد صَبَغَ الحصَى بمِدَادِ».

وقد أخذ هذا أبو نواس فقال:[(٢)]

أَبِنْ لـي كَيْفَ صِرْتَ إلى حَرِيمي وَجَفْـنُ الليـلِ مُكْتَحِـلٌ بِقَـارِ[(٣)]

وقد أخذ هذا أبو تمام فقال:[(٤)]

إليْـكَ هَتَكْنَـا جُنْـحَ لَيْـلٍ كَـأَنَّـهُ قَـد اكْتَحلَـتْ مِنْـهُ البـلادُ بـإثمِـدِ[(٥)]

وقد أَخذ لفظَ الأعرابي المتقدم أبو نواس فقال:

قَـدْ أَغتـديَ واللَّيْـلُ كـالمِـدَادِ والصُّبْـحُ يَنْفِيـه عـن البـلادِ

طَـرْدُ المشيـبِ حَـالِـكَ السَّـوادِ

وإنما نظرَ في هذا إلى قول الأعرابي:[(٦)]

أقـول والليـلُ قَـدْ مـالَـتْ أواخِـرُه إلى الغـروبِ: تـأمَّـل نَظْـرَةً حَـارِ[(٧)]

أَلمحـةٌ مِـنْ سَنـا بَـرْقٍ رأَى بَصَـري أَمْ وَجْـهُ نُعْـمٍ بَدا لـي أم سَنَـا نَـارِ[(٨)]

بَـلْ وَجْـهُ نُعْـمٍ بَـدَا والليـلُ مُعْتكِـرٌ فَـلاحَ مـا بَيْـنَ حُجَّـابٍ وأَسْتَـارِ[(٩)]

---

(١) قبس النار: طلبها، وقبس العلم: استفاده. وَقَبَسَ الرجلَ علماً أو نوراً: أفاده إياه، ويقال: جئت لأقتبس من أنوارك، وفي التنزيل العزيز: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ (سورة الحديد، آية ١٣). والسَّنا: الضوء الساطع، وضوء البرق، وضوء القمر، وفي التنزيل العزيز: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾. (سورة النور، آية ٤٣).

(٢) أبو نواس، الديوان: ص ٧٧.

(٣) القار: الزفت.

(٤) أبو تمام، الديوان: ٢٥٣/١. والبيت من قصيدة مدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغري الطائي.

(٥) الإثمد: حجر الكحل.

(٦) الأبيات للنابغة الذبياني، أنظر ديوانه: ص ٥٠، والجمهرة لأبي زيد القرشي: ٢١١/١.

(٧) يا حار: أراد يا حارث فرخم الثاء. وفي الديوان: «تَثَبَّت نظرةً حارِ»، وفي الجمهرة: «تَبَيَّن نَظْرَةً»، وفيهما: «إلى المغيب».

(٨) سنا البرق: لمعانه، وسنا النار: ضوءها.

(٩) في الديوان والجمهرة: «فلاح من بين أثواب وأستار».

ومن بديع الخروج قول عليّ بن الجهم وذكر سحابةً:

وَسارِيةٍ تَزْدَارُ أرضاً بِجَوْدِها ... شَغَلْتُ بها عَيْناً طَويلاً هُجودُها[١]
أَتَتْنَا بها ريحُ الصَّبَا فكأنها ... فتاةٌ تُرجِّيها عجوزٌ تَقُودُها
فما بَرِحَتْ بغدادَ حتى تَفجّرت ... بِأَوديةٍ ما تَسْتَفيقُ مُدُودُها][٢]
فَلما قَضَتْ حَقَّ العراقِ وَأَهْلَهُ ... أتاها من الريح الشمالِ يَريدُها
فَمرَّتْ تَفُوتُ الطَّيرَ سَبْقاً كأنَّها ... جُنودُ عُبَيْدِ اللّهَ وَلَّتْ بُنُودُها[٣]

يريد انصراف أصحاب عبيدالله بن خاقان عن الجعفريّ إلى سُرّ من رأى عند قتل المتوكل. وقد أخذ هذا التشبيه معكوساً من قول أبي العتاهية:

وَرايـاتٍ يَحُلُّ النصرُ فيها ... تَمُرُّ كأنَّها قِطَعُ السحابِ

وقال ديك الجنّ:[٤]

وَغَريرٍ يقضي بِحُكْمَيْن: في الرا ... ح يَجُورُ، وفي الهوى بِمُحَالِ[٥]
لِلنقا رِدْفُهُ، ولِلخُوطِ ما حُـ ... ـمِّل ليناً، وَجِيدُه لِلغزالِ[٦]
فَعَلَتْ مُقْلَتاه بالصَّبِّ ما تَفْـ ... ـعَلُ جَدْوَى يَدَيْكَ بِالأَمْوَالِ[٧]

ومن بارع الخروج قول المتنبي:[٨]

مَرّتْ بِنَا بَيْن تِرْبَيْهَا فَقُلْتُ لها: ... مِنْ أَيْنَ جانَسَ هذا الشادِنُ العرَبَا[٩]

---

(١) السارية: السحابة المسائية. تزدار: تطلب الزيارة. الجود: المطر. الهجود: النوم.
(٢) المدود: جمع مدّ: السيل.
(٣) البنود: الأعلام والرايات.
(٤) هو أبو محمد، عبد السلام بن رغبان، الملقب بديك الجن: شاعر ماجن خليع، ولد بحمص، وشعره متفاوت في الجودة. توفي سنة ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٤/ ٤٩؛ ابن خلكان، وفيات الأعيان: ٣/ ١٨٤).
(٥) الغرير: الشاب لا تجربة له.
(٦) النقا: كثيب الرمل. والخوط (بالضم): الغصن الناعم الرقيق.
(٧) الجدوى: العطية.
(٨) المتنبي، الديوان: ١/ ٢٢٣. والبيتان من قصيدة مدح بها المغيث بن علي بن بشر العجلي.
(٩) الترب: المساوي لغيره في العمر، يستعمل للمذكر والمؤنث. والشادن: الغزال الذي قوي واستغنى عن أمه، يريد به المحبوبة.

فَاسْتَضْحَكَت ثم قَالَتْ كَالمُغيثِ يُرَى لَيْثَ الشَّرَى وَهْوَ مِنْ عِجْلٍ إذا انتسبا(١)

واشتهار شعره، يمنعني من ذكره.

[السر في الابتداء بالنسيب]

قال ابن قتيبة:(٢) «سمعت بعضَ أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيدة إنما ابتدأ بوصف الديار والدِّمَنِ والآثار؛ فبكى وشكا، وخاطَبَ الربع، واستوقف الرفيق؛ ليجعلَ ذلك سبباً لِذكْرِ أهله الظاعنين؛ إذ كانت نازلةُ العمد في الحلول والظَّعن على خلاف ما عليه نازلة المَدَرِ(٣)؛ لانتقالهم من ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكَلأ، وتتبُّعهم مساقِطَ الغيث حيثُ كان؛ ثم وصل ذلك بالنسيب، فبكى شدَّة الوجد، وألم الصبابة والشوق؛ لِيُمِيلَ نحوه القلوب، ويَصْرِف إليه الوجوه، ويستدعي إصغاءَ الأسماع؛ لأن النسيب قريبٌ من النفوس، لائط بالقلوب(٤)، لما جعل الله تعالى في تركيب العباد من محبَّةِ الغزل، وإلْف النساء، فليس أحدٌ يخلو من أن يكونَ متعلقاً منه بسبب، وضارباً فيه بسهم، حلال أو حرام. فإذا استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له؛ عَقَّب بإيجاب الحقوق؛ فرحل في شعره، وشكا النَّصَبَ والسهر، وسُرَى الليل [وحر الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذِمام التأميل]، وقرّر عنده ما ناله من المكارِه في المسير، بدأ في المديح فبعثه على المكافأة، وفَضَّله على الأشباه، وصغّر في قدره الجزيلَ، وهزّه لفعل الجميل؛ فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً أغلب على الشعر، ولم يطل فيُمِلّ السامعين، ولم يقطع وفي النفوس ظمأ إلى المزيد»(٥).

---

(١) استضحكت: بمعنى ضحكت. المغيث: اسم الممدوح، والليث: الأسد. والشرى: موضع تكثر فيه الأسود. وعجل: قبيلة الممدوح.

(٢) هو أبو محمد، عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري: عالم مشارك في أنواع من العلوم كاللغة، والنحو، وغريب القرآن، والشعر، والأخبار، وغير ذلك. سكن بغداد وحدَّث بها، وولي قضاء دينور. من آثاره: «الشعر والشعراء»، و«عيون الأخبار»، و«أدب الكاتب»، وغيرها. توفي سنة ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م. (كحالة، معجم المؤلفين: ٦/ ١٥٠).

(٣) نازلة العمد: البدو (سكان الخيام). المَدَرُ: سكان البيوت المبنية.

(٤) لائط بالقلوب: لاصق بها.

(٥) ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/ ٢٠ ـ ٢١.

[موازنة بين أبي تمام والبحتري]

ويتعلق بهذه القطعة ما حدَّث به الحاتمي عن نفسه، وإن كانت الحكاية طويلة فهي غيرُ مملولة؛ لما لَبِسَتْه من حُلَل الآداب، وَتَزَيَّنَتْ به من حُلى الألباب، قال: جمعني ورجلاً من مشايخ البصرة ممن يُومَأ إليه في علم الشعر مجلسُ بعضِ الرؤساء، وكان خبره قد سبق إليّ في عصبيّته للبحتري، وتفضيله إياه على أبي تمام، ووجدت صاحبَ المجلس مؤثراً لاستماع كلامنا في هذا المعنى، فأنشأتُ قولاً أنحيْتُ فيه على البحتري إنحاءً أسرفْتُ فيه[١]، واقْتَدَحْتُ زِنادَ الرجل، فتكلّم وتكلّمْتُ، وخُضْنَا في أفانين من التفضيل والمماثلة، غلوتُ في جميعها غلواً شهده جميع من حضر المجلس، وكانوا جلّة الوقت، وأعيان الفضل، فاضطر إلى أن قال: ما يحسن أبو تمام يبتدىء، ولا يخرج، ولا يختم، ولو لم يكن للبحتري عليه من الفضل إلا حسن ابتداءاته، ولطفُ خروجه، وسرعة انتهائه، لوجب أن يقَع التسليمُ له، فكيف بأوَابده[٢] التي تزدادُ على التكرار غَضَارة وجِدّة ثم أقبل عليّ، فقال: أين يُذهب بك عن ابتدائه:[٣]

عَـارَضْنَـا أُصُـلاً فَقُلْنَـا الـرَّبْـرَبُ ... حَتَّـى أضـاءَ الأُقحـوانُ الأَشْنَـبُ[٤]

وَاخْضَـرَّ مَـوْشِـيُّ البـرودِ وَقـد بَـدَا ... مِنْهُـنَّ دِيبـاجُ الخُـدودِ المُـذْهَـبُ

وأنّى لأبي تمام مثل خروجه حيث يقول:[٥]

أَدارَهُـمُ الأُولـى بِـدَارَةِ جُلْجُـلٍ ... سَقـاكِ الحيَـا رَوْحَـاتُـهُ وَبَـواكِـرُهْ[٦]

وَجـاءَكَ يحكـي يُـوسُـفَ بنَ مُحمـدٍ ... فَـرَوَّتْـكَ رَيَّـاهُ وَجَـادَكَ مَـاطِـرُهْ

وقد كرر هذا وزاد فيه فقال:[٧]

---

(١) نحا إلى الشيء: مال إليه، وأنحى عليه: أقبل، يقال: أنحى عليه ضرباً، وأنحى عليه باللوم.

(٢) أوابد الكلام: عجائبه وغرائبه.

(٣) البحتري، الديوان: ٢/٣١٧. والبيتان مطلع قصيدة مدح بها إسحاق بن إبراهيم.

(٤) الأُصُل: جمع الأصيل: الوقت بعد العصر إلى المغرب. الربرب: القطيع من بقر الوحش. الأقحوان: زهر أبيض مفلج تشبه به الأسنان. الأشنب: من الشنب: الرقة والعذوبة في الأسنان.

(٥) البحتري، الديوان: ١/٢٨٣، والبيتان من قصيدة مدح بها يوسف بن محمد.

(٦) الحيا: المطر. روحاته: دفعاته المسائية، وبواكره: ما يسقط منه أول النهار (في الصباح الباكر).

(٧) البحتري، الديوان: ١/١٣١. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا صالح.

تَنصَّبَ البرقُ مُخْتَالاً فَقُلْتُ لَهُ: لَوْ جُدْتَ جُودَ بني يَزْدانَ لم تَزِدِ

ومن ذا الذي لَطُف لأن يخرج من وصف روض إلى مدح، فقال أحسن من قوله:

كأنَّ سَنَاها بالعشيِّ لِصَحْبِها تَبَلُّجُ عِيسَى حِينَ يَلْفِظُ بالوَعْدِ(١)

وأنَّى لأبي تمام مثلُ حسن انتهائه حيث يقول:(٢)

إليكَ القوافي نازعاتٍ شواردا يُسَيِّرُ ضَاحِي وَشْيِها وَيُتَمَّمُ

وَمُشْرِقَةٍ في النظم غَرًّا يَزيدُها بَهاءً وَحُسْناً أَنَّها لَكَ تُنْظَمُ

وقوله في هذا المعنى:(٣)

ألستُ المُوالِي فيكَ نَظْمَ قصائدٍ هي الأنجُمُ اقتادَتْ مع الليلِ أَنْجُمَا

ثَناءً تَخَالُ الروضَ فيه مُنَوِّرا ضُحًى، وَتخالُ الوَشْيَ فيه مُنَمْنَما(٤)

ولقد تقدم البحتري الناسَ كلهم في قوله:(٥)

لو أَنَّ مُشْتاقاً تَكَلَّفَ فَوْقَ ما في وُسْعِهِ لَسَعى إليكَ المِنْبَرُ

قال أبو علي: وكنت ساكناً إلى أن استتم كلامه، فكأنَّ الجماعة أعجبهم ذلك، عصبيةً عليّ لا عَلَى أبي تمام؛ لأني كنت كالشَّجَى معترضاً في لَهَوَاتِهم، وأَسرَّ كلّ واحد منهم إلى صاحبه سرًّا يومىء به إلى استيلاء الرجل عَليَّ؛ فلما استتم كلامه وبرقت له بارقةُ طمع في تسليمي له ابتدأت فقلت: لست ممن يُقَعْقَعُ له بالشِّنَان، ولا يُقْرَع له بالعصا، لا إلٰهَ إلا الله! استنَّت الفصالُ حتى القَرْعَى! هل هذه المعاني إلا عُونٌ مُفْتَرَعة(٦)، قد تقدم أبو تمام إلى سَبْكِ نُضَارها، وافتضاض أبكارها، وجرى البحتري على وَتِيرته في انتزاع أمثالها واتباعها، فأمّا قوله: «عَارَضْنَنَا أصلاً فقلنا الربرب»، فمن قول أبي جُوَيْرِيَة العبدي:

سَلَّمْنَ نَحْوِي للوداعِ بِمُقْلَةٍ فَكَأَنَّما نَظَرَتْ إلينا الرَّبْرَبُ

---

(١) سناها: ضوءها. وتبلجه: إشراق وجهه.

(٢) البحتري، الديوان: ١/ ١١٣. والبيتان من قصيدة مدح بها الفتح بن خاقان.

(٣) البحتري، الديوان: ١/ ١٠٩. والبيتان من قصيدة مدح بها الفتح بن خاقان وعاتبه.

(٤) المنور: المزهر. وفي الديوان: «وكأن الوشي فيه مُسَهَّما»، والمسهم: المخطط بخطوطٍ كالسهام.

(٥) البحتري، الديوان: ١/ ٢٤. والبيت من قصيدة مدح بها المتوكل العباسي.

(٦) العون من النساء: غير البكر. وافترع البكر: افتضّها.

وَقَرأْنَ بالحدَقِ المِرَاضِ تحيةً كَادَتْ تُكلّمنا وإن لم تُعرِب

وأما قوله في صفة الغيث مخاطباً للدار: «وجاءك يحكي يوسف بن محمد»

وقوله في هذا المَعْنَى: «لوجدت جود بني يزدان لم تزد» فمن قول أبي تمام:(١)

وَلِنُؤْيِها في القلبِ نُؤْيٌ شَفَّهُ وَلَهٌ بِظَاعِنِها وبالمتخلّفِ(٢)

وَكأنما اسْتَسْقَى لَهُنّ مُحمّدٌ مِنْ سَوْمِهِنَّ مِنَ الحَيا في زُخْرُفِ(٣)

ومن قوله الذي تقدم فيه كلّ أحد لفظاً رشيقاً ومعنى رقيقاً(٤).

دِيمةٌ سَمْحةُ القِيادِ سَكُوبُ مُستغيثٌ بها الثَّرَى المَكْرُوبُ(٥)

لَوْ سَعَتْ بُقْعَةٌ لإعْظَامِ نُعْمَى لَسعَى نَحْوَها المكانُ الجَديبُ

ومن هنا أخذ البحتري: «لسعى إليك المنبر».

[أيها الغَيْثُ حَيِّ أَهْلاً بِمغْدا كَ وَعِنْدَ السُّرى وَحينَ تَؤُوبُ(٦)

لأَبي جَعْفَر خَلائقُ تَحْكيـ ـهنّ قَدْ يُشْبِهُ النَّجيبَ النجيبُ(٧)

أَنتَ فينا في ذا الأوان غَريبٌ وَهْوَ فينا في كُلّ وقتٍ غَريبُ]

وأما قوله:

كأنَّ سناها بِالعَشيِّ لِصَحْبِها تَبَلُّجُ عِيسَى حِينَ يَلْفُظُ بالوَعْدِ

فإنما نَظر فيه إلى قول دِعْبِل بن علي:

وَمَيْثَاءَ خضراء زرْبِيّة بها النَّوْر يَلْمَعُ في كُلِّ فَنْ(٨)

---

(١) أبو تمام، الديوان: ١/ ٤٣١. والبيتان من قصيدة مدح بها محمد بن عبد الملك الزيات.

(٢) النؤي: الحفير حول الخيمة يمنع السيل. شَفَّه: زاده حرقاً. الوَلَهُ: الولوع، شدة الحب. الظاعن: المفارق. المتخلف: الباقي.

(٣) في الديوان: «فَرُسُومُهنَّ من الحَيا في زُخْرُفِ». الحيا: المطر. زخرف: نقوش وزينة لكثرة الأزهار فيها.

(٤) أبو تمام، الديوان: ١/ ١٧٩. والبيتان من قصيدة مدح بها محمد بن الهيثم بن شُبانة.

(٥) الديمة: السحابة الممطرة. سمحة القياد: أراد: تسمح بمطرها في سهولة. سكوب: كثيرة السكب، وسكب الماء: صَبَّهُ. المكروب: المهموم.

(٦) مَغْداكَ: مجيئك غدوة. السُّرى: السير في الليل.

(٧) خلائق: طبائع، الواحدة خليقة. تحكيهن: تشبههنّ. النجيب: السخي الكريم، الكريم الحسب.

(٨) الميثاء: الأرض السهلة اللينة، وزربية: اخضر نبتها واصفر واحمر.

ضَحُوكاً إذا لاَعبَتْهُ الرياحُ تَأوَّد كالشارِب المُرْجَحِنْ[(١)]
فَشبّهَ صَحْبِي سَنا نَوْرِها بديباجِ كِسْرَى وَعَصْبِ اليمنْ
فَقُلْتُ: بَعُدتُمْ، وَلكنني أُشبههُ بِجَنابِ الحَسَنْ
فَتى لا يرى المالَ إلا العطاءَ وَلا الكنز إلاّ اعتقادَ المِنَنْ

وأما قوله في صفة الغواني «يُسَيِّر ضَاحي وَشْيها وَيُنَمْنِمُ» وقوله في وصفها: «وتخال الوشي فيه منمناً» فمن قول أبي تمام:[(٢)]

حَلّوا بها عُقَد النسيبِ، وَنَمْنَمُوا مِنْ وَشْيها نَثْراً لها وَقَصِيدا[(٣)]

ومن قوله الذي أبدع فيه:[(٤)]

وَواللَّهِ لا أَنفكّ أُهدِي شَوارداً إليكَ تَحمّلنَ الثناءَ المُنَخَّلاَ[(٥)]
تَخالُ به بُرْداً عَلَيْكَ مُحبَّراً وَتَحْسَبُهُ عِقْداً عَلَيْكَ مُفصَّلاَ[(٦)]
ألذَّ من السَّلْوى وأَطيبَ نَفْحَةً مِنَ المِسْكِ مَفْتُوقاً وأَيسرَ مَحْملاَ
أَخفَّ على قلبي وأثقلَ قِيمَةً وَأقْصَرَ في قلبِ الجليس وَأَطْولاَ

وقول البحتري:

هِيَ الأَنْجُمُ اقتادَتْ مع الليل أَنْجُمَا

مأخوذ من قول أبي تمام مقصراً عنه كلَّ تقصير عن استيفاء إحسانه حيث يقول:[(٧)]

أَصِخْ تَسْتَمِعْ حُرَّ القوافِي؛ فإنها كَواكبُ إلاّ أَنَّهُنَّ سُعُودُ
وَلا تُمْكِن الإخلاقَ منها فَإنما يَلَذُّ لِباسُ البُرْدِ وَهْوَ جَديدُ[(٨)]

---

(١) ارْجَحَنَّ: ثَقُلَ ومال واهتزَّ.
(٢) أبو تمام، الديوان: ١/٢٢٨. والبيت من قصيدة مدح بها خالد بن يزيد بن مزيد الشيباني.
(٣) نمنموا: نقشوا، زخرفوا. وفي الديوان: «من وَشْيها حُلَلاً لها وقصيدا».
(٤) أبو تمام، الديوان: ٢/٥١. والأبيات من قصيدة مدح بها محمد بن عبد الملك الزيات.
(٥) الشوارد: القصائد السيَّارة. المُنخَّل: المنتخب. وفي الديوان: «يُحَمَّلْنَ».
(٦) البُرْدُ المُحبَّرُ: الثوب المنقوش.
(٧) أبو تمام، الديوان: ١/٢٢٥.
(٨) لباس البرد: لبسه، استعار الاسم للمصدر.

فهذه خصال صاحبك فيما عددتَه من محاسنه التي هتكت بها ستور عَوَاره، ونَشَرْت مطوى أسرارِه، حتى اسْتَوْضَحت الجماعة أنَّ إحسانَه فيها عارية مُرتجعة، ووديعة مُنتزَعة، فاسمع ما قال أبو تمام في نحو أبياتِك التي أوجبتِ الفضل لصاحبك حين قال مبتدئاً:(١)

لا أَنْتِ أَنْتِ، ولا الديارُ ديارُ خَفَّ الهوَى، وَتقضَّتِ الأوطارُ(٢)
كَانَتْ مُجاورةُ الطلولِ وَأهلها زَمناً عِذَابَ الوِرْدِ فَهي بِحَارُ(٣)

وقوله:(٤)

رَقَّتْ حَوَاشِي الدهرِ فَهْيَ تَمَرْمَرُ وَغدا الثَّرَى في حَلْيِه يَتكسَّرُ(٥)

وقوله:(٦)

أرأَيتَ أيَّ سوالفٍ وَخُدودِ عَنَّتْ لنا بين اللّوى وَزَرُودِ(٧)

وهَل يستطيعُ أحدٌ أن يتبدىء بمثل ابتدائه:(٨)

طَلَلَ الجميع لقد عَفَوْتَ حَميدا وَكفَى على رُزْئي بِذَاكَ شهيدَا(٩)
دِمَنٌ كأن البَيْنَ أَصْبَحَ طالباً دِمَناً لدى آرامِها وحقودا(١٠)

---

(١) أبو تمام، الديوان: ١/ ٣٢١. والبيتان من قصيدة مدح بها أبا سعيد الثغري.
(٢) تولّت: ذهبت. الأوطار: الحاجات، مفردها وطر. يقول: لست أنت بالمرأة التي أعرفها، ولا هذه الديار التي أعهدها، فقد ارتحل الهوى وذهبت الأوطار.
(٣) أي: لما كان أهل الطلول فيها، كانت مجاورتها عذاباً لنا، فلما رحلوا عنها، صارت مجاور الطلول بعدهم بحاراً، أي مالحةً.
(٤) أبو تمام، الديوان: ١/ ٣٣٣. والبيت هو مطلع قصيدة مدح بها الخليفة المعتصم.
(٥) الحواشي: جمع حاشية، وهي طرف كلّ شيء؛ ورقّت حواشي الدهر: أي صار الدهر رغداً. تمرمر: تهتزّ وتتمايل ليناً ونعمة. الحلي: الزينة. يتكسَّر: يتثنّى. وقوله: «وغدا الثرى يتكسر»: أي نباته يتمايل لطراوته.
(٦) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢١٨. والبيت هو مطلع قصيدة مدح بها أبا عبدالله أحمد بن أبي دؤاد.
(٧) السوالف: جمع سالفة، وهي صفحة العنق. عَنَّت: عرضت. اللّوى وزرود: موضعان.
(٨) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢٢٧. والبيت هو مطلع قصيدة مدح بها خالد بن يزيد بن مَزْيَد الشيباني.
(٩) عفوت: درست. حميداً: أي محموداً لما كُنَّا نجده فيك من المساعدة. يقول: كفى على مصابي شاهداً أَنَّ آثارك امّحت بعد أن فارقك أهلك.
(١٠) الدمن (الأولى): آثار الدار، مفردها دمنة، والدمن (الثانية): الأحقاد. الآرام: الغزلان، استعارها للنساء، ومفردها رئم. يقول: كأنّ الفراق طلب ثأراً عند ظباء هذه الدمن.

أو مثل قوله مبتدئاً:(١)

يــا دارُ دَرَّ عليــكِ إرهــامُ النَّــدى وَاهْتَــزّ رَوْضُــكِ لِلثَّــرَى فَتَــرأَّدَا(٢)
وَكُسيتِ من خِلَعِ الحيا مُسْتَأسِداً أُنفاً يُغادرُ وَحْشُهُ مُسْتأسِدَا(٣)

أو مثل قوله مبتدئاً:(٤)

غَدَتْ تستجيرُ الدمعَ خوفَ نَوَى غَدِ وَعاد قَتَاداً عِنْدَها كُلُّ مَرْقَدِ(٥)
فَأَذْرَى لها الإشفاقُ دمعاً مُورَّداً من الدمِ يجري فوقَ خدّ مُورّدِ(٦)

ولقد أحسن حين ابتدأ فقال:(٧)

نَوارٌ في صَواحبِها نَوارُ كما فَاجاكَ سِرْبٌ أَوْ صُوارُ(٨)
تَكَذَّبَ حَاسِدٌ فَنَأَتْ قُلوبٌ أَطاعَتْ وَاشِياً وَنأَتْ دِيارُ(٩)

وحيث يقول:(١٠)

ما في وُقوفِكَ سَاعةً مِنْ بَاسِ تَقْضِي ذِمام الأَرْبُعِ الأَدْرَاسِ(١١)

---

(١) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢٨٤. والبيتان هما مطلع قصيدة مدح بها أحمد بن عبد الكريم الطائي الحمصي.
(٢) الإرهام: المطر الضعيف الدائم. ترأد: تمايل.
(٣) المستأسد (الأولى): النبات الطويل المتشعب، والثانية: الذي صار مثل الأسد. الروضة الأُنُف: التي لم تُرْعَ.
(٤) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢٤٨. والبيتان من قصيدة مدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف الثغريّ الطائيّ.
(٥) في الديوان: «سَرَتْ». والقتاد: الشوك.
(٦) في الديوان: «فأجرى». والإشفاق: الخوف. أي: إن خوفها عليه من السفر، جعلها تبكي دماً.
(٧) أبو تمام، الديوان: ١/ ٣١٥. والبيتان هما مطلع قصيدة مدح بها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شُبانة.
(٨) نوار (الأولى): نفور، والثانية: اسم المرأة. فاجاك: فاجأك. السرب: القطعة من الظباء. الصوار: القطيع من بقر الوحش.
(٩) تكذّب: تكلّف الكذب. نأت: بَعُدَت.
(١٠) أبو تمام، الديوان: ١/ ٣٦٦. والبيتان هما مطلع قصيدة مدح بها الخليفة المعتصم.
(١١) الباس: مخففة من البأس: الضرر. والذمام: العهد. الأربع: الديار، مفردها ربع. الأدراس: المَمْحُوَّة، البالية، مفردها درس.

وأصله قول امرىء القيس:[١]

كَـأَنَّ صَليـلَ المَـرْوِحيـنَ تُشِـذُّه ... صَليـلُ زُيُـوفٍ يُنْتَقَـدْنَ بِعَبْقَـرا[٢]

وقال أبو الفتح كشاجم:

لَـوْ لَـمْ تُحـرِّكْـهُ أَنـامِلُهـا ... كـانَ الهـواءُ يُعِيـدهُ نُطْقَـا

جَسَّتْـهُ عـالمـةً بحـالتـهِ ... جَسّ الطبيب لِمُدْنَـفٍ عِرْقَـا[٣]

غَنَّـت فَخِلْـتُ أَظنُّنـي طـربـاً ... أَسْمُـو إلـى الأفـلاكِ أو أرْقَـى

وَحَسِبْـتُ يُمْنـاهـا تُحـرِّكُـهُ ... رَعْـدا وَخِلْـتُ يَسـارَهـا بَـرْقـا

وأنشد الحاتمي لأبي بكر الصّولي:

وَغِنـاء أَرقَّ مِـنْ دَمْعَـةِ الصَّـ ... ـبّ وَشكْـوَى المُتيـمِ المَهْجُـورِ

يَشْغَـلُ المـرءَ مَنظـرٌ ثـم نُطْـقٌ ... فَهْـوَ يُصْغِـي بِظـاهـرٍ وَضَميـرِ

صَـافَـحَ السَّمْـعَ بـالـذي يَشْتَهيـهِ ... وَأَذاقَ النفـوسَ طَعْـمَ السـرورِ

لَيْـسَ بِـالقـائـلِ الضعيـفِ إذا مـا ... رَاضَ نَغْمـاً ولا الشنيـعِ الجهيـرِ[٤]

وقال أبو نُـوَاس:[٥]

وَأَهْيَـفَ مِثْـلِ طَـاقـةِ يَـاسمِيـنِ ... لـهُ حَظَّـان مـن دُنْيَـا وديـنِ

يُحَـرِّكُ حِيـنَ يَشْـدُو سَـاكنـاتٍ ... فَتَنْبَعِـثُ الطبـائـعُ لِلسكـونِ

وهذا مليح، يريد حركة الجوانح للغناء، وسكون الجوارح للاستماع. وقال الحمدوني يصف عوداً:

وَنـاطـقٍ بِلسـانٍ لا ضَميـرَ لـهُ ... كَـأَنَّـهُ فَخـذٌ نِيطـتْ إلـى قَـدَمِ

(١) امرؤ القيس، الديوان: ص ٩٤. والبيت من قصيدة قالها حين توجه إلى قيصر مستنجداً على بني أسد.

(٢) الصليل: الصوت. المرد: حجارة بيض براقة. وعبقر: بلد ينسب العرب إليها كل ما يتعاظمون صنعته، وزعموا أنها مقرّ الجن. وتشذه: تنحيه، تطيره. والزيوف: الدراهم القسية.

(٣) المدنف: الذي براه المرض أو الحب، وأشفى على الموت.

(٤) الجهير: يقال: وجه جهير: ظاهر الوضاءة، ورجل جهير للمعروف: خليق له. والشنيع: القبيح الكريه.

(٥) لم نجد هذين البيتين في ديوانه (تحقيق الغزالي).

يُبْـدِي ضَميـرَ سِـوَاهُ لِلقلـوبِ كمـا يُبْـدِي ضَميرَ سِـواهُ مَنْطِـقُ القلـمِ
فَلعـلَّ عَيْنَـكَ أَنْ تَجُـودَ بِـدَمْعِهـا وَالـدَّمْـعُ منـهُ خـاذِلٌ وَمُـواسِـي[١]

وحيث يقول:[٢]

مـا عَهِـدْنـا كـذا نَحِيـبَ المَشُـوقِ كَيْـفَ وَالـدمـعُ آيَـةُ المَعْشُـوقِ[٣]

وحيث يقول:[٤]

دِمَـنٌ أَلَـمَّ بهـا فقـال: سـلامُ كـم حـلَّ عُقْـدَةَ صَبْـرِهِ الإلمـامُ؟[٥]
نُحِرَتْ رِكـابُ الرَّكْـبِ حتى يَعْبُرُوا رَجْلاً، وَقـدْ عَنُفُـوا عليَّ ولامُـوا[٦]

وحيث يقول:[٧]

أمـا الـرسـومُ فقـد أَذْكَـرْنَ مـا سَلَفَـا فـلا تَكُفَّـنَّ عَـنْ شَـأْنَيْـكَ أَوْ يَكِفَـا[٨]
لا عُذْرَ لِلصبِّ أَنْ يَقْنَى السُلوَّ ولا لِلدَّمْعِ بعد مُضيِّ الحيّ أَنْ يَقِفا[٩]

ومن اقتضاباته البعيدة قوله:[١٠]

---

(١) في الديوان: «فلعل عينك أن تعين بمائها». الخاذل: التارك المساعدة. المواسي: المُعين، المُساعد.

(٢) أبو تمام، الديوان: ١/ ٤٤٦. والبيت هو مطلع قصيدة مدح بها أبا سعيد محمد بن يوسف.

(٣) الآية: العلامة. ينكر على نفسه النحيب، ثم يقول: كيف لا أنحب والمعشوق يبكي، والبكاء من علامات عشقه.

(٤) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٧٤. والبيتان هما مطلع قصيدة مدح بها الخليفة المأمون.

(٥) الدمن: آثار الديار.

(٦) يقف الشاعر على آثار الديار فيفقد صبره ويبكي، لكن رفاقه في السفر يعنفونه، ويتشددون في لومه، فيدعو عليهم بأن تنحر ركابهم، حتى يمضوا راجلين. وقال المرزوقي (في شرح الحماسة): «وإنما دعا عليهم بنحر ركابهم ليقوا في الديار، فيقضي وطره من التسليم، ويكون نحرها جزاءً لهم على لومهم إياه.

(٧) أبو تمام، الديوان: ١/ ٤١٦. والبيتان هما مطلع قصيدة مدح بها أبا دُلَف القاسم بن عيسى العِجْليّ.

(٨) الرسوم: آثار الديار. ما سلف: ما مضى. شأنيك: مفردها شأن: أي مجرى الدمع. «أو يكفا»: أي إلى أن يكف، أي يسيل قليلاً قليلاً.

(٩) يقنى السلو: يذخره ويمسكه. وفي الديوان: «يقنى الحياء».

(١٠) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٤٧. والبيت هو مطلع قصيدة مدح بها محمد بن عبد الملك الزيات.

لَهــانَ علينــا أَنْ نَقُــولَ وَتَفْعَــلا   وَنَذْكُرَ بَعْضَ الفَضْلِ مِنْكَ فَتَفْضِلا[١]

وقوله أيضاً مقتضباً:[٢]

الحــقُّ أَبْلَــجُ والسيــوفُ عَــواري   فَحـذارِ مـن أَسـدِ العَرِيـنِ حَـذَارِ[٣]

ومما تقدم فيه كلّ واحدٍ في حسنِ التخلص إلى المدح قوله:[٤]

إِســاءَةَ الحـادثـاتِ اسْتَبْطِنــي نُفَقَـا   فقـد أَظلَّـك إحسـانُ ابـنِ حَسّـانِ[٥]

وقوله:[٦]

إذا العيـسُ لاقَـتْ بـي أَبَا دُلَـفٍ فَقَـدْ   تَقَطَّـعَ مـا بينـي وَبَيْـنَ النَّـوائـبِ[٧]

وقوله:[٨]

لـم يَجْتَمِعْ قَطُّ في مِصْرٍ ولا طَرَفٍ   مُحمَّــدُ بــنُ أبــي مَـرْوَانَ وَالنُّـوَبُ

وقوله المنقطع دونه كلّ قول في هذا المعنى:[٩]

إنّ الــذي خَلَـقَ الخـلائـقَ قـاتَهـا   أَقْــواتَهــا لِتَصَــرُّفِ الأَحْــرَاسِ[١٠]

فـالأرضُ مَعْـرُوفُ السمـاءِ قِـرًى لَهـا   وَبَنُـو الـرجـاءِ لَهُـمْ بَنُـو العبّـاسِ[١١]

---

(١) اللام في «لهان» واقعة في جواب قسم محذوف تقديره: والله لهان. يقول: يهون علينا أن نُسْأَلَ بالقول، فتعطي أنت بالفعل، ثم نمدحك ببعض فضائلك فتهال علينا أفضالك.

(٢) أبو تمام، الديوان: ١/ ٣٣٧. والبيت هو مطلع قصيدة مدح بها الخليفة المعتصم، وذكر إحراق الأفشين وصلبه.

(٣) أبلج واضح. عوار: أي عارية من أغمادها لنصرة الحق. حذار: احذروا. وأسد العرين: المعتصم.

(٤) أبو تمام، الديوان: ٢/ ١٦١. والبيت من قصيدة مدح بها محمد بن حسّان الضبّي.

(٥) استبطني: ادخلي في باطن. النفق: حفير تحت الأرض. أي يا إساءة الحادثات، تواري خجلاً وخوفاً من إحسان الممدوح.

(٦) أبو تمام، الديوان: ١/ ١٤٨. والبيت من قصيدة مدح بها أبا دُلَف القاسم بن عيسى العجلي.

(٧) العيس: الإبل.

(٨) أبو تمام، الديوان: ١/ ١٦١. والبيت من قصيدة مدح بها محمد بن عبد الملك الزيات.

(٩) أبو تمام، الديوان: ١/ ٣٦٧. والأبيات من قصيدة مدح بها الخليفة المعتصم.

(١٠) الأحراس: جمع حرس: الدهر. يقول: إن الله تعالى خلق الخلائق، وقدّر لهم أقواتهم على كل حال وكل زمان.

(١١) القِرى: الضيافة. يقول: بنو العباس للناس مثل المطر للأرض.

القَــوْمُ ظِــلُّ اللّــه أَسْكَــنَ دِينَــهُ فِيهِمْ، وَهُمْ جَبَلُ الملوكِ الراسي[١]

وقوله:[٢]

عَــامِـي وعــامُ العيـسِ بيـن وَدِيقَـةٍ مَسْجُــورةٍ وَتَنُــوفَــةٍ صَيْهُــودِ[٣]
حَتَّــى أُغــادِرَ كُــلَّ يـومٍ بــالفَـلا لِلطَّيْـر عيـداً مــن بَنَــاتِ العيـدِ[٤]
هَيْهَــاتَ مِنْهَــا رَوْضَــةٌ مَحْمُــودةٌ حَتَّـى تُنَـاخَ بِـأحمـدَ المحمـودِ[٥]
بِمُعـرَّسِ العَـرَبِ الـذي وَجَـدَتْ بـهِ أَمْــنَ المَـرُوعِ وَنَجْـدَةَ المَنْجُـودِ[٦]

ومن أبدع ابتدائه قوله:[٧]

سَقَّــى دِيــارهــمُ أَجــشُّ هَــزِيــمُ وَغــدَتْ عليهـم نَضْـرَةٌ ونَعِيــمُ[٨]
جَــادَتْ مَعَـاهِـدَهـم عِهَـادُ سَحـابـةٍ مـا عَهْـدُهـا عِنْـدَ الـديـارِ ذَمِيـمُ[٩]

ثم تخلص إلى المدح فقال وأحسن كلَّ الإحسان:

لا والــذي هُــوَ عَــالِــمٌ أنَّ النَّــوَى مُــرٌّ وأَنَّ أبـا الحُسيـنِ كَـرِيــمُ[١٠]
ما زِلْتُ عن سَنَنِ الودادِ ولا غَدَتْ نَفْسِـي علـى إلـفٍ سِوَاكَ تَحـومُ[١١]

ثم عاد إلى المدح، فقال:

(١) أراد بالقوم: بني العباس. وفي رواية: «أسكن ظله فيهم».
(٢) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢١٩. والأبيات من قصيدة مدح بها أحمد بن أبي دؤاد.
(٣) الوديقة: شدّة الحرّ. المسجورة: الموقدة، أو المملوءة بالسراب. التنوفة: الفلاة البعيدة الأطراف. والصيهود: الفلاة التي لا ينال ماؤها. وفي الديوان: «صيخود»، وهو من صخدته الهاجرة: إذا آلمت دماغه.
(٤) عيداً: يريد شيئاً تعتاده. بنات العيد: النوق، قيل إنها منسوبة إلى قبيلة من مهرة، وقيل إلى فحل من فحول الإبل اسمه العيد. والمراد أنه يترك الطير تعتاد أكل لحوم النياق التي يغادرها في الفلا.
(٥) منها: أي من ناقته. يريد أنها لا تصل إلى روضة محمودةٍ حتى تُناخ بأحمد المحمود.
(٦) نجدة: قوة. المنجود: المكروب. ومعرس العرب: محطّ رحالهم. أي عنده نجدة لمن استنجد، وأمن لمن خاف.
(٧) أبو تمام، الديوان: ٢/ ١٥١. والبيتان هما مطلع قصيدة مدح بها أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شُبانة.
(٨) في الديوان: «أَسْقَى طُلُولَهُمُ». الأجش: الخشن الصوت، وأراد به الرعد. والهزيم: صوت الرعد.
(٩) المعاهد: المنازل. العهاد: الأمطار بعد الأمطار.
(١٠) في الديوان: «أَنَّ النوى صَبِرٌ»، والصبر: عصارة شجر مُرّ، يريد أنَّ النوى مُرٌّ.
(١١) زلت: تحولت. السَّنَنُ: الطريق.

لِمُحمَّد بن الهيثم بن شُبَانَةٍ مَجْدٌ إلى حَيْثُ السِّماك مُقيمُ
مَلِكٌ إذا نُسِبَ النَّدَى من مُلْتَقى طَرفَيْه فَهْوَ أَخٌ لهُ وَحَميمُ

وأبو تمام الذي وصف القوافي بما لم يستطع وَصْفَها به أحد فقال:(١)

فإنْ أنا لم يَحْمَدْكَ عَني صَاغراً عَدوُّكَ فاعْلَمْ أنَّني غَيْرُ حَامِدِ(٢)
بسيَّاحَةٍ تَنْسَاقُ من غيرِ سَائقٍ وَتَنْقَادُ في الآفاقِ من غَيْرِ قائدِ(٣)
مُحبَّبَةٌ ما إنْ تَزالُ تَرَى لَها إلى كُلّ أُفْقٍ وَاحِداً غَيْرَ وافدِ(٤)
مُخلَّقَةٌ لمَّا تَرِدْ أُذْنَ سَامعٍ فَتَصْدُرُ إلا عَنْ يمينٍ وَشَاهدِ(٥)

والذي قال أيضاً في صفتها:(٦)

جَاءتْكَ من نَظْمِ اللسانِ قِلادَةٌ سِمْطَانِ فيها اللُّؤلؤُ المَكْنُونُ(٧)
إنسيَّةٌ وَحْشيةٌ كَثُرَتْ بِها حَرَكاتُ أهل الأرض وَهْيَ سُكُونُ(٨)
حُذِيت حِذَاءَ الحَضْرَميَّةِ أَرْهفَتْ وَأجادَها التَّخْصِيرُ وَالتلْسِينُ(٩)
يَنْبُوعُها خَضِلٌ، وَحَلْيُ قَريضِها حَلْيُ الهُدى، وَنسيجها مَوْضُونُ(١٠)

---

(١) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢٧٦. والأبيات من قصيدة مدح بها محمد بن الهيثم بن شُبانة الخراساني.
(٢) يريد: أنَّ عدوّك في رغبته برواية هذه القصيدة الرائعة، وأنا غائب، ينوب عني في حمدك صاغراً، لأنه يحمد من يعاديه إعجاباً بهذا الشعر.
(٣) سياحة: أي قصيدة تسيح (تذهب في الأرض).
(٤) في الديوان: «وافداً غير وافدِ»: أي إن هذه القصائد مقيمة، وهي في الوقت نفسه سائرة في الآفاق برواية الناس لها.
(٥) في الديوان: «مُحْلِفَةٌ». أي تجعل الرجل يحلف بأنها قصيدة رائعة، ويشهد لها بذلك.
(٦) أبو تمام، الديوان: ٢/ ١٧١. والأبيات من قصيدة يمدح بها الخليفة الواثق بالله العباسي.
(٧) سمطان: خيطان. المكنون: المستور، من كَنَّهُ: إذا ستره.
(٨) إنسية: تأنس بها القلوب، وتحب أن ترويها، أو هي من إنشاء الإنس. وحشية: ترود البلاد كما الوحوش، أو أنها لا تُصاد، أو هي غريبة مثيرة للدهشة والعجب.
(٩) الحضرمية: النعال المنسوبة إلى حضرموت. التخصير: يقال نعل مُخصَّرة: إذا كان لها خصران، والنعال المخصّرة كانت من لبس السادات. والملسنة: التي تستدق من طرفها الذي يلي الأصابع. والمعنى: أن هذه الأبيات يشبه بعضها بعضاً كالنعال المحذوة، كل واحدة تُشاكل أختها.
(١٠) ينبوعها: لعله أراد به قلبه أو لسانه. خضل: مبتل. الهديّ: العروس. الموضون: المنسوج نسجاً متقارباً كنسج الدروع، والموضون: الذي ثني بعضه فوق بعض.

أَحـذَاكهـا صَنَـعُ الضميـر يَمـدُّهُ حَسَـبٌ إذا نَضَـب الكـلامُ مَعِيـنُ[١]
أَمَّـا المعـانـي فَهْـيَ أبكـارٌ إذا نُصَّـتْ، وَلكـنَّ القَـوافـيَ عُـونُ[٢]

وقد أبدع في وصفها فقال:[٣]

لـم أُبْـقِ حِلْيَـةَ مَنْطِـقٍ إلاّ وَقـدْ سَبقَـتْ سَـوابقَهـا إليـكَ جيَـادي[٤]
أَبْقَيْـنَ فـي أعنـاقِ جُـودِك جَـوْهَـراً أَبْقَـى مِـنَ الأَطـواق فـي الأجيـادِ[٥]

هل يستطيع أحدٌ أن ينسب هذا أو شيئاً منه إلى السَّرَق والاحتذاء؟ وهل يستطيع مماثلته بشيء من شعر البحتري، أو أشعار المحدثين في عصره ومن قبله؟ فَعَيَّ عن الجواب قُصوراً، وأحجم عن المساجلة تقصيراً، وحكمت الجماعة لي بالقَهْرِ، وعليه بالنصر، ولم ينصرف عن المجلس حتى اعترف بتقديم أبي تمام في صنعة البديع واختراع المعاني على جميع المُحْدَثين، وكان يوماً مشهوداً.

[أَثَرُ الغناء والجمال]

وقال ثُمَامة بن أشرس:[٦] كنتُ عند المأمون يوماً، فاستأذن الغلام لِعُمَيْر المأموني فكرهت ذلك، ورأى المأمون الكراهية في وجهي، فقال: يا ثمامة، ما بك؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، إذا غنَّانا عمير ذكرت مواطن الإبل، وكُثْبَان الرمل، وإذا غنتنا فلانة انبسط أَملي، وقوي جَذلي، وانشرح صَدْري، وذكرت الجنان والولدان، كم بين أن تغنيك جارية غادة كأنها غصن بَان، ترنو بمقلة وَسْنَان؛ كأنما خُلِقتْ من ياقوتة، أو خرطت من فضّة، بشعر عكاشة العمّي حيث يقول:[٧]

---

(١) في الديوان: «صنع اللسان». أحذاكها: ألبسك إياها. صنع اللسان، وصنع الضمير: ماهر، حاذق. وفي الديوان: «يمده جَفْرٌ»، والجفر: البئر الواسعة الضم. المعين: الماء الذي يجري على وجه الأرض.
(٢) أي: إنه إذا أحسن يستقل لك إحسانه مهما كثر.
(٣) أبو تمام، الديوان: ١/ ٣٠٠. والبيتان من قصيدةٍ يمدح بها أبا المغيث موسى بن إبراهيم الرافقي.
(٤) في الديوان: «حَلْبَةَ منطقٍ». والحلبة: الميدان، استعارها للمنطق. الجياد: الخيل، وأراد بها قصائده المذهبية. أي: ما من مقام للفصاحة إلاّ سبقت إليه جياد قصائدي.
(٥) الأجياد: الأعناق، الواحد جِيدٌ.
(٦) ثمامة بن أشرس: أحد المعتزلة البصريين، ورد بغداد واتصل بهارون الرشيد وغيره من الخلفاء، وله أخبار ونوادر يحكيها عنه أبو عثمان الجاحظ وغيره. (البغدادي، تاريخ بغداد: ٧/ ١٤٥).
(٧) البيتان في الأغاني: ٣/ ٢٥٥، ضمن أبيات قالها عكاشة العمي في «نعيم» المغنية.

مِـنْ كَـفٍّ جـاريـةٍ كَـأَنَّ بَنَـانَهَـا ... مِـنْ فِضَّـةٍ قَـدْ طُـرِّفَـتْ عُنَّـابـا[١]
وَكـأَنَّ يُمْنَـاهـا إذا ضَـرَبَـتْ بِهـا ... تُلْقي على الكَفِّ الشمالِ حِسَابا[٢]

وبين أن يغنيك رجل كَثُّ اللحية، غليظ الأصابع، خشن الكف، بشعر ورقاء بن زهير حيث يقول:

رَأَيْتُ زُهَيْراً تَحْتَ كَلْكَلِ خالِدٍ ... فَـأَقْبَلْتُ أَسْعَى كـالْعَجُـول أُبـادِرُهْ[٣]

وَكَمْ بَيْنَ أَنْ يحضرك مَنْ تشتهي النظَر إليه، وبين من لا يقفُ طَرفك عليه؟ فتبسم المأمونِ، وقال: الفرق بينهما واضح، والمنهج فسيح؛ يا غلام، لا تأذَنْ له، وأَحْضَر أطيبَ قَيْنَاته، فظَلِلْنَا في أمْتَعِ يوم.

عكاشة بن عبد الصمد البصري

وعكاشة هذا هو عكاشة بن عبد الصمد البصري، نقيُّ الديباجة، ظريف الشعر، وكان شاعراً مجيداً[٤]. وقد أخذ معنى قوله أبو العباس الناشىء، وزادَ فيه، فقال:

وَإذا بَصُرْتَ بِكفِّها اليُسْرَى حَكَتْ ... يَدَ حَاسِبٍ تُلْقِي عليك صُنوفا
فَكـأنمـا المِضْـرَابُ فـي أوتـارِهِ ... قَلَمٌ يُمَجْمِجُ في الكتاب حُروفا[٥]
وَيَجُسُّـهُ إِبْهَـامُهـا فَكَـأَنَّمـا ... فـي النَّقْرِ تَنْفي بَهْرَجاً وَزُيُوفَا[٦]

أخذ هذا البيت من قول أبي شجرة السلمي وذكر ناقته:

تَطيرُ عنها حَصَى الظرّانِ من بَلَدٍ ... كما تُنُوقِدَ عِنْدَ الْجِهْبِذِ الوَرِقُ[٧]

---

(١) في الأغاني: «قُمِّعَتْ عُنَّابا».
(٢) في الأغاني: «إذا نطقت به» و«تلقي على يدها الشمال».
(٣) الكَلْكَلُ: الصدر. والعجول: الثكلى والواله من الإبل والنساء.
(٤) أنظر ترجمته بالتفصيل في الأغاني: ٢/ ٢٥٢ ـ ٢٦٠.
(٥) مجمج الكتاب: خلطه وأفسده بقلم، ومنه: مجمج في خبره: لم يُبَيِّنهُ.
(٦) جَسَّ الشيء بيده: مَسَّهُ. البَهْرَجُ: الباطل. وزافت النقود زَيْفاً، وَزُيُوفاً، وَزُيُوفَةً: ظهر فيها غِشٌّ ورداءة.
(٧) الظُّران: جمع ظَرّ، وهو الحجر المضرس له حَدٌّ كحَدِّ السكّين. والجهبذ: الخبير. والورق: الفضة.

[من وَصْفِ القيان]

لابن الرومي

ومن أَحسنِ ما قيلَ في صفة القيان قولُ ابن الرومي:[١]

وَقيانٍ كأَنَّها أُمَّهاتٌ ... عَاطِفاتٌ على بَنِيهَا حَوَاني[٢]
مُطْفِلاتٌ وما حَمِلْنَ جَنيناً ... مُرضِعاتٌ ولَسْنَ ذاتَ لَبَانِ[٣]
مُلْقِمَات أطفالَهُنَّ ثُدِيًّا ... نَاهِداتٍ كأَحسنِ الرُّمانِ[٤]
مُفْعماتٌ كأَنَّها حافِلاتٌ ... وَهْيَ صِفْرٌ من دِرَّةِ الألبانِ[٥]
كُلُّ طِفْلٍ يُدْعَى بأَسماءِ شَتَّى ... بَيْنَ عُودٍ وَمِزْهَرٍ وَكِرَانِ[٦]
أُمُّهُ دَهْرَها تُتَرْجِمُ عَنْهُ ... وَهو بادي الغِنَى عنِ الترجمَانِ[٧]

لكشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم:

جَاءَتْ بِعُودٍ كأَنَّ نَغْمَتَهُ ... صَوْتُ فتاةٍ تشكو فِراقَ فَتَى
مُحفَّفٌ حَفّت العيونُ بهِ ... كأَنَّما الزهرُ حَوْلَهُ نَبتا[٨]
دَارتْ مَلاوِيه فيهِ فَاخْتلَفتْ ... مِثلَ اختلافِ العيونِ مُذْنِبَا[٩]
لَوْ حَرَّكَتْهُ وراءَ مُنْهَزمٍ ... على بَريدٍ لَعاجَ وَالتفَتا

وقال:

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٦/٢٤٣. والأبيات من قصيدة يهنىء بها عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بالمهرجان.
(٢) القيان: الجواري اللواتي يجدن الغناء، مفردها: قينة.
(٣) المطفل: ذات الطفل. يريد أنهن يحملن ويرضعن آلاتهن الموسيقية.
(٤) نهد الثدي: برز وارتفع. يشبه استدارة ثديهن باستدارة الرمان.
(٥) مُفعمات: ممتلآت، يقال: فَعُمَ الإناء فَعامةً وَفُعُومةً: امتلأ، ومنه: جارية فعمة: ممتلئة الأعضاء. وحفل الماء واللبن حُفولاً: اجتمع، وحفل فلان اللبن في الضرع: جمعه.
(٦) العود والمزهر والكران: آلات موسيقية يعزف عليها.
(٧) تترجم عنه: تتحدث.
(٨) حَفّ الشيءَ حَفًّا وَحِفافاً: استدار حوله وأحدق به.
(٩) الملاوي: قِطع من الخشب لربط الأوتار، الواحد مِلْوَى.

يَقولون تُبْ والكأسُ في كفّ أَغيدٍ … وصَوْتُ المثاني وَالمثالثِ عَالي
فَقُلْتُ لهم لو كُنْتُ أَزْمَعْتُ تَوْبةً … وَشاهدْتُ هذا في المنامِ بَدَا لي[١]

وقال:

أفدي التي كَلِفَ الفؤادُ مِنَ أجْلها … بالعُودِ حتَّى شَفّني إطرابا
تَاهَتْ بجمعِ صِناعَتَيْنِ، وَأظهرتْ … كِبْراً بِذاكَ، وَأُعْجِبَتْ إعجابا
قالتْ: فَضَلْتُكَ بِالغناءِ وأنتَ لا … تَشْدُو، وَكُنَّا مِثْلَكُمْ كُتّابا
فَغَنَّيتُ بالأوتارِ حتَّى لم أَدَعْ … نَغماً ولم أُغْفِل لَهُنَّ حِسابا
وَألفتها فأغارَ ذاك على يدي … قلمي وَعاتبها عَلَيْهِ عِتابا
فَجعلتُ لِلقرطاسِ جانِبَ صَدْرِهِ … وَجعلْتُ جَانِبَ عَجْزِهِ مِضْرابا

وقال:

جاءتْ بِعُودٍ كأَنَّ الحبَّ أَنْحَلَهُ … فما يُرَى فيه إلا الوَهْمُ والشبَحُ
فَحركَتْهُ وَغنَّتْ بِالثقيلِ لَنا … صَوْتاً به الشوقُ في الأحشاءِ يَنْقَدِحُ
بَيضاءُ يَحْضُرُ طيبُ اللهوِ ما حَضرَتْ … فإنْ نأَتْ عنكَ غابَ اللهوُ والفرَحُ[٢]
كلّ اللباسِ عليها مَعْرِضٌ حَسَنٌ … وَكلُّ ما تَغنَّى فهو مُقْتَرَحُ

هذا من قول ابن المعتز:

وَغَنَّتْ فأَغنتْ عن المسمِعيـ … ـن وارتجَّ بالطربِ المَجْلِسُ
مَحاسِنُها نُزْهَةٌ للعيونِ … وَمَعْرِضُها كلّ ما تَلْبَسُ

وقال أيضاً:[٣]

أَشْتَهي في الغناءِ بُحَّةَ حَلْقٍ … نَاغِم الصوتِ مُتْعَبٍ مَكْدُودِ[٤]
كَأَنينِ المحبّ أَضعفهُ الشَّوْ … قُ فَضاهَى به أَنِينَ العُودِ[٥]

---

(١) أَزمعت: اعتزمت.

(٢) «ما» في قوله «ما حضرت» هي المصدرية الظرفية: أي مدة حضورها.

(٣) هذا القائل هو أبو الفتح كشاجم.

(٤) المكدود: المُتْعَبُ، المُرْهَقُ، المغلوب.

(٥) ضاهاهُ: شابههُ، وفعل مثل فعله.

لا أُحِبُّ الأوتارَ تعلو كما لا ... أَشتهي الضربَ لازِماً لِلعَمُودِ
وَأحبُّ المجنبَاتِ كَحُبِّي ... لِلْمَبادي مَوْصُولةً بالنَّشيدِ
كَهُبوبِ الصَّبا تَوسَّط حالاً ... بين حالين شِدَّة وَرُكودِ

وقال:

آه مِنْ بُحةٍ بغيرِ انقطاعِ ... لفتاةٍ مَوْصُولةِ الإيقاعِ
أَتْعَبَتْ صَوْتَها وقد يُجْتَنَى مِنْ ... تَعَبِ الصوتِ راحةُ الأسماعِ
فَغَدَتْ تُكْثِرُ الشّجَاحَ وَحطَّتْ ... طَبقاتِ الأوتار بَعْدَ ارتفاعِ[1]
كأَنينِ المُحبِّ خَفَّضَ مِنْهُ ... صَوْتَ شَكْوَاهُ شِدَّةُ الأوجاعِ

لأبي الحسن بن يونس

وقال بعض أهل العصر، وهو أبو الحسن بن يونس:

غَنَّتْ فأَخْفَتْ صَوْتَها في عُودِها ... فَكأنَّما الصوتانِ صَوْتُ العودِ
غَيْداء تأمرُ عُودَها فيُطِيعها ... أبداً، وَيَتْبَعُها اتباعُ وَدُودِ[2]
أَنْدَى من النُّوَّارِ صُبحاً صَوْتُهَا ... وَأرقُّ مِنْ نَشْرِ الثَّنا المَعْهُودِ
فَكأَنَّما الصوتانِ حين تمازَجَا ... ماءُ الغمامةِ وابنةُ العُنقودِ

من ترجمة أبي الحسن بن يونس

وأبو الحسن هذا هو: علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى صاحب عبدالله بن وهب الفقيه، وكان لأبي الحسن في الشعر مذهب حسن، وطبعٌ صحيح، وحَوْك مليح، وكان عالماً بالنجوم وما يتعلق بها من علوم الأوائل وهو القائل:

سقَى اللَّهُ أكنافَ اللّوى كلما سَقى ... بِضَرْبٍ من المُزْنِ الكَنَهْوَرِ هَاملِ[3]
إذا نَشَرتْ رِيحٌ جُمانَ سَحابةٍ ... غَدَا وَهْوَ حَلْيٌ لِلرِّياضِ العَوَاطِلِ

(١) في رواية: «تكثر البحاح».
(٢) الغيداء: الفتاة التي تمايل وتتثنى في لين ونعومة.
(٣) الأكناف: النواحي. الكنهور: المتراكم من السحاب.

بـه وَجْـدُ رَعْـدٍ ليـس بَيْـنَ جَـوانـحٍ وَوَسْواسُ وَدْقٍ ليس بين مَفاصلِ[١]
إذا كـانَ خَـدُّ البـرق يَلْمِـسُ نَبْتَـهُ تَلَقَّـاهُ دُرُّ النَّـورِ فَـوْقَ الخمـائـلِ

وقال، وذكر غلاماً:

يَجْـري النسيـمُ على غـلائِـل خَـدِّهِ وَأَرَقُّ منـه مـا يَمُـرُّ عليـهِ
نَـاولْتُـهُ المـرآة يَنْظُـرُ وَجْهَـهُ فَكَسَتْـهُ فِتْنَـةُ نَـاظـرِيْـه إِلَيْـهِ

لابن المعتز في المرآة

تُبَيِّنَـي لـي كُلمـا رُمْـتُ نَظْـرَةً وَنـاصحَتِي مـن دُونِ كـلِّ صَـدِيـقِ
يُقَـابلنِـي مِنْـكِ الـذي لا عَـدِمْتُـهُ بِلُجَّـةِ مـاءٍ وَهْـوَ غَيْـرُ غَـرِيـقِ

لكشاجم يصف مرآة

وقال أبو الفتح كشاجم يصفُ مرآة أهداها:

أُختُ شمس الصفاء في الحسنِ والإشـ ـراقِ غيـر الإعشـاءِ لـلأجفـانِ[٢]
ذاتُ طَـوْقٍ مُشْـرِفٍ مـن لُجيـنٍ أُجـرِيـتْ فيـه صُفْـرَةُ العِقْيَـانِ
فَهْـوَ كـالهـالـةِ المحيطـةِ بـالبـد رِ لِسِـتٍّ مَضيْـنَ بَعْـدَ ثَمـانِ
وَعلـى ظَهْـرِهـا فَـوارسُ تلهـو بِبُـزَاةٍ تَغْـدُو علـى غِـزْلاَنِ
[لـك فيهـا إذا تـأملـت فـألٌ حَسَـنٌ مُخْبـرٌ بِنَيْـلِ الأمـانـي]
لـم يَكُـنْ قبلهـا مـن المـاءِ جُـرْمٌ حَـاصِـرٌ نَفْسَـهُ بغيـرِ أَوَانِ
عَـدَّلَـتْ عَكْسَهـا الشعـاعُ فَمبْـدا هُ إليهـا وَرَجْعُـهُ سِيّـانِ
وَهْـيَ شَمْـسٌ وإنْ مِثَـالُـك يـومـاً لاحَ فيهـا فـإنهـا شَمْسَـانِ
أينمـا قَـابلـتْ مِثـالَـكَ مـن أر ضٍ ففيهـا تَقـابُـلُ النَّيِّـرانِ
فَـأَلقهـا مِنْـكَ بـالـذي مـا رآه خـائـفٌ فَـانْثَنَـى بغيـرِ أَمَـانِ

---

(١) الودق: المطر شديدهُ وهيِّنهُ.
(٢) الإعشاء: من أعشاه إذا جعله أَعشىً، أي ضعيف البصر.

ومن ألفاظ أهل العصر في مدح الغناء

غِناؤُه كالغِنَى بعد الفقر، وهو جَبْرٌ للكسر[(١)]. [غِناؤُه] يبسط أَسِرَّةَ الوَجْهِ، ويرفعُ حجابَ الإذْن، ويأخذُ بمجامع القَلْب، ويحرِّك النفوس، ويرقص الرؤوس. فلان طبيب القلوب والأسماع، ومحيي مَوَات الخواطِر والطبَاع، يُطْعِمُ الآذانَ سروراً، ويقدح في القلوب نوراً. القلوبُ من غنائه على خَطر؛ فكيف الجيوب؟! السكر على صوته شهادة. كل ما يغنّيه مُقْتَرَح. لغنائه في القَلْبِ، موقع القَطْر في الجَدْب. نغمة نغمته تطرب، وضروب ضَرْبه لا تضطرب. وقيل: السماع مُتْعَة الأسماع، وإدامُ المدام.

[الأقـلام]

من أخ إلى أخيه وقد أهداه أقلاماً

أهدى بعضُ الكتّاب إلى أخ له أقلاماً وكتب إليه: ـ أطال اللّهُ بقاءك! ـ لما كانت الكتابةُ قِوَامَ الخلافة، وقرينة الرياسة، وعمودَ المَمْلَكة، وأعظم الأمور الجليلة قَدْراً، وأعلاها خَطَراً، أحببتُ أن أُتْحِفك من آلاتها بما يَخِفُّ عليك مَحْمَلهُ، وتثقل قيمتُه، ويكثر نَفْعُه؛ فبعثتُ إليك أقلاماً من القصب النابت في الأعْذَاء[(٢)]، المغذوّ بماء السماء، كاللآلي المكنونة في الصَّدَف، والأنوار المحجوبة بالسَّدَف، تَنْبُو عن تأثير الأسنان، ولا يثنيها غَمْزُ البَنان، قد كسَتْها طباعها جوهراً كالوَشْي المحبّر، وفرند الديباج المنيّر، فهي كما قال الكميت:[(٣)]

وَبِيضٍ رِقَاقٍ صِحَاحِ المُتُو ... نِ تَسْمَعُ للبِيضِ فيها صَرِيرا
مُهَنَّدَةٍ مِن عَتَادِ الملوكِ ... يكادُ سَنَاهُنّ يُعْشِي البَصِيرا[(٤)]

وكقبح النبل في ثقل أوزانها، وقُضُب الخَيْزُرَان في اعتدالها، ووشيجِ الخطّ في

---

(١) في رواية: «وهو عذر للسكر».
(٢) الأعذاء: جمع عذى، وهو الزرع الذي لا يسقى بغير ماء المطر.
(٣) هو أبو المستهل، الكميت بن زيد بن الأخنس الأسدي: شاعر مقدم، وخطيب مفوّه، وفارس شجاع. عاش في أيام بني أمية، وتشيّع لبني هاشم، وقصائده الهاشميات من جيد شعره. قُتِل سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٤٨٥؛ الأصفهاني، الأغاني: ٢١/ ١٠١).
(٤) مهندة: مصنوعة في الهند.

اطّرادها، تمرّ في القراطيس كالبَرْقِ اللائح، وتجرِي في الصحف كالماء السائح، أَحسن من العِقْيان، في نحورِ القِيَان.

من عبيد الله بن طاهر إلى إسحاق بن إبراهيم

وكتب عبيد اللّه بن طاهر إلى إسحاق بن إبراهيم من خراسان إلى بغداد يسأله أن يُوجِّهَ إليه بأقلام قصبيّة: أما بعد، فإنّا على طول الممارسة لهذه الصناعة التي غلبَتْ على الاسم، ولزمت لزوم الوَسْم، فحلَّت محل الأنساب، وجرت مَجْرَى الألقاب ـ وجدنا الأقلام القصبيّة أسرعَ في الكَوَاغِدِ، وأمرَّ في الجلود، كما أن البَحْرِية منها أسلسُ في القَراطيس، وأَلْين في المعاطف، وأكلّ عن تمزيقها، والتعلق بما ينبو من شظاياها. ونحن في بلادٍ قليلة القَصب، رديء ما يوجد بها منه؛ فأحببت أن تتقدَّم في اختيار أقلام قصبية، وتتأنّق في انتقائها قِبَلك، وطلبها في منابتها، من شُطوط الأنهار، وأرجاء الكروم، وأن تتيمَّم باختيارك منها الشديدة المجسّ، الصّلبة المعضّ، الغليظة الشحوم، المكتنزة الجوانب، الضيّقة الأجواف، الرزينة الوَزْن، فإنها أبقى على الكِتَاب، وأبعد من الحَفَاء، وأن تقصدَ بانتقائك منها للرقاق القضبان، اللطاف المنظر، المقوّمات الأَوَد، المُلْس العُقَد، ولا يكون فيها التواء عوج ولا أَمْت؛ وضُمَّ الصافيةَ القشور، الخفية الأُبَن[1]، الحسنة الاستدارة، الطويلة الأنابيب، البعيدة ما بين الكعوب، الكريمة الجواهر، المعتدلة القوام، تكادُ أسافلها تهتزُّ من أعلاها، لاستواءِ أصولِها برؤوسها، المستكملة يبساً، القائمة على سوقها، قد تشرّبت الماءَ في لِحائها، وانتهت في النُّضْجِ منتهاها، لم تعجّل عن تمام مصلحتها، وإبَّانِ يُنْعِها[2]، ولم تؤخّر في الأيام المخوفة عاهاتها؛ من خَصَر الشتاء[3]، وعَفَنِ الأنداء، فإذا استجمعتْ عندك أمرْتَ بقطعها ذِراعاً ذراعاً، قَطْعاً رفيقاً تتحرّز معه أن تتشعّبَ رؤوسها، أو تنشق أطرافها، ثم عبأت منها حزماً فيما يصونها من الأوعية، وعليها الخيوط الوثيقة، ووجِّهْتَها مع من يحتاط في حراستها وحفظِها وإيصالها؛ إذ كان مثلها يُتَوانى فيه، لِقلّة خطرِها عند من لا يعرفُ فَضْلَ جوهرها؛ واكتب معه بِعدَّتِها وأصنافها وأجناسها وصفاتِها، على الاستقصاء، من غير تأخير ولا إبطاء.

---

(١) الابن: جمع أبنة، وهي العقدة في العود.
(٢) يَنَعَ الثمر يَنْعاً وَيُنْعاً وَيُنُوعاً: أدرك وطاب وحان قطافه.
(٣) خصر الشتاء: برده.

جواب إسحاق ابن إبراهيم

فأجابه ووجّه إليه مع الأنابيب: أتاني كتاب الأمير ـ أعزّه الله! ـ بما أمر به ولخصه، من البعث بما شاكل نَعْتَه، وضاهى صِفَته، من أجناس الأقلام، فتيممت بُغْيَتَهُ قاصداً لها، وانتهجتُ معالمَ سُبُلِه آخذاً بها، فأَنْفَذْتُ إليه حزماً أنشئت بلطيف السّقيا، وحُسْن العهد والبُقْيا، لم تعجل بإخراجها، ولا بُودِرتْ قبل إدراكها؛ فهي مستويةُ الأنابيب معتدلتها، مثقّفة الكعوب مقوّمتها؛ لا يُرَى فيها أَمْتُ زَوَر[1]، ولا صم صغر ولا عِوَج، وقد رجوت أن يجدَها الأمير عند إرادته وحسَبَ بُغْيَتِهِ.

لمنصور بن عمار يصف القلم

ومن كلام منصور بن عمَّار في صفة القلم، ويقال إنه لسليمان بن الوليد الكاتب: أو ليس من عجائب اللهِ في خَلْقِهِ، وإنعامِهِ على عباده، تعليمُه إياهم الكتابَ المفيد للباقين حكم الماضين، والمخاطِبَ للعيون بسرائر القلوب، على لغات مختلفة، بمعان مفترقة معقودة، وأحرفٍ مقلوبة، من ألف وتاء، وجيم وباء، متباينات الصور، مختلفات الجهات، لِقَاحها التفكير، ونتاجها التأليف، تخرس مفردة، وتنطِقُ مزدوجة، بلا أصواتٍ مسموعة، ولا أَلْسُنٍ محدودة، ولا حركات ظاهرة، بل قلم حَرَّفَ بارِيه قطَّته[2]، ليعلقَ المدادُ به، وأَرْهَفَ جانبيه ليردّ ما انتشر عنه إليه، وشقّ في رأسه ليحتبس الاستعداد عليه، ورفع من شعبتيه لتجتمع حواشي تصويره؛ فهنالك روى القلم في شِقّه، وقذف المادة إلى صدره، فإذا علقتها العيوب حَكَّتْها الألسن، فالقلوبُ حينئذ رَاعِية، والآذان واعِية، لكلام سَدّاه العَقْل، وألحمه اللسان، وأدّته اللَّهَوَات، ولفظته الشّفَاه، ووعته الأسماع، على اختلاف أنحاء، من صفاتٍ وأسماء؛ فتبارك الله أَحْسَنُ الخالقين.

للنجيرمي في وصف القلم

حمل من رسالة كتبها بعض أهل العصر، وهو أبو إسحاق إبراهيم بن عبد اللَّه النجيرمي، في القلم إلى أبي عمران بن رياح:

إنه لما كان القلمُ مطيَّةَ الفِكْر والبيان، ومُخْرِجَ الضمير إلى العِيان، ومستنبطاً ما تُوارِيه

---

(١) الأَمْتُ: الضعف والوهن، والعَيْبُ، والعِوَجُ.
(٢) قطَّ القلم: قطعه عرضاً، وسوّاه.

ظلمُ الجَنانِ[١] إلى نُور البيان، ومُريحَ الفِطَنِ العوازب، وجالبَ الفِكَرِ الغرائب [ولسان الغائب، وبز الكاتب، ومكتّب الكتائب]، ومفرق الجلائب، وعماد السّلْم، وزناد الحرب، ويدَ الحدثَان، وخليفة اللسان، ورأس الأدوات التي خصَّ الله بها الإنسان، وشرّفه بها على سائر أصناف الحيوان، ومركباً لآلة قد تقدَّمَتْ كلَّ آلة، وحِكْمةٍ سبقَتْ في الإنسان كلّ حكمة، وَقِوَاماً لهندسة عقلية، ومصدراً لِعَقْلِ العاقل، وجهل الجاهل. الناقل إلينا حِكَمَ الأولين، وحاملها عنا إلى الآخرين، الحافظ علينا أَمْرَ الدنيا والدين، أول شيء خلقه الله بأمره وسَبَّحَه، ومَجَّده وحَمِدَه وسجدَ له، فكان له فرسانٌ خُلِقَ لهم، وكُنْتَ عميدَهم، وأقرانٌ قُصِر عليهم، وأنت صنديدهم[٢]، وميدان كنت زَيْنَهُ، ومضمار كنت عَيْنَه، وحِلْبَة كنت سابقها ومعجزها، وغاية كنت مَالِكها ومُحْرِزَها، ورمت بي الأيام إلى معدنه الذي كلفت به وعنيت بطلبه، فانفردت منه بقدح فَذّ أَوْحد، فَرْدٌ في منبته، قد ساعدت عليه السعود في فلك البروج حولاً كاملاً، مُخْتلف يُؤَلّفه أركانها وطباعها، ومتباين أنوائها وأنحائها، وتؤيده بقواها وجواهرها، حتى غَذَتْهُ عِرْقاً في الثرى معرقاً، وأرضعته ناجماً، وسقته مكعباً، وأروته مقصباً، وأظمأته مكتهلاً، ولوحته مستحصداً[٣]، وجللته بهاءها، وألقت عليه عنوانها، وأودعته أعراقها وَأَوراقَها وأَخْلاَقها، حتى إذا شق بازله، ورقّت شمائله، وابتسم من غشائه، ونادى من لِحَائه، وتعرى عن خز المصيف، بانقضاء الخريف، وانكشف عن لون البيض المكنون، والصدف المخزون، ودر البحار، وفُتَات الجمار، دعا منه نَفَق العَاج بنقبة الديباج، وقميص الدرر بطراز النساج، فاجتمعت له زينة الأيدي البشرية، إلى الأيدي العلوية، والأنسابِ الأرضية، إلى الأنساب السماوية، فلما قادته السعادة إليّ، ورأيته نسيجَ وَحْدِه في الأقلام، رأيت أولى الناس به نسيجَ وَحدِه في الأنام، فآثرتُك به مُؤْثِراً للصنيعة؛ عالماً أن زين الجيادِ فرسانها، وزين السيوف أقرانها، وزين بزة لابِسُهَا، وزين أَداةٍ مُمَارسُهَا، فالآن أعطيت القوس باريها، وزناد المكارمِ مُوريها، والصمصامة[٤] مُصْلِتها، والقناة مُعلمها، وحلَّة المَجْدِ لاَبِسها.

---

(١) الجنان: القلب.

(٢) الصِّنْدِيدُ من الناس: الشريف الشجاع الشديد.

(٣) أَحصد الزرع: حان حصاده، واستحصد الشيء: اشتد واستحكم.

(٤) الصمصامة: الصمصام: السيف الصارم لا ينثني.

من أخبار النجيرمي

وكان النجيرمي جَيِّدَ الروية والبديهة في نظمه ونثره، حلو التصريف، مليح التأليف، وكان يوماً عند أبي المسك كافور الإخشيدي، فدخل عليه أبو الفضل بن عياش فقال: أَدام الله أَيامِ سيدنا الأستاذ ـ بالخَفْض ـ فتبسَّم كافور إلى أبي إسحاق، فقال ارتجالاً:

لا غَـرْوَ إن لَحَـنَ الـدَّاعِـي لِسيِّـدنـا وَغُـصَّ مـن هَيْبَـةٍ بـالـريـقِ والبَهَـرِ[١]
فَمِثْـلُ سَيِّـدنـا حـالـت مَهَـابَتُـهُ بَيْنَ البليغ وبينَ القولِ بالحصَرِ[٢]
فَـإنْ يَكُـنْ خَفَـضَ الأَيـامَ مـن دَهَـشٍ مِنْ شِدّةِ الخوفِ لا مِنْ قِلَّة البَصَرِ
فَقَـدْ تفـاءَلْـتُ فـي هـذا لِسيِّـدنـا وَالفـألُ مَـأْثَـرَةٌ عـن سَيِّـدِ البَشَـرِ
بِـأَنَّ أَيَّـامَـهُ خَفْـضٌ بـلا نَصَـبٍ وَأَنَّ دَوْلَتَـهُ صَفْـوٌ بـلا كَـدَرِ

فأمر له بثلثمائة دينار، ولابن عياش بمائتين.

لحمدان الدمشقي يصف قلماً

وقال حمدان الدمشقي يصف قلماً:

لِـلأَيْـمِ بِعْثَتُـه وَشَـقٌّ لِسَـانِـهِ وَلَـهُ إذا لـم تُجْـرِه إطـراقُـهُ[٣]
كـالحيَّـةِ النَّضْنَـاضِ إلاّ أَنّـهُ مـن حَيْـثُ يَجْـرِي سُمُّهُ تِـرْيَـاقُـهُ[٤]

وصف القلم الصالح للكتابة

قال العتابي: سألني الأصمعي فقال لي: أي الأنابيب أَصْلَحُ للكتابة وعليها أَصبر؟ فقلت: ما نشِفَ بالهجير ماؤُه، وستره عن تلويحِهِ غشاؤه، من التَّبرية القشور الدرّية الظهور، الفضية الكسور، قال: فأيّ نوع من البَرْي أكتب وأصْوب؟ قلت: البرية المستوية القطّ، عن يمين سنّها، بَرية تأمن معها المجّة عند المط[٥]، الهواء في مَشَقّها فتيق، والريح في جوفها

---

(١) البهر: تتابع النَّفَس من الإعياء. ويقال: بهر الشيء فُلاناً: أَدهشه وحيّره.
(٢) الحَصَرُ: العَيُّ في المنطق، والعجز عن الكلام.
(٣) الأَيْمُ: الحيّة الذَّكَرُ. والنضناض من الحيّات: الذي لا يثبت في مكانه لِشِرَّته ونشاطه، أو الذي يخرج لسانه ينضنضه (يحركه).
(٤) التِّرْيَاقُ والدِّرْيَاقُ: ما يستعمل لدفع السموم من الأدوية والمعاجين.
(٥) المَطُّ: المَدُّ، يقال: مَطَّ الحَرْفَ، ومَطَّ خَطَّهُ. وفي رواية: «عند الخط».

خريق، والمِدَاد في خرطومها رقيق، قال: فبقي الأصمعي شاخصاً إليّ ضاحكاً لا يُحِيرُ مسألة ولا جواباً.

[من ترجمة العتابي وأدبه وأخباره]

والعتابي: هو كلثوم بن عمرو بن الحارث التغلبي، يُكْنَى أبا عمرو، قال أبو عثمان الجاحظ: كان العتّابيّ ممن اجتمع له الخطابة، والبيان، والشعر الجيّد، والرسائل الفاخرة، وعلى ألفاظه وحَذْوِه يقول في البديع جميعُ من يتكلّف ذلك من شعراء المولدين كنحو منصور النَّمري، ومسلم بن الوليد الأنصاري، وأشباههما، وكان العتابي يَحْتذي حَذْو بشَّار في البديع، ولم يكن في المولدين أجودُ بديعاً من بشار وابن هَرْمَةَ.

والعتابي من ولد عَمْرو بن كلثوم بن مالك بن عَتَّاب بن سعد، ولذلك قال:

إنـي امْـرُؤٌ هَـدَمَ الإقتـارُ مـأثـرتـي ... وَاجتاحَ ما أَبْدَتِ الأَيامُ من خَطَري[١]
أَنَـا ابـنُ عمـرو بـن كلثـومٍ يُسـوّدهُ ... حَيّـا رَبيعـةَ والأحيـاءُ مِـنْ مُضَـرِ
أرومَـةٌ عَطَّلَتنـي مـن مَكـارِمهـا ... كالقوسِ عَطَّلها الرامي من الوَتَرِ[٢]

وكان صاحبَ بديهة في المنظوم والمنثور، حسن العقل والتميز، وَالعربُ تقول: من تمنّى رجلاً حسنَ العَقْلِ، حسنَ البيانِ، حسنَ العِلْم، تمنَّى شيئاً عسيراً. وَقد اجتمع ذلك كله للعتابي.

وعَاتبه يحيى بن خالد على لباسه، وَكان لا يُبَالي أي ثوبيه ابتذلَ! فقال: أَبْعَدَ اللهُ رجلاً مُهِمُّه أن يكون جمالُه في لباسه وَعطره. إنما ذلك حظُّ النساء، وَأهل الأهواء، حتى يرفعه أكبَراه: هِمّته، وَلبّه، وَيعلو به معظماه: لسانُهُ، وَقَلبُهُ.

ودخل على الرشيد فقال: تكلَّم يا عتَّابيّ! فقال: الإيناس قبل الإبسَاس، لا يُمْدَحُ المرء بأوّل صَوابه، ولا يُذَمّ بأول خَطئه؛ لأنه بين كلامٍ زَوّرَه، أو عيٍّ حَصَرَه.

وذكر أبو هفّان أَنَّ الرشيد لقيه بعد قَتْلِ جعفر بن يحيى وزوال نِعمته، فقال: ما أَحْدَثت بَعْدُ يا عتَّابي؟ فأنشده ارتجالاً:

---

(١) الإقتار: ضيقُ العيش، وقد قتَّر فلان على عياله: بخل وضيّق عليهم في النفقة، وأقتر فلان: ضاق عيشه. والخَطَرُ: العِظم وارتفاع القدر.
(٢) الأرومة: الأصل، يقال: هو طيب الأرومة: كريم الأصل.

تَلُومُ علـى تَـرْكِ الغِنَـى بـاهليـةٌ طَوَى الدهرُ عنها كلّ طِرْفٍ وتَالِدِ
رَأتْ حَوْلَها النّسْوانَ يَرْفُلْنَ في الكُسا مُنظمـةً أَجيـادُهـا بـالقـلائِـدِ(١)
أَسَـرَّكِ أنـي نِلْـتُ مـا نـالَ جَعْفَـرٌ من الملكِ أو مَا نَالَ يَحْيَى بنُ خالدِ
وَأَنَّ أميـر المـؤمنيـن أَغَصَّنِـي مَغصَّهُمـا بـالمُـرهَفَـاتِ البَـوارِدِ(٢)
فَـإِنَّ رَفيعـاتِ المعـالِـي مَشُـوبـةٌ بِمُستودعـاتٍ فـي بُطـونِ الأسـاوِدِ(٣)

وكان متحرفاً عن البرامكة، وفيهم يقول:

إنَّ البَـرَامِـكَ لا تَنْفَـكُّ أَنْجِيَـةً بِصَفْحةِ الدّين من نَجْواهُمُ نَدَبُ(٤)
تَجـرَّمَـتْ حِجـجٌ منهـم وَمُنْصَلُهـم مُضـرَّج بـدم الإسـلام مُختَضِـبُ(٥)

واجتاز عبد اللّه بن طاهر بالرقة بمنزل العتّابي، فقال: أليس هذا منزلَ كلثوم بن عَمْرو؟ قيل: نعم، فَثَنَى رجله، ودخل إليه، فألْفَاه جالساً في بَيْتِ كتبه، فَحادَثهُ وذاكَرَهُ، ثم انصرف، فتحدّث الناسُ في ذلك، وقالوا: إن الأمير لم يَقْصِدُه، وإنما اجتاز به فأَخْطر ذلك الزيارةَ، فكتب إليه:

يـا مَـنْ أَفـادَتْنِـي زِيـارَتُـهُ بَعْـدَ الخمـول نَبـاهـةَ الـذكْـرِ
قـالـوا الـزيـارةُ خَطْـرَةٌ خَطَـرتْ وَمجـازُ خَطْـرِك لَيْـسَ بـالخطـرِ(٦)
فَـادْفَـعْ مَقـالتهـم بِثـالثـةٍ تَستَنْفِـد المجهـودَ مِـنْ شُكْـري
لا تَجْعلَـنَّ الـوِتْـرَ واحـدةً إن الثـلاثَ تَتِمَّـةُ الـوِتْـرِ

---

(١) رَفَلَ في ثوبه: أطاله وجرَّه متبختراً، فهو رافل، وهي رافلة. والأجياد: الأعناق، مفردها: جيد.
(٢) المرهفات: السيوف المُرقَّقة المُحدَّدة، يقال: رهف سيفه رَهْفاً: رقَّقه وحدَّده، ويقال: سيف رهيف، وَحِسٌّ رهيف ومرهف: لطيف.
(٣) الأساود: جمع أسودة، وهي الحية العظيمة فيها سواد، وقيل: الأسود من الحيّات: أخبثها وأنكاها.
(٤) النَّدَبُ: أثر الجرح، الجمع: نُدوب وأنداب.
(٥) تَجرَّمَ: تمَّ وانقضى، يقال: تجرّمت السَّنة، وتجرَّم الليل. والحجج: السنون. والمُنْصَلُ: السيف، الجمع: مَناصل.
(٦) الخَطْرَةُ: ما يخطر في القلب، ويقال: ما ألقاه إلاّ خطرة بعد خطرة: إلاَّ حيناً بعد حين. والخَطْرُ (بتسكين الوسط): العارض من السحاب، والخَطَر (بتحريك الوسط): الإشراف على الهلاك.

فبعثته الأبياتُ إلى أَنْ زَارَهُ ثلاثاً.

وكان يميل إلى المأمون، فلما خرج المأمون إلى خُراسان شيَّعه حتى وصل معه إلى سندان كسرى، فقال له المأمون: سألتك بالله يا عتّابي إلا عملتَ على زيارتنا إنْ صار لنا من هذا الأمر شيء، فلما ولي المأمون الخلافةَ، ودخل بغداد سنة أربع ومائتين توصّل إليه العتّابي، فلم يمكنه الوصول، فقال للقاضي يحيى بن أكثم: إن رأيتَ أن تُعلِم أميرَ المؤمنين بمكاني! فقال: لَسْتُ بحاجب! قال: قد علمت، ولكنك ذو فضل، وذو الفضل مِعْوان! فقال: سلكتَ بي غير طريقي! قال: إن الله تعالى ألحقك بجاهٍ ونعمة، وهما يقيمان عليك بالزيادة إن شكرت، والتغيير إن كفرت، وأنا اليوم لك خيرٌ منك لنفسك؛ أدعوك لما فيه زيادة نعمتك، وأَنت تأبى ذلك؛ ولكلِّ شيء زكاة، وزكاةُ الجاهِ بَذْلهُ للمستعين، فدخل يحيى على المأمون فقال: أجِرْني من لسان العتَّابي، فَلَهَا عنه، ولم يأذن له، فلما طال عليه كتب إليه:

ما على ذَلِكَ افْتَرَقْنَا بِسَنْدا ... نَ ولا هكذا عَهِدْنا الإخَاءَ
لم أكنْ أَحْسِبُ الخلافةَ يَزْدا ... دُ بها ذو الصفاء إلاّ صفاءَ
تَضْرِبُ الناسَ بِالمُثقَّفةِ السُمـ ... ـرِ على غَدْرِهم وَتَنْسَى الوفاءَ[١]

يُعرِّض بِقَتْله لأخيه على غَدره، ونكثه لِمَا عقد الرشيد؛ فلما قرأ المأمون الأبيات أمر أن يُدْخَل عليه. فلما سلم قال: يا عتابي، بلغتني وَفَاتُكَ فَسرَّتْني، وقد كانَت بلَغَتْني وفاتُكَ فساءتني، وإني لحريّ بالغم لِبُعدِك، والسرور بقربك! فقال: يا أمير المؤمنين؛ لو قسم هذا الكلام على أهلِ الأرض لوسعهم عَدْلا وأعجزهم شكراً، وإنّ رضاك لغاية المُنَى؛ لأنه لا دينَ إلا بك ولا دنيا إلا معك، قال: سَلْني، قال: يَدُك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة، فأمر له بخمسين ألفاً.

وقال العتابي وودَّع جاريةً له:

ما غَنَاءُ الحِذَارِ والإشفاقِ ... وَشآبيب دَمْعِك المِهْرَاقِ[٢]
ليس يَقْوَى الفؤادُ منك على الصَّـ ... ـدِّ ولا مُقْلَتَا طَلِيحِ المآقي[٣]
غَدراتُ الأيّامِ مُنْتَزِعَاتٌ ... ما غَنِمْنَا من طُولِ هذا العناقِ

---

(١) المثقفة السمر: الرماح المقوّمة المُسَوّاة.
(٢) الغَنَاءُ: النفع والكفاية، يقال: هذا الشيء لا غَنَاءَ فيه. الشآبيب: جمع شُؤْبُوب: الدفعة من المطر.
(٣) الطَّلِيحُ: المُعْيي، المهزول والمجهود.

إن قضَى اللَّهُ أن يكون تَلاَقٍ ... بَعْدَ ما قَدْ تَرينَ كانَ تَلاقِ
هَوِّني ما عليك واقنَي حَيَاءً ... لَسْتِ تَبْقين لِي وَلَسْتُ بِبَاقِ[١]
أيّنا قَدَّمَتْ صُروفُ المنايا ... فالذي أخّرتْ سَريعُ اللّحاقِ
وَيدُ الحادثاتِ رَهْنٌ بِمُرَّا ... تٍ من العيشِ مُصْبِرَاتِ المذاقِ[٢]
غُرّ مَنْ ظنَّ أنْ يَفُوتَ المنايا ... وَعُراها قلائدُ الأعناقِ
كَمْ صَفِيَّيْنِ مُتِّعَا باتفاقٍ ... ثم صارا لِغُرْبَةٍ وافتراقِ
قُلْتُ للفرقدين والليلُ مُلْقٍ ... سُودَ أكنافِه على الآفاقِ
ابْقَيَا مَا بَقيتُما سَوفَ يُرْمَى ... بينَ شَخْصَيْكما بِسَهْمِ الفِرَاقِ
بينما المرءُ في غَضَارةِ عَيْشٍ ... وَصَلاحٍ من أمرِه واتّفَاقِ
عَطَفَتْ شِدّةُ الزمان فأدّتْـ ... ـهُ إلى فَاقةٍ وضيقِ خِنَاقِ
لا يَدُومُ البقاءُ لِلخَلْقِ لَكِـ ... ـنَّ دوامَ البقاءِ لِلخَلاَّقِ

وقال في الرشيد:

إمامٌ له كَفٌّ تَضُمُّ بَنَانُها ... عَصَا الدين مَمْنُوعاً من البَرْي عُودُها
وعَينٌ مُحيطٌ بالبريَّة طَرْفُها ... سواءٌ عليها قُرْبُها وبَعِيدُها

وقال فيه:

رَعى أُمَّةَ الإِسلام فَهْوَ إمامُها ... وأَدَّى إليها الحقَّ فَهْو أَمِينُها
مُقيمٌ بِمُسْتَنّ الفَلاَ حَيْثُ تَلْتَقي ... طَوَارِقُ أبكارِ الخطُوبِ وَعُونُها[٣]

وكان منصور النمري سَعَى به إلى الرشيد فخافه، فهرب إلى بلد الروم. وله قصائد يعتذرُ فيها جيدةٌ مختارةٌ، وهو مشبّهٌ في حسن الاعتذار بالنابغة الذبياني، ومن جيّد اعتذاره قوله للرشيد، ويقال: بل قالها على لسان عيسى بن موسى الهاشمي يخاطب الرشيد:

جُعلتُ رجَاءَ العفوِ عُذْراً وَشُبْتُهُ ... بِهَيْبَةِ إمَّا غافِرٍ أو مُعَاتِبِ

---

(١) قنا الحياء فلاناً أن يفعل كذا: رَدَّهُ ووعظه، وقَنِي الحياءَ: لزمه.
(٢) مصبرات المذاق: مُرَّة المذاق كالصُّبَّار، وهو نبات صحراوي عصارته شديدة المرارة.
(٣) العُون: جمع عوان: المتوسطة في العمر بين الصغر والكبر من النساءِ والبهائم.

وَكُنْتُ إذا ما خِفْتُ حادِثَ نَبْوَةٍ جَعلتُكَ حِصْناً من حِذارِ النوائبِ
فَأَنْزَلَ بي هِجْرانُك اليأسَ بَعْدَما حَللتُ بوادٍ منكَ رَحْبِ المشاربِ
أَظلُّ وَمَرْعايَ الجديبُ مكانَهُ وآوِي إلى حافاتِ أكدرَ ناضِبِ
وَلَم يَثْنِ عَنْ نفسي الردى غير أنَّها تَنوءُ بباقٍ من رَجائِكَ ثائبِ[١]
هي النفسُ مَحْبُوسٌ عليكَ رجاؤُها مُقيّدةُ الآمالِ دون المطالبِ
وَتَحْتَ ثيابِ الصبر مني ابن لَوْعةٍ يَظلُّ وَيُمْسي مُستلينَ الجوانبِ
فتى ظَفرتْ منه الليالي بزَلَّةٍ فأَقْلَعْنَ عنه دامياتِ المخالبِ
حَنَانَيْكَ إني لم أكُنْ بِعْتُ عِزَّةً بِذلٍّ، وأَحرزتُ المنى بالمواهبِ[٢]
فَقَدْ سُمْتَني الهجرانَ حتى أذقْتَني عُقوبةَ زلاتي وَسوءَ مَناقبِ[٣]
فها أنا مُقْصًى في رِضاكَ، وقابضٌ على حدِّ مصقولِ الذَّمامينِ قاضِبِ[٤]
وَمُنتزِعٌ عما كَرِهْتَ وَجاعِلٌ هَواكَ مثالاً بين عَيْني وَحَاجبي

وفي هذه القصيدة مما يختار أهل الصناعة:

وَأَشْعَثَ مُشتاقٍ رمَى في جُفونِه غَريبَ الكَرَى بين الفِجَاج السباسِبِ[٥]
سَحَبْتُ له ذَيْلَ السُّرَى وَهْوَ لابِسٌ دُجَى الليل حتى مَجَّ ضوءَ الكواكبِ[٦]
وَمنْ فوقِ أكوارِ المَهَاري لُبانةٌ أُحِلَّ لها أَكلُ الذُّرَى والغَوَاربِ[٧]
وَكلُّ فتى عَاداتُهُ قَصْرُ شَوْقِهِ وَطِيُّ الحشى دُونَ الهموم العوازِبِ[٨]

---

(١) تنوء به: يثقل عليها. والثائب: الراجع.
(٢) حنانيك: أي تَحنُّناً بعد تَحنُّن، والتثنية فيه للمبالغة لا لحقيقة التثنية.
(٣) سامه الأمر: كلَّفه إياه وألزمه به.
(٤) القاضب: القاطع.
(٥) الأشعث: الذي تغبَّر شعره وتلبّد، أو الذي اتَّسخ شعره وبدنه من طول السفر. الفِجاجُ: جمع فَجّ: الطريق الواسع البعيد. والسباسب: جمع سَبْسَب: المفازة.
(٦) السُّرَى: السير ليلاً. ومجَّ الشيءَ: لفظه.
(٧) الأكوار: جمع كور، وهو الرحل، وقيل: هو الرحل بأداته. والمهاري: جمع المهرية: نجائب تسبق الخيل، منسوبة لقبيلة مهرة بن حيدان. اللبانة: الحاجة، الوطر. والغوارب: جمع غارب، وهو من البعير: ما بين السّنام والعنق، وهو الذي يلقى عليه خطام البعير إذا أرسل ليرعى حيث شاء.
(٨) العوازب: جمع عازب: بعيد.

يُسِـرّ الهَـوَى لـم يُبْـدِه نَعْـتَ فِـرْقَـةٍ صُراخاً، ولـم تَسْمَعْ بـه أُذْنُ صـاحِـبِ
إذا ادَّرع الليـــل انْجَلـــى وكـــأنّـــهُ بَقيـةُ هِنْـدي الحسـامِ المُضـارِبِ(١)
بِرَكْبٍ تَرى كَسْر الكَرَى في جُفُونِهمْ وَعَهـدَ الليـالـي فـي وُجـوهٍ مَشَـاحِـبِ(٢)

وقال أيضاً:

لَــوْ رَأَتْنــي بِــذِي المَحَـارَةِ فَـرْداً وَذِراعُ ابنـــة الفَـــلاَةِ وِسَـــادِي
أُطفـىءُ الحـزنَ بـالـدمـوع إذا مـا حُمَّـةُ الشـوقِ أَثَّـرتْ فـي فُـؤَادي
خـاشِعُ الطـرف قـد تَوشَّحَني الضرّ فَـــلانَـــتْ لـــه قنَـــاةُ قِيَـــادي
تِـرْبَ بُـؤْسٍ أخـا همـوم كـأنّ الْـ ـحُـــزْنَ والبـؤسَ وَافَيَـا مِيـلاَدِي
وَكَـأَنّـيَ اسْتَشْعَـرْتُ مـا لفـظ النـا س مـــن النـــائِـــرَاتِ والأحقـــاد(٣)
أتصـــدَّى الـــرَّدَى وأدَّرِع الليـ ـــل بِهَـوْجَـاءَ فـوقهـا أقْتَـادِي(٤)
حَـظّ عينـي مـن الكـرى خَفقـاتٌ بيـــن سَـرْجِـي ومُنْحَنَـى أَعْـوَادِي
أَوْحَـشَ النـاسُ جـانبـيَّ فمـا آ نَـسُ إلاّ بِـوحـــدتـــي وانفـــرادي
قَـدْ رَددْتُ الـذي بـه أتقـي النـا س وأبـــرزتُ للـــزمـــانِ سَـــوَادي
فَـاسْتَهلَّـتْ علـيّ تُمطـرنـي الشَّـو قَ شـآبِيـبَ مُـزْنـةٍ مِـرْعَـادِ(٥)

وقال:

أمَـا راعَ قَلْـبَ العـامِـريـةِ أَنّنـي غَـدوْتُ وَمَـرْجُـوعُ السقـامِ قَـرِينـي

وقال:

أُكـاتِـمُ لَـوْعـاتِ الهَـوَى وَيُبِينُهَـا تَخَلُّـلُ مَـاءِ الشـوقِ بيـن جُفُـونـي
وَمطْروفـةِ الإنسـانِ فـي كُـلّ لَـوْعَـةٍ لهـا نَظْـرةٌ مَـوْصُـولـةٌ بِحَنِيـنِ(٦)

(١) ادَّرعَ الليل: دخل في ظلمته، كأنه تَدرَّعها واستتر بها.
(٢) شحب جسمه ووجهه: تغيَّر وهزل.
(٣) النائرات: يقال: نأرت نائرةٌ في الناس نَأْراً: هاجت هائجةٌ.
(٤) الهوجاء من النوق: المسرعة كأنَّ بها هَوَجاً، والهوج: الحُمْقُ والطيش. الأقتاد: جمع قَتَد، وهو خشب الرحل.
(٥) المزنة: السحابة الممطرة. مرعاد: ذات رعد.
(٦) طَرَف البصر: تحرك جفناه، وطرف إليه: نظر، وطرف الشيءَ: نظره، وطرف عينه: أصابها، ويقال: طرف عينه الحزن. وإنسان العين: سوادها.

[من آداب آل وهب]

وقال الحسن بن وهب بن سعيد:

أَبْكِ فَمِنْ أحسن ما في البُكَىٰ   أَنّ البُكىٰ للوَجْدِ تَحْليلُ
وَهْوَ إذا أَنْتَ تأملتهُ   حُزْنٌ على الخدّين مَحْلُولُ

وقد أعرق بنو وَهْب في الكتابة وأنجبوا، ولهم في هذا الكتاب ما يشهد لهم بما نُسب إليهم، وفيهم يقول الطائي:[١]

كُلّ شِعْبٍ كُنْتُمْ بهِ آلَ وَهْبٍ   فَهْوَ شِعْبي وشِعْبُ كُلِّ أَديبِ[٢]
إنّ قلبي لَكُمْ لكَا لكَبِدِ الحَـ   ـرَّى وقَلْبي لِغَيْرِكُمُ كالقُلُوبِ[٣]

وفي هذه القصيدة يقول في مدح سليمان بن وهب:

ما عَلى الوُسَّجِ الرَّوَاتِك مِن عَيْـ   ـبٍ إذا ما أَتَتْ أَبا أيوبِ[٤]
حُوَّلٌ لاَ فِعَالُهُ مَرْتَعُ الذَّمِّ   ولا عِرضُهُ مُناخُ العُيُوبِ[٥]
وَاجِدٌ بالصديقِ منْ بُرَحَاء الشَّـ   ـوقِ وِجْدَانَ غَيْرِهِ بالحبيبِ[٦]

أَخَذَ سليمانُ منه معنى هذا البيت الأخير، فقال في رسالة لبعض إخوانه:

ظَرْفُ الصداقة، أرقُّ من ظرف العلاقة، والنفس بالصديق، آنس منها بالعشيق. فقال له أبو تمام: كلامك هذا أرق من شعري.

والحسن بن وهب حَسَنُ الشعر والبلاغة، جيّد اللسان، حلو البيان، وكان يحب بنان جارية محمد بن حمّاد، وله فيها شعر جيد، ولها يقول:

أَقُولُ وَقَدْ حَاوَلْتُ تَقْبِيلَ كَفِّهَا   وبي رِعْدَةٌ أهتزُّ منها وَأَسْكُنُ
لِيَهْنِئْكِ أَنّي أَشْجَعُ الناسِ كُلّهم   لَدى الحَرْبِ إلا أَنني عَنكِ أَجْبُنُ

---

(١) أبو تمام، الديوان: ١/ ١٢١.
(٢) الشِّعْبُ هنا بمعنى الناحية والمكان.
(٣) يقول: إن قلبي لشدة محبتكم، وشوقي إليكم ككبد العاشق، وقلبي لغيركم كقلوب سائر الناس.
(٤) في الديوان: «من عَتْبٍ». الوُسَّجُ: مفردها واسج، وهو السائر وسيجاً، وهو ضرب من سير الإبل. الرواتك: التي تسير الرتك، وهو ضرب من سير الإبل أيضاً. أبو أيوب: هو الممدوح سليمان بن وهب. يقول: لا عتب على النوق السريعة أن تقصد أبا أيوب.
(٥) في الديوان: «مُرَاحُ العيوب». الحُوَّلُ: البصير بتحويل الأمور. والمراحُ: المأوى.
(٦) في الديوان: «واجلٌ بالخليلِ». وبرحاء الشوق: شدّته.

وحضرَتْ مجلسه وبين يديه نار فأمرَتْ بإزالتها، فقال:

بـأبـي كُـرِهْـتِ النـارَ حتـى أُبْعِـدَتْ ... فَعلِمْـتُ مـا مَعْنـاكِ فـي إبعـادِهـا
هـي ضَـرَّةٌ لـكِ فـي التِمَـاع ضِيـائها ... وَهُبـوبِ نَفْحَتِهـا لـدى إيقـادهـا
وَأَرى صَنيعكِ في القلوبِ صَنيعَها ... بِسَيـالهـا وأَراكِهـا وعَـرَادِهـا[1]
شَـركَتْـكِ فـي كـلِّ الأمـورِ بِفعْلهـا ... وَضِيـائهـا وَصَـلاحِهـا وَفسـادِهـا

وإلى هذا ينظر قول الأمير تميم بن المعزّ:

مـا هَجَـرْتُ المُـدامَ والـوردَ والبـد ... رَ بطَـوْعٍ، لَكِـنْ بِـرَغْـم وَكُـرْهِ
مَنعتنـي مـن الثـلاثـة مَـنْ لَـوْ ... قَتلتنـي لَـم أَشْكُ واللّهِ مَنْ هِـي
قـالـت الـوردُ والمـدامـةُ والبـد ... رُ ضِيـائـي ولـونُ خـدّي وَوَجْهـي
قُلـتُ بُخـلاً بكـلّ شـيءٍ فَقـالـتْ ... لا وَلكِـنْ بخلـتُ بـي وَبِشِبْهـي
قُلـتُ يـا ليتنـي شَبيهُـكِ قَـالـتْ ... إنمـا يَقْتُـلُ المُحِـبَّ التَّشَهِّـي

ولما مات الحسن بن وهب ـ وكان موته بالشام ـ عُزّي عنه أخوه سليمان، فجاءَ أبو العيناء، فقال: أنشدني أبو سعيد الأصمعي:

لَعَمْـري لَنِعْـمَ المـرءُ مـن آل جعفـرٍ ... بِحُـورانَ أَمْسَـى أَعلقَتْـهُ الحبـائِـلُ[2]
لَقَـدْ فَقَـدُوا عَـزْمـاً وَحـزْمـاً وَسُـؤدداً ... وَعِلْمـا أصيـلا خَـالَـفَتْـهُ المَجاهِـلُ
فَإِنْ عِشْتَ لم أملَلْ حياتي وإن تَمُتْ ... فما في حياتي بعد مَوْتِكَ طائِلُ

فقال سليمان: أحسن الله جزاءك، ووصل إخاءَك، إن هذا لمن أحسن الشعر، وقد تمثّل به قتيبة حين بلغه موتُ الحجاج، ولكني أقول كما قال كعب بن سعد الغنَوي[3] يرثي أخاه أبا المغوار:[4]

---

(١) السيال: شجر سبط الأغصان. والأراك: الشجر الذي تتخذ من أغصانه المساويك. والعراد: شجر صلب، واحدته: عرادة.
(٢) الحبائل: جمع حِبالة: المصيدة، وحبائل الموت: أسبابه.
(٣) هو كعب بن سعد بن عمرو الغنوي، من بني غني بن أعصر: شاعر جاهلي مجيد، من الطبقة الثانية، وشعره من النقي الحرّ، يستشهد به أهل اللغة. قُتل أخوه أبو المغوار في حرب «ذي قار» بعد أن أبلى فيها بلاءً حسناً، فرثاه كعب بقصيدة هي من أشهر مراثي العرب. توفي نحو ١٠ ق.هـ/ نحو ٦١٢ م. (المرزباني، معجم الشعراء: ٢٣٠؛ شيخو، شعراء النصرانية: ١/ ٧٤٦).
(٤) القصيدة كاملةً في شعراء النصرانية: ١/ ٧٤٦ ـ ٧٤٩.

أخي ما أخي لا فَاحِشٌ عند بَيْتِهِ وَلا وَرِعٌ عنــدَ اللقــاءِ هَيــوبُ[١]
حَليـم إذا مـا سَوْرةُ الجهـلِ أطلقَـتْ حُبَى الشيبِ، للنفس اللَّجوج غَلوبُ
حَبيـبٌ إلـى الـزوّارِ غِشْيـانُ بَيْتـهِ جَميـلُ المُحيّا شَـبّ وَهْوَ أريـبُ[٢]
إذا مــا تَــرا آهُ الــرجــالُ تَحفَّظـوا فَلَـم تُنْطَـقُ العَـوْراءُ وَهـو قـريـبُ[٣]

فانصرف الناس يعجبون من علم سليمان، وحسن جوابه، وصحّة تمثله.

والأبيات التي أنشدها الأصمعي للحطيئة، واسمه جَرْوَل بن أَوْس بن جُوَيَّة بن مخزوم بن مالك بن غالب بن قطيفة بن عَبْس بن بَغيض، يقولها في علقمة بن عُلاَثة[٤] وفيها يقول:

فمـا كـانَ بَيْنـي لـو لَقِيتُـكَ سَـالمـاً وَبيْـنَ الغِنَـى إلا لَيـالٍ قَـلائِـلُ

قال سليمان بن وهب: لما جار علينا بالنكبة السلطان، وجَفَانَا من أجلها الإخوان، أنصفنا ابن أبي دُوَاد بِتطوُّله، وكفانا الحاجةَ إليهم بِتفضّله، فكنا وإياه كما قال الحطيئة:

جَـاورتُ آل مُقَلَّـدٍ فَحَمِـدتُهـم إذ لا يكـادُ أَخــو جِـوارٍ يُحْمَـدُ
أيـام مَـن يُـرِد الصنيعَـة يَصْطَنِـعْ فِينـا، ومَـنْ يُـرِدِ الـزَّهـادةَ يَـزْهَـدُ

وله فصل إلى بعض إخوانه:

لك أن تعتب، وشبيهك أن يعذر؛ فَهَبْ أقل الأمرين لأكثرهما، وقدّم فضلك على حقّك، ويقينك على شكّك.

ووصف رجلاً بليغاً فقال: كان واللهِ واسعَ المنطق، جَزْلَ الألفاظ، ليس بالهذِر في لفظه، [ولا المظلم في مقصده؛ معناه إلى القلم أسْرَع من لَفْظِه إلى السَّمْع].

---

(١) في شعراء النصرانية: «فاحشٌ عند ريبةٍ».
(٢) شبَّ شَباباً: أدرك طور الشباب. والأريب: الفَطِن.
(٣) في شعراء النصرانية:
إذا مــا تــراءى للــرجــال رأيتــه فلـم ينطقـوا اللغـواء وهـو قـريـبُ
(٤) هو علقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص، وكان من حكام الجاهلية، وكانت منافرته لعامر بن الطفيل أشهر منافرةٍ في الجاهلية. وكان علقمة قد أسلم، ثم ارتد، ثم عاد إلى الإسلام. (الجاحظ، الحيوان: ٦/ ٢٢٤، الحاشية رقم ٩).

وهذا ضدّ قول محمد بن عبد الملك الزيات في عبيد اللّه بن يحيى بن خاقان: هو مهزول الألفاظ، غليظ المعاني، سخيفُ العقل، ضعيف العقدة، واهِي العَزْم، مأفونُ الرأي[١].

ألفاظ لأهل العصر في ذم الكِتاب والكُتّاب والنثر والشعر

الخَرَسُ أحسنُ من كلامه، والعِيّ أبلغُ من بيانه، خاطره يَنْبُو، وقلمه يَكْبُو، ويسهو ويغلط، ويخطىء ويُسقِط. هو قصير باع الكتابة، قاصِر سَعْي الخطابة، وَكتُبُهُ مضطربة الألفاظ، متفاوتة الأبعاضِ، منتشرة الأوضاع، متباينة الأغراض. الجلمُ[٢] أولى بكفّه من القَلم، والطَّاس أليقُ بها من القرطاس. كلامٌ تنبو عن قبوله الطباع، وتتجافَى عن استماعه الأسماع. ألفاظٌ تَنْبُو عنها الآذان فتمجّها، وتنكرها الطباع فَتزُجُّها. كلام لا يَرْفَعُ الطبعُ له حِجاباً، ولا يفتحُ السمعُ له باباً. كلام يُصْدِي الريّان[٣]، ويصدىء الأفهام والأذهان. كلام قد تعمّل فيه حتى تبذل، وتكلّف حتى تعسّف. طبع جاسٍ[٤]، ولفظ قاسٍ، لا مساغَ له في سَمْع، ولا وصول له مع خلو ذَرْع[٥]. كلام لا الرويّة ضربَتْ فيه بِسَهْم، ولا الفكرة جالت فيه بِقِدْح. كلام تَتَعَثَّرُ في حزونته[٦]، وتتحيَّر الأفهامُ من وُعُورته. كلمات ضعيفةُ الإتقان، قليلة الأعيان، مُضْمَحلّة على الامتحان. ألفاظ تُسْتَعارُ من الديباجي، ومعانٍ تقذر من الأثافي[٧]. كلام بِمثْلِه يتسلّى الأخرس عن كلمه، ويفرح الأصم بصممه، أثقل من الجندل، وأمرّ من الحنظل، هو هذيان المحموم، وسوداء الهموم. كلام رثّ، ومعنًى غَثّ، لا طائل فيهما، ولا طلاوة عليهما. أبيات ليست من محكم الشعر وحكمه، ولا من أحجال الكلام وَغُرَرِه. شعر ضعيف الصنعة رديء الصيغة بغيض الصفة [وقد جمع بين إقواء وإيطاء[٨]،

(١) مأفون الرأي: فاسده، يقال: أَفَنَ الرجل أَفْناً: نقص عقله، فهو مأفون وأفين.
(٢) الجَلَمُ: ما يُجَزُّ به، وقد جَلَمَ الشيء قطعه، وجلم الشَّعْرَ والصوفَ: جَزَّهُ بالجَلَم.
(٣) الصدى: العطش، وأصداه: أعطشه. والريان: الممتلىء ريًّا.
(٤) طبع جاسٍ: خشن، غليظ.
(٥) الذَّرْعُ: المقدار، أو الطاقة والوُسْعُ.
(٦) الحزن من الأرض: ما غَلُظَ، ومن الناس: من خَشُنت معاملته.
(٧) الأثافيّ: حجارة الموقد، مفردها أُثْفِيَّةٌ.
(٨) الإقواء والإيطاء: ضربان من عيوب القافية، فالإقواء: هو تغيير حركات الروي، والإيطاء: إعادة كلمة الروي لفظاً ومعنى.

وإبطاء وإخطاء. ما قطع في شعره شَعْرة] ولا سقى قطرة. لو شعر بالنقص ما شَعر. لا يميز بين خبيثِ القول وطيّبه، ولا يَفْرِق بين بِكْرِه وَثيِّبِهِ. هو باردُ العبارة، ثقيل الاستعارة. هو من بين الشعراء منبوذ بالعَراء. لم يلبَسْ شعرُه حلَّة الطلاوة. له شعر لا يطيب دَرْسه، ولا يخف سَرْده، وخطٌّ مضطرب الحُرُوف، متضاعف التضعيف والتحريف. خطّ يُقْذِي العين ويُشْجِي الصَّدْر. خط منحطّ، كأنه أرجل البطّ، وأنامل السرطان، على الحيطان. قلمه لا يستجيب بريه، ومداده لا يساعد جَرْيه. قلمه كالولد العاقّ، والأخ المشاق، إذا أدَرْتَه استطال، وإذا قوَّمته مال، وإذا بَعَثْتَهُ وقف، وإذا وقفته انحرف. قلم مائل الشق، مضطرب المشق، متفاوت [البَرْي، معدوم الْجَرْي، محرّف القطّ. قلم لم يُقَلَّم ظفره فهو] يخدش القِرطاس، وينقش الأنقاس[١]، ويأخذ بالأنفاس. قلم لا يُبْعَثُ إذا بعثته، ولا يقف إذا وقفته. وقد وقف اضطرابُ [بَرْيِه، دون استمرار] جَرْيه، واقتطعَ تفاوت قَطّه، عن تجويد خطه.

[وصف الكلام]

وصف كلام العرب لعتبة بن أبي سفيان

ذكر عُتبة بن أبي سفيان[٢] كلام العرب فقال: إن للعرب كلاماً هو أرقّ من الهواء، وأعذب من الماءِ، مرق من أفواههم مُروقَ السهام من قِسيّها، بكلمات مؤتلفات، إنْ فُسِّرت بغيرها عَطِلتْ، وإن بدلت بِسوَاها من الكلام استصعبَتْ؛ فسهولة ألفاظِهم تُوهِمك أنها ممكنة إذا سُمِعتْ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلِبتْ. هم اللطيف فهمهم، النافعُ علمهم، بِلُغَتِهِمْ نزل القرآن، وبها يُدْرَكُ البيان، وكلُّ نوع من معناه مُبَاينٌ لما سواه، والناسُ إلى قولهم يصيرون، وبهداهم يأتمّون، أكثر الناسِ أحلاماً، وأكرمُهم أخلاقاً.

وكان يقال: خير الكلام المُطْمِع الممتنع.

وأنشد إبراهيمُ بنُ العباس الصُّوليُّ لخاله العباس بن الأحنف:

---

(١) الأنقاس: جمع نِقْس، وهو المِدادُ (الحِبْرُ).

(٢) هو عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس: أمير مصر، وليها من قِبل أخيه معاوية، فقدمها سنة ٤٣ هـ/ ثم خرج إلى الإسكندرية مرابطاً، فابتنى داراً في حصنها القديم، وتوفي فيها سنة ٤٤ هـ/ ٦٦٤ م. اشتهر عتبة بالفصاحة ورجاحة العقل والمهابة. قال الأصمعي: الخطباء من بني أمية: عتبة بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان (ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة: ١/ ٢٢؛ الزركلي، الأعلام: ٢/ ٢٠٠).

إليكَ أشكو ربّ ما حَلّ بي ... مِنْ صدِّ هذا العاتِب المُذْنِبِ
إنْ قالَ لَمْ يَفْعَلْ، وإن سِيلَ لم ... يَبذُلْ، وإن عُوتِبَ لم يُعْتِبِ
صَبٌّ بِعصْياني، ولو قال لي ... لا تَشْرَبِ البارِدَ لم أشْرَبِ

ثم قال: هذا والله الشعر الحسن المعنى، السهل اللفظ، العَذْب المستمع، الصعب الممتنع، العزيز النظير، القليل الشبيه، البعيد مع قُرْبِه، الحَزْن مع سهولته، فجعل الناس يقولون: هذا الكلام أحسن من الشعر.

الناشيء يصف شعره

وقال أبو العباس الناشيء يصف شعرهُ:

يَتحيّرُ الشعراءُ إن سمعوا بهِ ... في حُسْنِ صَنْعتِهِ وفي تأليفهِ
فَكأنّهُ في قُربِه من فَهْمِهِمْ ... وَنُكولِهِمْ في العَجْزِ عن تَرْصيفِهِ[1]
شَجرٌ بَدا للعَيْنِ حُسْنُ نباتِهِ ... ونَأَى عن الأيدي جَنَى مَقْطُوفِهِ
فإذا قَرنْتَ أبِيَّهُ بمُطيعهِ ... وَقرنْتَهُ بِغَريبِهِ وَطريفِهِ
ألفيتَ معناهُ يُطابِقُ لَفْظَهُ ... وَالنظمُ منه جَليّهُ بِلَطِيفِهِ
فأتاه مُتّسِقاً على إحسانِهِ ... قد نِيطَ منه رَزينُه بِخَفيفِهِ
هَذَّبْتُهُ فَجعلتُهُ لك باقياً ... وَمنعْتُ صَرْفَ الدهرِ عن تَصْرِيفِهِ

للناشيء في الشعر

وقال الناشيء في فَصْلٍ من كتابه في الشعر: الشعرُ قَيْد الكلام، وعقل الآداب، وسُورُ البلاغة، ومعدن البَراعة، ومجال الجنان، ومسرحُ البيانِ، وذريعة المتوسّل، ووسيلةُ المتوصل، وذِمام الغريب، وحُرْمَة الأديب، وعِصْمة الهارب، وعدَّة الراهب، ورحلة الدَّاني، ودَوْحَة المتمثل، وروحة المتحمّل، وحاكم الإعراب، وشاهِدُ الصواب.

وقال في هذا الكتاب: الشعرُ ما كان سَهلَ المطالع، فَصْلَ المقاطع فَحْلَ المديح، جَزْلَ الافتخار، شجِيَّ النسيب، فَكِهَ الغزل، سَائِرَ المَثَل، سليم الزلل، عديم الخلل، رائع

---

(١) نكل عن الأمر نُكُولاً: جَبُنَ ونكص. ورصف الشيء: رَصَّه، ورصف الحجارة في البناء: ضمَّ بعضها إلى بعض.

الهجاء، موجب المعذرة، مُحَبّ المعتبة، مُطْمع المسالك، فائت المدارك، قريب البيان، بعيدَ المعاني، نَائي الأغوار، ضاحي القرار، نقي المستشف، قد هُرِيقَ فيه ماءُ الفصاحة، وأَضاء له نور الرجاحة، فانهلّ في صادِي الفهم، وأضاء في بهيم الرأي. لمتأمله ترقرق، ولمستشفّه تألّق، يروق المتوسم، يسر المترسّم؛ قد أبدت صدوره مُتُونه، وزَهَتْ في وجوهه عيونه، وانقادت كواهله لهواديه، وطابقت [ألفاظه معانيه، وخالفت أجناسه مبانيه، فاطّرد لمتصفحه، وأنار] لمستوضحه، وأَشْبَه الروضَ في وَشْي ألوانِه، وتعمّم أفنانه، وإشراق نَواره، وابتهاج أنجاده بأغواره؛ وأشبه الوشي في اتفاق رُقومه، واتساقِ رُسومه، وتسطير كفوفه، وتحبير فُوفه؛ وحكى العِقْد في التئام فُصولِه، وانتظام وُصوله، وازديان ياقوته بِدُرِّه، وفريده بِشَذْرِه، فلو اكتنف الإيجاز موارده، وَصَقَلَت مَدَاوِس الدربة مَناصله، وشحذت مدارس الأدب فَيَاصِله، جاء سليماً من المعايب، مهذّباً من الأدناس، تتحاشاه الأُبَن، وتتحَامَاه الهُجَن، مُهْدِياً إلى الأسماع بَهْجَته، وإلى العقول حِكْمته.

للمؤلف في الشعر

وقد قلت في الشعر قولاً جعلته مثلاً لقائليه، وأسلوباً لسالكيه، وهو:

الشعرُ ما قَوَّمْتَ زَيْغَ صُدُورِهِ ... وَشَدَدْتَ بالتهذيب أَسْرَ مُتُونِه[1]
وَرأَبْتَ بالإطناب شَعْبَ صُدُوعِهِ ... وَفَتَحْتَ بالإيجازِ غَوْرَ عُيُونِه[2]
وَجَمعْتَ بين قَريبِهِ وَبعيدِهِ ... وَوصَلْتَ بين مَجمّهِ وَمَعِينِه[3]
وَعقدتَ منه لِكُلّ أمر يقتضي ... شَبهاً به فَقَرَنْتَهُ بقرينِهِ
فإذا بَكيْتَ به الديارَ وأهلَها ... أَجْرَيْتَ للمحزونِ ماءَ شُؤُونِه
وَوَكلْتَهُ بِهُمومِهِ وَغُمومِهِ ... دَهْراً فلم يَسْرِ الكَرَى بِجُفونِه
وإذا مدَحْتَ به جواداً ماجِداً ... وقَضَيْتَهُ بالشّكر حقّ دُيونِه
أَصْفَيْتَهُ بنفيسِه ورَصينِه ... وَمنحتَهُ بخطيرِه وَثمينِه
فَيكونُ جَزْلاً في اتّفاقِ صُنُوفِهِ ... وَيكونُ سَهْلاً في اتّساق فُنونِهِ

---

(١) الأَسْرُ: شدّة الخلق.
(٢) الإطناب (في علم المعاني): أن يزيد اللفظ على المعنى لفائدة، وهو يقابل الإيجاز، وتوسطهما المساواة.
(٣) المَجَمُّ: مُسْتَقرُّ الماء.

وإذا أردتَ كنايةً عن ريبةٍ بَايَنْتَ بين ظهوره وبُطونِهِ
فَجعلْتَ سَامِعَهُ يَشوبُ شُكوكَهُ بِبَيانِهِ وظنونَهُ بِيقينِهِ
وإذا عَتبْتَ على أخٍ في زَلَّةٍ أدمَجْتَ شِدّته له في لِينِهِ
فَتركتهُ مُستأنِساً لِدماثةٍ مُستيئساً لِوُعُوثِهِ وَحُزُونِهِ(١)
وإذا نَبذْتَ إلى التي عُلقتها إن صارَمَتْك بِفاتناتِ شُئونِهِ
تَيَّمتَها بِلَطيفهِ وَرقيقهِ وَشغفْتَهَا بِخفيِّهِ وَكمينِهِ
وَإذا اعتذرتَ إلى أخٍ في زلَّةٍ وَاشَكْتَ بين مُحِيلهِ ومُبِينِهِ
فَيَحُورُ ذَنْبُك عند من يَعْتَدّهُ عَتْبًا عليك مُطَالباً بيمينِهِ
والقولُ يَحْسُنُ منه في مَنْثُورِه ما ليس يَحْسنُ منه في مَوْزُونِهِ

للخليل بن أحمد في الشعراء

وقال الخليل بن أحمد: الشعراءُ أمراءُ الكلام، يصرّفونه أنَّى شاءوا؛ وجائزٌ لهم ما لا يجوزُ لغيرهم: من إطلاق المعنى وتقييده، ومن تصريف اللَّفظ وتعقيده، ومدّ مقصوره، وقَصْرِ ممدوده، والجمع بين لغاتِه، والتفريق بين صفاته.

وقال: الشعرُ حِلْيَة اللسان، ومَدْرَجَة البيان، ونظامُ الكلام، مقسوم غَيْرُ محظور، ومشترك غير محصور، إلا أنه في العرب جَوْهريّ، وفي العجم صناعي.

بين أعرابي وفارسي

قال أعرابي لشاعر من أبناء الفرس: الشعرُ للعرب، فكلُّ مَنْ يقول الشعر منكم فإنما نَزَا على أُمّه رجلٌ منا! فقال الفارسي: وكذلك من لا يقولُ الشعرَ منكم، فإنما نَزَا على أُمّه رجل منا!

لعمارة بن عقيل وللجاحظ

وقال عمارة بن عقيل: أجود الشعر ما كان أَمْلَس المتون، كثيرَ العيون، لا يمجُّه السمع، ولا يستأذِنُ على القلب. وأنشد الجاحظ شعرَ أبي العتاهية فلم يَرْضَه، وقال: هو أملَسُ المتون، ليس له عيونٌ. كأنه وعُمارة تجاذبا كلاماً واحداً.

---

(١) الوَعْثُ: المكان السهل تغيب فيه الأقدام، والطريق الخشن الغليظ العسير. وقد أوعث المتكلم: عجز عن الكلام.

وقال ابن عقيل: الشعرُ بضاعةٌ من بضائع العرب، ودليل مِنْ أدلَّةِ الأدب، وأثارة من أثارات الحسب. ولن يهزّ الشعرُ إلا الكريمَ المَحْتِد، الكثير السؤدد، الكلِف بذِكْرِ اليومِ والْغَد.

لبشار وقد مدح المهدي فلم يجزه

ومدح بشار المهديّ فلم يُعطِه شيئاً، فقيل له: لم تُجِدْ في مَدْحِه. فقال: لا والله، لقد مدَحْتهُ بشعرٍ لو قلت مِثْلَهُ في الدهر لما خيف صَرْفُهُ على حُرّ، ولكني أَكْذِبُ في العمل، فَأُكْذَبُ في الأمل.

نظمه الناجم فقال:

وَلــي فــي أحمــدٍ أَمــلٌ بَعِيــدٌ وَمَــدْحٌ حيــنَ أُنْشِــدُهُ طَــرِيــفُ
مَـدائـح لـو مَـدَحْـتُ بهـا الليـالـي لمــا دارتْ علــيَّ لهــا صُــروفُ

خالد بن صفوان يصف جريراً والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك لخالد بن صفوان: صِفْ لي جريراً والفرزدق والأخطل، فقال: يا أمير المؤمنين، أما أعظمهم فَخْراً، وأبعدُهم ذكراً، وأحسنهم عُذْراً، وأَسْيَرُهم مَثَلاً، وأقلّهم غزلاً، وأحلاهم عِللاً، البحر الطامي إذا زَخَر، والحامي إذا ذعر، والسامي إذا خطر، [الذي إذا هدر جال، وإذا خطر صال، الفصيح اللسان، الطويل العنان، فالفرزدق. وأما أحسنهم نَعْتا، وأمدَحُهُمْ بيتا، وأقلهم فَوْتا، الذي إن هجا وضع، وإن مدح رَفَع، فالأخطل. وأما أَغْزَرُهم بحرا، وأرقُّهم شعراً، وأكثرهم ذِكرا، الأغرّ الأبلق، الذي إن طَلب لم يُسْبَقْ، وإن طُلب لم يُلْحَق، فجرير. وكلُّهم ذكيُّ الفؤادِ، رفيع العماد، وَارِي الزناد.

قال مسلمة بن عبدالملك، وكان حاضراً: ما سمعنا بمثلك يابن صفوان في الأولين ولا في الآخرين، أشهدُ أنك أحسنُهم وصفا، وأَلْينُهُم عِطفا، وأخفُّهم مقالا، وأكرمهم فعالا. فقال خالد: أتم الله عليك نِعَمَهُ، وأجزل لك قِسَمَهُ. أنتَ والله أيها الأمير ـ ما علمت ـ كريمُ الغِراس، عالمٌ بالناس، جوادٌ في المَحْلِ، بسّام عند البَذْلِ، حليم عند الطَّيْشِ، في الذِّرْوة من قريش، من أشراف عبد شمس، ويومك خيرٌ من الأمس.

فضحك هشام وقال: ما رأيت مثلك يابن صفوان لتخلصك في مَدْح هؤلاء، ووصفهم، حتى أرضيتهم جميعاً وسَلِمْتَ منهم.

بين العجاج وعبد الملك بن مروان

ودخل العجّاجُ على عبدِ الملك بن مروان فقال له: بلغني أنك لا تُحْسِن الهجاء، فقال: يا أمير المؤمنين، مَنْ قَدر على تشييد الأبنية، أمكنه خَرابُ الأخبية، قال: ما يمنعُك من ذلك؟ قال: إنّ لنا عِزًّا يمنعُنَا من أن نُظْلَم، وحِلماً يمنعنا من أن نَظْلِم، قال: لَكَلِماتُك أحسنُ من شعرك! فما العزُّ الذي يمنعك أن تظلم؟ قال: الأدب [البارع، والفَهْم الناصح. قال: فما الحِلمُ الذي يمنعُك من أن تظلم؟ قال: الأدب] المستطرف، والطبع التّالد، قال: لقد أصبحت حكيماً. قال: وما يمنعني من ذلك وأنا نَجِيُّ أميرِ المؤمنين؟

قال أبو إسحاق: وليس كما قال العجاج، بل لكثير من الشعراء طباع تَنْبُو عن الهجاء كالطائي وأضْرابه، وأصحابُ المطبوع أقدرُ عليه من أهل المصنوع، إذ كان الهجو كالنادرة التي إذا جَرَتْ على سجيّةِ قائلها، وَقَرُبَتْ من يَدِ متناولها، وكانَ واسِع العطن(١)، كثير الفطن، قريب القلب من اللسان، التهبَت بنارِ الإحسان.

المقامة القريضية من مقامات البديع يصف الشعراء

ومما يَنْحُو هذا النحو من مقامات أبي الفتح الإسكندري إنشاء بديع الزمان قال: حدثنا عيسى بن هشام قال: طرحَتْني النوَى مطارِحَها، حتى إذا وَطِئْتُ جُرْجان الأقْصَى، فَاسْتَظْهَرْتُ على الأيام بضِياعٍ أَجَلْتُ فيها يَدَ العِمَارة، وأموالٍ وقفتها على التجارة، وحانُوتٍ جعلته مَثابة(٢)، ورُفقة اتخذتهم صَحَابة، وجعلتُ للدار حاشِيَتي النهار، والحانوتِ ما بينهما؛ فجلسنا يوماً نتذاكرُ الشعر والشعراء، وتلقاءَنا شاب قد جلس غَيْرَ بعيد، يُنْصت وكأنه يفهم، ويسكت وكأنه لا يعلم، حتى إذا مال الكلامُ بنا مَيْلَهُ، وجَرَّ الجَدَلُ فينا ذَيْلَهُ. قال: أصبتم عُذَيقه(٣)، ووافيتم جُذَيله، ولو شِئْتُ للفظت [فأفَضْت]، ولو أردت لسردت، ولجاءت الحقّ في معرض بيان يُسْمعُ الصم، ويُنْزِل العُصم. فقلت: يا فاضل، أَدْنُ فقد منَّيْتَ، وهات فقد أثنيت، فدنا وقال: سَلُوني أُجِبْكُمْ، واستمعوا أُعْجِبْكُمْ.

قلنا: فما تقول في امرىء القيس؟ قال: هو أول مَنْ وقَفَ بالديار وعَرصاتِها(٤)،

---

(١) واسع العطن: واسع الصبر والحيلة عند الشدائد، سخي كثير المال.

(٢) الحانوت: دكان الخمار. مثابة: مكان يرجع إليه كلما أراد.

(٣) عُذيقة: تصغير عِذْق، وأصله النخلة بحملها

(٤) العرصات: جمع عرصة: ساحة الدار أو الحيّ.

واغْتَدى والطيرُ في وُكُنَاتها[1]، ووصف الخيلَ بصفاتها، ولم يقل الشعرَ كاسِبا، ولم يُجِدِ القولَ راغباً، فَفَضلَ مَنْ تفتَّقَ لِلْحِيلة لسانُه، وانتجَعَ للرغبة بنانُه.

قلنا: وما تقول في النابغة؟ قال: ينسب إذا عَشِق، ويَثْلُبُ إذا حَنِق، ويمدح إذا رَغِب، ويعتذر إذا رَهب، فلا يرمي إلا صائباً.

قلنا: فما تقول في طَرَفة؟ قال: هو ماءُ الأشعار وطينتها، وكَنز القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أَسرارُ دفائنه، ولم تطلق عِتَاق خزائنه.

قلنا: فما تقول [في زهير؟ قال: يُذيب الشعرَ والشعرُ يذيبه، ويدعو القَوْل والسِّحْرُ يُجيبه.

قلنا: فما تقول] في جرير والفرزدق؟ وأيهما أسْبَق؟ قال: جرير أرقّ شعراً، وأَغْزَر غزراً، والفرزدق أمتَنُ صخراً، وأكثر فخراً، وجرير أَوْجَع هَجْواً، وأشرف يوماً، والفرزدق أكثر رَوْماً، وأكثر قوماً، وجرير إذا نَسب أشْجَى، وإذا ثَلَب أَرْدَى، وإذا مدح أسنى، والفرزدق إذا افتخر أَجْزى، وإذا وصف أوفى، وإذا احتقر أزْرى.

قلنا: فما تقول في المُحْدَثين من الشعراء والمتقدمينَ منهم؟ قال: المتقدمون أشرفُ لفظاً، وأكثرُ في المعاني حظاً، والمتأخِّرون أَلطفُ صُنْعاً، وأرقُّ نَسْجاً.

قلنا: فلو أَرَيْتَ من أشعارِك، ورَوَيْتَ من أخبارك، قال: خُذْهُما في معرض واحد، وأنشد:

أمَا تَرَوْني أَتغشّى طِمْرا ... مُلْتَحِفاً في الضُّرِّ أمْراً إمْرَا[2]
مُنْطَوِيا عَلَى الليالي غِمْرا ... مُلاقِياً منها صُروفاً حُمْرا
أقصى أمَانِيَّ طُلُوعُ الشِّعْرَى ... فقد عُنِينَا بالأماني دَهْرَا
وكان هذا الحُرُّ أعلى قَدْرا ... وَماءُ هذا الوجهِ أغْلَى سِعْرَا
ضَربتُ لِلسَّرْوِ قِبَاباً خُضْرَا ... في دَارِ دَارَا وإوانِ كِسْرَى
فَانقلبَ الدهرُ لِبَطْنٍ ظَهْرا ... وعاد عُرْفُ العَيْشِ عندي نُكْرَا

(١) الوكنات: جمع وكنة: عُشُّ الطائر حيث كان.
(٢) الطمر: الثوب الخلق البالي. وَأَمْرٌ إِمْرٌ: عَجِيبٌ مُنْكَرٌ

لـم يُبْـقِ مِـنْ وَفْـرِيَ إلا ذِكْـرَا ثـمَّ إلـى اليـوم هَلُـمَّ جَـرا[١]
لـولا عجـوزٌ لـي بسُـرَّ مَـنْ را وأفْـرخٌ دُونَ جبـالِ بُصْـرَى
قـد جَلَـبَ الـدَّهـرُ إليهـم شـرًّا قَتَلْـتُ يـا سـادةُ نَفْسـي صَبْـرَا!

قال عيسى بن هشام: فَنُلْتُه ما تَاحَ[٢]، وأعرض عنّا فراحَ، وجعلتُ أنفيه وأُثْبته، وأُنْكِرُهُ وكأني أعرفُه، ثم دلّتني عليه ثناياه، فقلت: الإسكندري واللهِ؛ فلقد كان فارقَنا خِشْفاً، ووافانا جِلْفاً[٣]، ونهضتُ على إثْرِه، ثم قبضتُ على خَصْرِه، وقلت: ألستَ أبا الفتح؟ ألم تكُنْ فينا وَليداً، ولبثتَ فينا من عُمْرك سنين؟ فأيُّ عجوزٍ لكَ بسرّ مَنْ رأى؟ فضحك وقال:

وَيْحَـكَ هـذا الـزمـانُ زُورُ فـلا يَغُـرَّنَّـكَ الغُـرورُ
غَـرِّقْ وبَـرِّقْ وكـلْ وطَـرِّقْ وَٱسْـرِقْ وَطَلْبِـقْ لِمَـنْ تَـزورُ
لا تلتـزمْ حـالـةً ولكـنْ دُرْ لليـالـي كمـا تَـدُورُ

المقامة الغيلانية من مقامات البديع

ومن إنشائه مقامة ولدها على لسان عِصْمة وذي الرمة قال: حدثنا عيسى بن هشام قال: بينا نحن في مجتمع لنا ومعنا يومئذ رجلُ العرب حِفْظاً ورِوَاية عِصْمَة بن بَدْر الفَزاري، فأَمْضى الكلامُ إلى ذِكرِ مَنْ أعرضَ عن خَصْمِه حِلْماً، أو أعرض عنه خَصْمُهُ احتقاراً، حتى ذكر الصَّلَتَان العَبْدِي[٤] واللّعين المنقري[٥]، وما كان من احتقار جرير والفرزدق لهما. فقال عصمة: سأحدِّثكم بما شاهدته عيني، ولا أحدّثكم عن غيري: بينا أنا أسيرُ في بلاد تميم

(١) الوَفْرُ: الغنى، التام من كل شيء، ويقال: مال وَفْرٌ، ومتاع وَفْرٌ: كثير واسع.
(٢) نلته: أعطيته. ما تاح: ما تهيأ وكان حاضراً عندي.
(٣) الخشف: ولد الظبية. والجلف: الغليظ الجافي.
(٤) هو قُثَمُ بن خبيئة، من عبد القيس. اجتمع إليه في الحكم بين الفرزدق وجرير، فلم يرضهما، وقال الفرزدق في ذلك: أما الشرف فقد عرفه، وأما الشعر فما للبحراني والشعر. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/٤٠٨).
(٥) هو منازل بن ربيعة، وقيل: بن زمعة، من بني مِنْقَر بن كعب بن سعد، وكنيته أبو أكيدر: شاعر إسلامي أموي هجَّاء سليط، تعرّض للفرزدق وجرير فلم يلتفتا إليه، وأكثر هجائه في الأضياف. لَقَّبهُ عمر بن الخطاب بـ «اللعين» لأنه سمعه ينشد شعراً والناس يصلون. توفي سنة ٧٥ هـ/ ٦٩٥ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ١/٤٠٧، الأيوبي، معجم الشعراء في لسان العرب: ٣٠٥).

مرتحلاً نجيبة، وقائداً جَنيبة، عنَّ لي راكبٌ على أوْرَقَ جَعْد اللُّغَام[١]، فاجتاز بي رافعاً صَوْتَه بالسلام. فقلت: مَن الراكبُ الجهيرُ الكلامِ، المحيِّي بتحيَّةِ الإسلام؟ فقال: أنا غَيْلاَن ابن عُقْبَة. فقلت: مرحباً بالكريم حَسَبُه، الشهير نَسَبُه، السائر منطقه. فقال: رَحُبَ وَادِيك، وعزَّ ناديك، فمن أنت؟ قلت: عصمة بن بدر الفزاري. فقال: حياكَ الله، نعم الصديقُ، والصاحبُ والرفيقُ. وسِرْنا فلما هَجَّرنا قال: ألا نُغَوِّرُ[٢] يا عصمة فقد صَهرَتْنَا الشمسُ؟ فقلت: أنْتَ وذاكَ، فملنا إلى شجرات ألاء[٣] كأنهن عذارَى متبرّجات، قد نَشَرْنَ الغدائر، وسرحن الضفائر؛ لأَثْلاثٍ متناوحات؛ فَحططْنا رِحَالنا، ونِلْنَا من الطعام، وكان ذو الرمة زهيدَ الأكل. وزال كلٌّ منا إلى ظل أثلة يريد القائلَة، واضطجع ذو الرُّمة وأردتُ أن أصنَعَ صنيعَه، فَوَلّيْتُ ظَهري الأرض، وعيناي لا يملكها غُمض، فنظرتُ غيرَ بعيدٍ إلى ناقةٍ كَوْماء، ضَحيَتْ وغَبِيطُها مُلْقًى[٤]، وإذا رجل قائم يكلؤها كأنه عَسِيفٌ أو أسيف[٥]، فلَهيت عنهما، وما أنا والسؤال عما لا يَعْنِيني! ونام ذو الرُّمة غِرَارا، ثم انتبهَ، وكان ذلك في أيام مُهَاجاته لذلك المرّيّ، فرفع عقيرته ينشد فيه:

أمِـنْ مَيَّـةَ الطَّلَـلُ الـدارسُ ... ألَـظَّ بـه العـاصِـفُ الـرَّامِـسُ[٦]

فلـم يَبْـقَ إلا شَجيـجَ القَـذَالِ ... وَمُسْتَـوْقَـدٌ مـا لَـه قَـابِـسُ[٧]

وَحَـوْضٌ تَثَلَّـمَ مِـن جـانِبَيْـهِ ... وَمُحتَفَـلٌ دَاثِـرٌ طـامِـسُ[٨]

وَعَهْـدِي بِـهِ وبِـهِ سَكْنُـهُ ... وَمَيَّـةُ والإنْـسُ والآنِـسُ

سَتـأتـي امـرأَ القيـس مـأثـورةٌ ... يُغَنِّـى بهـا العـابِـرَ الْجَـالِـسُ

ألَـم تَـر أنَّ امـرأَ القَيْـس قَـدْ ... ألَـظَّ بِـه دَاؤُهُ النـاجِـسُ

---

(١) أراد أنه يمتطي جملاً. والأورق: الذي لونه الورقة، وهي بياض وسواد. وجعد اللغام: كثير الزبد.
(٢) نُغَوِّرُ: نُقيل.
(٣) الألاء: شجر عظيم الظل.
(٤) الكوماء من النوق: العظيم سنامها. وضحيت: أصابتها الشمس بِحرِّها.
(٥) العسيف: الأجير، والأسيف: العبد المملوك.
(٦) أَلظَّ به: لزمه ولم يفارقه. والرامس: الريح التي تثير التراب وتدفن الآثار.
(٧) الشجيج: أثر الشجّة في الجبين ونحوه. القذال: جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس فوق القفا. القابس: اسم فاعل من قبس النار قَبْساً: أوقدها، وطلبها.
(٨) تثلَّم: تكسَّر.

هُـمُ القـومُ لا يَـألَمُـون الهِجَـاءَ ... وهَـلْ يَـألَـمُ الحَجَـرُ اليَـابِـسُ؟
فمـا لهُـمُ فـي الفَـلاَ رَاكِـبٌ ... ولا لهـمُ فـي الـوغَـى فَـارِسُ
إذا طَمـحَ النـاسُ للمكـرمـاتِ ... فَطَـرْفُهـمُ المُطْـرِقُ النـاعِـسُ
تَعَـافُ الأكـارِمُ إصْهَـارَهُـمْ ... فَكُـلُّ نِسَـائهـمُ عَـانِـسُ

فلما بلغ هذا البيت جعل ذلك النائم يمسح عينيه ويقول: أذو الرُّمَيْمَة يمنعني النوم بشعرٍ غيرِ مثقّف ولا سائر. فقلت: يا غيلان، مَنْ هذا؟ فقال: الفر يزد، يعني الفرزدق، وحَمِي ذو الرمة:

وأمَّـا مُجَـاشِـعٌ الأَرْذَلُـون ... فلـم يَسْـق مَيِّتَهُـمْ رَاجِـسُ
سَيَعْقِلُهـم عـن مَسـاعِـي الكِـرَامِ ... عِقَـالٌ، ويَحْبِسُهـم حَـابِـسُ[(١)]

فقلت: الآن [يَشْرق فَيثُور، و] يعمُّ الفرزدقُ هذا وقبيله بالهجاء. فوالله ما زاد على أنْ قال: قبحاً لك يا ذا الرُّمَيْمَة! أتعرِضُ لمثلي بِمَقَالٍ مُنْتَحل! ثم عاد في نَوْمِه كأن لم يَسْمَعْ شيئاً، وسار ذو الرمّة وسِرْت، وإني لأرى فيه انكساراً حتى افترقنا.

قوله فيما ولد على الفرزدق «بمقال مُنْتَحل»، يريد أن البيتَ الأخير منقول من قول جرير:[(٢)]

ألـم تـر أنَّ اللّـه أَخْـزَى مَجـاشِعـاً ... إذا ما أفاضَتْ في الحديثِ المجالسُ
وَمـا زال معقـولاً عِقـالٌ عـنِ النـدى ... ومَا زالَ محبوساً عن المجدِ حَابِسُ

عقال: ابن محمد بن [سعيد بن] مجاشع بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم، وهو جد الفرزدق. وحابس: ابن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم، وهو أبو الأقرع بن حابس أحدُ المؤلّفة قلوبهم.

---

(١) عَقَل فلاناً عن حاجته: حبسه عنها، وعقل البعير: ضمَّ رُسْغَ يده إلى عضده، وربطهما معاً بالعقال ليبقى باركاً. والعِقالُ: الحبل الذي يُعْقَل به البعير.
(٢) لم يرد البيت الأول في رواية الديوان، وجاء البيت الثاني مع أبيات قالها جرير في هجاء الفرزدق، وقبله قوله:
بَيْـنَ مَـالـكٍ فـاتَ الفَـرَزْدَقُ مَجْدُنَـا ... وَماتَ ابنُ لَيْلَى وَهوَ مِنْ ذاكَ يائِسُ
(جرير، الديوان: ص ٢٥٤).

فقر في الشعر

قيل لابن الزِّبَعْرى:[1] لم تقصّر أشعارك؟ فقال: لأنها أعْلَق بالمسامع، وأجْوَل في المحافِلِ.

وقيل ذلك لعقيل بن عُلَّفة في أهاجيه، فقال: يكفيك من القِلاَدَة ما أحاط بالعُنُقِ.

غيره: لسانُ الشاعر أرض لا تُخْرِج الزهر حتى تستسلف المطر، وما ظنّك بقوم الاقتصارُ محمود إلا فيهم. والكذب مذموم إلاَّ منهم. إياكم والشاعر فإنه يطلب على الكذب مَثُوبة، ويقرع جليسه بأدنى زَلّة.

أبو القاسم الصاحب بن عباد: النثر يتطايرُ كتَطَايُر الشرر، والنظم يبقى بقاء النَّقْشِ في الحَجَر.

أبو عبيدة: الزّحَاف في الشعر كالرُّخْصَة في الدين، لا يُقدم عليها إلا فقيه.

وقال أبو فراس الحمداني:[2]

تَنَاهَضَ النَاسُ لِلمَعَاني لَمَّا رَأَوْا نَحْوَها نُهوضي
تَكلَّفوا المكرماتِ كَدّا تَكلُّفَ الشِّعْرِ بالعَرُوضِ

وقد مدح الجاحظ العروض وذمّها، فقال في مدحها: العروض ميزان، ومعراض بها يُعْرَفُ الصحيح من السقيم، والعليل من السليم، وعليها مَدَار الشعر، وبها يسلم من الأوَدِ والكَسْر. وقال في ذمّه: هو علم مُوَلّد، وأدب مُسْتَبْرد، ومذهب مرفوض، وكلام مجهول، يستنكر[3] العقل بمستفعلن وفعول، من غير فائدة ولا محصول.

ومن مفردات الأبيات في هذا المعنى قول دعبل:[4]

---

(١) هو أبو سعد، عبد اللّٰه بن الزِّبَعْرَى بن قيس بن عدي بن سعد السهمي القرشي: أحد شعراء قريش المعدودين، ومن أشدهم على المسلمين هجاءً وتحريضاً. هرب إلى نجران عام الفتح «٨ هـ»، فقال فيه حسان بن ثابت أبياتاً، فلما بلغته عاد إلى مكة، فأسلم واعتذر، فقبل رسول الله ﷺ إسلامه وأمّنه. توفي نحو ١٥ هـ/ نحو ٦٣٦ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٥/ ١٣٨؛ الآمدي، المؤتلف والمختلف: ١٩٤).

(٢) أبو فراس، الديوان: ص ١٧٨.

(٣) في رواية «يستكد العقل بمستفعلن»، وهو خير مما أثبتناه.

(٤) البيت في العمدة في محاسن الشعر: ١/ ١١٤.

يَمُوتُ رَدِيءُ الشعرِ من قبلِ أهْلِهِ وَجَيّدُه يَبْقَى وإن ماتَ قَائِلُهْ

البحتري:[١]

أعْيَا عليَّ؛ فلا هَيَّابةٌ فَرِقٌ يَخْشَى الهِجاءَ، ولا هَشٌّ فيُمْتَدَحُ

آخر:

[و] مما يَقْتُلُ الشعراءَ غَمّا عَداوةُ من يُغَلّ عن الهجاءِ

أحمد بن أبي فَنَن:[٢]

وَإنْ أحقّ الناس باللؤمِ شاعرٌ يَلومُ على البخلِ اللّئامَ، وَيَبْخلُ[٣]

وهذا كقول علي بن العباس الرومي في أبي الفياض سَوّار بن أبي شراعة، وكان سوّار شاعراً مجيداً:[٤]

يا مَنْ صِناعَتُهُ الدعاءُ إلى العُلاَ نَاقَضْتَ في فِعْلَيْكَ أيَّ نِقَاضِ
عَجباً لِحَضَّاضِ الكِرَام على الذي هُو فيه مُحتاجٌ إلى حَضَّاضِ[٥]
وَصَفَ المكارِمِ وَهْوَ فيها زاهِدٌ وَرَأى الجميلَ وفيه عنهُ تَغَاضِ
لم ألقَ كالشعراءِ أكثر حَارِضاً وَأشدَّ مَعتِبَةً على الحُرَّاضِ[٦]
كَمْ فيهِمُ من آمرٍ برشيدةٍ لم يَأتِها، وَمُرغّبٍ رَفّاضِ
يا حَسْرَتي لِمَودَّةٍ أدبيةٍ لم نَفْتَرِقْ عَنْها افتراقَ تَرَاضِ
لَيْسَ العتابُ بنافعٍ في قاطعٍ أعْيَا المشيبُ تَتَابُعَ المِقرَاضِ

ثم قال بعد هذا التبكيت والعِتَاب ما منعه أن يَتَوَهَّمَ أنه هجاه:

---

(١) البحتري، الديوان: ٢/ ٢٠٤. والبيت من قصيدة يمدح بها الحسن بن مخلد.
(٢) هو أبو عبد الله، أحمد بن أبي فنن (صالح بن سعيد): شاعر مفلق مطبوع، محدث، من شعراء الدولة العباسية. كان مولى لبني هاشم، لا يمدح أحداً، ولا يستميح أحداً، إلاّ أنه أكثر المدح في الفتح بن خاقان. (البغدادي، تاريخ بغداد: ٤/ ٢٠٢، ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٣٩٦).
(٣) في العمدة ١/ ١٩٦ «يلوم على البخل الرجال ويبخلُ».
(٤) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ٤٢.
(٥) حَضَّاض: (على وزن فَعَّال، للمبالغة): شديد الحضّ، كثير الحثّ.
(٦) الحُرَّاض: جمع حارض، وهو الكثير الهموم.

وَلَمَا هَجَوْتُكَ، بل وَعَظْتُكَ إنَّني لا أجعلُ الأعراض كالأغراضِ[1]
فَاكْفُفْ سهامَك عَن أخيك فإنما آسَفْتَهُ، فَرَماك بالمعرَاضِ[2]
فَمَتى حَلُمْتَ وَجَدْتَ أحْنفَ دَهْرِه ومتى جَهِلْتَ مُنيتَ بالبرّاضِ[3]
فَاعْذِرْ أخاكَ على الوَعيدِ؛ فإنما أنْذَرْتَ قَبْلَ الرَّمْيِ بالإنباضِ[4]
[وَاعْلَمْ وُقيتَ الجَهْلَ أنَّ خساسةً بَطَرُ الغنى وَمذلّةُ الإبعاضِ][5]

ثم هجاه بقوله:[6]

وَما تَكَّلمْتَ إلاَّ قُلْتَ فَاحِشَةً كَأَنَّ فَكَّيْكَ لِلأعراض مِقْراضُ
مَهْما تَقُلْ فَسِهامٌ مِنْكَ مُرْسَلَةٌ وَفُوك قَوْسُك والأعراضُ أغْرَاضُ[7]

وابن الرومي هذا كما قال مسلم بنُ الوليد الأنصاري في الحكم بن قنبر المازني:

عَابني مِنْ مَعايبٍ هُنَّ فيهِ حَكَمٌ فاشتفى بِها مَنْ هَجَاني

وكما قال الآخر:

وَيأخذُ عَيْبَ الناسِ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ مُرادٌ لَعَمْري ما أرادَ قَريبُ

[الأحنف بن قيس]

وروى عيسى بن دَأب قال: أوّل ما عُرِفَ الأحنف بن قيس وَقُدِّم أنه وفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان أحْدَث القوم سنا، وأقبحهم منظراً، فتكلم كل رجل من الوَفْدِ بحاجته في خاصته، والأحنف ساكتٌ، فقال له عمر: قل يا فتى! فقام فقال: يا أميرَ

(١) الأغراض: جمع غرض: ما يجعله الرامي هدفاً يقصد برميه إليه.
(٢) المعراض: سهم يرمى به، بلا ريش ولا نصل، يمضي عرضاً، فلا يصيب بحده.
(٣) الأحنف: هو الأحنف بن قيس التميمي، من حلماء العرب. كان سيد قومه، وكان إذا غضب، غضب لغضبه مئة ألف سيف، لا يدرون لم غضب. والبراض: هو البراض بن قيس بن رافع الكناني: فاتك جاهلي ضرب المثل بفتكه، وبسببه هاجت حرب الفجار بين خندف وقيس.
(٤) الإنباض: أن تَمُدَّ الوتر ثم ترسله فتسمع له صوتاً.
(٥) في الديوان: «ومذلة الأنفاضِ». والأنفاض: الفقر.
(٦) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ٤٤.
(٧) في الديوان: «مهما نَطقْتَ فَنَبْلٌ منك مُرْسَلةٌ».

المؤمنين، إنّ العرب نَزلَتْ بمساكن طيبة، ذات ثمار وأنهار عِذاب، وأَكَّنة ظليلة[١]، ومواضع فسيحة، وإنا نزلنا بِسَبِخةٍ نشَّاشة[٢]، ماؤُها مِلْح، وأفنيتها ضيقة، وإنما يأتينا الماء في مثل حلق النعامة فإلاّ تدركنا يا أمير المؤمنين بِحَفْر نهر يَغْزُرُ ماؤه، حتى تأتيَ الأمة فتغرف بجرتها وإنائها أوشك أن نهلك، قال: ثم ماذا؟ قال: تزيد في صاعِنا ومُدّنا، وتثبت من تَلاحق في العطاء من ذريتنا. قال: ثم ماذا؟ قال: تخفّف عن ضعيفنا، وتنصف قوينا، وتتعاهد ثغورنا، وتجهّز بَعْثَنا، قال: ثم ماذا؟ قال: إلى ها هنا انتهت المطالب، ووقف الكلام. قال: أنت رئيس وَفْدِك، وخطيب مِصْرِك، قم عَنْ موضعك الذي أنت فيه. فأدناه حتى أقعده إلى جانبه، ثم سأله عن نسبه، فانتسب له، فقال: أنت سيدُ تميم، فبقيت له السيادة إلى أن مات.

نسب الأحنف

وهو الأحنف، واسمُه الضحّاك بن قيس بن معاوية بن حصين بن حصن بن عبادة بن النزال بن مرّة بن عبيد بن مقاعس بن عمرو بن كعب بن [سعد بن] زيد مناة بن تميم.

وقال بعض بني تميم: حضرتُ مجلس الأحنف وعنده قومٌ مجتمعون له في أمر لهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إنّ الكرمَ مَنْعُ الحرمِ، ما أَقربَ النقمةَ من أهل البَغْيِ، لا خيرَ في لذَّةٍ تُعقِب ندماً، لم يهلك من اقتصد، ولم يفتقر من زهد، رب هَزْلٍ قد عاد جِداً، من أمِن الزمان خانه، ومن تَعظَّم عليه أهانه، دَعوا المِزاحَ فإنه يُوَرِّثُ[٣] الضغائن، وخيرُ القول ما صَدّقه الفِعْل، احتملوا لِمَن أدلّ عليكم، وأقبلوا عُذْرَ من اعتذر إليكم، أطعْ أخاكَ وإن عصاكَ. وصِلْهُ وإن جَفاك، أنصِفْ من نفسك قبل أن يُنْتَصفَ منك، إيّاكم ومشاوَرَة النساء، واعلم أنّ كُفْر النِّعمِ لؤم، وصُحبة الجاهل شُؤم، ومن الكرم الوفاء بالذّمم، ما أقبح القطيعةَ بعد الصلةِ، والجفاءَ بعد اللُّطَفِ، والعداوة بعد الوُدّ، لا تكونَنّ على الإساءةِ أقوى منك على الإحسان، ولا إلى البُخل أسرعَ منك إلي البَذْل، واعلَمْ أنّ لك من دُنياك ما أصلحت به مَثْواك، فأنفق من حَقّ، ولا تكن خازِناً لغيرك، وإذا كان الغَدْرُ موجوداً في الناس فَالثِّقَةُ بكل أحدٍ عَجْز؛ اعْرِف الحقّ لمن عرَفه لك، واعلم أنَّ قطيعةَ الجاهلِ تَعْدِل صلةَ العاقل. قال: فما سمعتُ كلاماً أبلغَ منه. فقمت وقد حفظته.

---

(١) الأَكِنَّةُ: جمع كن، وهو الستر الواقي من الحرّ والبرد. والظليلة: ذات الظلّ.

(٢) السبخة: أرض ذات ملح ونزٍّ، لا تكاد تُنْبِتُ. وسبخة نشَّاشة: لا يجفُّ ثراها، ولا ينبت مرعاها.

(٣) يؤرث الضغائن: يوقدها ويشعلها، ويؤجج نارها.

كلام للأحنف في مجلس معاوية

ودخل الأحنف على معاوية، ويزيدُ بين يديه، وهو ينظرُ إليه إعجاباً، فقال: يا أبا بَحْر، ما تقولُ في الولَدِ؟ فعلم ما أراد، فقال: يا أميرَ المؤمنين، هم عمادُ ظهورنا، وثمرُ قلوبنا، وقرّة أعيننا، بهم نَصولُ على أعدائنا، وهم الخلف مِنّا بَعْدَنا، فكن لهم أرضاً ذليلة، وسماءً ظليلة، إن سألوك فأعْطِهم، وإن استعتبوك فَأَعْتِبهم[1] ولا تَمنَعْهم رِفْدِك فيملّوا قُرْبَك، ويستثقلوا حياتَك، ويتمنوا وَفاتك. فقال: لله درُّك يا أَبا بَحْر، هُمْ كما قلت!

وزعمت الرواة أنها لم تسمع للأحنف إلاّ هذين البيتين:

فَلَوْ مَدّ سَرْوي بمالٍ كثيرٍ لَجُدْتُ وكنتُ لهُ باذِلا[2]
فَإنَّ المروءةَ لا تُسْتَطاعُ إذا لم يَكُنْ مَالُها فاضِلا

صفة الأحنف

وكان يُبَخَّل. وقال لبني تميم: أتزعمون أني بخيل! والله إني لأُشير بالرَّأْي قيمتُه عشرةُ آلاف درهم! فقالوا: تقويمك لرأيك بُخْلٌ. وكان الأحنفُ من الفضلاء الخطباء النّسّاك، وبه يُضْرَب المثل في الحِلْم.

ذكر للنبي فاستغفر له

وقد ذُكِرَ للنبي ﷺ فاستغفَر له؛ فقد بعث النبي ﷺ رجلاً إلى قومه بني سَعْد يَعْرِض عليهم الإسلام، فقال الأحنف: إنه يدعوكم إلى خَيْر، ولا أسمعُ إلا حسناً. فَذُكِر للنبي ﷺ، فقال: اللهم اغفِر للأحنف. وكان الأحنفُ يقول: ما شيء أرْجَى عندي مِنْ ذلك.

من أوصاف الأحنف

قال عبدُ الملك بن عُمَيْر: قدم إلينا الأحنفُ، فما رأينا خصلةً تُذَمّ في رجل إلاّ رأيناها فيه، كان أصلع الرَّأْسِ، متراكب الأسنان، أَشْدَق، مائل الذَّقَنِ، ناتىء الوجنتين، باخق العينين[3]، خفيفَ العارضين، أحنف الرِّجلين، وكانت العين تقتحمُه دَمَامَةً وقلّة رُواء، ولكنه إذا تكلّم جلّى عن نفسه. وهو الذي خطب بالبصرة حين اختلفت الأحياء، وتنازعت

---

(١) استعتبوك: طلبوا رضاك. وأعتبهم: أعطهم الرضا.
(٢) سرا فلان سَرْواً وسَراوةً: شرف، أو سَخَا في مروءة.
(٣) البخق في العين: أَلاّ يلتقي جفناها.

القبائل؛ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه؛ يا معشرَ الأزد [وربيعة]، أنتم إخوانُنا في الدين، وشركاؤنا في الصِّهْرِ، وأكفاؤُنا في النسب، وجيرانُنا في الدار، ويَدُنا على العدُوّ، والله لأَزْدُ البَصرة أحبُّ إلينا من تميم الكوفة، [ولأزد الكوفة أحبّ إلينا من تميم الشام]، وفي أموالنا وأحلامنا سعة لنا ولكم.

جارية لآل المهلب تنظر إلى الأحنف

وقد قام خطباءُ البصرة في هذا اليوم وتكلّموا وأسهبوا، فلما قام الأحنف أَصْغَت القبائلُ إليه، وانثالَتْ عليه، وقال الناس: هذا أبو بَحْرٍ، هذا خطيب بني تميم، وحضر ذلك الجمعَ جاريةٌ لآلِ المهلب، فذهبتْ ترومُ النظر إليه، فاعتاص ذلك عليها، فأشرفَتْ عليه من دارِها، فلما رأته والأبصارُ خاشعةٌ لكلامه، ورأت دمامةَ خَلْقِه، وكثرة آفاتِ جوارِحه، قالت: فُقِدَتْ هذه الخِلْقة ولو افترَّتْ عن فَصْلِ الخطاب.

الأحنف يفد على معاوية

وذكر المدائني أنَّ الأحنفَ بن قيس وَفَدَ على معاوية رضي الله عنه مع أهل العراق، فخرج الآذِنُ، فقال: إن أميرَ المؤمنين يعزم عليكم ألاَّ يتكلمَ أحدٌ إلاَّ لنفسه. فلما وصلوا إليه قال الأحنف: لولا عَزْمَة أمير المؤمنين لأخبرته أن دافَّة دَفَّتْ، ونازلةً نزلتْ، ونابتة نبتَتْ، كلهم بهم حاجة إلى معروفِ أمير المؤمنين وبرّه. قال: حسبك يا أبا بحر، فقد كفيت الشاهِدَ والغائب.

كلامه لمعاوية وقد أراد البيعة ليزيد

ولما عزم معاوية على البيعة ليزيد كتب إلى زياد أن يوجِّه إليه بِوَفْد أهلِ العراق، فبعث إليه بِوَفْدِ البصرة والكوفة، فتكلَّمت الخطباءُ في يزيد، والأحنف ساكتٌ، فلما فرغوا قال: قل يا أَبَا بَحْر، فإنَّ العيونَ إليك أَشْرَع منك إلى غيرك، فقام الأحنف فحمد الله وأثنى عليه، وصلّى على نبيه ﷺ، ثم قال: يا أميرَ المؤمنين؛ إنك أعلَمُنا بيزيدَ في ليله ونهاره، وإعلانه وإسراره، فإنْ كُنْتَ تَعْلَمُه لله رضا فلا تُشاوِرْ فيه أحداً، ولا تُقِمْ له الخطباءَ والشعراء، وإن كُنْتَ تعلم بُعْدَه من الله فلا تزوّده من الدنيا وتَرْحل أنتَ إلى الآخرة؛ فإنك تصير إلى يوم يفرُّ [فيه] المرءُ من أخيه، وأمّه وأبيه، وصاحبته وبنيه. قال: فكأنه أفْرَغَ على معاوية ذَنُوبَ[1]

---

(١) الذَّنُوبُ: الدَّلْوُ العظيمة.

ماء بارد. فقال له: اقعُدْ يا أبا بَحْر؛ فإن خيرة الله تَجري، وقضاءَ الله يمضي، وأحكام الله تنفذ، ولا مُعَقِّب لحكمه، ولا رَادَّ لقضائه؛ وإن يَزيد فتى قد بَلَوْنَاه[١]، ولم نجِدْ في قريش فتى هو أَجْدَر بأن يُجتمَع عليه منه. فقال: يا أمير المؤمنين، أنت تَحْكي عن شاهد، ونحن نتكلَّمُ على غائب، وإذا أراد الله شيئاً كان.

ابن الرومي يذكر حق الشاعر على الكرام

قال ابن الرومي[٢]:

إنَّ امْرَأً رَفَضَ المكاسِبَ واغْتَدَى ... يَتعلَّمُ الآدابَ حَتّى أَحْكَمَا
فَكَسَا وحَلَّى كلَّ أَرْوَع مَاجِدٍ ... مِنْ حُرِّ ما حَاكَ القَرِيضَ ونَظَّمَا
ثِقةٌ بِرَعْي الأَكرمينَ حُقوقَهُ ... لأَحَقُّ مُلْتَمِسٍ بألاّ يُحْرَمَا

قال أبو العباس أحمد بن عبيد اللّه بن عمّار: ومن نادرِ شعر أبي الحسن في هذا المعنى قوله، ووصف إتعاب الشعراء أنفُسَهم بِدُؤوبهم في صناعتهم، وما يتصرّم من أعمارهم، وأن إلحاحَهم في طلَبِ ما في أيدي مَن أسلفُوه مديحَهم لو كان رغبةً منهم إلى ربّهم كان أجدى عليهم، وأقرب من دَرك بُغْيتهم، ونجح طَلِبتهم، ثم انحرف إلى توبيخ من مَدَحه فحرمه بأحسن عبارة، وأرضى استعارة، فقال:[٣]

لِلنَّاسِ فيما يَكْلَفُونَ مَغَارِمٌ ... عند الكِرَامِ لها قَضَاءُ ذِمَامِ
وَمغارِمُ الشعراءِ في أشعارِهِمْ ... إنفاقُ أعمارٍ وهَجْرُ مَنامِ
وجَفاء لذاتٍ وَرفضُ مكاسبٍ ... لو خُولِفَتْ حُرِسَتْ من الإعدامِ
وتَشَاغُلٌ عن ذكر رَبٍّ لم يَزَلْ ... حَسَنَ الصنائعِ سابغ الإنعامِ[٤]
مَنْ لو بِخدْمَتِهِ تشاغَل مَعْشَرٌ ... خَدَموكُم أجْدى على الخدّامِ[٥]
أفَما لذلكَ حُرْمَةٌ مَرْعِيَّةٌ ... إنَّ الكرامَ إذاً لَغَيْرُ كِرامِ[٦]

(١) بلوناه: اختبرناه.
(٢) لم نجد هذه الأبيات في ديوانه.
(٣) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ١٤٤. وقد قال هذه الأبيات في علي بن محمد بن العباس.
(٤) سابغ الإنعام: من إضافة الصفة للموصوف، والإنعام السابغ: الكثير الوافي.
(٥) في رواية: «خدموا فكم أجدى».
(٦) في رواية: «أوما».

لم أحتَسِبْ فيك الثوابَ بِمِدْحتي إيــاكَ يــابْــنَ أكــارِمِ الأقــوام
لـو كـانَ شِعْـري حِسْبـةً لـم أكسُـهُ أحـداً أحـقّ بـه مـنَ الأيتـام[1]
لا تَقْبَلَـنّ المَـدْحَ ثُـمّ تَعـافـهُ فَتنـامُ والشعـراءُ غَيْـرُ نيـام[2]
واحـذَرْ مَعـرَّتهـم إذا دَنَّستهـم فَلهـم أشـدُّ معَـرة العُـرَّامِ[3]
واعلَـمْ بـأنهـمُ إذا لـم يُنْصَفـوا حكمـوا لأنفسهـم علـى الحكـام
وَجنـايـةُ العـادِي عليهـم تَنْقَضـي وَعِقـابُهـم يَبْقـى مـع الأيـامِ[4]

أبو الطيب المتنبي:[5]

وَمكـايـدُ السفهـاءِ واقعـةٌ بِهِـمْ وَعَـداوةُ الشعـراءِ بِئْـسَ المُقْتَنـى

وفاة الأحنف ورثاء امرأة له

مات الأحنف بن قيس بالكوفة، فمشى مصعب بن الزبير في جنازته بغير رداء، وقال: اليوم مات سرُّ العرب؛ فلما دُفِنَ قامت امرأةٌ على قبره فقالت: لله دَرُّك من مُجَنّ في جَنن[6]، ومُدْرَج في كَفَن، نسألُ الذي فجعنا بموتك، وابتلانا بِفَقْدِك، أن يجعلَ سبيلَ الخيرِ سبيلك، ودليلَ الرّشد دَليلك، وأن يوسّع لك في قبرك، ويغفر لك يوم حَشْرِك؛ فوالله لقد كنت في المحافل شريفاً، وعلى الأرامل عطوفاً، ولقد كنت في الحيّ مُسَوَّدا، وإلى الخليفة مُوفداً، ولقد كانوا لقولك مُسْتَمِعين، ولرأيك مُتّبعين؛ ثم أقبلت على الناس فقالت: ألاَ إن أولياء الله في بلادِه، شهود على عباده، وإني لقائلةٌ حقًّا، ومثنيةٌ صِدْقا، وهو أهلٌ لِحُسْنِ الثناء، وطيب النَّثَا[7]، أما والذي كنتَ من أجله في عُدَّة، ومن الحياةِ إلى مدّة، ومن المقدار إلى غاية، ومن الإياب إلى نهاية، الذي رفع عملك، لما قَضَى أجَلَكَ، لقد عِشت حميداً مودوداً، ومُتَّ سعيداً مفقوداً، ثم انصرفت وهي تقول:

---

(١) في الديوان: «لو كان مدحي».
(٢) في الديوان: «ثم تَعُقّهُ». وتعقه: تنكره.
(٣) المعرة: من عَيَّر فلان فلاناً، إذا ذكر عورته أو موضع الخلل فيه.
(٤) في الديوان: «وظلامة العادي».
(٥) المتنبي، الديوان: ١/ ٢٩٨. والبيت من قصيدة يمدح بها بدر بن عمار أمير طبرية، وقد علم أن بعض السفهاء وشى به إليه.
(٦) مجن: مستور. والجَنَنُ: القبر، وجمعه أجنان.
(٧) في رواية «وطيب الدعاء». وقد نثا الحديث نَثْواً: بَثَّه، ونثا فلاناً: اغتابه، وناثاه الحديث والخبر: ذاكره إياه.

لِلَّـــهِ دَرُّكَ يــا أبــا بَحْــرِ ... مــاذا تغيَّــبَ منــكَ فــي القَبْــرِ؟
لِلّـــه دَرُّكَ أيّ حَشْـــوِ ثَـــرًى ... أصبحــتَ مــن عُــرْف ومِــنْ نُكْــرِ
إنْ كــانَ دَهْــرٌ فيــك جَــرَّ لنــا ... حَــدَثــاً بــه وهَنَــتْ قُــوَى الصَّبْــرِ[١]
فَلَكَــمْ يَــدٍ أَسْــدَيْتَهــا ويــدٍ ... كــانَــت تَــرُدُّ جَــرائــرَ الــدهــرِ[٢]

ثم انصرَفت فَسُئِل عنها، فإذا هي امرأتُه وابنةُ عمه. فقال الناس: ما سمعنا كلامَ امرأة قطّ أبلغ ولا أصدق منه.

قال: وكان الأحنفُ قدم الكوفة في أيام مصعب بن الزبير، فرآه رجلٌ أعورَ دميماً قصيراً أَحْنَفَ الرجلين، فقال له: يا أبا بحر؛ بأي شيء بلغتَ في الناس ما أرى؛ فوالله ما أنتَ بأشرف قومِك، ولا أجودِهم؟! فقال: يا ابن أخي، بخلاف ما أنت فيه! قال: وما هو؟ قال: تَرْكِي من أمرك ما لا يعنيني، كما عَنَاك من أمري ما لا تتركه.

[منصور النمري]

المعتصم ومحمد بن وهيب الشاعر

اجتمع الشعراء بباب المعتصم فبعث إليهم: مَنْ كان منكم يُحْسِنُ أن يقول مثل قول منصور النَّمري[٣] في أمير المؤمنين الرشيد:[٤]

إنّ المكــارمَ والمعــروفَ أَوديــةٌ ... أَحلّــك الله منهــا حَيْــثُ تَجْتَمِــعُ
إذا رَفَعْــتَ أمــرءاً فــاللَّــهُ رافِعُــهُ ... ومَــنْ وَضعْــتَ مــن الأقــوام مُتَّضِــعُ
مَــنْ لــم يَكُــنْ بــأمين اللَّـهِ مُعتصمـاً ... فَلَيْــسَ بــالصلــواتِ الخمــس يَنْتَفِــعُ
إنْ أَخْلفَ الغَيْـثُ لـم تُخْلِفْ أنامِلُه ... أو ضــاق أمــرٌ ذكــرنــاه فَيَتَّسِــعُ

(١) وهنت: ضعفت.
(٢) أسديتها: أعطيتها ومنحتها. والجرائر: جمع جريرة، وهي الجريمة، والخطيئة، والذنب.
(٣) هو أبو القاسم، منصور بن الزبرقان بن سلمة بن شريك النمري: شاعر من أهل الجزيرة الفراتية. قدم بغداد في أيام الدولة العباسية، واتصل بالرشيد ومدحه، ويقال إنه لم يمدح من الخلفاء غيره. وكان تلميذاً لكلثوم بن عمرو العتابي، ومن بحره استقى. توفي نحو ١٩٠ هـ/ ٨٠٥ م. (الأصفهاني، الأغاني: ١٣/ ١٤٠؛ ابن المعتز، طبقات الشعراء: ٢٤١).
(٤) الأبيات في العمدة في محاسن الشعر: ٢/ ١٣٩.

فليدخل، فقال محمد بن وهيب:[١] فينا من يقولُ خيراً منه، وأنشد:

ثَـلاثـةٌ تَشْـرِقُ الـدنيـا بِبَهْجتِهِـمْ   شَمْسُ الضحى وأبو إسحاق والقمرُ[٢]
يَحكــي أفـاعيلـه فـي كـلّ نـائبـةٍ   الغَيْثُ والليثُ والصَّمْصَامةُ الذّكَرُ[٣]

فأَمر بإدخاله وأحسن صلَته.

أخذ معنى البيت الأول من بيتي محمد بن وهيب أبو القاسم محمدُ بن هانىء الأندلسي:

المُــدْنَفَــانِ مــن البَــريَّـةِ كُلِّهــا   قَلْبــي وَطَــرْفٌ بــابلــيٌّ أحْــورُ[٤]
وَالمُشْــرقــاتُ النيــراتُ ثــلاثــةٌ   الشمــسُ والقمــرُ المنيــر وَجعْفَــرُ

وبيت أبي القاسم [الأول] مأخوذ من قول ابن الرومي:

يــــا عليــــلاً جَعَــــلَ العِلّـ   ــــةَ مِفْتــــاحــــاً لِسُقْمــــي
لَيْــــسَ فــــي الأرض عليــــلٌ   غَيْــــر جَفْنَيْــــك وَجِسْمــــي

منصور النَّمريّ والعتابي

ومر النَّـمَريّ بالعتابي مغموماً فقال: مالك، أعزّك الله؟ فقال: امرأتي بِطلْقٍ[٥] منذ ثلاث ونحنُ على يَأْسٍ منها. فقال له العتّابي: وإنَّ دواءَها منك أقربُ من وجهها، قل: هارون الرشيد، فإن الولدَ يخرج! فقال: شكوت إليكَ ما بي، فأجبتني بهذا؟ فقال: ما أخذت هذا إلا من قولك:

---

(١) هو أبو جعفر، محمد بن وهيب الحميري: شاعر بغدادي متشيع، من شعراء الدولة العباسية. أصله من البصرة. مدح المأمون والمعتصم، واختصَّ بالحسن بن سهل، وأدّب الفتح بن خاقان، وكان يتكسب بشعره. توفي نحو ٢٢٥ هـ/ ٨٤٠ م. (الزركلي، الأعلام: ٧/ ١٣٤؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ٢٣٧).

(٢) في رواية: «تشرق الدنيا بطلعتهم».

(٣) في العمدة في محاسن الشعر: «في كل نائلة». والصمصامة: السيف.

(٤) المدنفان: مثنى مدنف، وهو اسم مفعول من أدنفه المرض، أي أضعفه. والطرف: العين. بابلي: منسوب إلى بابل، وهي بلد السحر، وهم يصفون عيون النساء بالفتور، ويصفونها بأنها تفعل بالألباب ما لا يفعل السحر.

(٥) امرأتي بطلق: أي هي في المخاض، وهو وجع الولادة.

إنْ أَخْلَفَ الغَيْثُ لم تُخْلِفْ أنامِلُهُ ... أو ضاقَ أمرٌ ذَكَرناه فيَتَّسِعُ

وأبياتُ منصور بن سَلمة بن الزبرقان النمري التي ذكرها المعتصم من قصيدةٍ له وهي أحسنُ ما قيل في الشيب أولها:

ما تَنْقَضي حَسْرَةٌ مني ولا جَزَعُ ... إذا ذَكَرْتُ شَباباً ليسَ يُرْتَجَعُ

بانَ الشبابُ وفاتَتْني بِغُرَّتِه ... خُطوبُ دَهْرٍ وأَيامٌ لها خَدَعُ[(١)]

ما كُنتُ أُوفي شبابي كُنْهَ غِرَّتِهِ ... حَتَّى انقضَى فإذا الدنيا له تَبَعُ

تَعجبَتْ أن رأتْ أسرابَ دَمْعَتِهِ ... في حَلْبَةِ الخدِّ أجْرَاها حَشًى وَجِعُ

أَصْبَحْتِ لم تُطْعَمي ثُكْلَ الشباب وَلمْ ... تَشْجَيْ بِغُصَّتِه فالعُذْر لا يَقَعُ

لا أَلْحَيَنَّ فَتاتي غَيْرَ كاذبةٍ ... عَيْنُ الكذوب فما في وِدِّكُمْ طَمَعُ[(٢)]

ما واجه الشيبَ مَن عَيْبٍ وإن وَمِقَتْ ... إلا لها نَبْوَةٌ عنهُ وَمُرْتَدَعُ[(٣)]

إنـي لَمُعْتَرِفٌ ما فيَّ من أرَبٍ ... عِنْدَ الحِسانِ فما لِلنَّفْسِ تَنْخَدِعُ

قَد كِدْتَ تَقْضِي على فَوْتِ الشباب أسًى ... لولا تَعَزِّيكَ أنّ الأمرَ مُنْقطِعُ

وذُكر أن الرشيد لما سمع هذا بكى، وقال: ما خير دنيا لا تخطر فيها ببرد الشباب! وأنشد متمثلاً:

أتأمُل رَجْعَةَ الدنيا سَفَاهاً ... وَقدْ صارَ الشبابُ إلى ذهَابِ

فَليتَ الباكياتِ بِكُلِّ أرضٍ ... جُمِعْنَ لنا فَنُحْنَ على الشبابِ

تقديم الرشيد للنمري وأسبابه

وكان الرشيد يقدم منصوراً النمري بِجَوْدَة شعره، وَلِما يَمُتُّ إليه من النسب من العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وكانت نثيلة أم العباس من النمر بن قاسط؛ وَلِمَا كان يُظْهِر من الميل إلى إمَامة العباس وأهله، والمنافرة لآل علي رضي الله عنه ويقول:

(١) غُرَّةُ الشباب: غفلته، وسهوه، وأوله. الخُدَعُ: جمع خُدْعَة، وهي ما يُخْدَعُ به الإنسان، يقال: خدع فلانٌ فلاناً خَدْعاً وَخُدْعَةً وخَديعةً: أظهر له فلان ما يخفيه، وأراد به المكروه من حيث لا يعلم.

(٢) لحا فلاناً: لامه وعذله.

(٣) ومقت: وَدَّت، وأحبت، وعشقت. المرتدعُ: الارتداع والانزجار.

بنـي حَسَــنٍ وَقُــلْ لِبنـي حُسَيْــن عَلَيْكُــمْ بــالسَّــدَادِ مــن الأمــورِ
أميطـوا عَنْكُــمُ كَـذِبَ الأمــانــي وأحــلامــاً يَعِــدْنَ عِــداةَ زُورِ[١]
تُسَمّــونَ النَّبِـــيَّ أبــاً ويَــأْبــى مِـنَ الأحـزابِ سَطْـرٌ فـي سُطـورِ

يريدُ قولَ الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾[٢]. وهذا إنما نزل في شأن زيد بن حارثة، وكان رسولُ الله ﷺ تبنّاه، فقال له الرشيد: ما عدوتَ ما في نفسي، وأمره أن يدخلَ بيتَ المال فيأخذ ما أحبّ.

النمري رافضي

وكان يضمر غير ما يظهر، ويعتقد الرّفض، وله في ذلك شعر كثير لم يَظْهَرْ إلاّ بعد موته، وبلغ الرشيد قوله:

آلُ النبــــي ومـــــن يُحِبُّهـــــمُ يَتطــامُنُــون مَخَــافــةَ القَتْــلِ[٣]
أمِــنَ النصــارى واليهــودُ ومَــن مــن أُمَّــةِ التــوحيـد فــي أَزْلِ[٤]
إلا مَصَــالـــتَ يَنْصُـــرُونَهُـــمُ بِظُبَـا الصَّـوارم والقَنـا الـذُّبْـلِ[٥]

فأمر الرشيد بقتله [وكان حينئذ برأس العين]، فمضى الرسول فوجده قد مات فقال الرشيد: لقد هممت أن أنبش عظامَه فأحرقها. وكان يُلْغِز في مدحه لهرون، وإنما يريد قول النبي ﷺ لعليّ رضوان الله عليه: أنت مني بمنزلة هرون من موسى. وقال الجاحظ: وكان يذهب أولاً مذهب الشُّراة[٦]، فدخل الكوفة وجلس إلى هشام بن الحكم الرافضي وسمع كلامَه، فانتقل إلى الرفض، وأخبرني مَنْ رآه على قبر الحسين بن علي رضي الله عنهما ينشد قصيدتَه التي يقول فيها:

(١) أماط الشيء عنه: أبعده.
(٢) سورة الأحزاب، آية (٤٠).
(٣) تطامن فلان: سكن، أو انخفض، واطمأن عما كان يفعله: تركه، وطمأنه وطامنه: سَكَّنهُ وحناه.
(٤) الأَزْلُ: الشدة والضيق.
(٥) المصالت: جمع مصلت، وهو المقدام الشجاع. الظُّبا: جمع ظُبَة، وهي حَدُّ السيف. والصوارم: السيوف، واحدها صارم.
(٦) الشُّراة: الخوارج، سموا أنفسهم بذلك لأنهم زعموا أنهم شروا أنفسهم بأنَّ لهم الجنة. والروافض: فرقة من الشيعة.

فمـا وُجِـدتْ علـى الأكنـافِ منهـم وَلا الأقفـــاءِ آثـــارُ النُّصـــولِ[١]
وَلكـــنَّ الـــوجـــوهَ بهـــا كُلـــومٌ وَفَـوْقَ حُجُـورهـم مَجْـرَى السيـولِ
أُرِيـقَ دَمُ الحُسيـنِ ولـم يُـراعـوا وفـــي الأحيـــاء أمـــواتُ العُقـــولِ
فَـدتْ نفســي جَبيـنَـكَ مِـنْ جَبِيـنٍ جَـرَى دَمُـهُ علـى خـدٍّ أسيـلِ
أيخلـــو قلـــبُ ذي وَرَعٍ ودِيـــنٍ مِـنَ الأحـزانِ والألـمِ الطـويـلِ
وَقَـدْ شَـرِقَـتْ رِمـاحُ بنـي زيـادٍ بِـرِيٍّ مِـنْ دِمَـاءِ بنـي الـرسـولِ[٢]
بِتُـرْبَـةِ كَـرْبَـلاءَ لهـم دِيـارٌ نيـامُ الأهـلِ دارِسَـةُ الطُّلُـولِ
فـأوصـالُ الحُسيـن بِبَطْـنِ قـاعٍ مَـلاعـبُ لِلـدَّبـور وَلِلْقَبـولِ[٣]
تَحيـــاتٌ وَمغفـــرةٌ وَروحٌ علـى تِلْـكَ المحلـةِ والحُلُـولِ[٤]
بَـرِئْنَـا يـا رسـولَ اللَّـه مِمَّـنْ أصـابـكَ بـالأذيّـةِ والـذُّحُـولِ[٥]

[ابنا المعذل]

أحمد بن المعذل

وقال أحمد بن المعذل:

أخـو دَنَـفٍ رَمَتْـهُ فـأقْصَـدتْـهُ سِهَـامٌ مـن جُفـونِـكِ لا تَطِيـشُ[٦]
كَئيـبٌ إن تَـرحَّـلَ عنـه جيـشٌ مِـنَ البَلْـوى ألـمَّ بـهِ جُيُـوشُ

وكان أحمد بن المعذَّل بن غَيْلان العبدي في اللغة والبيان والأدب والحلاوة غايةً.

قال: دخلتُ المدينة فتحملت على عبد الملك بن الماجشون برجل ليخصّني ويُعْنَى بي، فلما فاتحني قال: ما تحتاجُ أنت إلى شفيع، معك من الحذاء والسقاء ما تأكلُ به لبّ الشجر، وتشرب صَفْوَ الماء.

(١) يريد أنهم لا يَفرُّون فيقع الطعن في ظهورهم.
(٢) شرقت الرماح بدمائهم: كناية عن كثرة ما أسالته منها.
(٣) الدَّبُورُ: ريح تهب من المغرب، وتقابل القبول، وهي ريح الصَّبا.
(٤) المحلة: الموضع الذي يحلون به، والحلول: جمع حال، وقد حَلَّ بالمكان: نزل فيه، واتخذه سكناً.
(٥) الذحول: جمع ذحل، وهو الوتر.
(٦) الدَّنَفُ: المرض المثقل. وأقصد السهم: أصاب. لا تطيش: لا تخطىء.

بين أحمد وأخيه

وكان أخوهُ عبد الصمد[١] يؤذيه وَيَهْجُوه، فكتب إليه أحمد: أما بعدُ فإنَّ أعظم المكروه ما جاء من حيث يُرْجَى المحبوب، وقد كُنْتَ مؤَمَّلاً مَرْجُوًّا، حتى شمل شرّك، وعمّ أذاك، فصرت فيك كأبي العاقّ: إن عاش نَغَّصَه، وإن مات نَقَصَه، واعلم لقد خَشَّنتَ صَدْرَ أخٍ جَيْبُه لك ناصحٌ، والسلام.

وكان يقول له: أنت كالأصبع الزائدة: إن تُرِكَتْ شانَتْ، وإن قُطِعَتْ آلمت!

ومثلُ هذا قولُ النعمان بن شمر الغساني:

وِصَالُ أبي بُردٍ عَنَاءٌ، وَتَرْكُهُ ... بلاءٌ، فما أدْري به كَيْفَ أَصْنَعُ
إذا زُرْتُه يَوميْنِ مَلَّ زِيارتي ... وَإن غِبتُ عَنْهُ ظلّتِ العَيْنُ تَدْمَعُ

وقول الضحاك بن همام الرقاشي:

وَأنتَ امرؤٌ مِنّا خُلِقْتَ لِغَيْرِنا ... حَياتُك لا تُرْجَى وَمَوْتُكَ فاجِعُ
وَأَنْتَ ـ على ما كانَ مِنكَ ـ ابنُ حُرّةٍ ... وَإني لما يَرْضَى بِهِ الخَصْمُ مانعُ
وَفِيكَ خِصالٌ صَالحاتٌ يَشِينُها ... لَديْكَ جَفاءٌ عِنْدَهُ الودُّ ضائِعُ

وقال بعضُ المحدثين:

إذا ساءني في القولِ والفِعْلِ جاهِداً ... وَفي كُلّ حَالٍ مَنْ أُحِبُّ وأَمْحضُ[٢]
فيا ليتَ شِعْري ما يُعاملني بِهِ ... على كلّ ذنبٍ مَنْ أُعادي وَأُبْغِضُ

أخذ أحمد بن المعذل للصلة

وقال أبو العباس المبرّد: وكان أحمد بن المعذّل من الأبّهة، والتمسك بالمنهاج، والتجنُّب للعبث، والتعرّض للاشفاقِ لِما في[٣] أيدي الناس؛ وإظهار الزُّهْدِ فيه، والتباعد عنه، على غاية، حتى حُمِل في فقهاء وأدباء من أهل البصرة؛ فأخذَ الصلة غيرَ مُمْتَنِع ولا مُنْكر. ووصله إسحاق بن إبراهيم فقبل، واستدعى اجتباءه إياه، وتحلّى له جهده، فقال عبد الصمد:

---

(١) توفي نحو ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م. ويقال: إنَّ له أحد عشر أخاً، كلهم مع أبيهم المعذل بن غيلان، لهم مكاتبات بالأشعار (الهواري، الشعر والشعراء في كتاب العمدة: ص ٢٥٤).
(٢) أَمحض الرجلَ: محضه، يقال: أمحضه الودّ والنصيحة والحديث، صَدَقَهُ.
(٣) للاشفاق: هو مفعول لأجله، وأصل الكلام: والتعرض لما في أيدي الناس لأجل الإشفاق.

عَـذيـري مـن أخٍ قـد كـانَ يُبْـدِي عَلـى مَـنْ لَابـس الـسلطـانَ عَتْبَـهْ
وَكـانَ يَـذمُّهـم فـي كـلّ يـوم لـه بـالجهـلِ وَالهـذيـانِ خُطْبَـهْ
فَلمَّـا أنْ أَتتـهُ دُرَيْهِمـاتٌ مِـن السلطـانِ بـاعَ بِهِـنَّ رَبَّـهْ

وقال فيه:

لِـي أخٌ لا تَـرى لـهُ سَـائـلا غَيْـرَ عـاتِـبِ
أجْمَـعُ النـاسِ كُلّهـمْ لِلئيـمِ المَـذاهِـبِ
دُونَ مَعْـرُوفِ كَفّـهِ لَمْـسُ بعـضِ الكـواكـبِ
لَيْـتَ لـي مِنْـكَ يـا أخـي جـارةٌ مِـنْ مُحـارِبِ
نَـارُهَـا كـلّ شَتْـوَةٍ مِثْـلُ نـارِ الحُبَـاحِـبِ[1]

القطامي يهجو امرأة من محارب

ذهب إلى قول القُطامي، وقولُ القطامي من خبيث الهجاء، وكان نزل بامرأةٍ من محارب بن خَصَفَةَ بن قيس بن عَيْلان بن مضر، فذمّ مَثْواه عندها، فقال:

وَإنـي وإنْ كـان المُسَـافِـرُ نـازلاً وإن كـانَ ذا حـقّ على النـاسِ واجـبِ
فـلا بـدّ أن الضيـفَ يُخْبِـرُ مـا رَأى مُخَبِّـر أهـلٍ أو مُخَبّـر صـاحـبِ
لَمُخْبِـرُكَ الأنبـاءَ عَـنْ أُمِّ منـزلٍ تَضَـيَّفْتُهَـا بيـن العُـذيـبِ فَـراسِـبِ
تَلفّعـتُ فـي طَـلّ وَريـح تَلُفّنـي إلـى طَـرْمِسـاء غَيْـرِ ذات كـواكـبِ[2]
إلـى حَيْـزَبُـون تُـوقِـد النـارَ بعـدمـا تَلَفَّعَـتِ الظلمـاءُ مـن كـلّ جـانـبِ[3]
تصلّـى بهـا بَـرْدَ العِشَـاءِ ولـم تَكُـنْ تَخـالُ وَميـضَ النـارِ يَبْـدُو لـراكـبِ
[فمـا رَاعهـا إلا بغـامُ مطيتـي تُريحُ بِمَحْسُودٍ من الصوتِ لاغبِ][4]

---

(١) نار الحباحب: ما تطاير من شرر النار في الهواء، من تصادم الحجارة أو نحو ذلك، قال النابغة الذبياني:
تَقُـدُّ السَّلُـوقـيَّ المُضَـاعَـفَ نَسْجُـهُ وَتُـوقِـدُ بِـالصَّفَّـاحِ نَـارَ الحُبـاحِـبِ
(ديوانه: ص ١١).

(٢) الطرمساء: الظلمة الشديدة.

(٣) الحيزبون: العجوز.

(٤) بغام المطية: صوتها. ولغب فلان لَغْباً ولُغُوباً: تعب وأعيا، فهو لاغبٌ. ويقال: تلغَّبت بهم القفار، وتلغَّبتهم الأسفار: أتعبتهم.

فَجُنَّت فُنوناً من دِلاَثٍ مُناخةٍ ومن رَجُلٍ عاري الأشاجع شاحبِ[١]
سَرى في حَليكِ الليلِ حتى كأنما تَخزَّم بالأطرافِ شوكُ العقاربِ
تَقولُ وقد قرَّبتُ كُوري وناقتي إليك، فلا تَذعَرْ عليَّ ركائبي[٢]
فَسلَّمتُ والتسليمُ ليسَ يَسرُّها وَلكنه حَقٌّ على كلِّ جانبِ
فردّت سلاماً كارهاً ثم أعرضتْ كما انْحَاشَت الأفعى مخافَة ضاربِ[٣]
فلما تَنازعنا الحديثَ سألتُها مَنِ الحيُّ؟ قالت: معشرٌ من مُحارِبِ
مِنَ المُشْتَوينَ القِدّ مما تَراهُم جِياعاً وريفُ الناس ليس بِناضبِ
فلما بَدا حِرمانُها الضيفَ لم يَكُنْ عَليّ مبيتُ السوءِ ضَرْبةَ لاَزبِ[٤]
وَقُمْتُ إلى مَهْريَّةٍ قد تَعوَّدَتْ يَداها ورِجلاها حَثيثَ المراكِبِ[٥]
إلا إنما نيرانُ قَيْسٍ إذا شَتَوْا لِطارقِ ليلٍ مِثْلُ نارِ الحُباحِبِ

ومحارب: قبيلة منسوبة إلى الضعف، وقد ضربت العربُ بها المثل. قال الفرزدق لجرير:[٦]

وما اسْتَعْهَدَ الأقوامُ من زَوْجِ حُرّةٍ من الناسِ إلا مِنْكَ أو منْ مُحاربِ[٧]

أي يأخذون العَهْدَ عليه أنه ليس من كليب ولا من محارب.

وقال أبو نواس في قصيدته التي فخر فيها باليمانية وهجا قبائل معدّ:[٨]

وَقيْسُ عَيْلانَ لا أُريدُ لها مِنَ المخازي سِوى مُحارِبِها

---

(١) الدلاث: السريع من النوق والجمال وغيرها.
(٢) الكور: الرَّحْل، وقيل: هو الرَّحْلُ بأداته.
(٣) انحاشت: ابتعدت.
(٤) لزب الشيء لُزوباً: ثبت، فهو لازبٌ، يقال: صار الأمر ضربة لازب، قال النابغة الذبياني:
ولا يَحْسِبونَ الخَيرَ إلاَّ شَرَّ بَعْدَهُ وَلا يَحْسُبونَ الشَّرَّ ضَرْبَةَ لازِبِ
(ديوانه: ص ١٣).
(٥) مهرية: ناقة مهرية، منسوبة لقبيلة مَهْرَة بن حيدان، وهي تسبق الخيل في جريها.
(٦) الفرزدق، الديوان: ١/ ٩٧.
(٧) استعهد: اشترط. يريد أن الأقوام يشترطون على من يأتيهم خاطباً ألاّ يكون من كليب أو من محارب.
(٨) أبو نواس، الديوان: ص ٥٠٩.

أم عبد الصمد بن المعذل

وكانت أم عبد الصمد بن المعذل طباخةً، فكان أحمد يقول إذا بلغه هجاؤه: ما عَسِيتُ أن أقول فيمن أُلْقِحَ بين قدر وتَنّور، ونشأ بين زق وطُنبور(١)؟ وعبد الصمد شاعر أهل البصرة في وقته، وهو القائل:

تُكَلِّفُني إذلالَ نَفْسي لِعِزِّها ... وَهانَ عليها أَنْ أُهانَ لِتَكْرُما
تقول: سَلِ المعروفَ يحيى بن أكثمٍ ... فَقلتُ: سَليه رَبَّ يحيى بن أكثما

لأبي حكيمة في الرقيق

قال أبو شُراعة القيسي: كنتُ في مجلس العُتبي مع عبد الصمد بن المعذل، فتذاكرنا أشعارَ المولدين في الرقيق، فقال عبد الصمد: أنا أشعر الناس فيه وفي غيره، فقلت: أحذق منك والله بالرقيق الذي يقول، وهو راشد بن إسحاق أبو حُكيمة الكوفي:

وَمُسْتَوحِشٍ لم يُمْسِ في دارِ غُرْبَةٍ ... وَلكنَّهُ ممن يحبّ غَريبُ
طَوَاه الهوى واستشعر الوَصْل غيرهُ ... فَشطَّتْ نَواهُ والمَزارُ قريبُ(٢)
سَلامٌ على الدارِ التي لا أزورُها ... وإن حَلّها شخصٌ إليَّ حبيبُ
وإن حَجَبتْ عن ناظريَّ سُتورُها ... هوى تَحْسُن الدُّنيا به وتَطيبُ
هَوًى تَضْحك اللذاتُ عند حُضورِهِ ... ويَسْخَنُ طَرْفُ اللهو حين يَغِيبُ
تَثَنَّى به الأعطافُ حتى كأنهُ ... إذا اهتزّ من تحتِ الثيابِ قَضِيبُ
ألم تَرَ صَمْتي حين يَجْري حَديثُهُ ... وقد كنت أُدْعَى باسْمِه فأجيبُ
رَضيتُ بسَعْي الدهر بيني وبينه ... وإن لم يَكُنْ للعينِ فيه نصيبُ
أحاذِر إنْ واصلتُهُ أَنْ يَنالني ... وَإياهُ سَهْمٌ لِلْفِراقِ مُصيبُ
أرى دُون مَنْ أهوى عُيوناً تُريبني ... ولا شكَّ أني عِنْدَهُنّ مُريبُ
أُداري جليسي بالتجلّد في الهوى ... وَلي حين أخلو زَفْرَةٌ ونحيبُ
وأُخْبِرُ عنه بالذي لا أحبّهُ ... فَيضْحَكُ سِنّي والفؤادُ كئيبُ

---

(١) الزِّقُّ: وعاء من جِلْدٍ يُجَزُّ شعره، ويستخدم للشراب وغيره. والطنبور: من آلات اللهو.

(٢) شطت: بعدت. نواه: نيته، قصده، أو بعده، وهم يسندون الفعل إلى مصدره، فيقولون: جَدَّجدّه، وشعر شعره.

مخافةَ أن تُغْرَى بنا ألسنُ العِدَا فَيَطْمَعُ فينا كاشحٌ فيعيبُ
كأن مجالَ الطّرف في كُلّ ناظرٍ على حَركاتِ العاشقين رقيبُ
أرَى خطرات الشوق يبكين ذَا الهوى وَيُصْبينَ عقلَ المرءِ وَهْو لبيبُ
وَكمْ قَدْ أذلّ الحبُّ من مُتمنِّعٍ فَأضحى وَثَوْبُ العزِّ منه سَليبُ
وإنّ خُضوعَ النفسِ في طلبِ الهوى لأمرٌ، إذا فَكَّرْتُ فيه، عَجيبُ

فلم ينطق بحرف.

لأبي شراعة

ولأبي شُراعة يمدح بني رياح:

بني رياح أعاد اللَّهُ نِعْمَتكُمْ خَيْرَ المَعادِ وأسقى رَبْعَكم دِيما[١]
فَكَمْ بِهِ من فَتى حُلْوٍ شمائلهُ يكادُ يَنْهَلُّ من أعطافِه كَرَما
لم يَلْبِسوا نعمةً لِلَّه مُذْ خُلِقوا إلاَّ تَلَبَّسها إخوانُهمْ نِعَما

لابن المعذل في إبراهيم بن رياح

وفي إبراهيم بن رياح يقول عبد الصمد بن المعذل:

قَدْ تَركْتَ الرياحَ يابنَ رياحٍ وَهْي حَسْرى إنْ هبَّ منها نسيمُ
نَهكَتْ مَالَكَ الحقوقُ فأَضْحَى لكَ مالٌ نِضوٌ وَفِعْلٌ جَسيمُ[٢]

وكان عبد الصمد [ابن المعذل] متصلاً بإبراهيم وبنيه، وأفاد منهم أموالاً جليلة، واعتقد عقداً نفيسة، فما شكر ذلك ولا أصحبه بما يجب عليه من الثناء عند نَكْبَته، وكان الواثق عزَلَه عن ديوان الضياع، ودفعه إلى عمر بن فرج الرخجي، فحبسه فهجاه عبد الصمد.

صفات عبد الصمد بن المعذل

قال أبو العباس محمد بن يزيد:[٣] وكان عبد الصمد شديدَ الإقدام على رديء السريرة فيما بينه وبين الناس، خبيث النيَّة، يرصُد صديقَه بالمكروه، تقديراً أن يعادِيه فيسوءه بأمْرٍ

---

(١) الديم: جمع ديمة، وهو المطر يطول زمانه في سكون.
(٢) نهكته: أتعبته، أو أتت عليه واجتاحته. النِّضْوُ: الضعيف السقيم.
(٣) هو المُبرّد، أبو العباس، محمد بن يزيد بن عبد الأكبر بن عميرة بن حسّان الأزدي، المتوفى سنة ٢٨٦ هـ/ ٩٠٠ م.

يعرفه؛ ولا يكاد يَسْلَم لأحد، وكان مشهوراً في ذلك الأمر، يُلْبَسُ عليه[١]، ويحمل على معرفةٍ، عجباً بِظَرْفِ لسانِهِ، وطيبِ مجلسه، وأيضاً لِقُبْح مَسَبَّه، وشائن معرّته.

قال أبو العيناء: ولما حبس الواثق إبراهيم بن رياح، وكان لي صديقاً، صنعتُ له هذا الخبر رجاءً أن ينتهي إلى أمير المؤمنين فينتفع به، فأخبرني زيدُ بن علي بن الحسين أنه كان عند الواثق حين قرىء عليه فضحك واستطرفه. وقال: ما صنع هذا كُلَّه أبو العيناء إلا في سبب إبراهيم بن رياح، وأمر بتخليته، والخبر: قال لقيتُ أعرابياً من بني كلاب فقلت له: ما عندك من خَبر هذا العسكر؟ فقال: قتل أرضاً عالِمُها، قال: فقلت: فما عندك من خبر الخليفة؟ قال: بَخْبَخ[٢] بعزه، وضرب بِجِرانه[٣]، وأخذ الدرهم من مصره، وأرهف قَلَم كلّ كاتبٍ بجبايته. قلت: فما عندك في أحمد بن أبي دُواد؟ قال: عُضلة[٤] لا تُطاقُ، وجَنْدَلة لا تُرَام، ينتحي بالمدى لتحزه فيجور، وتنصب لهُ الحبائل حتى تقول: الآن، ثم يضبر[٥] ضَبْرَة الذئب، ويخرج خروج الضب، والخليفة يحنو عليه، والقرآن آخذ بضَبْعَيْهِ. قلت: فما عندك في عمر بن فرج؟ قال: ضَخْم حِضَجْر[٦]، غضوب هِزَبْر[٧]. قد أهدفه القومُ لِبَغْيهم، وانتضلوا له عن قِسِيِّهم، وأحْرِ له بمثل مصرع من يصرع. قلت: فما عندك في خبر ابن الزيَّات؟ قال: ذلك رَجُلٌ وسع الوَرى شره، وبطن بالأمور خيره. فله في كل يوم صريع، لا يظهر فيه أثرُ ناب ولا مِخلب، إلا بتسديد الرأي. قلت: فما عندك في خبر إبراهيم بن رياح! قال: ذاك رجل أوْبقَه كَرمُه، وإن يَفُزْ للكرام قدح، فأحْرِ بمَنْجاتِهِ، ومعه دعاء لا يخذله، وَربٌّ لا يسلمه، وَفوقه خليفة لا يظلمه. قلت: فما عندك في خبر نجاح بن سلمة؟ قال: لله

---

(١) يُلْبَسُ عليه: أي يخالطه الناس مع علمهم به.

(٢) بخبخ بَخْبَخةً وبَخْباخاً: احتمى من الحرّ، فلم يَسِرْ وقت الظهيرة، وبخبخ لحمه: استرخى من هزالٍ بعد سِمَنٍ، وبخبخ في النوم: غَطَّ.

(٣) الجران: باطن العنق، وقيل: هي جلدة تضطرب على باطن العنق، من ثغرة النحر إلى منتهى العنق في الرأس. وفي حديث عائشة رضي الله عنها: حتى ضرب الحقُّ بجرانه، أرادت أن الحقَّ استقام وقرَّ في قراره. ولعله أراد بالجران هنا: السوط لقول جران العود الشاعر لامرأتيه:

خُـذا حَـذَراً يـا جَـارَتـيَّ فـإنَّـي رَأَيـتُ جِرانَ العَـوْدِ قَـدْ كـادَ يَصْلُـحُ

وكان أراد بجرانِ العود سوطاً قَدَّهُ من جرانِ عَوْدٍ نحره.

(٤) العُضْلَةُ: الداهية.

(٥) ضَبَرَ ضَبْراً وَضَبراناً: قفز، وثب.

(٦) الحِضَجْرُ: العظيم البطن.

(٧) الهزبر: الأسد.

دره من ناقض أوتار، يتوقد كأنه شعلةُ نار، له في الفَيْنَة بعد الفينة، عند الخليفة خلسة كخلسة السارق، أوْ كحسوة الطائر، يقومُ عنها وَقد أفاد نعما، وَأوقع نقماً. قلت: فما عندك في خبر ابن الوزير؟ قال: إخاله كَبْش الزنادِقة، ألا ترى أن الخليفة إذا أهمله خضِمَ ورَتع، وإذا أمر بتقصيه أمطر فأمْرَع. قلت: فما عندك من خبر الخصيب أحمد]؟ قال: ذاك أحمق، أكل أكْلة نَهِم، فاختلف اختلاف بشم. قلت: فما عندك في خبر المعلى بن أيوب؟ قال: ذاك رجل قُدّ من صخرة، فَصَبْره صَبْرُها، ومسُّه مسُّها، وكلٌّ ما فيه بعد فمنها ولها. قلت: فما عندك من خبر أحمد بن إسرائيل؟ قال: كتوم غرور[١]، وجَلْد صبور، رجل جِلْدُه جلد نمر، كلما خرقوا له إهاباً، أنشأ الله له إهاباً. قلت: فما عندك من خبر الحسن بن وهب؟ قال: ذاك رجل اتخذ السلطانَ أخاً، فاتخذه السلطانُ عبداً، قال: قلت: فما عندك من خبر أخيه سليمان بن وهب؟ قال: شَدّ ما استوفيتَ مسألتك أيها الرجل! ذاك حرمة حبست مع صواحباتها في جريرة محرمة، ليس من القوم في وِرْدٍ ولا صَدَر، هيهات:

كُتِبَ القَتْلُ والقِتالُ علينا ... وَعلى الغانياتِ جَرُّ الذُّيولِ

قال: قلت: فما عندك من خبر عبد اللّه بن يعقوب؟ قال: أمواتٌ غير أحياء، وما يشعرون أيَّانَ يبعثون.

قلت: فأين نزلت فأؤمّك؟ قال: ما لي منزل تأمُّه. أنا أستتِر في الليل إذا عَسْعَس، وَأنتشِرُ في الصبح إذا تنفَّس[٢].

من شعر راشد بن إسحاق بن راشد

ومن مليح شعر راشد بن إسحاق بن راشد، وهو أبو حُكيمة، وكان قَوِيّ أسْرِ الشعر:

تَحيَّرتُ في أَمري وَإني لَواقفٌ ... أُجيلُ وُجوهَ الرأي فيكَ وما أدري[٣]
أأعْزِمُ عَزْمَ اليأسِ فالموتُ راحةٌ ... أمَ اْقنَعُ بالإعْراض والنَّظَرِ الشَّزْرِ
وَإني وإن أعرضتُ عَنْكَ لَمُنْطَوٍ ... على حُرَقٍ بين الجوانح والصدرِ
إذا هاج شوقي مَثّلتكَ ليَ المنى ... فَألقاكَ ما بيني وبينكَ في سِتْرِ

---

(١) وفي رواية: «كتوم غدور».
(٢) أخذه من قوله تعالى: ﴿واللَّيلِ إذا عَسْعَسَ، والصُّبحِ إذا تَنَفَّسَ﴾ (سورة التكوير، الآيتان ١٧ و١٨). وعسعس الليل: أقبل بظلامه.
(٣) أُجيل وجوه الرأي: أُديرها ليظهر لي الصواب.

فَديتُكَ لم أصبرْ ولي فيكَ حِيلةٌ ... وَلكنْ دعاني اليأسُ فيك إلى الصبرِ
تَصبَّرتُ مَغْلوباً وإني لَمُوجَعٌ ... كما صَبَر الظمآنُ في البلد القَفْرِ

وقال:

عَتبتُ عَليْكَ في قَطْعِ العتابِ ... فما عَطَفَتْكَ أَلسِنةُ العتابِ
وَفيما صِرتَ تَظهرُ لي دَليلٌ ... على عَتْبِ الضَّميرِ المُستَرابِ
ومَا خَطرتْ دَواعي الشوقِ إلاَّ ... هَزَزْتُ إليكَ أَجْنِحةَ التصابي

وقال أيضاً:

ضَحِكْتِ ولو تَدْرين ما بِي من الهوى ... بَكَيْتِ لِمَحْزُونِ الفؤاد كئيبِ
لِمنْ لم تُرَحْ عيناه من فَيْضِ عَبْرَةٍ ... ولا قَلْبُهُ مِنْ زَفْرَةٍ وَنَحِيبِ
لِمُستأنسٍ بالهمِّ في دارِ وَحْشَةٍ ... غَريبِ الهوى باكٍ لكلِّ غريبِ
ألا بأبي العيشُ الذي بانَ فانقضى ... وَما كان من حُسْنٍ هناك وطِيبِ
ليالِيَ يَدْعُونا الصّبا فَنُجِيبُهُ ... وَنأخذُ مِنْ لذَّاتِه بِنَصيبِ
نُرَدِّدُ مُستورَ الأحاديث بَيْنَنا ... على غَفْلَةٍ من كاشِحٍ ورقيبِ
إلى أن جَرى صَرْفُ الحوادثِ في الهوى ... فَبُدِّلَ منها مَشْهَدٌ بِمَغيبِ

وله مذهب استفرغ فيه أكثر شعره، صُنتُ الكتاب عن ذكره.

[عبد الملك بن صالح]

دعا الرشيد بعبد الملك بن صالح ـ وكان معتقلاً في حَبْسه ـ فلما مَثَل بين يديه التفت إليه، وكان يُحدِّث يحيى بن خالد بن بَرْمك وزيرَه، فقال متمثلاً:

أريدُ حَياتَهُ وَيُريدُ قَتْلي ... عَذيرَكَ من خَليلِكَ من مُرادِ[1]

---

(١) البيت لعمرو بن معدى كرب الزبيدي، قاله لابن أخته قيس بن زهير بن هبيرة بن مكشوح المرادي، وكان بينهما بعد شديد وعداوة عظيمة. وهو البيت الذي تمثل به علي بن أبي طالب حين همَّ ابن ملجم بطعنه. وكان العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان قد ضمَّنه في قوله لمسلمة بن عبد الملك:

لَقَدْ أنكرتَني إنكارَ خَوْفٍ ... يَضُمُّ حَشَاكَ عَنْ شَتْمي وذَحْلي
كَقَوْلِ المرءِ عمرو في القوافي ... لِقَيْسٍ حينَ خالفَ كُلَّ عَذْلِ
عَذِيركَ من خليلك من مُرادٍ ... أريدُ حياته وَيُريدُ قَتْلي

(ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر: ٢/ ٧٦). وقد استشهد ابن رشيق بهذه الأبيات على التضمين المعكوس.

ثم قال: يا عبدَ الملك، كأني أنظر إلى شُؤْبُوبها قد هَمَع[١]، وإلى عارِضِها قد لَمَع، وكأني بالوعيد قد أوْرَى[٢]، بل أدمى، فأبرز عن بَراجمَ بلا مَعَاصِم[٣]، ورؤوس بلا غَلاَصم[٤]، فمهلاً بني هاشم، فبي والله سَهُلَ لكم الوَعْرُ، وصفا لكم الكَدِر، وألْقَتْ إليكم الأمور أثناءَ أزِمتها، فنذار لكم نذراً قبل حلول داهية خبوط باليد والرجل، فقال عبد الملك: أفذًّا أتكلم أم تَوْأماً؟ قال: بل فَذًّا، قال: اتّق اللهَ يا أمير المؤمنين فيما ولاّك، واحفظه في رعاياك الذي استرعاك، ولا تجعل الكفر بموضع الشكر، والعقاب بِمَوْضِع الثواب، فقد والله سَهَّلْتُ لك الوعور، وجمعتُ على خوفك ورجائك الصدور، وشددتُ أوَاخي ملكك بأوثَقَ من رُكْنَيْ يَلَمْلَمَ[٥]، وكنتُ لك كما قال أخو بني جعفر بن كلاب ـ يعني لبيدا:[٦]

وَمقامٍ ضَيّقٍ فَرّجتهُ ... بلسانٍ وبَيَانٍ وجَدَلْ
لَوْ يَقومُ الفيلُ أو فَيَّالُهُ ... زَلَّ عنْ مِثْلِ مقامي وَزَحَلْ

فأعاده إلى مجلسه[٧]، وقال: لقد نظرتُ إلى موضع السيف من عاتقه مراراً، فيمنعني عن قتله إبقائي على مثله.

[مدح الحقد وذمه]

عبد الملك يمتدح الحقد

وأراد يحيى بن خالد أن يضَعَ من عبد الملك لِيُرْضِي الرشيد، فقال له: يا عبد الملك، بلغني أنك حَقُود! فقال عبد الملك: أيها الوزير، إنْ كان الحقد هو بقاء الشر والخير، إنهما لباقيان في قلبي! فقال الرشيد: تالله ما رأيتُ أحداً احتجَّ للحقد بأحسنَ مما احتجَّ به عبد الملك.

---

(١) الشؤبوب: الدفعة من المطر. وهمع المطر: انهمر، انصب.
(٢) من قولهم: «أورى الزند» إذا قدحته فأخرج ناراً.
(٣) البراجم: الأصابع.
(٤) الغلاصم: جمع غلصمة، وهي صفيحة غضروفية عند أصل اللسان.
(٥) يَلَمْلَمُ: جبل، وقيل: موضع، وقيل: هو ميقات أهل اليمن للإحرام بالحجّ.
(٦) لبيد بن ربيعة، الديوان: ص ١٤٧. والبيتان من قصيدة طويلة يتحدث فيها عن مآثره ومواقفه، ويأسى لفقد أخيه أربد.
(٧) قد يكون الصواب: «فأعاده إلى محبسه».

لابن الرومي

وقد مدح ابن الرومي الحقد، وأخذ هذا المعنى من قول عبد الملك وزاد فيه؛ فقال لعاتبٍ عابه بذلك:[١]

لَئِنْ كُنْتَ في حفظي لما أنا مُودَعٌ ... من الخير والشر انْتَحَيْتَ على عِرْضِي[٢]
لَمَا عِبْتَني إلا بفضلِ إبانةٍ ... وَرُبَّ امرىء يَزْري على خُلُقٍ مَحْضِ[٣]
وَلا عَيْبَ أنْ تُجْزَى القروضُ بِمثلها ... بل العيبُ أن تَدَّانَ دَيْناً ولا تقضي[٤]
وَخَيْرُ سَجِيَّاتِ الرجالِ سجيةٌ ... تُوفيكَ ما تُسْدي من القَرْضِ بِالقَرْضِ[٥]
إذا الأرض أدَّتْ رَيْعَ ما أنت زَارِعٌ ... مِنَ البَذْر فيها فَهي ناهيكَ من أرضِ[٦]
وَلولا الحقُودُ المُسْتكناتُ لم يَكُن ... لِيَنْقُضَ وتراً آخرَ الدهرِ ذو نَقْضِ[٧]
وَما الحِقْدُ إلا توأم الشكرِ في الفتى ... وَبعْضُ السجايا يَنْتَمينَ إلى بَعْضِ[٨]
فَحَيْثُ ترى حِقداً على ذي إساءةٍ ... فَثَمَّ ترى شكراً على حَسَنِ القَرْضِ

وقال يردّ على نفسه، ويذم ما مدح، توسّعاً واقتداراً:[٩]

يا مادحَ الحقدِ محتالاً له شبهاً ... لَقَدْ سَلكْتَ إليه مَسْلكاً وَعِثا[١٠]
إنّ القبيحَ وإنْ صَنَّعتَ ظاهِرَهُ ... يعودُ ما لَمَّ منه مرةً شَعِثا[١١]

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ٢٤.
(٢) العِرْضُ: الشرف.
(٣) في الديوان:
فما عِبْتَني إلاَّ بما لَيْسَ عَائِبي ... وَكمْ جَاهِلٍ يُزْري على خُلُقٍ مَحْضِ
يزري: ينتقص. محض: خالص من الشوائب.
(٤) تَدَّان: تستدين.
(٥) تسدي: تنعم.
(٦) الرَّيْعُ: فضل كل شيء، والمرجوع والغَلَّة.
(٧) المستكنات: المستترات. نقض: حرّك. الوتر: الحقد.
(٨) في الديوان: «يَنْتَسِبْنَ إلى بَعْضِ». السجايا: الخلال، الصفات.
(٩) ابن الرومي، الديوان: ١/ ٤٦٣.
(١٠) سلكت: سرت. الوعث: الصعب.
(١١) لَمَّ: جُمِعَ. شعث: تفرّق. وَصنَّعْتَ ظاهره: زَيَّنتهُ وحَسَّنتهُ.

كـم زَخْـرَفَ القـولَ ذو زُور وَلبَّسـهُ علـى القلـوبِ ولكـن قـل مـا لَبِثَـا[(١)]
قـد أبـرم اللَّـهُ أسبـاب الأمـور معـاً فلـن تـرى سببـاً مِنهُـنَّ مُنْتَكِثـا[(٢)]
يـا دافـنَ الحِقْـدِ فـي ضِغْفَـي جَوانبـهِ سَاء الدفينُ الذي أضحت له جَدثا[(٣)]
الحِقْـــدُ داءٌ دَوِيٌّ لا دواءَ لـــهُ يَرِي الصدورَ إذا ما جَمْرُهُ حُرِثا[(٤)]
فَـاسْتَشْـفِ منـه بِصَفْـحٍ أو مُعـاتبـةٍ فـإنمـا يُبـرِىءُ المَصْـدُورَ مـا نَفَثَـا[(٥)]
وَاجْعَلْ طِلابكَ بالأوتارِ ما عَظُمتْ ولا تَكُـنْ بصغيـرِ القـولِ مُكْتَـرِثـا[(٦)]
فَـالعفـوُ أقـربُ للتقـوى وإن جُـرمٌ مِنْ مُجْرِمٍ جَرَحَ الأكبادَ أَوْ فَرَثَا[(٧)]
يَكْفيـكَ فـي العفـو أن الله قـرّظـهُ وَحْياً إلى خيرِ من صلّى ومن بُعِثا[(٨)]
شَهِـدْتُ أنَّـكَ لـو أذنبـت سَـاءكَ أن تلقـى أخـاكَ حَقُـوداً صَـدْره شَـرِثَـا[(٩)]
إذا وسَـرَّكَ أن تلقـى الـذنـوب معـاً وأن تُصـادفَ منـهُ جـانبـاً دَمِثـا[(١٠)]
إنـي إذا خُلِـطَ الأقـوامُ صَـالِحهُـمْ بِسـيّءِ الفعـل جِـدّا كـان أو عَبَثَـا[(١١)]
جَعلـتُ قلبـي كَظَـرْفِ السَّبْـكِ حينئـذٍ يَسْتَخْلِصُ الفِضَّةَ البيضاءَ لا الخَبَثَا[(١٢)]
وَلَسْـتُ أجعلـه كـالحـوضِ أمـدحُـه بِحِفْظِ ما طابَ من ماءٍ وما خَبُثَا[(١٣)]

---

(١) في الديوان: «من زور»، و«على العقول».
(٢) أبرم: أحكم. أسباب الأمور: عللها. ونكث العهد: نقضه ونبذه وانصرف عنه.
(٣) في الديوان:
يـا دافـن الحقـدِ فـي ضِغْفَـيْ جَـوانحِـهِ سَـاءَ الـدفيـنُ الـذي أَمسـتْ لـه جَـدثـا
والجدث: القبر.
(٤) داء دويٌّ: مرض مُسْتَعصٍ. يري: يُشعل. وحرث الجمر: حركه.
(٥) الصفح: المسامحة. يبرىء: يشفي. وفي الديوان: «يبرأ».
(٦) الأوتار: جمع وتر، وهو الانتقام. مكترث: مهتم.
يقول: إذا أردت الانتقام، فليكن بسبب الأمور الكبيرة، وليس بصغارها.
(٧) العفو: الصفح والمسامحة. التقوى: الإيمان. فرث: شق. وفي الديوان: «والعفو».
(٨) قَرّظ: مدح. وقوله: «إلى خير من صلى ومن بُعِث»، يريد: النبي ﷺ.
(٩) شرث صدره: غلظ وخشن.
(١٠) في الديوان: «أن ينسى الذنوب». دَمُثَ دماثةً: سهل خلقه.
(١١) في الديوان: «إذا خلط الإخوان».
(١٢) في الديوان: «جعلت صدري».
(١٣) خبث الماء: فسد، وأنتن، وتغير طعمه.

والبيتُ الذي تمثل به الرشيد هو لعمرو بن معد يكرب يقوله لِقَيس بن المكشوح المرادي، وقد تمثّل به علي بن أبي طالب رضي الله عنه لمَّا رأى عبد الرحمن بن مُلْجَم المرادي فقال له: أنت تخضب هذه من هذه، وإشار إلى لحيته ونُقْرَته[١]. فقيل له: يا أميرَ المؤمنين، ألا تقتله! فقال: كيف يقتلُ المرء قاتلَه؟

بين مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد

وكان بين مَسْلَمة بن عبد الملك وبين العباس بن الوليد تباعُد، فبلغ العباس أن مسلمة ينتقصه، فكتب إليه يقول:

ألا تَقْنَــى الحيــاء أبــا سعيــدٍ ... وَتُقْصِر عن مُلاحَاتي وعَذْلي[٢]
فَلَـوْلاَ أنّ فَـرْعَـكَ حيـن تُنْمَـى ... وَأَصْلكَ مُنتهى فَرْعي وَأَصْلي[٣]
وَأنّـي إن رَمَيْتُـكَ هِضْـتُ عَظْمِـي ... وَنَـالتنـي إذا نَـالتْـكَ نَبْلـي[٤]
لَقَــدْ أنكــرتَنــي إنكــارَ خــوفٍ ... يَضُـمُّ حشَـاك عـن شَتْمـي وأكْلِـي
فَكَـمْ مـن سَـوْرةٍ أبطـأتَ عنهـا ... بنى لكَ مَجْدَهَا طلبي وحَفْلِي[٥]
وَمُبْهمــةٍ عَييــتَ بهــا فــأبــدي ... عَـويلـي عـن مخـارجهـا وفَضْلـي
كقـولِ المـرءِ عَمْـرو فـي القـوافـي ... لِقَيـسٍ حيـن خـالـف كـلَّ عَـذْلِ
عَـذيـري مـن خليلـي مـن مُـرادٍ ... أُريــدُ حيــاتَــه وَيُــريــدُ قَتْلــي

لم يتفق له في القافية كما قال عمرو، فغيّره.

[رَجْع إلى عبد الملك بن صالح]

من أخبار عبد الملك بن صالح

وعبد الملك هذا هو ابن صالح بن علي، وكان بليغاً جَهيراً فاضلاً عاقلاً.

وقال الجاحظ: قال لي عبد الرحمن مؤدّب عبد الملك بن صالح: قال لي

---

(١) في رواية: «وتغرته»، وهي فقرة النحر بين الترقوتين، والنُّقرة: منقطع القمحدوة في القفا.
(٢) أقنى الحياء: لزمه، أو ادّخره.
(٣) تُنْمَى: تُنْسَب.
(٤) هاض العظم: كسره بعد ما كاد ينجبر.
(٥) السورة: الوثبة، ومن المجد ونحوه: أثره وعلامته.

عبد الملك، بعد أن خصّني وصيَّرني وزيراً بدلاً من قُمامة: يا عبدَ الرحمن، انظر في وجهي؛ فأنا أعْرَفُ منك بنفسك ولا تُسْعِدني على ما يقبح؛ دع [عنك كيف الأمير؟]، وكيف أصبح الأمير؟ وكيف أمْسَى؟ واجعل مكانَ التقريظ حُسْنَ الاستماع مني، واعلم أن صوابَ الإستماع أحسنُ من صواب القول، وإذا حدّثتك حديثاً فلا يفوتنّك شيء منه؛ وأرِني فهمَك في طرفك؛ إني اتخذتك وزيراً بعد أن كنت مُعَلِّماً، وجعلتُك جليساً مقرّباً بعد أن كنت مع الصبيان مُبْعَداً، ومتى لم تعرف نقصان ما خرجت منه لم تعرف رُجْحَان ما صرتَ إليه.

بين الرشيد وعبد الملك وكانا يتسايران

وساير الرشيدُ عبدَ الملك، فقال له قائل: طأطيء من إشرافه[١]، واشْدُدْ من شكائمه[٢]، وإلاّ فسدَ عليك، فقال له الرشيد: ما يقولُ هذا؟ قال: حاسدُ نِعْمة، ونافس رُتبة، أغضبه رِضَاك عني، وباعدَه قُرْبُك مني، وَأَسَاءَهُ إحسانُك إليّ. فقال لي الرشيدُ: انخفض القومُ وعلوتَهم؛ فتوقَّدَتْ في قلوبهم جَمْرةُ التأسّف. فقال عبد الملك: أضْرَمَها اللهُ بالتزيّد! فقال الرشيدُ: هذا لك وذاك لهم.

اعتذار عبد الملك وقد ارتج عليه

وصعد المنبر، فأُرتج عليه فقال: أيّها الناس، إن اللسان بِضْعَةٌ من الإنسان تكلُّ بكَلاله إذا كلّ، وتنفسح [بانفساحه] إذا ارتجل، إن الكلامَ بعد الإفحام كالإشراقِ بعد الإظلام، وإنا لا نسكتُ حَصَراً، ولا ننطقُ هَذَراً[٣]؛ بل نسكتُ مفيدين، وننطق مُرْشِدين، وبعد مقامنا مقام، ووراء أيامِنا أيّام، بها فَصْل الخِطاب، ومواقع الصواب، وسأعودُ فأقول، إن شاء الله تعالى.

بين يدي الرشيد بعد حبسه

وقال الأصمعي: كنتُ عند الرشيد فدعا بعبد الملك بن صالح من حَبْسِه، فقال: يا عبد الملك، أكُفراً بالنِّعْمةِ[٤]، وغَدْراً بالسلطان، ووثوباً على الإمام؟ فقال: يا أمير المؤمنين، بُؤْتُ بأَعباءِ الندم، واستحلال النِّقَم، وما ذاك إلاّ من قولِ حاسدٍ، ناشدتك الله

(١) إشرافه: عُلوُّه وارتفاعه.
(٢) الشكائم: جمع شكيمة، وهي قوة القلب، والانتصار من الظلم، ويقال: فلان شديد الشكيمة، أو ذو شكيمة: أَنِفٌ أَبِيٌّ.
(٣) الهَذَرُ: سقط الكلام.
(٤) كُفْراً بالنعمة: جُحُوداً لها وإنكاراً.

والولاية، ومودّة القرابة. فقال الرشيد: يا عبد الملك، تَضَعُ لي لسانك، وترفعُ لي جَنَانك، بحيث يحفظُ الله لي عليك، ويأخذ لي منك، هذا كاتِبُكَ قمامة ينبىء عن غِلِّكَ[(١)]، فالتفت عبدُ الملك إلى قُمامة وكان قائماً، فقال: أحقاً يا قمامة؟ قال: حقًّا، لقد رُمْتَ خَتْرَ[(٢)] أمير المؤمنين! فقال عبد الملك: وكيف لا يكذِب عليّ يا أمير المؤمنين في غَيْبَتي من يَبْهَتني[(٣)] في حضرتي؟ فقال الرشيد: دَعْ قمامة، هذا ابنُك عبد الرحمن ينبىءُ عنك بمثل خبر قمامة، فقال عبد الملك: إنّ عبد الرحمن مأمور أو عَاقّ؛ فإن كان مأموراً فهو معذور، وإن كان عاقاً فما أتوقّع من عقوقِه أكثر.

[في مقام الخوف]

بين الرشيد والحسن بن عمران

وقال الرشيد للحسن بن عمران وقد أُدْخِل عليه يَرْسُفُ في قُيُوده:[(٤)] ولّيتك دمشق وهي جنّةٌ مُونِقَة، تحيط بها غُدُر كاللّجين[(٥)]، فتكف على رياضٍ كالزَّرَابِيّ[(٦)]، وكانت بيوتَ أموال فما برح بها التعدّي، حتى تركتَها أجرَدَ من الصَّخْرِ، وأوحش من القَفْرِ! فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما قصدت لغير التوفيق من جهتِه، ولكني ولّيت أقواماً ثَقُلَ على أعناقهم الحقُّ، فتفرَّغوا في ميدان التعدي، ورأوْا أنّ المراغمة[(٧)] بِتَرْك العِمارة أوقَعُ بإضرار السلطانِ، وأنوَه بالشنعة؛ فلا جَرَم أنَّ مَوْجِدَة أمير المؤمنين قد أخذتْ لهم بالحظّ الأوفر من مساءتي! فقال عبد اللّه بن مالك: هذا أجزلُ كلامٍ سُمع لخائف، وهذا ما كنا نسمعه عن الحكماء «أفضل الأشياء بديهةُ أمْنٍ وردَتْ في مقامِ خَوْف».

بين الرشيد ويزيد بن مزيد

ولما رَضِيَ الرشيدُ عن يزيد بن مَزْيد دَخل عليه فقال: الحمد لله الذي سَهّلَ لي سُبُلَ

---

(١) غِلُّكَ: حقدك وفساد قلبك.
(٢) رمت: أردت. والخَتْر: الخيانة والغدر.
(٣) بهته بَهْتاً، وبَهْتَةً، وَبُهْتاناً: قذفه بالباطل.
(٤) رسف في القيد رَسْفاً، وَرَسِيفاً، وَرَسَفاناً: مشى فيه رويداً.
(٥) الغُدُرُ: جمع غدير، وهو ما احتجنه السيل من الماء. واللجين: الفضة.
(٦) الزرابي: جمع زَرْبِيَّة، وهي الوسادة تُبْسَط للجلوس عليها، قال تعالى: ﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾. (سورة الغاشية، الآية: ١٦).
(٧) المراغمة: المعاداة والهجر.

الكرامةِ بلقائك، وردَّ عليَّ النعمة بِوَجْهِ الرضا منك، وجزاكَ الله في حال سُخْطِك حقّ المتثبتين المراقبين، وفي حَال رضاكَ حقّ المنعمين المُتَطَوّلين؛ فقد جعلك الله ـ وله الحمد ـ تتثبّت [تحرّجا] عند الغضب، وتتطول [ممتنًّا] بالنعم، وتستَبْقي المعروفَ عند الصنائع تفضُّلاً بالعَفْو.

[من الرثاء]

لمسلم بن الوليد في يزيد بن مزيد

وفي يزيد بن مزيد يقول مسلم بن الوليد مرثيته، وقد رُويت له في يزيد بن أحمد السّلمِي:

قَبْـرٌ بِبَـرْذَعَـة اسْتَسـرَّ ضَـريحـهُ خَطـراً تقَـاصَـرُ دونـهُ الأخْطَـارُ(١)
نُفِضَـتْ بـكَ الأحـلاسُ نَفْضَ إقـامـةٍ واستَـرْجَعَـتْ نُـزَّاعَهـا الأمصـارُ(٢)
فـاذْهَبْ كمـا ذهبـتْ غَـوَادِي مُزْنَـةٍ أثنـى عليهـا السهـلُ والأوْعَـارُ(٣)
سَلكَتْ بكَ العَربُ السبيلَ إلى العُلا حَتَّـى إذا سَبَـقَ الـرَّدَى بـكَ حـارُوا

لمحمد بن أبي عطية يرثي أخاه

وقال أبو عبد الرحمن محمد بن أبي عطية يرثي أخاه:(٤)

حَنَّطْتَـهُ يـا نصـرُ بـالكـافـورِ وَزَفَفْتَـه للمنـزلِ المَهْجُـورِ(٥)
هَـلاّ ببعـض خِصَـالِـه حَنّطتَـهُ فَيضـوعَ أُفْـقُ منـازلٍ وَقُبـورِ
والله لَـوْ بِنَسيـمِ أخـلاقٍ لَـهُ تُعْـزَى إلـى التقـديـسِ والتطهيـرِ

(١) برذعة: اسم موضع. وفي رواية «قبر بحلوان». واسْتَسرّ: أخفى وستر.
(٢) الأحلاس: جمع حِلْس، وهو كل ما ولي ظهر الدابة تحت الرحل والقتب والسرج.
(٣) المزنة: السحابة تحمل الماء، وجمعها: مُزْنٌ. والأوعار: جمع الوعر: المكان الصلب.
(٤) هو أبو عبد الرحمن، محمد بن عبد الرحمن بن أبي عطية، مولى بني ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة: أحد الشعراء المتكلمين المتقدمين. ولد ونشأ بالبصرة، وكان إذا حضر مجلساً غلب عليه ببراعته وفصاحته، وفاق بالشعر جميع نظرائه، وخفَّ شعره على كل لسان، واستعمله الكتاب، واحتذوا معانيه، وجعلوه إماماً. توفي نحو ٢٥٠ هـ/ ٨٦٥ م (الهواري، الشعر والشعراء: ١٦٦).
(٥) حَنَّط الميّت: جعل عليه الحنوط، وهو كلُّ ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة، من مسك وذريرة وصندل وعنبر وكافور وغيره.

حَنّطت من وطيء الحصى وعَلاَ الربى ... لِتــزوّدٍ بــلْ عُــدَّةٌ لِنشُــورِ[1]
فَـاذْهَـبْ كمـا ذهـبَ الشبـابُ فـإنـه ... [قـد كـان خَيْـرَ مُجَـاوِر وَمُجيـرِ]
[واذهـبْ كمـا ذهـبَ الـوفـاءُ فـإنـهُ] ... عَصَفـتْ بـه رِيحـا صَبـاً وَدَبُـورِ[2]
واللّــهِ مــا أَبّنْتُــهُ لأزيــدَهُ ... شَـرَفـاً ولكـنْ نَفْثَـة المَصْـدُورِ[3]

لأعرابي يرثي أعرابياً

ومات رجلٌ من العرب كان يعولُ اثني عشر ألفاً، فلما حُمل على سريره صَرّ، فقال بعضُ من حضر:

وليس صَريرُ النعشِ ما تَسْمَعُونَهُ ... وَلكنَّـهُ أصـلابُ قـوم تَقَصّـفُ[4]
وَلَيْسَ فَتيقُ المسكِ مـا تَجِـدُونـهُ ... وَلكنّــهُ ذاكَ الثنــاءُ المُخلّــفُ

لابن المعتز

وقال عبد اللَّه بن المعتز في عبيد اللَّه بن سليمان بن وَهْب يرثيه:

يـابـن وَهْـبٍ بـالكُـرْه منّي بقيتُ ... عَجبـي يَـوْمَ مُـتَّ كَيْـفَ حَيِيـتُ
إنمــا طيّــب الثنــاء الــذي خَلـ ... ـفـتَ لا مِسْـكُ نَعْتِـكَ المَفْتُـوتُ
وَاختصـرتُ الطـريـقَ بَعْـدكَ للمـو ... تِ فَـلاقيتُــهُ وَلسْــتُ أفــوتُ
كيـف يَبْقَـى علـى الحـوادث حَـيٌّ ... بِيَـدِ الـدَّهْـرِ عُـودُه مَنْحُـوتُ

وقال أيضاً:

ذَكَـرْتُ ابـنَ وَهْـبٍ فَلّلـه مـا ... ذَكَـرْتُ ومَـا غيّبـوا فـي الكَفَـنْ
تَقَطّــرَ أَقــلامُــهُ مــنْ دَم ... وَيعلـمُ بِـالظـنّ مـا لـم يَكُـنْ
وظَــاهــرُ أطـرافِـهِ سَــاكِــنٌ ... ومــا تَحْتَـهُ حَـرَكَـاتُ الفَطِـنْ

وقال:

---

(١) النشور: البعث.
(٢) الصبا: ريح الشرق الناعمة. والدبور: ريح تهب من المغرب، وتقابل ريح الصبا (القبول).
(٣) نَفْثَةُ المصدور: ما يُخفّفُ به عن صدره، ويرَوِّحُ به عن نفسه.
(٤) الصرير: الصوت، وَصرَّ الشيء: صَوَّتَ. تَقَصَّفُ: تتكسّر وتتحطم.

ذَكَـرْتُ عُبيـدَ اللَّـهُ والتُّـربُ دُونَـه ... فلم تَحْبِس العينانِ مِنّي بُكاهُما[١]
وحَاشَاهُ من قولٍ «سَقَى الغيثُ قبرَهُ» ... يَـدَاهُ تُـروي قَبْـرَه مِـنْ نـدَاهُما

للبحتري في الحسن بن وهب

وهذا مأخوذ من قول الطائي:[٢]

سقى الغيثُ غيثاً وارَتِ الأرضُ شَخْصَهُ ... وإن لـم يكُـنْ فيـه سحـابٌ ولا قَطْـرُ[٣]
وكيـف احْتمـالِـي للسحـابِ صَنيعـةً ... بـإسقـائهـا قَبْـراً وفـي لَحْـدِه البَحْـرُ

وقال ابن المعتز:

لـم تَمُـتْ أنـتَ، إنمـا مـات مَـنْ لـم ... يُبْـقِ فـي المجـدِ والمكـارم ذِكْـرَا
لَسْـتُ مُسْتَسْقِيـاً لِقَبْـرِك غيثـاً ... كيـف يَظْمـأ وقَـدْ تضمَّـن بَحْـرا

والبيت الثاني من هذين من بيت الطائي.

وقال:[٤]

مُحمـدُ بـنُ حُمَيْـدٍ أُخلِقَـتْ رِمَمُـهُ ... أُرِيـق مـاءُ المعـالـي إذْ أرِيـقَ دَمُـهْ[٥]
رَأيْتُـهُ بِنجـادِ السيـفِ مُحْتَبِيـاً ... كالبدرِ حين انْجَلَتْ عن وجهه ظُلَمُهْ[٦]
فـي روضـةٍ حفّهـا مِـنْ حَـوْلِهـا زَهَـرٌ ... أيقنـتُ عِنْـدَ انتبـاهـي أنهـا نِعَمُـهْ[٧]
فَقُلْـتُ والـدمعُ مـن وَجْـدٍ ومـنْ حُـرَقٍ ... يَجْـرِي وَقـد خَـدَّدَ الخـدينِ مُنْسَجِمُـهْ[٨]

---

(١) في رواية: «فلم تملك العينان إلاَّ بكاهما».
(٢) لم نجد هذين البيتين في ديوانه (دار صادر).
(٣) الغيث (الأول): المطر، والغيث (الثاني): الجواد الكريم.
(٤) صاحب الأبيات هو أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، وقد قالها في رثاء محمد بن حميد الطوسي (ديوانه: ٢/ ٣٣٠).
(٥) أخلقت: بليت. والرمم: العظام البالية، مفردها رمة. وفي الديوان: «مُذْ أُريق دَمُهُ».
(٦) نجاد السيف: حمائله. محتبياً: مشتملاً.
(٧) في الديوان:

فـي رَوْضَـةٍ قَـدْ عَـلا حَـافـاتِها زَهَـرٌ ... عَلِمْـتُ عِنْـدَ انْتِبـاهـي أنَّهـا نِعَمُـهْ

(٨) في الديوان:

فَقُلْتُ والدمعُ مِنْ حُزْنٍ وَمِنْ فَرَحٍ ... يَجْـري وَقَـدْ مـلأ الخَـدَّيْـنِ مُنْـسَجِمُـهْ

خَدَّدَ الخدين: أهزلهما، أو أثَّر فيهما، أو جعل فيهما أخاديد.

أَلَمْ تَمُتْ يا سليلَ المجدِ مِنْ زَمنٍ؟ فَقَال لي: لم يَمُتْ مَنْ لم يَمُتْ كَرَمُهْ؟(١)

وقال بعض أهل العصر:

عُمْرُ الفتى ذِكرُه، لا طولُ مُدَّتِه وَموْتُه مَوتُه لا مَوْتُه الدَّانِي
فأَحْيِ ذكرَكَ بالإحسانِ تَزْرَعُهُ تُجْمَعْ به لك في الدنيا حَياتانِ

وقال عبد السلام بن رَغبان الحِمْصي:(٢)

سَقى الغيثُ أَرضاً ضُمِّنتكَ وَسَاحَةً لَقَبْرُكَ فيه الغيثُ وَاللَّيْثُ والبَدْرُ
وَمَا هي أهلٌ إذْ أصابتك بالبِلَى لِسُقيا، ولَكنْ من حَوَى ذلك القَبْرُ

أخذ هذا البيت [الأول] الراضي فقال يرثى أباهُ المقتدر:

بِنَفْسي ثَرًى ضُمِّنْتَ في سَاحة البِلَى لقد ضَمَّ منك الغيثَ والليثَ والبَدْرا
فلو أنَّ عُمْري كان طَوْعَ مَشيئتي وَأَسعدني المقدورُ قَاسمتُكَ العُمْرا
وَلو أنَّ حيًّا كانَ قَبْراً لِميِّتٍ لَصيَّرْتُ أحشائي لأَعْظُمِه قَبْرا

هذا البيت ينظر إلى قول المتنبي:(٣)

حَتَّى أتَوْا جَدَثاً كأَنَّ ضَرِيحَهُ في قَلْبِ كُلِّ مُوحِّدٍ مَحْفُورُ(٤)

قطر الندى والخليفة المعتضد

لما حُمِلَتْ قَطْرُ الندى بنت خُمَارَوَيْه بن [أحمد بن] طولون إلى المعتضد كتب معها أبوها إليه يذكره بِحُرْمَة سلفها [بسلفه]، ويذكرُ ما ترِدُ عليه من أبّهة الخلافة، وجلالة الخليفة، ويسأل إيناسها وبَسْطَها، فَبلغَتْ من قَلْبِ المعتضد لما زُفَّت إليه مبلغاً عظيماً، وسُرَّ بها غاية السرور، وأمر الوزير أبا القاسم عبيد اللّه بن سليمان بن وهب بالجواب عن الكتابِ، فأراد أن يَكْتُبَهُ بخطّه، فسأله أبو الحسين بن ثَوَابَة أن يُؤْثره بذلك ففعل؛ وغاب أياماً وأتى بنسخة يقول في فصل منها: وأمّا الوَديعةُ فهي بمنزلةِ شيءٍ انتقل من يمينك إلى شمالك،

(١) في الديوان: «ألم تمت يا شقيق النفس مُذْ زمنٍ».
وأصل الشقيق: الذي يشاق الإنسان في النسب، كأن كل واحد منهم أخذ شقًّا.
(٢) هو الشاعر المعروف بديك الجن الحمصي (ت ٢٣٥ هـ/ ٨٥٠ م).
(٣) المتنبي، الديوان: ١/ ١٩٣. والبيت من قصيدة يرثي بها محمد بن إسحاق التنوخي.
(٤) الجدث: القبر. والضريح: الشقّ في وسط القبر.

عنايةً بها، وحِيَاطة عليها، ورعايةً لمودتك فيها. ثم أقبل عبيد اللَّه يُعجب من حُسْنِ ما وقع له من هذا، وقال: تسميتي لها بالوديعة نصفُ البلاغة، فقال عبيد اللَّه: ما أقبحَ هذا! تفاءلْتَ لامرأةٍ زُفَّت إلى صاحبها بالوديعة، والوديعةُ مستردة. وقولك «من يمينك إلى شمالك أقبح» لأنك جعلت أباها اليمين وأمير المؤمنين الشمالَ، ولو قلت: «وأما الهديةُ فقد حسن موقعها منّا، وجلّ خطرُها عندنا؛ وهي وإنْ بَعُدَتْ عنك، بمنزلة من قَرُبَتْ منك؛ لتفقُّدِنا لها، وَأُنْسِنَا بِها، ولسرورها بما وَرَدَتْ عليه، واغتباطها بما صارت إليه» لكان أحسن، فنفذ الكتاب.

وكانَتْ قَطْرُ الندى مع جمالها موصوفةً بفضل العقل، خلا بها المعتضد يوماً لِلأُنس بها في مجلس أفرده لم يحضره غيرها، فأخذَتْ منه الكأس، فنام على فخذها، فلما استثقلَ[١] وضعَتْ رأسَه على وسادة، وخرجت فجلست في ساحة القصر على باب المجلس، فاستيقظ فلم يَجِدْها، فاستشاط غضباً[٢]، ونادى بها فأجابته على قرب، فقال: ما هذا؟ أَخليتك إكراماً لكِ، ودفعتُ إليك مهجتي دون سائر حظاياي، فَتَضَعِين رأسي على وسادة! فقالت: يا أمير المؤمنين، ما جهلتُ قدرَ ما أنعمتَ به عليّ، وأحسنتَ فيه إليّ، ولكن فيما أدَّبني به أبي أن قال لي: لا تنامي مع الجلوس، ولا تجلسي بين النيام.

[رجع إلى الرثاء]

لابن المعتز يرثي ابن ثوابة

وفي أبي الحسين بن ثوابة يقول ابن المعتز يَرْثيه:

لَيسَ شَيءٌ لِصحّةٍ ودَوامِ ... غَلَبَ الدهرُ حِيلةَ الأقوامِ
وَتولّى أبو الحسين حَميداً ... فَعلى رُوحِهِ سَلامُ السَّلامِ
حِينَ عاقدتُه على الحِفْظِ للعَهْـ ... ـدِ وَصافحتُهُ بِكفِّ الذِّمامِ[٣]
وَاصْطَفَتْهُ على الأخلَّاءِ نَفْسي ... كاصطفاءِ الأرواحِ للأجسامِ[٤]
كَانَ رَيْحانةَ النّدامى وَمِيزا ... نَ القوافِي شِعْراً وَبَحْرَ كَلَامِ
وَمكانَ السهمِ الذي لا يَرَى الشـ ... ـكّ ولا يستغِيثُ بالأوهامِ

(١) استثقل: كناية عن تمكن النوم منه.
(٢) استشاط غضباً: غضب غضباً شديداً، وأصل معنى «استشاط» احترق.
(٣) الذمام: العهد.
(٤) اصطفى: اختار. والأخلاء: جمع خليل، وهو الصديق الخالص (فعيل بمعنى مفاعل).

سَاحِرَ الوحيِ في القراطيس لا تُحْـ ـبَـسُ عَنْـهُ أَعِنَّـةُ الأقـلام
فـإذا مـا رأيتـهُ خِلْـت فـي خـدَّيْـ ـه صُبْحـاً مُنَقّبـاً بظـلامِ[١]
نَفْـسُ صَبْـراً لا تجـزَعـي إن هـذا خُلُـقٌ مِـنْ خـلائـقِ الأيـامِ

[أيام الشباب]

لرجل من بني كلاب

وأنشد أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب[٢] لرجل من بني كلاب:

سقَى اللَّهُ دهراً قد تولَّت غَيَاطِلُهْ وَفـارقَنـا إلا الحُشَـاشـة بـاطِلُـهْ[٣]
لَيالِيَ خِـدْني كـلُّ أبيضَ مـاجـدٍ يُطيع هَوَى الصابي وتُعْصَى عواذِلُهْ[٤]
وفـي دَهْـرِنـا والعيشُ في ذاك غِرّةٌ ألا ليـتَ ذاك الـدهـر تُثْنَى أَوَائِلُـهْ
بِمـا قَـدْ غَنينـا والصِّبا جُـلُّ هَمِّنـا يُمـايلنـا رَيْعـانُـهُ وَنُمَـايِلُـهْ
وَجـرَّ لنـا أذيـالَـهُ الـدهـرُ حِقْبَـةً يُطـاوِلُنَـا فـي غَيِّـهِ وَنُطَـاوِلُـهْ
فَسَقْياً لـه مـن صـاحـبٍ خَذلَـتْ بنا مُطيّتُنـا فيـه وَوَلَّـت رَواحِلُـهْ
أَصُـدّ عـن البيـتِ الـذي فيه قـاتلي وَأَهْجُـرُه حتـى كـأنـي قَـاتِلُـهْ

هذا البيت يناسب قول ذي الرمة، وإن لم يَكُنْ في هذا المعنى، يصِفُ ظبية وولَدَها:

إذا استـودَعتْـهُ صَفْصَفـاً أو صَـريمَـةً تَنَحَّتْ وَنصّتْ جِيدَها بالمناظِرِ[٥]
حِذاراً على وَسْنَانَ يَصْرَعُهُ الكَرى بِكُـلّ مَقِيـلٍ عَـنْ ضِعَـافٍ فَـواتِـرِ
وَتَهْجُـرُه إلا اختـلاسـاً نَهَـارَهـا وَكـم مِنْ مُحبّ رَهْبةَ العينِ هَاجِرِ

---

(١) مُنَقَّبٌ: من تنَقَّبت المرأة إذا شدّت النقاب على وجهها، والنقاب: القناع.
(٢) هو أبو العباس، أحمد بن يحيى الشيباني الكوفي المعروف بثعلب: نحوي، لغوي. توفي ببغداد سنة ٢٩١ هـ/ ٩٠٤ م. من آثاره: «المصون في النحو» و«معاني القرآن». و«معاني الشعر» (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ٢/ ٢٠٣).
(٣) الغياطل: الظلمات، الواحد: غيطل، وقيل: الغيطلة والغيطول: الظلمة المتراكمة، وقيل: الشجر الكثيف الملتف.
(٤) الخِدْنُ: الصديق، أو الصديق في السرّ.
(٥) الصفصف: المستوي من الأرض. والصريمة: الرملة المنقطعة.

لأبي حية النميري

وقال أبو حية النميري:

أَمـا وَأَبَـى الشَّبَـابُ لقـد أراهُ ... جَميـلاً مـا يـرادُ بـه بَـدِيـلُ
إذِ الأيـامُ مُقبلـةٌ علينـا ... وَظِـلُّ أَرَاكَـةِ الـدنيـا ظَلِيـلُ

لابن بسام

وقال علي بن بسام:

بِشـاطـىءِ نهـرِ قَبْـرِكَ فَـالمُصلَّـى ... فمـا وَالأَهُمـا فَـالقَـرْيَتَيْـنِ
مَعـاهِـدُ لَهْـوِنـا وَالعيـشُ غـضٌّ ... وَصـرفُ الـدهـرِ مَقْبُـوضُ اليـديـنِ

من ترجمة ابن بسام وأخباره

وكان ابنُ بَسام هذا ـ وهو علي بن [محمد بن] منصور بن بسّام مليح المقطعات، كثير الهجاء خبيثُه، و[ليس] له حظ التطويل، وهو القائل:

كَـم قَـدْ قَطَعْـتُ إليـك مـن دَيْمُـومـةٍ ... نُطَـفُ الميـاهِ بهـا سَـوادُ النـاظِـرِ(١)
فـي ليلـةٍ فيهـا السمـاءُ مُـرِذَّةٌ ... سَـوداءُ مُظْلِمـةٌ كَقَلْـبِ الكـافـرِ(٢)
وَالبَـرْقُ يَخْفِـقُ مـن خـلالِ سَحـابـهِ ... خَفْـقَ الفُـؤادِ لِمَـوْعِـدٍ مـن زائـرِ
وَالقَطْـرُ مُنْهَمِـلٌ يَسُـحّ كـأنّـهُ ... دَمْـعُ المُـودّع إثْـر إلْـفٍ سـائـرِ

وقال في العباس [بن الحسين] لما وَزَرَ للمكتفي:

وِزارةُ العَبّـاسِ مـن نَحْسِهـا ... سَتقْلَـعُ الـدولـةَ مِـنْ أُسِّهـا
شَبَّهْتُـه لمـا بَـدَا مُقْبِـلاً ... فـي خِلَـعٍ يُخْجَـلُ مـن لُبْسِهـا
جَـاريـةً رَعْنَـاء قـد قَـدَّرَتْ ... ثِيـابَ مَـوْلاَهـا علـى نَفْسِهـا(٣)

---

(١) الدَّيْمُومَةُ والدَّيْمُومُ: الفلاة يدوم السير فيها لبعدها، وقيل: الديمومة: الأرض المستوية التي لا أعلام فيها، ولا طريق، ولا ماء، ولا أنيس، وإن كانت مُكْلِئةً. والجمع: دياميم. النُّطَفُ: جمع نطفة، وهي الماء الصافي.

(٢) مُرِذَّةٌ: اسم فاعل من قولهم: «أرذ المطر» إذا هطل. وفي رواية: «فيها السماء مزادة».

(٣) جارية رعناء: هوجاء، حمقاء.

وقال في علي بن يحيى المنجم يَرْثيه:

قَدْ زُرْتُ قَبْرَكَ يا عليُّ مُسَلِّماً ... وَلكَ الزيارةُ من أَقلِّ الواجبِ
وَلَوِ اسْتَطَعْتُ حَمَلْتُ عنكَ تُرَابهُ ... فَلطَالما عني حَمَلْتَ نَوائبي

وكان مولعاً بهجاء أبيه، وفيه يقول وقد ابتنى داراً:

شِدْتَ داراً خِلْتها مَكْرُمةً ... سَلَّط اللّهُ عليها الغَرَقا
وَأَرانيكَ صَريعاً وَسْطَها ... وَأَرانيها صَعيداً زَلَقا[1]

وقال أبو العباس بن المعتز يهجوه:

مَنْ شَاء يَهْجُو عليّا ... فَشِعْرُه قَدْ كَفَاه[2]
لَوْ أَنَّهُ لأبيهِ ... ما كانَ يَهْجُو أباهُ

[مع الخلفاء]

بين المأمون وأحمد بن أبي خالد

وقال المأمون لأحمد بن أبي خالد، وهو يخلف الحسنَ بن سَهل، وقد أشار إليه برأي استرجحَه: قد اعتلَّ الحسنُ ولزم بيته، ووكَلَ الأمرَ إليك، فأنا إلى راحته وبقائه، أحوجُ [مني] إلى إتعابه وفنائه، وقد رأيتُ أن أستوزرك؛ فإن الأمر له ما دُمْتَ أنت تقوم به، وقد طالعتُ رأيه في هذا الأمر، فما عَدَاك. فقال: يا أمير المؤمنين، أَعفِني من التسمّي بالوزارة، وطالبني بالواجب فيها، واجعلْ بيني وبين الغاية ما يرجوني له وَليِّي، ويخافني له عَدُوِّي، فما بعد الغايات إلا الآفات. فاستحسن كلامه، وقال: لا بد من ذلك، واستوزره.

المأمون ومحمد بن داود في حسن الخط

ورأى المأمونُ خطَّ محمد بن دَاود فقال: يا محمد، إن شاركْتَنَا في اللفظ، فقد فارقناك في الخطّ، فقال: يا أمير المؤمنين، إن من أعظم آيات النبي ﷺ أنه أدّى عَن الله سبحانه وتعالى رسالاته، وحفظ عنه وَحْيَه، وهو أمّي لا يعرف من فنون الخط فنّا، ولا يقرأ من سائره حَرْفاً، فبقي عمود ذلك في أهله، فهم يَشْرُفون بالشَّبَه الكريم في نَقْص الخط،

(١) الصَّعيدُ: التراب. والزَّلَقُ: الموضع الذي لا تثبت عليه الأقدام لملاسته.
(٢) في رواية: «فَشِعْرُهُ قد هَجاهُ».

كما يشرفُ غَيْرُهم بزيادته؛ وإن أمير المؤمنين أخصُّ الناس برسول الله ﷺ، والوارثُ لموضعه، والمتقلّد لأمره ونهيه، فعلقت به المشابهة الجليلة، وتناهَتْ إليه الفضيلة فقال المأمون: يا محمد، لقد تركتني لا آسَى على الكتابة[1]، ولو كنتُ أمّياً.

وهذا شبيهٌ بقول سعيد بن المسيب، وقد قيل له: ما بال قريش أضعفُ العرب شعراً، وهي أشرفُ العرب بيتاً؟ قال: لأنّ كَوْن رسول الله ﷺ منها قطع مَتْن الشعر عنها.

من رأفة المأمون بعماله

وقال إبراهيم بن الحسن بن سَهل: كنّا في مجلس المأمون وعَمْرو بن مَسْعَدَةَ يقرأ عليه الرقَاع، فجاءته عَطْسَةٌ، فلوَى عنقه فردّها، فرآه المأمون فقال: يا عمرو، لا تَفْعَلْ فإن ردّ العَطْسَة وتحويل الوجه بها يُورِثان انقطاعاً في العنق. فقال بعض ولد المهدي: ما أحسنها من مولى لعبده، وإمام لرعيته! فقال المأمون: وما في ذلك؟ هذا هشامٌ اضطربت عِمامته فأهوى الأبرش الكلبي إلى إصلاحها، فقال هشام: إنّا لا نَتّخذُ الإخوان خَوَلا[2]! فالذي قال هشام أحسنُ مما قلته. فقال عمرو: يا أمير المؤمنين: إنَّ هشاماً يتكلّفُ ما طُبِعْتَ عليه، [ويظلم] فيما تعدل فيه، ليس له قرابتك من رسول الله ﷺ، ولا قيامك بحق الله، وإنك والملوك لكما قال النابغة الذبياني:[3]

أَلَـم تَـرَ أنّ الله أعطـاك سَـوْرَةً ... تَـرَى كُـلَّ مَلْـكٍ دونهـا يَتَـذَبْـذَبُ[4]
لِأَنَّـكَ شَمْـسٌ وَالملـوكُ كَـواكِـبٌ ... إذا طَلَعَـتْ لـم يَبْـدُ مِنْهُـنَّ كَـوْكَـبُ[5]

أخذ النابغة هذا من قول شاعرٍ قديم من كندة:

تَكَـادُ تَميـدُ الأَرضُ بـالنـاسِ إنْ رَأَوا ... لِعَمْـرو بـن هنـدٍ غَضبَـة وَهْـوَ عَـاتِـبُ[6]

---

(1) لا آسى: لا أحزن.
(2) الخَوَلُ: الخدم والعبيد.
(3) النابغة الذبياني، الديوان: ص ١٨. والبيتان من قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه.
(4) السورة: الرفعة والشرف والمنزلة. يتذبذب: يضطرب ويتعلق. يقول: إن منازل الملوك دون منزلتك فكأنهم متعلقون دونك.
(5) في الديوان: «فإنَّكَ شَمْسٌ». يقول: أنت بين الملوك كالشمس بين النجوم، فإذا ظهرت غمرتهم بضوئك ومجدك.
(6) ماد الشيء مَيْداً وَمَيَداناً: تَحرَّك واضطرب.

هُوَ الشمسُ وَافَتْ يَوْمَ دَجْنٍ فأفضلَتْ ... على كُلّ ضَوْءٍ والملوكُ كَواكِبُ[١]

بين يزيد بن معاوية وجميل بن أوس

قال يزيد بن معاوية لجميل بن أوس، وكان أكرمه واجتباه: لم كَرِهْت الإفراط في تقديمي، وتطامَنْتَ[٢] عن الدرجة التي سما بك إليها مكانك مني؟ فقال: [أيدَ الله سلطانك، وأعلى مكانك]، إن الذين كانوا قبلنا من أهل العلوم والآداب، والعقول والألباب، كانوا أطول أعماراً منا، وأكثر للزمان صُحْبة، وأكثر للأيام تجربة، وقد قال الحكيم: بقدر الثواب عند الرّضا يكون العقاب عند السخط، وَبِقَدْر السموّ في الرفعة تكون وَجْبة الرفعة، ولا خير فيمن لا يسمع الموعظة، ولا يقبل النصيحة، وأنا يا أمير المؤمنين وإن كنت آمناً من التعرض لِسُخْطِك والدنوّ مما يقرب منه، فَلَسْتُ بآمِنٍ من طَعْنِ المُساوِي في الدرجة عندك، وحقر المشارك في المنزلة منك، وليس من تقديمك قليل، ولا من تَعْظِيمك يسير، فإن أقل ذلك فيه النباهة، والفخر، [والثناء] والذكر، وحسبي مما بذلته من أموالك استحقاقي عندك لإكرامك، وحسبي من تقديمك خالص رضاك، وصفاء ضميرك.

مختار من أقوال الحكماء عند وفاة الإسكندر

لما جُعِل الإسكندرُ في تابوت من ذهبٍ تقدّم إليه أحدُهم فقال: كان الملكُ يخبأُ الذهب، وقد صار الآن الذهب يخبؤه، وتقدم إليه آخر، والناسُ يبكون ويجزعون، فقال: حرَّكنا بسكونه، أخذه أبو العتاهية فقال:

يــا علــيّ بْــنَ ثــابــت بــانَ منّــي ... صَــاحِــبٌ جَـلَّ فَقْـدُه يـوم بِنْتَـا[٣]
قَدْ لَعَمْرِي حَكَيْتَ لي غُصَصَ المَو ... تِ وحَـــرَّكْتَنـــي لَهـــا وسَكَنْتَـــا

وتقدم إليه آخر فقال: كان الملِكُ يَعِظُنا في حياته، وهو اليومَ أوعظُ منه أمسِ. أخذه أبو العتاهية فقال:

وَكــانَــتْ فــي حَيــاتِـكَ لــي عِظَـاتٌ ... وَأنـــتَ اليـــومَ أوْعَــظُ منــك حَيًّــا

---

(١) الدجن: إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء، يقال: يوم دَجْنٍ، ويوصف به فيقال: يَوْمٌ دَجْنٌ، والجمع: أدجانٌ وَدُجونٌ وَدِجانٌ.
(٢) تطامن: سكن أو انخفض.
(٣) بان منه وعنه بَيْناً وَبُيوناً وَبَيْنُونةً: بَعُدَ وانفصل.

وتقدّم إليه آخر فقال: قد طاف الأرَضِينَ وتملّكها، ثم جُعل منها في أربعة أذرع. ووقف عليه آخر فقال: مالك لا تُقلّ عضواً من أعضائك، وقد كنت تستقلّ ملكَ العباد. ووقف عليه آخر فقال: انظرْ إلى حلم النائم كيف انقضى، وإلى ظلّ الغمام كيف انْجَلَى. وقال آخر: مالك لا ترغَبُ بنفسك عن ضيق المكان، وقد كنت ترغبُ بها عن رحب[1] البلاد. وقال آخر: [كان الملك غالباً فصار مغلوباً، وآكلاً فصار مأكولاً. وقال آخر]: أمَاتَ هذا الميتُ كثيراً من الناس لئلاّ يموت، وقد ماتَ الآن. وقال آخر: ما كان أقبح إفراطك في التجبّر أمس، مع شدّةِ خضوعك اليوم. وقالت بنت دارا: ما علمت أنَّ غالب أبي يُغْلَب. وقال رئيس الطباخين: قد نُضِّدت النضائِد[2]، وأُلقيت الوسائد، ونُصِبت الموائد، ولستُ أرى عميدَ المجلس!

جملة من كلام ابن المعتز في الفصول القصار في ذكر السلطان

أشْقَى الناس بالسلطان صاحبُه، كما أنّ أقربَ الأشياءِ إلى النارِ أسرعُها احتراقاً. لا يُدْرِكُ الغنى بالسلطان إلا نفس خائفة، وجِسْمٌ تعِب، ودينٌ متثلم. إن كان البحرُ كثير الماء فإنه بعيدُ المَهْوى، ومَنْ شارك السلطانَ في عزّ الدنيا شاركه في ذُلّ الآخرة. فسادُ الرعية بلا ملك كفسادِ الجسم بلا رُوح. إذا زادك السلطانُ تأنيساً فزِدْهُ إجلالاً. مَنْ صحب السلطانَ صبر على قَسْوته كصَبْرِ الغوّاص على ملوحة بَحْرِه. الملك بالدين يبقى، والدينُ بالمُلْكِ يقْوى. من نصح لخدمة نَصَحَتْهُ المجازاة. لا تلتبس بالسلطان في وقت اضطرابِ الأمور عليه؛ فإن البحر لا يكادُ يسلم صاحبه في حالِ سكونه، فكيف عند اختلاف رِياحِه، واضطراب أمواجِه؟.

ومن كلام أهل العصر وغيرهم في هذا النحو

الأوطانُ حيثُ يعدل السلطان. إذا نطق لسان العدل في دار الإمارة، فلها البُشْرى بالعزّ والإمارة. أَحْرِ بالملك العادل أن يستقلَّ سريرَه في سُرّة الأرض. ريحُ السلطان على قومٍ سَمُوم[3]، وعلى قوم نَسيم. أَخْلِقْ بدم المستخف بالجبابرة أن يكون جُبَاراً[4]. من غمس

(١) الرحب: الواسع.
(٢) نضد الشيء نَضْداً: ضم بعضه إلى بعضٍ مُتَّسِقاً. والنضائد: جمع نضيدة، وهي الوسادة، أو ما حُشِي من المتاع.
(٣) سَمُومٌ: حارّة مُحرقة.
(٤) الجُبَارُ: الهَدَرُ، وهو ما لا قصاص فيه، ولا غُرْم، يقال: ذهب دمه جُبَاراً، ويقال: حَرْبٌ جُبار: لا دية فيها ولا قصاص.

يده في مال السلطان فقد مشى بقدمه على دَمه. الملك خليفةُ الله في عبادِه وبلادِه، ولن يستقيم أمرُ خلافته مع مخالفته. الملك مَنْ ينشرُ أثواب الفضل، ويبسطُ أنواعَ العدل. السلطانُ كالنار، إنْ باعدتها بطل نَفْعُها، وإن قاربتها عَظُم ضررها. إقبالُ السلطان تَعَبٌ وفِتْنَةٌ، وإعراضُه حسرة ومذلة. صاحبُ السلطان كراكب الأسد يهابهُ الناسُ وهو لمركبه أهيبُ. السلطانُ إذا قال لِعُمّاله: هاتوا، فقد قال لهم: خذوا. ثلاثة لا أمان لهم: السلطان، والبحر، والزمان. ليكن السلطان عندك كالنار، لا تدنُو منها إلا عند الحاجةِ إليها، وإن اقتبست منها فعلى حذر. مثل أصحاب السلطان كقومٍ رَقُوا جبلاً ثم وقعوا منه، فكان أقربُهم إلى التلف أبعدَهم في المرقى. مثل السلطان كالجبلِ الصَّعْب الذي فيه كلُّ ثمرة طيبة، وكل سَبُع حَطوم، فالارتقاء إليه شديد، والمقام فيه أشدّ. لئن عزَّ الملوك في الدنيا بالجور ليذلُّن في الآخرة [بالعدل].

لابن عَبّاد الصاحِبِ:

إذا وَلاّكَ سُلْطانٌ فَزِدْهُ ... مِنَ التَّعْظيمِ وَاحْذَرْهُ ورَاقِبْ
فَما السلطانُ إلا البحرُ عُظماً ... وَقُرْبُ البحرِ مَحْذُورُ الْعَوَاقِبْ

[وصف كاتبة]

ووصف أحمد بن صالح بن شيران[١] جاريةً كاتبة فقال: كأنَّ خطَّها أشكال صورتها، وكأنَّ مِدَادَها سوادُ شعرها، وكأن قرطاسها أَدِيمُ وَجْهِها، [وكأنَّ قلمَها بعضُ أناملها، وكأنَّ بنانَها سِحْرُ مُقْلتها، وكأن سِكّينها غُنْجُ لحظها] وكأن مِقَطَّها قلبُ عاشقها.

[وصف غلام كاتب]

وقال بعضُ الكتّاب يصف غلاماً كاتباً:

انْظُرْ إلى أثرِ المدادِ بخدّهِ ... كَبنفسجِ الرَّوْضِ المَشُوبِ بِوَرْدِه
ما أخطأتْ نُونَاتُهُ من صُدْغِه ... شيئاً، ولا أَلِفاتُهُ مِنْ قدّهِ
ألقَتْ أنامِلُهُ على أقلامِهِ ... شَبهاً أراكَ فِرنْدَها كَفِرِنْدِهِ[٢]

(١) في نسخة «ابن بشير».
(٢) فرند السيف: ما يُلْمَحُ في صفحته من أثر تَموُّج الضوء.

وكــأنمــا أنقــاسُــهُ مــن شَعْــرِهِ وكــأنمــا قِـرْطَـاسُـهُ مـن خــدِّهِ[١]

وقال أحمد بن أبي سمرة الدارمي فيما ينظر إلى هذا من طَرْفٍ خَفِيّ:

[سَرَابُ الفيافي صادقٌ عند وَعْدِها وَسُمُّ الأفاعي مُبْرِىءٌ عند صَدّها]
رَمتنـي ولـم أَسْعَـدْ بـأيـام وَصْلِهـا بِعَيْنَـيْ مَهَـاةٍ أَنْحَسَتْنِـي بِبُعْـدِهـا
فَعُلّقهـا قلبـي كمـا قَـدْ تَعلّقـتْ صَـوالـج صُـدْغَيْها بِتُفّـاح خَـدِّها[٢]
فَقلبـيَ لَمّـا أضعفتـه كَخصْـرِهـا وَدَمْعِـيَ لَمّـا نَظّمتْـهُ كَعِقْـدِهـا
وَنَيْـلُ الثُّـريّـا مُمكـنٌ عِنْـدَ وَصْلِهـا وَأسـرعُ مـن بَـرْقٍ تَنـاقـضُ وَعْـدِهـا

[من بديع الزمان إلى ابن العميد]

رقعة كَتبها بديع الزمان إلى ابن العميد يستنجزه: أين تكرّم الشيخ العميد أيّده اللهُ على مولاه؟ وكيف معدله إلى سِوَاه؟ أيقصر في النعمة، لأني قصّرت في الخدمة؟ إذَنْ فقد أساء المعاملةَ، ولم يحسن المقابلة، وعثر في أذيال السَّهْوِ، ولم ينعش بيده العفو، أم يقول: إن الدهر بيننا خُدَع، وفيما بعد مُتّسع، فقد أزف رَحِيلي[٣]، ولا ماء بعد الشطّ، ولا سطح وراء الخط؛ أم ينتظر سؤالي؟ وإنما سألته، يوم أمّلته، واستمنَحْتُهُ[٤]، يوم مدحته، واقتضيته، يوم أتيته، وانتجعت سحابه، لما قرعت بابَه، وليس كل السؤال أعْطِني، ولا كل الردّ أعْفِني؛ أم يظن ـ أيّده الله تعالى ـ أني أردّ صِلَته، ولا أَلبَسُ خلعته؟ وهذه فراسة المؤمن إلا أنها باطلة، ومَخِيلة العارف إلا أنها فاسدة؛ أم ليس يجد فيَّ مكاناً للنعمة يَضَعُها، وأرضاً للمنّة يزرعها؟ فلا أقل من تجربة دفعة، والمخاطرة بإنفاذ خلعة، ليخرج من ظلمة التخمين، إلى نور اليقين، وينظر أأشكر أم أكفر؛ أم يتوقع ـ أيده الله ـ صاعقة تملكني، أو بائقة تهلكني[٥]، فلهذا أَمَلٌ مُوَفَّر، لأن شيخ السوء باق مُعَمَّر؛ أم يقدر ـ أيّده الله ـ أني أشكره إذا اصطنع، وأعذره إذا منع، وتاللهِ لو كنت ينبوع المعاذير ما حظي منها بجرعة، فَليُرِحْني بِسُرعة.

(١) الأنقاس: جمع نِقس، وهو الحبر.
(٢) الصَّوالجُ: جمع الصولج: الصافي الخالص، أو عصاً معقوف طرفها يضرب بها الفارس الكرة.
(٣) أزف رحيلي: قرب.
(٤) استمنحته: طلبت منحته.
(٥) البائقة: المهلكة.

[بين البديع وأبي القاسم الهمذاني]

وكتب أبو القاسم الهمذانيّ إلى البديع: قد كتبت لسيدي حاجة إن قضاها وأمضاها، ذاق حلاوة العطاء، وإن أباها وفَلّ شَباها[١] لَقِي مرارةَ الاستبطاء، فأي الجودين أخفّ عليه؟ أجُودٌ بالعِلْق[٢]، أم جودٌ بالعرض؟ ونزول عن الطريف، أم عن الخلق الشريف؟

فأجابه: جعلت فداك هذا طبيخ، كله توبيخ، وثريد، كله وَعيد، وَلُقَم، إلا أنها نِقَم، ولم أر قِدراً أكثرَ منها عظماً، ولا آكلا أكثر مني كَظْماً، ولم أَرَ شَرْبةً أمرّ منها طعماً، ولا شارباً أتمّ مني حلماً، ما هذه الحاجة؟ ولتكن حاجتك من بعدُ ألينَ جوانب، وألطفَ مطالب، توافق قضاءَها وترافق ارتضاءَها، إن شاء الله تعالى.

من مقامات بديع الزمان الهمذاني

وفي مقامات أبي الفتح[٣] الإسكندري من إنشائه، قال:

حدثنا عيسى بن هشام قال: أحلّني جامعَ بخارى يوم، وقد انتظمت مع رُفقةٍ في سِمْطِ الثريّا، وحين احتفل الجامعُ بأهله طلع علينا ذو طِمْرَين[٤]، قد أرسل صِواناً، واستتلى [طِفْلاً] عُرْياناً، يضيق بالضرّ وُسْعُه، ويأخذُه القرُّ ويَدَعُه، لا يملك غَيْرَ القِشرة[٥] بُرْدَة، ولا يلتقي لِحَيَاهُ رِعْدَة، ووقف الرجل وقال: لا ينظر لهذا الطفل إلاّ مَنْ رحم طفله، ولا يرقُّ لهذا الضُّر إلا مَنْ لا يأمنُ مثله، يا أصحاب الجُدُود المفروزة، والأرْدِية المطروزة، والدور المنجَّدة، والقصور المشيدة، إنكم لن تأمنوا حادثاً، ولن تعدموا وارثاً، فبادِرُوا الخيرَ ما أمكن، وأحسنوا مع الدهر ما أحسنَ، فقد واللهَ طَعِمْنَا السِّكْبَاج[٦]، وركبنا الهِملاج[٧]، وَلَبِسْنا الديباج، وافترشنا الحشايا بالعشايا، فما راعنا إلا هبوبُ الدهر بِغَدْرِه، وانقلاب المجنّ لظهره، فعاد الهِمْلاج قَطوفاً[٨]، وانقلب الديباج صُوفا، وهلمّ جراً، إلى ما تشاهدون

(١) فَلّ: كسر وحطم. وشباها: حَدُّها.

(٢) العِلْقُ: النفيس الذي يتغالى فيه.

(٣) أي مقامات بديع الزمان الهمذاني التي وضعها على لسان أبي الفتح الإسكندري.

(٤) الطمر: الثوب الخَلِق البالي.

(٥) القشرة: الجلدة.

(٦) السكباج: ضرب من الطعام، لحم بِخَلّ.

(٧) الهملاج: الفرس السريع.

(٨) القطوف: البطيء السير.

من حَالي وزيّي، فها نحن نرضع من الدهر ثَدْيَ عقيم، وَنَركَبُ من الفقر ظهر بَهيم، ولا نَرْنُو إلا بعين اليتيم، ولا نمد إلا يد العديم، فهل من كريم يجلو عنا غياهب هذه البؤوس، ويفلُّ شَبا هذه النحُوس؟ ثم قعد مرتفقاً، وقال للطفل: أنت وشأنك. فقال: وما عسى أن أقول، وهذا الكلامُ لو لقي الشعر لَحلقَه، أو الصخر لفَلقَه، وإنّ قلباً لم يُنْضِجْه ما قلت لَنيءٌ! قد سمعتم يا قوم، ما لم تسمعوا قبل اليوم، فليشغل كلّ منكم بالجود يده، وليذكر غَدَه، وَاقِياً بي ولدَه، واذكروني أذكركم، وأعطوني أشكركم!

قال عيسى بن هشام: فما آنسني في وَحْدتي إلا خاتم ختّمت به خنصره، فلما تناوله أنشأ يقول:

وَمُنْطَقٍ مِن نَفْسِهِ ... بِقِلادَةِ الجوزاءِ حُسْنَا
كَمُتَيّمٍ لَقِيَ الحبيـ ... ـبَ فَضمَّه شَغفاً وَحُزْنَا
مُتألّفٍ من غير أُسْـ ... ـرَته على الأيام خِدْنَا
عِلْقٌ سَنِيٌّ قَدْرُهُ ... لَكنَّ مَنْ أَهداهُ أَسْنَى
أَقْسَمْتُ لو كانَ الوَرَى ... في المَجْدِ لفظاً كُنتَ مَعْنَى

قال عيسى بن هشام: فتبعته حتى سَفَرَت الخَلوَة عن وجههِ، فإذا والله شيخنا الإسكندري، وإذا الصبيّ غلامٌ له، فقلت:

أبا الفَتْحِ شِبْتَ وشَبَّ الغلامُ ... فأَينَ الكلامُ، وأَينَ السلامُ؟(١)

فقال:

غَريباً إذا جَمَعَتْنا الطريقُ ... أَليفاً إذا نَظَمتْنَا الخيامُ

فعلمت أنه كره لقائي، فتركته وانصرفْتُ.

[وصف فص وخاتم]

لأبي الفتح كشاجم

وقال أبو الفتح كشاجم يصف فصاً:

سَاجِلْ بِفَصِّكَ مَنْ أَرَدْت وَباهِهِ ... فَكفى به كَمداً لِقَلْبِ الحَاسِدِ(٢)

(١) في رواية: «شِبْتَ وشابَ الغلامُ».
(٢) ساجله: باراه وفاخره.

مُتَــأَلِّــقٌ فيــه الفِــرِنْــدُ كــأَنّــهُ وَجْهي غداة نَدًى وَضَيْفٍ قاصِدِ
لـو أنَّ ظَمْـأَى منه عُلَّـتْ لارْتَـوَتْ مِنْ ماءِ جَوْهَرِه المَعينِ البارِدِ[١]
بَهَــر العُيُــونَ إضــاءةً فــي رِقّــةٍ فَكــأنَّنــي مُتختّــمٌ بِعُطــارِدِ[٢]

لبعض المحدثين

وقال بعضُ المُحْدَثين يصف خاتماً:

وَوحِيــدُ الكِيــان صِيــغَ بــديعــاً فــإذا تــمَّ صِيــغَ مــن جَــوْهــرَيْــنِ
خَلَعَــتْ خَجْلَــةُ الخُــدودِ عليــهِ خِلَعــاً قــد لُبِسْــنَ فــوقَ اللّجيــنِ
فــإذا مــا رأيتَــهُ فــي بَنَــانٍ قَــدْ كَسَــاهــا مــن حُسْنِــهِ حُلّتيــنِ
قُلْـتَ نَجْـمٌ هَـوَى مـن الجـوِّ حتـى صـار مَجْرَى بُروجِهِ في اليَدَيْنِ

للبحتري

وقال البحتري يَسْتَهْدِي المعتز فصّا:[٣]

فَهل أنتَ يابنَ الراشدين مُختّمي بياقوتةٍ تُبْهي عليَّ وتُشْرِقُ
إذا بَرَزَتْ والشمسُ قلتَ تجاريا إلى أمَدٍ أو كادت الشمسُ تَسبقُ[٤]
إذا التهبتْ في اللَّحْظ ضاهَى ضياؤُها جَبينَك عِنْدَ الجودِ إذْ يتألّقُ[٥]
أُسَرْبَلُ منها ثَوْبَ فَخْرٍ مُعجّلٍ فَيبقى بها ذِكْرٌ على الدهرِ مُخْلِقُ

لأبي الفتح كشاجم

وعلى ذكر الخاتم قال أبو الفتح كشاجم:

عَرَضْنَ فَعرَّضْنَ القلوبَ مِنَ الهوى لِأسْرَعَ في كَيّ القلوب على الجَمْرِ

---

(١) العلل (في الأصل): هو الشرب الثاني، والمراد هنا الشرب مطلقاً.
(٢) بهر الشيء فلاناً: أدهشه وحيّره، وبهرت الشمس الأرض: عمَّها نورها، وبهرت فلانة النساء: فاقتهن حُسناً.
(٣) البحتري، الديوان: ١/ ١٧٠.
(٤) في الديوان: «قلت تجارتا».
(٥) ضاهى: أشبه. ويتألق: يضيء.

كـأنَّ الشِّفَـاهَ اللُّعْـسَ منهـا خـواتِـمٌ ... مـن التِّبْـرِ مختـومٌ بِهـنَّ علـى الـدُّرِّ(١)

وقال الناظم:

يَـروعُ مُنَـاجِيـه بِهَـارُوتِ لَحْظِـهِ ... وَيُـؤْنِسُـه منـه بِصُـورةِ آدمِ

تـرى فيـه لامـاً فَـرْدَةً فـوق وَرْدَةٍ ... وَفصًّا من الياقوت من فوق خاتَمِ

[مفاضلة بين الكلام والصمت]

وقال أبو تمام الطائي: تذاكرْنَا في مجلس سعيد بن عبد العزيز الكلامَ وفضله، والصمتَ ونُبْله، فقال: ليس النَّجْمُ كالقمر؛ إنك إنما تمدحُ السكوتَ بالكلام، ولا تمدحُ الكلامَ بالسكوت، وما أنبأ عن شيء فهو أكبرُ منه.

قال الجاحظ: كيف يكونُ الصمتُ أنْفَعَ من الكلام، ونفعُه لا يكادُ يجاوزُ صاحبَهُ، ونَفْعُ الكلام يعمّ ويخصّ، والرواةُ لم تَرْوِ سكوتَ الصامتين، كما روت كلام الناطقين؛ فبالكلام أرسل اللهُ تعالى أنبياءَه لا بالصَّمْتِ، ومواضعُ الصَّمْتِ المحمودةُ قليلة، ومواطنُ الكلام المحمودةُ كثيرةٌ، وبِطول الصَّمْت يَفْسُد البيان. وكان يقال: محادثةُ الرجال تلقيحٌ لألبابها.

وذُكِر الصمتُ في مجلس سليمان بن عبد الملك فقال: إنّ مَنْ تكلَّم فأَحسن قَدَر أنْ يسكتَ فَيُحْسِن، وليس مَنْ سكت فأَحسن يتكلّمُ فَيُحْسِن.

قال بعضُ النساك: أسكتتني كلمةُ ابن مسعود عشرين سنة؛ وهي: من كان كلامُه لا يوافِق فعله فإنما يوبّخ نَفْسَه.

[الحنين إلى الأوطان]

قال أبو عَمْرو بن العلاء: مما يدلُّ على حربة الرجل وكرم غريزته حنينُه إلى أوطانه، وتشوّقه إلى متقدم إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زَمَانِه..

وقالوا: الكريم يحنُّ إلى جنابه، كما يحنُّ الأسدُ إلى غابِه.

وقالوا: يشتاقُ اللبيبُ إلى وطنه، كما يشتاق النجيب إلى عَطَنِه(٢).

---

(١) اللعس: جمع لعساء، وهي التي فيها خيط أسمر، وهو مما يمتدح به.

(٢) النجيب هنا: الجمل الأصيل، الكريم. العطن: مبرك الإبل، أي مكان بُروكها.

ألفاظ لأهل العصر في ذكر الوطن

بلد لا تُؤْثِر عليه بلداً، ولا تَصْبِر عنه أبداً. هو عشُّه الذي فيه دَرَجَ، ومنه خرجَ. مجمع أُسرته، ومقطع سُرَّته. بلد أنشأته تُربتُه، وغذّاه هواؤه، وربّاه نَسيمُه، وحُلّتْ عنه التمائِمُ فيه.

قالوا: وكان الناسُ يتشوّقون إلى أوطانِهم، ولا يفهمون العلّةَ في ذلك، حتى أوضحها علي بن العبّاس الرومي في قصيدةٍ لسليمان بن عبد اللَّه بن طاهر يَسْتَعدِيه على رجل من التُّجَّار، يعرف بابن أبي كامل، أَجْبَره على بَيْع داره واغتصبه بعض جُدرها، بقوله:[١]

لابن الرومي في تعليل الحنين إلى الوطن

وَلــي وَطَــنٌ آليــتُ ألاّ أبيعــهُ ... وألاّ أرى غَيْري لهُ الدَّهْرَ مالِكا[٢]
عَهِـدْتُ بـه شَـرْخَ الشبـابِ ونعمـةً ... كَنِعْمَةِ قـوم أصبحُـوا فـي ظِـلالِكـا[٣]
وَحبّـب أوطـانَ الـرجـال إليهـمُ ... مـآرِبُ قَضَّـاهـا الشبـابُ هُنـالِكـا[٤]
إذا ذَكَـروا أوطـانَهـم ذَكَّـرتْهُـمُ ... عُهـودَ الصِّبَـا فيهـا فَحنُّـوا لِـذلِكـا
فقـد ألِفَـتِ النفـسُ حتـى كـأنـهُ ... لهـا جَسَـدٌ إن بـانَ غُـودِرَ هـالكـا[٥]

يقول له فيها:

وَقـدْ عَـزّنـي فيهـا لَئيـمٌ وسـامَنِـي ... فقال ليَ اجهدْ فيَّ جَهْدَ احْتِيالكا[٦]
وَمـا هُـو إلا نَسْجُـك الشِّعـر ضلّـةً ... وما الشعرُ إلاّ ضلةٌ من ضَلالِكا[٧]
بَصيـرٌ بِتَسْـآلِ الملـوكِ، وَلـم يكُـنْ ... بِعَـارٍ على الأحـرار مِثلُ سُـؤَالِكـا[٨]

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٥/ ١٩.
(٢) الوطن هنا: الدار. آليت: أقسمت.
(٣) شرخ الشباب: أوله ونضارته.
(٤) المآرب: الحاجات، مفردها: مأرب.
(٥) بان: بعد وانفصل.
(٦) عَزَّني: غلبني. وفي الديوان:
وَراغمنـي فيمـا أَتـى مِـنْ ظُـلامتـي ... وقال لي: اجْهَدْ فيَّ جَهْدَ احْتِيالكا
(٧) في الديوان: «فما هُو إلاَّ نَسْجُكَ الشِّعرَ سَادِراً». وَسِدرَ فلان سَدَراً وسَدَارةً: لم يهتم، ولم يبال ما صنع.
(٨) في الديوان: «يُعيِّرُ سُؤَّالَ الملوكِ».

وَإِنّـي وإنْ أَضْحَـى مُـدِلاًّ بِمـالِـهِ لآمـلُ أن أَضْحى مُـدِلاً بمـالِكـا[1]
فَـإنْ لـم تُصِبْني مـن يَمِينـكَ نِعْمَـةٌ فـلا تُخْطِئَنْهُ نقمـةٌ مـن شِمـالِكـا[2]
فَكَـمْ لقـي العـافـونَ بَـدْءاً وعَـوْدَةً نَـوالَـكَ والعَـادون مُـرّ نَكـالِكـا[3]

وقال علي بن عبد الكريم النصيبي: أتاني أبو الحسن بن الرومي بقصيدته هذه، وقال: أَنصِفْني، وقل الحق: أيهما أحسن قولي في الوطن أو قول الأعرابي:

أحَـبُّ بـلادِ اللَّـه مـا بيـن مَنْعِـجٍ إليّ وسلمى أنْ يَصُوبَ سَحابُها[4]
بِـلادٌ بهـا نِيطَـتْ عَلَـيَّ تمـائمـي وأوَّل أرضٍ مَـسَّ جِلْـدِي تُـرَابُهـا[5]

فقلت: بل قولك؛ لأنه ذكر الوطنَ ومحبّته، وأنت ذكرتَ العلة التي أوجبتْ ذلك.

وله يشتاق إلى بغداد

وقال ابنُ الرومي أيضاً يتشوّق إلى بغداد، وقد طال مقامه بِسُرَّ من رأى[6]:

بَلَـدٌ صَحِبْـتُ بـهِ الشبيبـةَ والصبـا وَلبسْتُ ثَوْبَ العيشِ وَهْوَ جَديدُ[7]
فـإذا تَمثَّـلَ فـي الضميـرِ رَأيتَـهُ وَعَلَيـهِ أَغْصَـانُ الشبـابِ تَميـدُ[8]

وقال أبو العباس: ولما احتفل القائل في هذا المعنى السابق إليه قال:

بـلادٌ بهـا حَـلَّ الشبـابُ تَمـائِمـي

وقد تقدّم. وإذا كانت تمائمه قطعت بأبرق العَزَّافَ، وكان الترابُ الذي مَسَّ جلدَه

(١) في الديوان: «لآمُلُ أَن أُلْـقَى».
(٢) في الديوان: «فإنْ أَخطأتني من يَمِينكَ نِعْمَةٌ».
(٣) في الديوان: «فكَمْ لَقِي العافونَ عَوْداً وبدأةً». والنكال: العقاب، أو النازلة، قال تعالى: ﴿فَجعلْنَاها نَكَالاً لِما بَيْنَ يَدَيْهَا ومَا خَلْفَهَا﴾. (سورة البقرة، آية ٦٦). والعافون: طالبو المعروف.
(٤) صاب السحاب بالمطر: جاد، وصاب المطر صَوْباً وصَيْبُوبَةً: انصبّ.
(٥) نيطت: علقت. التمائم: جمع تميمة، وهي العُوذَةُ تُعلَّق على الصبي تمنع عنه العين في زعمهم، أو الرُّقية يُرْقى بها الإنسان من فزع أو جنون.
(٦) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ٢٧٠.
(٧) في الديوان: «وَلَبِسْتُ فيه العَيْشَ وَهْوَ جَديدُ».
(٨) في الديوان: «وَعليهِ أَفْنَانُ الشَّباب تَميدُ». تميد: تتحرك وتتمايل.

ترابَ جزيرة سيراف، وجب أَن يحنّ إليه حنينَ المتأسفين على غُوطَةِ دمشق، وقصور مدينة السلام، ونجف الجزيرة، ومستشرفِ الخورْنَق، وجَوْسق سرّ مَنْ رأى، لَمَّا بعد عنها، وطال مقامه بغيرها، كلاَّ، ولكن هذا الرجل علم أن الحنينَ إلى الأوطانِ لما تُذَكِّر من معاهد اللَّهو فيها، بحدّة الشباب الذي ذكر أنَّ غول سَكْرَته، يغطي علي مقدار فضيلته، في قوله:[1]

لا تَلْحُ مَنْ يَبْكي شَبيبَتَهُ ... إلاَّ إذا لم يَبْكِها بِدَمِ
عَيْبُ الشبيبة غَوْلُ سَكْرَتِها ... مِقْدَار ما فيها من النِّعَمِ[2]
لَسْنَا نَراها حَقَّ رُؤيتِها ... إلاَّ أوانَ الشيبِ والهَرَمِ[3]
كَالشَّمْسِ لا تَبْدُو فَضيلتُها ... حتى تُغَشَّى الأرضُ بالظُّلَمِ
وَلَرُبَّ شيءٍ لا يُبَيِّنُهُ ... وِجْدَانُهُ إلاَّ معَ العَدَمِ

أخذها هذا من قول الطائي:[4]

رَاحَتْ وفودُ الأرضِ عَنْ قبرِهِ ... فَارِغَةَ الأيدي مِلاءَ القُلوبِ[5]
قَدْ عَلِمتْ ما رُزِئَتْ، إِنَّما ... يُعْرَفُ فَقْدُ الشمسِ بعد الغُروبِ

لبشار بن برد في حب الوطن

وأخذ ابنُ الرومي قولَه في صفة الوطن من قول بشَّار:[6]

متى تَعْرِف الدارَ التي بَانَ أَهْلُها ... بِسُعْدَى فإنَّ العهدَ مِنْكَ قَريبُ[7]
تُذكّرُك الأهواء إذْ أنتَ يافعٌ ... لَديْهَا فَمغْنَاهَا لدَيْكَ حَبيبُ[8]

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ١٠٢.
(٢) الغول: الهلاك، يقال: غالته الخمرة: شربها فذهبت بعقله أو بصحة بدنه، ويسمى «السكر» الغول.
(٣) في الديوان: «إلاَّ زمانَ الشيبِ والهَرَم».
(٤) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٢٨٤. والبيتانَ من قصيدة يرثي بها إسحاق بن أبي رِبْعيّ.
(٥) ملاء القلوب: أي بالحزن عليه.
(٦) بشار بن برد، الديوان: ١/ ١٤٦. والبيتان من قصيدة ينسب بها بسعدى بنت صقر بن قعقاع المالكية، من بني بكر.
(٧) بان أهلها: ارتحلوا وابتعدوا.
(٨) يافع: شابّ. المغنى: المنزل الذي غَنِي فيه أَهْلُهُ، ثم ظعنوا عنه.

لبعض الأعراب

أو من قول بعض الأعراب:

ذَكرتُ بلادي فاسْتَهلَّت مَدامِعي بِشَوْقي إلى عَهْدِ الصبا المُتقادِم(١)
حَنَنْتُ إلى أرضٍ بها اخْضَرّ شاربي وَقُطِّع عني قَبْلَ عَقْدِ التمائم

لرجاء بن هارون العكي

وأنشد ثعلب لرجاء بن هرون العَكي:

أَحِنُّ إلى وادِي الأراكِ صبابةً لِعَهْدِ الصِّبا فيه وَتَذْكارِ أَوّلِ
كأنَّ نسيمَ الريحِ في جَنَباتِهِ نسيمُ حبيبٍ أو لقاءُ مُؤَمّلِ

قال أبو بكر الصولي: ولست أشكُّ أنه من قول رجاء أخذ، وبه ألمّ، وعليه عَوَّل؛ لأنه في تناولِه المعنى غريبُ الأخذ، عائِر السَّهْم(٢)، لا يعارض معنى معروفاً إذا أنشد علم الناسُ أنه مَعْدِنه الذي انتحته منه.

وقد اخْتُلس معنى قول ابن الرومي:

فَقدْ أَلِفَتْهُ النفسُ حتى كأنَّهُ لها جَسدٌ إنْ بانَ غُودِرَ هَالِكا

للإيادي

أخذه علي بن محمد الإيادي وقال فأحسن الأخْذَ ولطف في السرقة:

بالجزع فالخَبْتَينِ أَشْلاء دَارْ ذات ليال قد تَولَّتْ قِصارْ
بانوا فماتَتْ أَسفا بَعْدَهُمْ وَإنّما الناسُ نُفُوسُ الديارْ

لأعرابي

وقال أعرابي:

أيا حَبَّذا نَجْدٌ وَطِيبُ تُرَابِهِ تُصافِحُهُ أيدِي الرياحِ الغرائبِ
وَعهْدُ صِباً فيه يُنازِعُكَ الهوى بِذلك أتْرابٌ عِذَابُ المشاربِ

---

(١) استهلت مدامعي: انهمرت، وهطلت، وسالت.
(٢) السهم العائر: الذي لا يعرف راميه.

تُنالَ المُنَى مِنْهُنّ في كلّ مَطْلَبِ عِذَابُ الثنايا وارداتُ الذوائبِ[(١)]

لابن ميادة

وقال ابن ميّادة[(٢)] يخاطبُ الوليدَ بن يزيد.

ألاَ لَيْتَ شعري هل أبيتنَّ ليلةً بِحرَّة ليلى حَيْثُ رَبَّتَنِي أَهْلي
بِلادٌ بها نِيطَتْ عليّ تمائمي وَقُطِّعنَ عنّي حينَ أدْرَكَني عَقْلي
فإن كُنْتَ عن تِلْكَ المواطنِ مانعي فَأَفْشِ عليَّ الرزقَ واجْمَعْ إذاً شَمْلي

وقال سوار بن الصرير[(٣)]، ورويت لمالك بن الريب:[(٤)]

سَقَى اللَّهُ اليمامةَ من بلادٍ نَوائحُها كأَرْوَاحِ الغواني[(٥)]
وَجوًّا زاهِراً للريح فيه نَسيمٌ لا يَرُوعُ التّرْبَ وَانِي
به شُقْتُ الشبابَ إلى زمانٍ يُقَبّحُ عِنْدَنا حُسْنَ الزمانِ

لأعرابي

وقال أعرابي:

---

(١) الذوائب: جمع ذؤابة، وأراد الشعر، ووروده: استرساله.

(٢) هو أبو شرحبيل، وأبو حرملة، الرماح بن أبرد بن ثوبان بن سراقة الذبياني الغطفاني المضري: شاعر رقيق، هجّاء، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. اشتهر بنسبته إلى أمّه ميّادة، وهي امرأة صقلبية من أهل إسبانية. وفي شعره سلامة الطبع، وفصاحة الأعراب، ومحاسن المحدثين وملحهم توفي سنة ١٤٩ هـ/ ٧٦٦ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٢/ ٢٢٧؛ ياقوت الحموي، معجم الأدباء: ١١/ ١٤٣).

(٣) في رواية: «سوار بن المضرب». وهو أحد بني ربيعة بن كعب بن زيد مناة بن تميم، الشاعر المشهور، المعروف بابن المُضرَّب، ومعناه: الذي ضُرب مرّة بعد مرّة. (الجاحظ، الحيوان: ٣/ ٤٤٠، الحاشية رقم ٤).

(٤) هو مالك بن الريب بن حوط بن فرط بن حسل بن ربيعة بن كابية بن حرقوص بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم: شاعر فاتك لص، نشأ في بادية بني تميم يقطع الطريق، وأخباره مع شظاظ الضبيّ وغيره من قطاع الطرق مشهورة. لحق بسعيد بن عثمان بن عفان، فغزا معه خراسان، وبقي فيها حتى مات سنة ٦٠ هـ/ ٦٨٠ م (الهواري، روائع من الأدب العربي: ١٧٠).

(٥) في رواية: «نوافجها كأرواح الأغاني». والنوافج: جمع نافجة، وهي الريح الشديدة الهبوب. والأرواح: جمع ريح.

أقولُ لصاحبي والعيسُ تَخْدِي ... بِنَا بَيْنَ المُنِيفةِ فالضِّمَارِ[1]
تَمتَّعْ مِنْ شَمِيم عَرار نَجْدٍ ... فما بَعْدَ العشيَّةِ مِنْ عَرارِ[2]
ألا يا حبَّذا نَفَحاتُ نَجْدٍ ... وريَّا رَوْضِهِ غِبَّ القِطارِ[3]
[وأهلك إذ يحلّ القومُ نَجْداً ... وأنتَ على زمانِك غيرُ زَارِ]
شُهورٌ يَنْقَضِينَ وما شَعَرْنَا ... بأَنصافٍ لَهُنَّ وَلا سِرَارِ

وهذا البيت كقول الآخر:

سقَى اللَّهُ أياماً لنا قد تتابعتْ ... وسَقْياً لِعَصْرِ العامريَّة من عَصْرِ
لَيالِيَ أَعطَيْتُ البَطالةَ مِقْوَدِي ... تَمرُّ الليالي والشهورُ ولاَ أَدْرِي

ابن الرومي يهجو سليمان بن عبد الله بن طاهر

وتخلَّفَ سليمان عن نصرة ابن الرومي؛ فذاك الذي هاجه على هجائه، فمن ذلك قوله، وقد خرج في بعض الوجوه فرجع مهزوماً:[4]

جاءَ سُليمانُ بني طاهرٍ ... فاجتاحَ مُعْتَزّ بني المُعتَصِمْ
كأنَّ بغداد وقد أبصرتْ ... طَلْعَتَهُ نائحةٌ تَلْتَدِمْ[5]
مُسْتقبلٌ منه وَمُسْتَدبِرٌ ... وَجهٌ بخيلٌ وَقفاً مُنْهزِمْ

وقال:[6]

قِرْنُ سليمانَ قَدْ أَضرَّ بِه ... شَوْقٌ إلى وَجْهِهِ سَيُتْلِفُهُ[7]
كم يَعِدُ القِرْنَ باللقاءِ وكَمْ ... يَكْذِبُ في وَعْدِه وَيُخْلِفُهُ[8]

---

(١) العيس: الإبل. تخدي: تسرع في سيرها. والمنيفة: ماء لتميم. والضمار: موضع.
(٢) العَرارُ: نبات طيب الرائحة، الواحدة عرارة.
(٣) غبّ القطار: بعد المطر.
(٤) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ٨.
(٥) في الديوان: «لدن أبصرت». وتلتدم: تلطم وجهها.
(٦) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ٢٠٥.
(٧) أتلفه: أهلكه وأعطبه. وفي الديوان: «سيدنفه»، وأدنفه: أمرضه.
(٨) القرن: واحد الأقران: الأبطال الأكفاء.

لا يَعْـرِفُ القِـرْنُ وجْهَـهُ ويَـرَى   قَفَـاهُ مـن فَـرْسَـخٍ، فَيَعْـرِفُـهْ

وقد أخذ هذا المعنى من قول بعض الخوارج، وقد قال له أبو جعفر المنصور:

أَخْبِرني أي أصحابي كان أشدّ إقداماً في مُبَارزتك، فقال: ما أعرفُ وجوههم، ولكنني أعرفُ أقفاءهم، فقل لهم يدبروا أعرِّفك.

وفي هذه المنازعة يقول ابن الرّومي لمواليه بني هاشم وكان ولاؤه لعبيد اللّه بن عيسى بن جعفر بن المنصور:(١)

تَخِـذْتُكـم دِرْعـاً علـيّ لِتَـدْفَعُـوا   نِبَال العِدى عني فَكُنْتُمْ نِصَالَهـا(٢)
وَقـد كُنْتُ أرجـو منكـم خَيْرَ نـاصِرٍ   علـى حيـن خِـذْلاَن اليميـن شِمـالَهـا
فـإنْ أَنتُـم لـم تَحْفَظـوا لِمـودَّتـي   ذِمـامـاً فكـونـوا لا عليهـا وَلاَ لَهَـا
قِفُـوا مَـوْقِـفَ المعـذورِ عنّـي بِمَعْزِلٍ   وَخَلُّـوا نِبَـالـي وَالعِـدَا وَنِبـالَهـا

ألفاظ لأهل العصر، في وصف الأمكنة والأزمنة

بلدة كأنها صورةُ جنَّة الخلد، منقوشة في عَرْضِ الأرض. بلدةٌ كأن محاسنَ الدنيا مجموعةٌ فيها، ومحصورة في نواحيها. بلدةٌ كأن ترابها عنبرٌ، وحَصْباءها عقيق(٣)، وهواءها نسيم، وماءها رَحِيق. بلدةٌ معشوقة السُّكْنَى، رَحْبَةُ المَثْوى(٤)، كَوْكَبُها يقظان، وجَوّها عُريان، وحَصَاها جَوْهر، ونسيمُها مُعَطّر، وترابها مِسْك أذفر(٥)، ويومها غداةٌ، وليلها سَحر، وطعامها هنيّ، وشرابها مَرِيّ. بلدة واسعةُ الرقعة، طيبة البقعة، كأنّ محاسن الدنيا عليها مفروشة، وصورة الجنة فيها منقوشة، واسطة البلاد وسرّتها، ووجهها وغرتها.

ولهم في ضد ذلك

بلد مُتَضايِقُ الحدود والأفنية، متراكب المنازلِ والأبنية. بلد حرُّها مؤذٍ، وماؤها غير

(١) ابن الرومي، الديوان: ٥/ ٩٧.
(٢) في الديوان: «تَخذتُكُمْ دِرْعاً وتُرْساً لِتَدْفَعوا».
(٣) الحصباء: صغار الحصى.
(٤) المثوى: المنزل، المقام. والرحبة: الواسعة.
(٥) مِسْكٌ أذفر: طَيِّب للغاية.

مغذ. بلدة وَسخة السماء، رَمِدة الهواء، جوّها غبار، [وأرضها خَبَارٌ][١]، وماؤُها طِين، وترابُها سِرْجِين[٢]، وحيطانها نَزُوز، وتشرينها تموز[٣]، فكم في شمسها من محترق، وفي ظلها من غَرِق. بلدة ضيقة الديار، سيئة الجوار، حيطانها أَخْصَاص، وبيوتها أقفاص، وحُشُوشها مسايل[٤]، وطرقها مَزابل.

ولهم في صفات الحصون والقلاع

حصن كأنه من مَرْقَب النجم، يحسر دونه الناظر، ويقصر عنه العُقابُ الكاسِرُ، يكادُ مَنْ علاه يغرق في حوض الغمام. حصن انتطق بالجوزاء، وناجَتْ أبراجُه بُرُوجَ السماء. قلعة حلّقت بالجو تُناجي السماء بأسرارها. قلعة يَعُدَ في السماء مُرْتَقَاها، حتى تساوى ثَرَاها مع ثريّاها. قلعة تتوشّح بالغيوم، وتَتَحلّى بالنجوم. قلعة عالية على المرتقى، صمّاء عن الرقى، قد جاوزت الجوزاء سَمْتا، وعزلتِ السماك الأعْزل سَمْكا، هي متناهية في الحصانة، موثوقة بالوثاقة، ممتنعة على الطلب والطالب، منصوبةٌ على أضيق المسالك وأوعر المناصب، لم تَزِدْها الأيامُ إلا نُبوّ أعطاف، واستصعاب جوانب وأطراف، قد ملّ الوُلاَةُ حِصَارهَا، ففارقوها عن طموح منها وشِمَاس، وسئمت الجيوشُ ظلَّها، فغادَرتْها بعد قنوطٍ ويأسٍ، فهي حِمّى لا يُرَاغ[٥]، ومَعْقِل لا يُستطاع، كأَنَّ الأيام صالحَتها على الإعفاء من الحوادث والليالي عاهدَتْها على التسليم من القوارع. قلعة تَحْوي من الرِّفْعَةِ قَدْراً لا تستهان مواقعه، وتلوي في المنعة جيداً لا تستلان أخادِعه، ليس لِلوَهْم قبل القدوم إليها مَسْرَى، ولا للفِكْرِ قبل الخَطْو نحوها مَجْرَى.

ولهم في صفات القصور والدور

قصر كأن شُرُفَاته بين النَّسْر والعَيُوق[٦]، كأنه يُسَامِي الفَرْقَد، وقد اكتسَتْ له الشِّعرى

---

(١) الخبار: الليّن المسترخي من الأرض.

(٢) يريد أن ترابها نجس، لأن السرجين عذرة البهائم.

(٣) نزوز: كثير النَّزّ، ما يتحلّب من الأرض من الماء. وتشرين وتموز: من أسماء الشهور الرومية، وتشرين في مطلع الشتاء، وتموز في الصيف. يريد أنها شديدة الحرّ.

(٤) الحُشُوشُ: جمع حُشّ، وهو المتوضأ، أو الكنيف، أو البستان.

(٥) لا يُراغ: لا يُطلب، لأنه لا سبيل إليه.

(٦) النسر والعيوق والشعرى: أسماء نجوم في السماء.

العَبور ثوبَ الغيور. قصر طال مَبْنَاه، وطاب مَغْناه، كأنه في الحَصَانة جبلٌ منيع، وفي الحسن رَبيع مَريع. شُرُفَات كالعذارى شَدَدْن مناطقها، وتوّجن بالأكاليل مَفَارِقَها. قَصْرٌ أقرّت له القصورُ بالقُصور[١]، كأنه سَحَاب في بحر السماء. دار قَوْرَاء[٢] تُوسِع العين قُرة، والنفس مسرّة. كأنَّ بانيها استسلف الجنة فَعُجِّلت له. دار تخجل منها الدور، وتتقاصَرُ عنها القصور؛ إن مات صاحبُها مغفوراً له فقد انتقل مِن جنة إلى جنة. دار قد اقترن اليُمْن بيمناها، واليُسْر بِيُسْراها، الجسومُ منها في حَضَر، والعيون على سَفَر. دار هي [دائرة الميامن، و] دَارَة المحاسن. دارٌ دارَ بالسعدِ نَجْمُها، وفاز بالحسن سَهْمُها. دار يخدمها الدهر، ويأويها البَدْرُ، ويكنفها النَّصر، هي مَرْتَع النواظر، وَمُتنفَّس الخواطر. دارٌ قد أخذت أدواتِ الجِنَان، وضحكت عن العَبْقَرِيّ الحِسَان[٣].

[من رسائل الميكالي وشعره]

فصل لأبي الفضل الميكالي إلى بعض إخوانه:

ما ابتدأتُ بمخاطبة سيّدي، حتى سَرَتِ المسرّةُ في نفسي، وقَوِيَتْ أركانُ بَهْجتي وأُنسِي، وحتى أقبَلَتْ وجوهُ الميامن تتهلَّلُ إليّ، وبدَرُ المساعِد تنثالُ عليّ[٤]، وكيف [لا يملكني الجذَل والفرح، وكيف] لا يهزُّني النشاطُ والمَرَح، وقد زَفَفْتُ وُدِّي إلى كُفْءٍ كريم، وعرضته لحظٍّ من الجمال جسيم، وأَرجو أَن يرِدَ منه على حُسْنِ قبولٍ وإقبال، ويَحْظَى من ارتياحه له بِبُرْدِ ٱشْتِمَال، ويُصادف من اهتزازِهِ وإنشائه، وعمارته وإنمائه، وتحصين أطرافه من شوائب الخلل، وشوائن الوَهن والميل، وما تستحكم به مَرَائر الوِصَال، وتؤمن على قُوَاها عَوَادِي الانتقاض والانحلال.

وله: إذا لم يُؤْتَ المرءُ في شكر المنعم إلا من عِظَمِ قَدْرِ الإنعام والاصطناع، واستغراقه منه قُوَى الاستقلال والاضطلاع، فليس عليه في القصور عن كُنْهِ واجبه عَتْب، ولا

---

(١) القصور (الأولى): جمع قصر، والثانية بمعنى التقصير.
(٢) قوراء: واسعة.
(٣) العبقري: نسبة إلى عبقر، وهو صفة لكل ما بُولغ في وصفه وما يفوقه شيء، والعبقري: الديباج، والطنافس الثِّخان، قال تعالى: ﴿مُتكئين على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ (سورة الرحمن، آية ٧٦).
(٤) تنثال عليَّ: تتوالى وتكثر.

يلحقه فيه نقيصةٌ ولا عَيْبٌ. ولئن ظهر عَجْزِي عن حق هذه النعمة فإني أحيل بحسن الثناءِ على من لا يُعْجِزه حمله، ولا يؤوده ثقله، ولا يزكو الشكرُ إلا لدَيْه، ولا تُصْرَفُ الرغبَةُ إلا إليه، واللهُ يُبقِيه لمجدٍ يقيم أعلامَه، وفَضْلٍ يَقْضِي ذِمامَه، وعُرْفٍ يَبثّ أقسامه، ووليّ يوالي إكرامه، وعدوّ يُديمُ قَمْعَه وإرْغامَه.

وله: ولو وفيت هذه النعمة الجسيمة حقّها لمشيت إلى حضرته ـ آنسها الله تعالى ـ حَبْواً [لا][1] على القَدم، ولآثرْت فيه خدمة اللسان على خِدْمة القلم، ولما رضيت له بباعي القصير، وعبارتي الموسومة بالعجز والقصور، حتى أستعير فيه ألسنةً تحملُ شكراً وثناءً، وتوسع نَشْراً[2] ودعاءً، ثم لا أَكونُ بلغتُ مبلغاً كافياً، ولا أبليت عُذْراً شافياً؛ إلاّ أنّ عدم الإذن ثَبَّطني[3] عن مقصودِ الغرض، وعاقَني عن الواجب المفترض؛ فأقمتُ عاكفاً على دعاءٍ أرفَعُهُ إلى اللهِ عزّ وجلّ مُبْتَهلاً، وأواصله مجتهداً في ليلي ونهاري محتفلاً.

وله: أحقّ النعمة بالزيادة نعمة لم تزل العيون إليها مُسْتَشْرِفَة[4]، والقلوب إليها متشوّقة، والأيام بها وَاعِدة، والأقدار فيها مساعدة، حتى استقرّت في نِصَابها، وألقتْ عِصيّ اغترابها، فهي للنماء والزيادة مترشحة، وبالعزّ والسعادة متوشحة، وبالأدعية الصالحة مستدامة مُرْتَهنَة، وباتّفاق الكلمةِ والأهواء عليها مرتبطة محصّنة.

وله فصل من كتاب تعزية بالأمير ناصر الدين:

أقدارُ الله تعالى في خلقِه لم تَزَلْ تختلفُ بين مكروه ومحبوب، وتتصرَّفُ بين مَوْهوب ومسلوب، غاديةٌ أحكامُها مَرَّةً بالمصائب والنوائب، رائحة أقسامها تارةً بالعطايا والرغائب، ولكن أحسنَها في العيونِ أثراً، وأطيَبها في الأسماع خبراً، وأَحْرَاها بأن تَكْسِبَ القلوبَ عزاءً وتصبُّراً، ما إذا انْطَوى نُشِر، وإذا انكسر جُبِر، وإذا أخذ بيد ردّ بأخرى، وإذا وهب بيمنى سُلِبَ بيسرى، كالمصيبة بفلان التي قرَّحَتِ الأكباد، وأوهنتِ الأعضاء[5]، وسوّدت وجوهَ

(١) الحَبْوُ: الزَّحْفُ.
(٢) النشر هنا: الإذاعة بين الناس.
(٣) ثَبَّطني: أقعدني.
(٤) مُسْتَشْرِفةٌ: مُتَطلِّعَةٌ.
(٥) أوهنت: أضعفت. الأعضاد: جمع عضد، وهو من اليد ما بين الكتف والذراع، ويرمز به إلى القوة، ومنه قولهم: «فت في عضده»، ويطلق العضد مجازاً على الناصر والمعين، وفي التنزيل العزيز: ﴿وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾. (سورة الكهف، آية ٥١).

المكارم والمعالي، وصورت الأيامَ في صُور الليالي، وغادرت المجدَ وهو يلبس حِدَادَه، والعَدْلَ وهو يبكي عِمَادَه، والدين وهو يندب جهاده، حتى إذا كاد اليأسُ يغلبُ الرّجاءَ، ويردُّ الظنونَ مُظْلِمةَ النواحي والأرجاء، قيَّض الله تعالى من الأمير الجليل مَنِ اجتمعتْ عليهِ الأهواءُ، ورضِيَتْ به الدهماء(١)، فأسَى به حادِثَ الكَلْم، وسدّ بمكانِه عظيمَ الثَّلْم(٢)، وردَّ الآمال والنفوسَ قد استبدلتْ بالحيرة قوةً وانتصاراً، وصارتْ للدولة المباركة أعواناً وأنصاراً.

من شعر الميكالي في تجنيس القوافي

ومن شعره في تجنيس القوافي، في معانٍ مختلفة:

إذا لــم تكُــنْ لِمَقــالِ النصيــح سَميعــاً ولا عــامِــلاً أنــتَ بِــهْ
يُنَبِّهُــكَ الــدهــرُ مــن رَقْــدَة الْــ ــمَــلاهــي وإن قُلْــتَ لا أنتَبِــهْ

وقال:

تَفــرق النــاسُ فــي أرزاقهــم فِــرَقــاً فَـلاَبِـسٌ مـن ثَـراءِ المـالِ أَوْ عَـارِي
كـذا المَعـايشُ فـي الـدنيـا وَسـاكِنها مَقْسُـومـةٌ بَيْـنَ أوعـاث وأَوْعَـارِ(٣)

وقال:

حَـوَى القِـدُّ عُمْـراً فَقُلْـتُ اعتقِـدْ رِضــاً بــالقضــاءِ وَلا تَحْتَفِــدْ(٤)
فــإمَّــا احتقــدت قضــاءَ الإلــهِ فَــأقبــحْ بِمُحْتَقِــدِ تَحْــتَ قِــدّ

وقال:(٥)

تَمّــتْ مَحــاسِنُــه فمــا يُــزْرِي بهــا مــعَ فضلــه وَنمــائــه وكمــالِــه(٦)
إلا قصــورُ وُجــودِه عــن جُــودِهِ لاَ عَـوْنَ للـرجـل الكـريـم كَمَـالِـه(٧)

---

(١) الدهماء: عامة الناس وسوادهم.
(٢) الثَّلْمُ: الشّقّ أو الكَسْر.
(٣) أوعاث: جمع وَعْث، وهو المكان السهل تغيب فيه الأقدام، والوعث: كل أمر شاقّ من تعب وغيره. أوعار: جمع وَعَر، وهو المكان الصلب أو المخيف.
(٤) احتفد فلان وحفد: خفَّ وأسرع في عملٍ، فهو حافد، والجمع حفدة، وَحَفَد.
(٥) البيتان الأول والثاني في يتيمة الدهر للثعالبي: ٤/ ٤٣٣.
(٦) في اليتيمة: «مع فضله وسخائه وكماله».
(٧) قصور وجوده: قصور إقامته. الكمال (الأولى): صفة لمن اجتمعت فيه مناقب الخير، وكماله (الثانية) أي: مثل ماله.

انصُرْ أخاكَ إذا اجْتَدَاكَ فَوَاسِهِ وإن اسْتَغاثَكَ واثقاً بِكَ مَالِه[١]

وقال أيضاً:

إذا تَغَدّيْتُ صَدْرَ يوم ثم تأذّيتُ بالغداءِ
فَقلتُ إذْ مسّني أذاهُ أرى غدائي أراغَ دائي[٢]

وله في هذا [الصوغ]:[٣]

لنا صديقٌ يُجيدُ لَقْماً رَاحتُنا في أذَى قَفَاهُ
ما ذاقَ من كَسْبهِ، ولكنْ أذى قَفَاه أذاقَ فَاهُ

وقال يهجو رجلاً:[٤]

يُريدُ يُوسّع في بَيْتِهِ وَيَأْبَى له الضيقُ في صَدْرِهِ
فتًى سَخِطَ النَّصْبَ في قِدْرِهِ كما رَضِيَ الخَفْضَ في قَدْرِه
يُخَدِّر أوصالَ أضيافِهِ ولا يُبْرِزُ الخُبْزَ من خِدْرِه

له في وصف كتاب ورده

وقال في غير هذا المذهب يصفُ كتاباً وَرَد عليه:[٥]

قد أتانا من صديقٍ كلامٌ كَلآلٍ زَانَهُنَّ نِظامُ
فَسرَى في القلبِ مني سُرورٌ مُطْرِبٌ يعجِز عَنْهُ المُدامُ
مِثْل ما يَرْتاحُ ربُّ بناتٍ حَولَهُ من جَمْعِهِنَّ زِحَامُ[٦]
فَرَعَى اللَّه طويلاً يُرَجّي خَلفاً من نَسْلِه لا يُذامُ[٧]
وأتاهُ بَعْدَ يأسٍ بشيرٌ قال يا بُشْرَايَ هذا غُلامُ

---

(١) اجتداك: طلب جدواك، والجدوى: العطاء.
(٢) أراغ: خادع.
(٣) البيتان في يتيمة الدهر: ٤/ ٤٣٤.
(٤) البيتان الأول والثاني في يتيمة الدهر: ٤/ ٤٣٤.
(٥) الثعالبي، يتيمة الدهر: ٤/ ٤٣٣.
(٦) في اليتيمة: «مثلما يرتاح شيخ بناتٍ».
(٧) في اليتيمة: «فدعا الله»، و«لا يُرامُ».

له في وصف الشمع

وقال يصف الشمع:

وَلَيْلٍ كَلَوْنِ الهَجْرِ أو ظُلمةِ الحِبْرِ ... نَصَبْنَا لِراجيهِ عَمُوداً من التِّبْرِ
يَشُقّ جَلابيبَ الدُّجى فَكأنَّما ... تَرى بين أيدينا عَمُوداً من الفَجْرِ
يُحاكي رُواءَ العاشِقينَ بلَوْنِه ... وَذوبَ حَشاه والدّموعَ التي تجري(1)
خَلاَ أَنْ جارِي الدمعِ يُنْحلهُ قِوًى ... وَعَهْدي بدَمْعِ العين يَنْحَلّ إذ يَجْري
تَبدّى لنا كالغصنِ قدًّا وَفَوْقَهُ ... شُعاعٌ كأنّا منه في لَيْلَةِ البَدْرِ(2)
تَحمّل نوراً حَتْفُهُ فيه كامِنٌ ... وَفيه حياةُ الإنسِ واللّهْوِ لو يَدري
إذا ما عَلَتْهُ عِلّةٌ جُزَّ رأسهُ ... فَيختالُ في ثوبٍ جديدٍ من العُمْرِ

وقال:

يا ربّ غُصْنٍ نورهُ ... يَزري بِنُور الشفقِ
يَظلُّ طُولَ عُمْرِهِ ... يَبْكي بِجَفْنٍ أَرِقِ
نارُ المُحبّ في الحَشَا ... ونارُه في المفرقِ
لاحَ لنا في مَغْربٍ ... فَردَّنا في مَشْرِقِ

وقال:

وَقضيبٍ من بناتِ النحـ ... ـل في قَدِّ الكعابِ(3)
يُشْبِه العاشِقَ في لو ... نٍ ودمعٍ ذي ٱنسكابِ
كُسِيَ الباطنُ مِنْهُ ... وَهْوَ عُريانُ الإهابِ(4)
فَإذا ما أنعمَ الأبـ ... ـدان مَلْبُوسُ الثّيَابِ
فَهو للشقوةِ مِنْهَا ... في بَلاءٍ وعَذابِ

---

(١) الرُّواء: المنظر الحسن.
(٢) في رواية: «كأنا منه في ليلة القدر». وليلة البدر، هي الليلة الرابعة عشر من ليالي الشهر العربي، وفيها يكتمل نور البدر.
(٣) من بنات النحل: يريد أنه من الشمع الذي يؤخذ من النحل.
(٤) الإهاب: الجلد.

لكشاجم في وصف الشمع

وقال كشاجم يصف شمعاً أهداها [إلى بعض الملوك]:

[و] صُفْرٍ من بناتِ النَّحل تُكْسَى ... بَواطِنُها وأَظْهُرُها عَواري
عَذارَى يُفْتَضَضْنَ مِنَ الأعالي ... إذا افْتُضَّتْ من السُّفل العَذَارِي
وَأَمْسَتْ تُنْتِجُ الأضواءَ حتّى ... تُلقّح في ذوائبها بِنَارِ
كواكبُ لَسْنَ عنك بِآفِلاَتٍ ... إذا ما أشْرَقتْ شَمْسُ العُقارِ[1]
بَعثْتُ بها إلى مَلِكٍ كريمٍ ... شريفِ الأصل مَحْمُودِ النِّجارِ[2]
فَأَهْدَيْتُ الضياءَ بها إلى مَنْ ... مَحَاسِنهُ تُضِيءُ لِكُلِّ سَارِي

وقال:

يَشْقَى الفتى بخلافِ كلّ مُعانِدٍ ... يُؤْذِيه حتّى بالقَذَى في مائِه
يَقْذَى إذا أصغى الإناء لِشُرْبِهِ ... وَيروغُ عنه عِنْدَ سَكْبِ إنائِهِ[3]

وقال:

أُطالِبُ أيامي بإنجازِ مَوْعِدي ... وَهَا هِيَ تلوي بالوفاء وَتَجْمَحُ[4]
أَقولُ عَسَاها أن تلِينَ لِمَطْلَبي ... قليلاً فَبعْضُ الشَّوْكِ بالمنِّ يَسْمَحُ

وقال:

أرى وِصَالَك لا يَصْفُو لآمِلِهِ ... وَالهجرُ يتبعهُ رَكْضاً على الأَثَرِ
كالقوس أقربُ سَهْمَيْهَا إذا عَطَفتْ ... عليه أَبعدُها من مَنْزَعِ الوَتَرِ

لابن الرومي يذكر متلوناً

أخذ هذا من قول ابن الرومي وذكر رجلاً متلوناً:[5]

---

(١) العُقارُ: الخمر.
(٢) النجارُ: الأصل والحسب.
(٣) أصغى الإناء: أماله.
(٤) لوى عن الأمر: تثاقل، ولوى فلاناً دينه وبدينه ليًّا وَلياناً: مَطَلَهُ.
(٥) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ٢٦٣.

رَأَيْتُكَ بَيْنَا أَنْتَ خِلٌّ وصَاحِبٌ إذا بِكَ قَدْ وَلَّيتنا ثَانِياً عِطْفَا[١]
وَأَنَّكَ إِذْ أُحْني حُنوّكَ مُوجِبٌ بِعاداً لِمَنْ بَادلتهُ الودَّ واللُّطْفَا[٢]
لَكَالقَوْسِ أَحْنَى ما تَكُونُ إذا انحنَتْ على السهمِ أنأى ما تَكُونُ له قَذْفا[٣]

وله في نحو ذلك:[٤]

تَوَدَّدْتُ حتى لم أجِدْ مُتَودَّداً وَأَتْعَبْتُ أقلامي عِتَاباً مُرَدَّدا[٥]
كأنيَ أستدعي لَكَ ابْنَ حَنِيَّةٍ إذا النَّزْعُ أَدْناهُ من الصدرِ أبْعَدَا[٦]

[في وصف أبي الفضل الميكالي]

وذكر عمر بن علي بن محمد المطوعي أبا الفضل الميكالي في كتاب ألَّفه في منظومه ومنثوره فقال: قد أصبحتْ حضرتُه ـ لا زالتْ أرِجَةَ الأرجَاءِ بطيبِ شمائله، راضية الرضا عن صَوْبِ أنامله ـ مَوْسِمَ الآمالِ، ومحط الرحال؛ وعَبَدَهُ أحرار الكلام، كما خدمَتْهُ أحرارُ الأيام، وأطاعته المعاني والمعالي، كما أطاعه صَرْفُ الأيام والليالي، فهو ـ أدامَ اللهُ تمكينَه ـ شهابُ المجدِ الذي لا يخبُو واقده، ورَوْض الكرم الذي لا يجدب رائدُه؛ إن أردْتَ البلاغةَ فهو مَالكُ عنانها، وفارسُ ميدانها، وناظم دُرِّها ومرجانها، وصائغ لُجَيْنِها وعِقْيَانِها؛ وإن أردت السماحةَ فهو محلُّها ومكانُها، وتاريخُها وعنوانُها، ويدُها ولسانُها، وحَدَقَتُها وإنسانها، وحديقتُها وبُستانُها؛ وإن أردت شرف الأصل والنسب، والجمعَ بين الموروث [من المجد] والمُكْتَسب، فناهيك بأوائله شرفاً سابقاً، وفضلاً باسقاً، ومجداً في فلك الفخر سامقاً[٧]؛ فهم الجَحَاجِحَةُ الغُرّ[٨]، والكواكب الزُّهر، ومن بهم يفتخِرُ الفخر، ويتشرّف الدهر، زحموا

---

(١) في الديوان: «إذا أَنْتَ قَدْ وَلَّيْتَنا». وثنى عطفه: ولى متبختراً.
(٢) في الديوان: «لمن باذلته الودّ والعطفا».
(٣) في الديوان: «إذا حَنَتْ».
(٤) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ٢٧٣.
(٥) في الديوان: «وأمللت أقلامي».
(٦) في الديوان:
كأنّي أَسْتَدْنِي بِكَ ابنَ حَنِيَّةٍ إذا النَّزْعُ أَدناه إلى الصَّدْرِ أَبعدا
وابن الحَنِيَّة: القوس.
(٧) سامقٌ: عالٍ شديد العلوّ.
(٨) الجحاجحة: جمع الجحجاح، وهو السيد السمح الكريم.

مناكبَ الكواكب من بُعْد أقدارهم، وصكوا فَرْقَ الفرقد وصَدْرَ البَدْر بشرف أخطارهم، فما فيهم إلا قمر فَضْلٍ دارَ في فَلَكِ علم، وَهِلالَ مجدٍ لاح في سماء فَهْم، توارثُوا المجد كابراً عن كابر، وباقياً عن غابر، وسافرت أخبارهم في البُعْد والقُرْب. وطارت في أقاصي الشرقِ والغَرْبِ، وسارَتْ مَسِيرَ الشمس في كلِّ بلد، وهبَّتْ هبوبَ الريح في البر والبحر، فهم كما قال أبو عبادة البحتري في الشاه بن ميكال وأهله فأحسن وأجاد وبلغ ما أراد:[١]

بَني أَحْوَذِيٍّ يَغْمُرُ الطَّرفَ مُوفِياً ... بِبَسْطَتِه والسيفُ وَافِي الحَمائلِ[٢]
تَضيقُ الدروعُ التُّبَّعِياتُ منهمُ ... على كل رَحْبِ الباع سَبْطِ الأناملِ[٣]
عُراعر قومٍ يسكنُ الثغرُ إن مَشَوْا ... على أَرَضِه والثغرُ جمّ الزلازلِ[٤]
فَكَمْ فيهمُ من مُنْعِم مُتطوِّلٍ ... بآلائِهِ أو مُشْرِفٍ مُتَطاوِلِ
إذا سُئلوا جادَتْ سيوفُ أكفّهم ... [نظائر جماتِ التلاع السوائلِ[٥]
خَلِيقونَ سَرْواً أن تُلِين أكفّهم] ... عَرائِكَ أحداثِ الزمان الجلائلِ[٦]
وَما زالَ لَحْظُ الراغبين مُعلّقاً ... إلى قَمرٍ فيهم رَفيعِ المَنازِلِ[٧]

وفيه، أو في أبيه، يقولُ أبو سعيد أحمد بن شبيب:

وإلى الأمير ابن الأمير تَواهَقَتْ ... رَوْحى الركاب برَازِحي الركَّابِ[٨]
شِيمٌ أرَقُّ من الهواءِ بل الهوَى ... وألَذُّ من ظَفَرٍ بِعُقْبِ ضِرَابِ

---

(١) البحتري، الديوان: ٢/ ٢٦٩.
(٢) الأحوذي: الحاذق، السريع في كل ما أخذ فيه. وفي الديوان: «يغمر السيف».
(٣) تُبَّعِيَّاتٌ: نسبة إلى التابعة ملوك اليمن. وسبط الأصابع: طويلها.
(٤) العُراعر: الشريف، وجمعه عَراعِر (بفتح أوله).
(٥) في الديوان:

إذا سُئِلوا جاءَتْ سُيوبُ أَكُفِّهِمْ ... تُطايرُ جُمَّاتِ التلاع السَّوائِلِ

والسيوب: جمع سَيْب، وهو العطاء. والتلاع: جمع تلعة، وهي ما ارتفع من الأرض، أو مسيل الماء من أعلى إلى أسفل.
(٦) في الديوان: «خليقون سَرْوا أن تُلين أكفهم». والعرائك: جمع عريكة، وهي الطبيعة والنفس، أو السنام، ويقال: هو ليّن العريكة: سهل منقاد، وهو شديد العريكة: أبيّ شديد النفس.
(٧) في الديوان: «إلى قمرٍ منهم».
(٨) تواهقت: تبارت ومدّت أعناقها في سيرها، والرزحى: الساقطة تعباً وهزالاً.

وَعــزائــمٌ لــو كُــنَّ يَــومــاً أَسْهُمــاً لَنَفَــذْنَ فــي الأيــام غَيْــرَ نَــوَابِ[١]
مــائيــةُ الجــرَيــانِ إلا أنَّهــا نــاريَّــةُ الإقْــدَامِ والإلهــابِ
يَخْطُــرْنَ بيــنَ سِيَــاســةٍ ورِيَــاسَــةٍ وَيَتِهْــنَ بيــن مَثُــوبَــةٍ وعقَــابِ

[ابن أبي دواد بين يدَي الواثق]

قال أبو عبد اللَّه بن حمدون النديم: لقد رأيت الملوك في مقاصيرها، ومجامع حفلها، فما رأيت أغزر أدباً من الواثق؛ خرج علينا ذات يوم وهو يقول: لقد عرض عرضة من عرضه لقول الخزاعي، يريد دِعْبِلاً:

خَليلَــيَّ مــاذا أرتجــي مــن أمــرىءٍ طَوَى الكَشْحَ عَنِّي اليومَ وهو مَكينُ[٢]
وَإنَّ امــرأً قــد ضَــنّ عنــي بِمَنْطِــقٍ يَسُــدُّ بــهِ مِــن خَلّتــي لضنيــنُ

فانبرى أحمد بن أبي دُوَاد يسأله كأنما نَشِطَ من عِقَال في رجل من أهل اليمامة فَأَطْنب وأسهب، وذهب في القول كل مَذْهَب؛ فقال الواثق: يا أبا عبد اللَّه لقد أكثرتَ في غير كبير، ولا طَيّب، فقال: يا أمير المؤمنين، إنه صديقي:

وَأَهونُ ما يُعْطي الصديقُ صَديقَهُ مِـن الهيِّـنِ المَـوْجُـودِ أن يتكلّمـا

فقال: وما قَدر اليمامي أن يكون صديقك، وإنما أحسبه أن يكون من عرض معارفك؟. قال: يا أمير المؤمنين، إنه شهرني بالاستشفاع إليك، وجعلني بمرأى ومسمعٍ من الردِّ والإسعاف، فإذا لم أقم له هذا المقام أكون كما قال أميرُ المؤمنين آنفاً:

خليليَّ ماذا أرتجي من غِنَى امْرِىءٍ طَوى الكَشْحَ عني اليوم وَهْوَ مَكِينُ

فقال الواثق: بالله يا محمدُ بنَ عبد الملك إلاّ عجَّلْتَ لأبي عبد اللَّه حاجتَهُ، لِيَسْلَمَ من هُجْنَة المَطْل، كما سلم من هُجْنَةِ الرد[٣].

[من صفة ابن أبي دُواد، وأخباره]

وكان ابن أبي دُواد من أحسن الناس تأتّيا، وكان يقول: ربما أردت أن أسألَ أميرَ

---

(١) نواب: جمع ناب، وهو اسم فاعل من «نبا السيف والرمح» إذا حاد عن ضريبته.
(٢) طوى كشحه على الأمر: أضمره وستره، وطوى عنه كَشْحَه: تركه وأعرض عنه.
(٣) الهُجْنَةُ: العيب والقبح.

المؤمنين الحاجةَ بِحَضْرَة ابن الزيات فأؤخّر ذلك إلى وقت مغِيبه؛ لئلا يتعلَّم حُسنَ التلطُّف مني! وكان بينه وبين محمد بن عبد الملك عداوة عظيمة وأمر الواثقُ أصحابَه أن ينهضُوا قياماً لأبي جعفر إذا دَخل؛ ولم يرخِّص في ذلك لأحد، فاشتدَّ الأمرُ على ابن أبي دُواد، ولم يَجد لخلاف الواثق سبيلاً. فوكَّلَ بعض غلمانه بمراقبة موافاته، فإذا أقبل أخبره فنهض يركع، فقال ابن الزيات:

صَلَّى الضُّحَى لما استفادَ عَداوَتي ... وأَراه يَنْسُـكُ بَعـدَهـا وَيَصُـومُ[(١)]
لا تَعْـدَمـنّ عَـداوةً مَـوْسُـومـةً ... تَـركَتْـكَ تَقْعُـدُ بَعْـدَهـا وَتَقُـومُ

وقال الواثق يوماً لابن أبي دُواد تَضَجُّراً بكثرة حوائجه: قد أخلَيْتَ بيوتَ الأموال بطلباتك لِلآئذين بك، والمتوسّلين إليك. فقال: يا أمير المؤمنين، نتائج شكرها متَّصلة بك، وذخائرُها موصولة لك، وما لي من ذلك إلا عشق اتصال الألسن بخلودِ المدح، فقال: والله لا مَنَعْنَاكَ ما يزيدُ في عشقك، ويقوّي في همتك فينا ولنا؛ وأمر فأُخرج له خمسة وثلاثون ألف درهم.

[بين أبي العيناء وابن أبي دواد]

قال أبو العيناء: [قلت] لابن أبي دُواد: إنَّ قوماً من أهل البصرة قدموا إلى سُرَّ من رأى يداً عليّ، فقال: يَدُ اللهِ فوقَ أيديهم. فقلت: إنَّ لهم مَكْراً، فقال: ولا يحيقُ المكرُ السَّيِءُ إلاَّ بأهله، فقلت: إنَّهم كثير. قال: كم من فئةٍ قليلةٍ غلبَتْ فئةً كثيرةً بإذنِ الله والله مع الصابرين، فقلت: لله درُّ القاضي فهو كما قالت الصَّمُوتُ الكلابية:

لِلَّـــهِ دَرّك أي جُنَّـــةِ خَـــائــفٍ ... وَمتــاعِ دُنْيَــا أَنْــتَ لِلحــدثــانِ[(٢)]
مُتخمِّـطٌ يَطَـأُ الـرجـالَ شهـامـةً ... وَطْءَ الفَنيــقِ مَــدارِجَ القِــرْدَانِ[(٣)]
وَيكُبُّهـــمْ حتـــى تَظَـــلَّ رُؤُوسُهـــمْ ... مَــأْمُــومــةً تَنْحَــطُّ للغــربــانِ
وَيُفَــرّجُ البــابَ الشـديـدَ رِتـاجُـهُ ... حَتّــى يَصِيــرَ كــأَنَّــهُ بَــابَــانِ[(٤)]

---

(١) استفاد المال وغيره: حَصَّله، واقتناه.
(٢) الجُنَّةُ: السُّتْرة، وكلّ ما وقى من سلاح وغيره.
(٣) المُتخمط: المتكبر. الفنيق: الفحل المكرم من الإبل، الذي لا يركب، ولا يُهان لكرامته على أهله. والقردان: جمع قراد، يريد أنه يقهر الرجال ولا يأبه لهم.
(٤) الرّتاجُ: الباب، والمرتاج: المغلاق، وهو ما يُغْلق به الباب.

وكانت هذه المجاوبة بين أبي العيناء وبين أبي العلاء المنقري، وكان قد استجاش عليه قوماً من أهل البصرة.

قطعة من شعر الأعراب في الغزل

ابن ميادة:

ألا ليت شِعْري هَلْ يَحُلَّنَّ أَهْلُنَا وَأَهْلُكِ رَوْضَاتٍ بِبَطْنِ اللِّوَى خُضْرا[١]
وَهَلْ تَأتِيَنَّ الريحُ تَدْرُجُ مَوْهِناً بِرِيَّاكِ تَعْرَوْرَى بِنا بلداً قَفْرا[٢]
بِريح خُزامَى الرَّمْلِ باتَ مُعَانقاً فُروعَ الأقاحي تَنْضُبُ الطلّ وَالقَطْرا
ألا لَيْتَني ألقاكِ يَا أمّ جَحْدَرٍ قَريباً، فَأَمَّا الصَّبْرُ عَنْكِ فلا صَبْرا[٣]

وقال:

وما رَوْضَةٌ باتَ الربيعُ يَجودُها على ما بِها من حَنْوةٍ وعَرارِ[٤]
بأطيبَ من ريحِ القرنفلِ مَوهِناً بما ألتفَّ مِنْ دِرْعٍ لها وَخِمارِ

وقال آخر:

تُجالِسُنَا بنتُ الدّلالِ تَعلّقتْ عُراهُ بِحبّاتِ القلوبِ الهوائمِ
وَبيّن ما تُخْفِي من الوَجْد رَدّها غريق الأناسي في الدّموع السَّواجِمِ[٥]

---

(١) في الأغاني: «هل يحلنّ أهلها».

(٢) دَرَجَ دَرْجاً ودُرُوجاً، ودَرَجَاناً: مشى مشية الصاعد في الدرج، ودبَّ. ودرجت الريح: مرَّت مَرًّا هَيِّناً، أو أَسْفَتْ فتركت نمائم في الرمل. والموهن: نحوٌ من نصف الليل، أو بعد ساعة منه. وفي الأغاني: «فهل تأتينّ الريح»، و«جَرَعاً عُفرًا». وتعروري: تركب، يقال: أعروري الفرس أو البعير: ركبه عرياً، قال تأبط شرًّا:

يَظَلُّ بِمَوْماةٍ ويُمْسي بِغَيْرِها جحيشاً ويَعْرَوْرِي ظُهورَ المَهالِكِ

(٣) في الأغاني:

ألا ليت شعري هل إلى أم جَحْدَرٍ سَبيلٌ فَأَمَّا الصَّبْرُ عَنْها فلا صَبْرَا

وأم جحدر: هي أم جحدر بنت حسّان المُريّة، إحدى نساء بني جذيمة، وكان ابن ميادة ينسب بها، فحلف أبوها ليخرجنّها إلى رجل من غير عشيرته، ولا يُزوجها بنجد، فقدم عليه رجل من الشام، فزوجه إياها، فلقي عليها ابن ميادة شدّة ونصب. (الأصفهاني، الأغاني: ٢/ ٢٣٧).

(٤) يجودها: يمطرها. الحنوة: الريحانة. العرار: ورد أصفر ذو رائحة طيبة.

(٥) الأناسي: جمع إنسان، وهو من العين ناظرها (سوادها).

جَرَى الدمعُ مَجْرَى مائِه فَكَفَفْنَهُ ... بِعُنَّابِ أطرافِ الأكفّ النواعمِ
وَردّ التحياتِ الهوَى من عُيونها ... بيَقْظانِ طَرْفٍ في مَخيلةِ نائمِ

وقال العلاء بن موسى الجهني:

وَلما رأتني مُخْطِراً شَوْكةَ العِدَى ... رَدى النَّفْسِ مُجْتَاباً إلى غير مَوْعِدِ
جَلَتْ داجِيَ الظلماءِ منها بِسُنَّةٍ ... وَنحرٍ مَشُوبٍ لَوْنُهُ بالزَّبَرْجَدِ[١]
وَبِالشَّذر مَسْبوكاً كأن ٱلتهَابَهُ ... تلهُّبُ جَمْرِ الفَرْقَدِ المُتوقّدِ[٢]
وَجاءت كَسَلّ السيفِ لو مرّ مشيُها ... على البيضِ أمسَى سَالماً لم يُخَضَّدِ[٣]
فَبِتْنَا ولم نَكْذِبْكَ لو أنَّ ليلنا ... إلى الحَوْلِ لم نَمْلَلْ وَقُلْنَا له ازْدَدِ
نَذُودُ النفوسَ الصادياتِ عن الهوى ... ذِيَاداً وَنَسْقِيهنّ سَقْيَ المُصَرَّدِ[٤]
فَلمَّا بَدا ضَوْءُ الصباحِ وَراعَنَا ... مع الصُّبْح صَوتُ الهاتفِ المُتَشهّدِ[٥]
نَهَضْنا بِشَخْصٍ واحدٍ في عُيونهم ... نَطَا في حَواشي الأتحميّ المُعضَّدِ[٦]
إلى جنَّةٍ منهم وسَلّمتُ غاديا ... عليها سلامَ الباكرِ المُتزوّدِ
وَولّت وَأَغباشُ الدُّجى مُرْجَحِنةٌ ... تَأطّر غُصْنِ البانةِ المتأوّدِ[٧]

وقال أعرابي من طيء:

وَأَحْوَرَ يصطادُ القلوبَ وما لهُ ... من الريشِ إلاّ زَعْفَرانٌ وإثْمِدُ
وما كُنْتُ أخشى الفَتكَ مِمَّن سِلاحُهُ ... سِوارٌ وخَلخَالٌ وطَوْقٌ مُنضَّدُ
وَأَشْنَبُ برَّاق الثنايا غُرويُهُ ... من البَرَدِ الوَسْمِيّ أصْفَى وأبرَدُ[٨]

---

(١) داجي الظلماء: سواد الليل. السُّنَّةُ: الجبين.
(٢) الشذر: حبات صغار من الذهب أو اللؤلؤ، والمراد عقدها.
(٣) خضد الشيء: كسره من غير فصل.
(٤) سقي المصرّد: يقال: صرّد فلاناً: سقاه أقلّ مما يحتاج إليه، وصَرَّد شُرْبَهُ: تناوله جرعات متفرقة.
(٥) الهاتف المتشهد: المؤذن، لأنه يأتي في أذانه بالشهادتين.
(٦) نطا: يقال: نطت المرأة غَزْلَها: سَدَّتْهُ.
(٧) أغباش: جمع غُبْشَة، وهي ظلمة آخر الليل، مُرْجَحِنَّةٌ: اسم فاعل من ارجحنَّ إذا ثَقُل ومال واهتزّ.
(٨) أشنب: أي ثغر أشنب، وقد شنب الثغر: رقّت أسنانه وابيضت. وغروب الأسنان: مناقع ريقها، وقيل: أطرافها وحدتها وماؤها، قال عنترة بن شداد:

إذ تَسْتَبِيكَ بذي غُروبٍ واضحٍ ... عَذْبٍ مُقبّلُهُ لَذيذِ المَطْعَمِ

(ديوانه: ١٧) وواحد الغُروب: غَرْبٌ.

خَليلــيّ بــاللَّــه اَقْعُــدا فتبَيَّنـا وَميضاً نـرى الظلماءَ منه تَقَـدّدُ[١]
يُكَشِّـفُ أعـراضَ السحـابِ كـأنـهُ صَفيحـةُ هِنْـدِيٍّ تُسَـلّ وتُغْمَـدُ[٢]
فَبـتّ علـى الأجبـال ليـلاً أشيمُـهُ أقـومُ لـه حتـى الصبـاحِ وأقعـدُ[٣]

هذا في البرق كقول الطرماح في الثور:

يَبْـدُو وَتُضْمِـرُه البـلادُ كـأنـهُ سَيْفٌ على شَرَفٍ يُسلّ ويُغْمَدُ[٤]

[زيارة طيف الخيال]

وقال بشار:[٥]

أَعْـدَدْتِ لـي عَتْبـاً بِحُبِّكُـم يـا عَبْـدُ طَـالَ بِحُبّكـم عَتْبـي[٦]
وَلقـدْ تعـرَّضَ لـي خَيـالُكُـمُ فـي القُـرْطِ والخَلْخَـالِ والقُلْـبِ[٧]
فَشـرِبْـتُ غَيْـرَ مُبـاشـرٍ حَـرجـاً بِـرُضـابِ أشنـبَ بـاردٍ عَـذْبِ[٨]

وقال المتنبي:[٩]

بِتَنَـا يُنَـاولنـا المُـدَامَ بكَفّـهِ مَنْ ليس يَخْطُرُ أَنْ نَـراهُ بِبَـالِـهِ[١٠]

---

(١) تَقَدّد الشيء: تَشقّق، أو يبس.
(٢) صفيحة هندي: أي سيف هندي، لقوله: تُسلّ وتغمد.
(٣) الأجبال: جمع جبل، وهو ما علا من سطح الأرض واستطال وجاوز التلّ ارتفاعاً. وشام البرق والسحاب: نظر إليه يتحقق أين يكون مطره.
(٤) البيت في العمدة في محاسن الشعر: ١/ ٢٩١.
(٥) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ٢٢.
(٦) العَتَبُ (بالتحريك): الشدة في المكروه، والعَتْبُ (بتسكين التاء): اللوم والموجدة.
(٧) الخيال: الطيف. القرط: حلي يعلق في الأذن. الخلخال: حلي الساقين، يلبس تحت الكعبين، من ذهب أو فضة. والقُلْبُ: سوار يشبه الحيّة.
(٨) الحرج: الإثم. وباشر الأمر: وليه بنفسه. والرضاب: الريق. وأشنب: أي ثغر أشنب، وهو البراق، اللمّاع، العذب الماء.
(٩) المتنبي، الديوان: ٢/ ٣٧. والبيتان من قصيدة يمدح بها سيف الدولة الحمداني.
(١٠) يصف ما رآه في الحلم من طيف حبيه فيقول: رأيناه يناولنا الشراب بكفه، وهو لا يجري في خاطره أن نراه للبعد الذي بيننا.

نَجْني الكَواكِبَ مِنْ قَلائِدِ جِيدِهِ وَننالُ عَيْنَ الشمسِ مِنْ خَلْخَالِهِ[(١)]

وأول شعر أبي الطيب:

لا الحُلْمُ جادَ بِهِ ولا بِمِثَالِهِ لَوْلاَ ادِّكارُ وَدَاعِهِ وَزِيالِهِ[(٢)]
إنَّ المُعيدَ لنا المَنامُ خَيالَهُ كانَتْ إعادَتُه خَيالَ خَيالِهِ[(٣)]
إني لأُبْغِضُ طَيْفَ مَن أَحْبَبْتُهُ إذ كان يَهْجُرُنا زَمانَ وِصالِهِ[(٤)]

يقول: التمثيل والتخيل له في اليقظة أعاد خياله في المنام، فكأن الخيالَ الذي في النوم تصوّر في اليقظة. وأظْهَرُ من هذا قول الطائي:[(٥)]

زارَ الخيالُ لها لا بَلْ أَزارَكَهُ فِكْرٌ إذا نام فِكْرُ الخلقِ لم يَنَمِ
ظَبْيٌ تَقنَّصْتَهُ لما نَصَبْتَ لهُ في آخر الليل أشراكاً مِنَ الحلمِ

أما بيته الأول فمن قول جميل:[(٦)]

حَيِّيتُ طَيْفَكِ من طَيْفٍ أَلَمّ به حَدّثتِ نَفْسَكِ عَنْهُ وَهْوَ مشغولُ

وقال ذو الرمة:

نَأتْ دَارُ مَيّ أن تُزَار، وَزَوْرُهَا إذا ما دُجا الإظلامُ منا وَساوِسُ[(٧)]
إذا نَحْنُ عَرَّسنا بأرضٍ سَرَى لنا هَوًى لَبَّسَتْهُ بالقلوبِ اللوابِسُ[(٨)]

---

(١) أي: كنا نراه مُجالساً لنا حتى نمسّ قلائده، وننال خلخاله، مع أنهما كالكواكب والشمس في البعد.
(٢) المثال: الصورة. والزيال: المبارحة. يقول: لولا استدامة هذا التذكر ما جاد عليَّ الحلم بمرأى خياله، ولا خيال صورته.
(٣) يقول: إن الحبيب الذي أعاد لنا المنام خياله، فرأيناه في الحلم، إنما أعاد لنا خيال صورته التي كنا نمثلها في اليقظة، فنحن إنما نرى خيال خياله.
(٤) يقول: إنه يكره طيف محبوبه لأنه كلما واصله الطيف كان المحبوب هاجراً، فوصاله مترتبٌ على هجر المحبوب.
(٥) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٩٤. والبيتان من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق التغلبي.
(٦) لم نجد هذا البيت في ديوانه (دار صادر).
(٧) وفي رواية: «إلى صحبتي بالليل هاد مواعسُ».
(٨) عرَّسنا: نزلنا ليلاً. سرى: سار ليلاً. ولبسته: خلطته.

وبيته الثاني ألمَّ فيه بقول قيس بن الملوَّح:

وإنـي لأستَغْشِـي ومـا بـيَ نَعْسَـةٌ   لعـلَّ خيـالاً منـكِ يَلْقَـى خيـاليـا[١]
وَأخـرجُ من بيـن الجـلـوس لَـعلَّـنـي   أُحدِّثُ عنكِ النفسَ في السرِّ خاليا[٢]
تَـقَطَّـعُ أنفـاسـي لِـذكـرِكِ أَنفـساً   يَـرِدْنَ فمـا يَـرْجِعْـنَ إلا صَـوادِيـا

وقد قال فيه قيس بن ذريح:[٣]

وَإنـي لأهْـوَى النـومَ فـي غيـر نَعْسَـةٍ   لَعَـلَّ لقـاءً فـي المنـامِ يَكـونُ
تُخبِّـرنـي الأحـلامُ أنـي أراكُـمُ   فيـا لَيْـتَ أحـلامَ المنـامِ يَقيـنُ

وكان البحتري أكثرَ الناس إبداعاً في الخيال، حتى صار لاشتهارِه مثلاً يقال له «خيال البحتري»، وفي بعض ذلك يقول:[٤]

أَلَمَّـتْ بنـا بَعْـدَ الهـدوّ، فَسـامَحَـتْ   بِوَصْلٍ متى تَطْلُبْهُ في الجـدّ تُمْنَعِ
فما بَرِحَتْ حتى مَضى الليلُ وانقضَى   وأَعْجَلهـا دَاعِـي الصبـاحِ المُلمّـعِ
فَـولَّـتْ كـأنَّ البيـنَ يَخْلِـجُ شَخْصَهـا   أوانَ تَولَّتْ مِنْ حَشايَ وأَضْلُعِي[٥]

وقال:[٦]

سَقَى الغيثُ أجزاعاً عَهِدْتُ بِجوّها   غـزالاً تُـراعيـه الجـآذِرُ أَغْيَـدا[٧]

---

(١) أستغشي: أطلب النعاس، فأتمطى لأنام.

(٢) وفي رواية:
وأخـرجُ مِـن بَيْـنِ البُيـوتِ لَعلّنـي   أُحـدِّثُ عَنْـكِ النَّفْـسَ بـالليـلِ خـاليـا
(ديوانه: ص ١٢٧).

(٣) هو قيس بن ذريح، من بني بكر بن عبد مناة من كنانة: شاعر من العشاق المتيمين، نشأ في المدينة، واشتهر بحب لبنى بنت الحباب الكعبية، ومعظم شعره فيها. ويقال: إن لبنى ماتت حزناً وغمًّا، فمات قيس أسفاً عليها، ودفن إلى جانبها في المدينة سنة ٦٨ هـ/ ٦٨٨ م. (الأصفهاني، الأغاني: ٩/ ١٧٤؛ زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية: ١/ ٢٩١؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ١/ ١٩٤).

(٤) البحتري، الديوان: ١/ ١٠٣. والأبيات من قصيدة يمدح بها الفتح بن خاقان وزير المتوكل العباسي.

(٥) يخلج شخصها: يجذبه وينزعه.

(٦) البحتري، الديوان: ١/ ١٥٣. والأبيات من قصيدة يمدح بها المعتز بالله العباسي.

(٧) الأجزاع: جمع جزع، وهو منعطف الوادي. الجآذر: جمع جؤذر، وهو ولد البقرة الوحشية. الأغيد: المائل العنق، الليّن الأعطاف.

إذا مـا الكـرى أهـدى إلـيَّ خيـالَـهُ شَفَى قُـرْبُه التَّبْريحَ أو نَقَع الصدى[١]
فلـم نَـرَ مِثْلَيْنـا ولا مِثْـلَ شـأننـا نُعَـذَّبُ أيقـاظـاً وَنَنْعَـمُ هُجَّـداً[٢]

وقال: [٣]

بلـى وخَيـالٍ مـن أُثَيْلـة كُلَّمـا تأَوَّهْتُ من وَجْدي تَعَرَّضَ يُطْمِعُ[٤]
يُري مُقلتي ما لاَ ترى من لقائِهِ وَتسمع أذني رَجْعَ ما ليس تَسْمَعُ
[ويكفيك من حَقٍّ تَخيُّلُ باطلٍ تُـرَدُّ بـه نَفْـسُ اللهيـفِ فتَـرْجِـعُ]

قوله في البيت الأخير من قول الحسين بن الضحاك:

ومَـاذا يفيـدكَ طيـفُ الخيـا لِ والهَجْـرُ حظّـك مِمَّـنْ تُحِـبْ
غَنـاءٌ قليـلٌ، ولكننـي تَمَلّيتُـه بقنـوعِ المُحِـبْ

وللحسين في هذا المعنى وإن لم يكن في ذِكْرِ الخيال:

وَصفَ البَدْرُ حُسْنَ وَجْهِكَ حتّى خِلْتُ أنـي، ومـا أراكَ، أراكَـا
وإذا مـا تنفّـس النـرجسُ الْغَضُّ تَـوهَمْتُـهُ نسيـمَ حَنَـاكَـا
خُـدَعٌ لِلمُنَـى تُعَلِّلُنـي فيـ ـكَ بإشراقِ ذَا ونكْهَـةِ ذَاكَـا[٥]

وأول من طرد الخيالَ طَرفة بن العبد، فقال: [٦]

فَقُـلْ لِخيـالِ الحنظليـةِ يَنْقَلِـبْ إليها فإني وَاصِلٌ حَبْلَ مَنْ وَصَلْ[٧]

فتبعه جرير في قوله فقال: [٨]

طَـرقَتْكَ صـائـدةُ القلوبِ وَلَيْسَ ذا حِيـنُ الـزيـارةِ فَـارْجِعـي بِسَـلام

(١) نقع الصدى: بَلَّ العطش.
(٢) الهُجَّدُ: النائمون.
(٣) البحتري، الديوان: ١/٣٤٥. والأبيات من قصيدة يمدح بها أبا عيسى بن صاعد.
(٤) في الديوان: «وخيالٍ من قَتِيلةَ» و«تأوهت من وَجْدٍ».
(٥) النكهة: أصلها ريح الفم.
(٦) طرفة بن العبد، الديوان: ٧٥.
(٧) الحنظلية: امرأة منسوبة إلى بني حنظلة، وهم من تميم.
(٨) جرير بن الخطفى، الديوان: ص ٤٥٢. والبيت من قصيدة يجيب بها الفرزدق.

قال البحتري، ونفى هذا المعنى بقوله:[١]

قَدْ كانَ مني الوَجْدُ غِبَّ تذكّرٍ إذ كانَ منكِ الصدُّ غِبّ تَنَاسي[٢]
تَجْري دُموعي حين دَمْعُكِ جَامِدٌ وَيَلِينُ قلبي حين قَلْبُكِ قاسي
ما قُلْتُ للطيفِ المُسَلِّمِ لا تَعُدْ تَغْشى، ولا نَهْنَهْتُ حَامِلَ كاسي[٣]

وقال ابن هانىء الأندلسي:

ألا طَرَقَتْنَا والنُّجومُ رُكُودُ وفي الحيِّ أيقاظٌ ونحنُ هُجُودُ[٤]
وَقد أَعجلَ الفجرُ الملمّعُ خَطْوَها وفي أُخرياتِ الليلِ منه عَمُودُ
سَرَتْ عاطِلا غَضْبَى على الدرّ وَحْدَهُ فَلَمْ يَدْرِ نَحْرٌ ما دَهاهُ وَجيدُ[٥]
فما بَرِحتْ إلا وَمِنْ سِلْكِ أَدمُعِي قَلائدُ في لَبَّاتِها وَعُقودُ[٦]
ألم يَأْتِها أنّا كبرنا عن الصِّبا وَأَنَّا بَلينا والزمانُ جَديدُ

وقال عليّ بن محمد الإيادي:

أما إنه لَوْلا الخيالُ المُراجِعُ وَعاصٍ يُرَى في النوم وَهْوَ مُطاوِعُ
لأَشْفَقَ وَاسْتَحْيَا من النومِ وَالِهٌ يُرى بعد رَوْعاتِ الهوى وَهْوَ هاجِعُ

وقال أيضاً:

طَيْفٌ يَزورُكَ من حبيبٍ هاجرِ أهْلاً به وَبطيفِهِ مِنْ زَائرِ
شَقَّ الدجى وسَرَى فأمْعَن في السّرى حتى ألمَّ فباتَ بين مَحاجِري
يَغْدُو به هَيَفُ القوام المثني نَحْوي وَسالفةُ الغزال النافرِ
للَّهِ دَرُّكَ مِنْ خيالٍ واصلٍ أَسْرَى فأنصفَ من حَبيبٍ هاجرِ
عَلَّلْتَ عِلَّةَ قَلْبِ صَبّ هائمٍ وَقضيْتَ ذِمَّةَ فَيْضِ دَمْعٍ قاطرِ

---

(١) البحتري، الديوان: ١/ ٤٣٥. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا الحسن بن عبد الملك.
(٢) في الديوان:
قد كانَ مني الحُزْنُ غِبَّ تَذكُّرٍ إذ كانَ منكِ الصَّبْرُ غِبَّ تناسِ
(٣) في الديوان: «ولا كَفْكَفْتُ حَامِلَ كاسٍ». ونهنه فلاناً عن الشيء: كفه عنه وزجره.
(٤) هجود: نيام.
(٥) عطلت المرأة: خلت من الحلي، فهي عاطل، والجمع عواطل.
(٦) اللبّاتُ: جمع لبّة، وهي موضع القلادة من العنق.

وقال عبد الكريم بن إبراهيم:

لـم أدْرِ مَغْنَاك لـولا المِسْكُ والقُطْرُ وزَوْرَة لِمُلِـمٍّ عَهْـدُه عَفَـرُ[١]
سَـرى يعـارضُ أنفـاسَ الـرياح بمـا تَحمَّـرَ الـوردُ مِنْـه وانتشـى الـزَّهَـرُ
يُخْفي بثوبِ الدُّجَى مَسْرَاهُ مُستتِراً وَمَـنْ تَـقَنَّـع صُبْحـاً كيـفَ يَسْتَتِـرُ
كـأنَّ أعيـنَ واشِيـهِ تُـرَاقِبُـهُ فيـه فَيـدْمِـجُ أخبـارِي فَيَخْتَصِـرُ

وقال:

أهـلاً بـهِ مِـنْ زائـرٍ مُعْتَـادِ والليـلُ يـرفـلُ فـي ثِيَـابِ حِـدَادِ[٢]
يَتجـاوزُ الـرايـاتِ يخفـقُ ظلهـا وَيشـقُّ ملتـفَّ القَنَـا المُنْـآدِ
أنَّى اهتدَى في ظِلِّ أخضر مُغْدِفٍ حتـى تيمَّـم بـالعَـرَاءِ وِسَـادي[٣]
بـأرقَّ مـن كبـدِ المتيّـم مقـدمـاً في حيث ينبو الحارثُ بن عُبَادِ[٤]
مُعتـادةً أَمِنَـتْ نَمـائِـمَ حَلْيِهـا وَالحلـيُ نمَّـامٌ علـى العُـوَّادِ[٥]
وَكـأنَّمـا يـاقُـوتُهـا فـي نَحْـرِهـا مُتَـوقّـدٌ ممـا يُجِـنُّ فُـؤَادي[٦]

[عقال بن شبة بين يدي المنصور]

خطب صالح بن أبي جعفر المنصور في بعض الأمر فأحسن، فأراد المنصورُ أن يقرظه ويثني عليه، فلم يجسر أحد على ذلك لمكان المهدي، وكان مرشحاً للخلافة، وخافوا ألا يقع الثناء على أخيه بموافقته، فقام عقال بن شبَّة، فقال: ما رأيت أبين بياناً، ولا أفصح لساناً، ولا أحسن طريقاً، ولا أغمض عروقاً، من خطيب قام بحضرتك يا أمير المؤمنين، وحُقَّ لمن كان أميرُ المؤمنين أباه، والمهدي أخاه، أن يكون كما قال زهير:[٧]

---

(١) العَفَرُ: وجه الأرض، والتراب، وأول سقية يُسْقاها الزرع. وفي رواية: «الملمِ عنده خَفَرُ». والخفر: الحياء.
(٢) يرفل في ثياب حداد: أراد أنه أسود شديد السواد.
(٣) أغدق الليل: أرخى ستوره.
(٤) الحارث بن عباد: هو فارس النعامة الذي اعتزل حرب البسوس حتى قتل المهلهل بن ربيعة ابنه.
(٥) العُوَّادُ: الزائرون.
(٦) يجنّ: يستر، يخفي.
(٧) زهير بن أبي سلمى، الديوان: ص ٤٢. والأبيات من قصيدة يمدح بها هرماً وأباه وإخوته.

يَطْلُبُ شأْوَ امْرَأَيْنِ قَدَّما حَسَناً بزّا المُلوكَ وبزّا هذه السُّوقَا[١]
هُوَ الجوادُ فإن يَلْحَقْ بشَأْوِهِمَا على تَكاليفِه فَمِثْلُه لَحِقا[٢]
أو يَسْبِقاهُ على ما كان من مَهَلٍ فَبِالذي قَدَّمَا من صالحٍ سَبَقا[٣]

فعجب الناسُ من حُسْن تخلصه، فقال أبو جعفر: لا ينصرف التميمي إلا بثلاثين ألفاً.

قال أبو عبد الله كاتبُ المهدي: ما رأيت مثل عقال قط في بلاغته؛ [مدح الغلام، و] أرْضَى المنصور، وسَلِم من المهدي.

[زهير وهرم بن سنان]

وفي قصيدة زهير هذه يمدح هرم بن سنان بن أبي حارثة المري:

قَدْ جَعلَ المُبْتَغُونَ الخَيْرَ في هَرِمٍ والسائلون إلى أبوابه طُرُقا
من يَلْقَ يوماً على عِلاَّتِه هَرِماً يَلْقَ السماحةَ منه والندَى خُلُقا[٤]
وَلَيْسَ مانعَ ذي قُرْبى وذي رَحِمٍ يوماً ولا مُعْدِماً من خابطٍ وَرَقا[٥]
لَيْثٌ بعثَّر يَصْطَادُ الرجالَ، إذا ما الليثُ كذَّبَ عن أقرانِه صَدَقا[٦]
يَطْعَنُهم ما ارتموا حتى إذا اطَّعَنُوا ضَارَبَ حتى إذا ما ضَارَبُوا اعْتَنَقا[٧]

---

(١) بَزَّا الملوك: فاقاها. وفي الديوان: «نالا الملوك». والشأو: الطلق من الجري، والغاية. وأراد بالمرأين: أباه وجده. والسُّوَق: أوساط الناس. يقول: إن أبويه سبقا أوساط الناس، وفاقا الملوك، وهو يطلب سبقهما.

(٢) على تكاليفه: أي على ما يتكلف من الشدّة والمشقة.

(٣) في الديوان: «فَمِثْلُ ما قدّما».

(٤) في الديوان: «إنْ تَلْقَ يوماً». وعلى عِلاَّته: أي على قلة مال أو عدم. والسماحة: الجود والكرم، والسهولة واللين.

(٥) الخابط: طالب المعروف، وأصله الذي يخبط الشجر لينزل ورقه فيأخذه علفاً لماشيته. وقوله: «ولا معدماً من خابط» أي: ولا معدماً خابطاً و«من» زائدة لاستغراق الجنس. والورق هنا: المعروف. والمعدم: المانع.

(٦) في الديوان: «ما كذَّب الليثُ عن أقرانه صدقاً». ليثٌ بِعثّر: أي هو في الجرأة والإقدام كالليث: الأسد. عَثّر: موضع. والأقران: جمع قرن، وهو الصاحب أو الكفء في القتال.

(٧) يقول: إذا ارتمى الناس في الحرب بالنبل، دخل هو تحت الرمي فجعل يطاعنهم، فإذا تطاعنوا ضارب بالسيف، فإذا تضاربوا بالسيوف اعتنق قرنه والتزمه. يصف أنه يزيد عليهم في كل حال من أحوال الحرب.

فَضْلُ الجوادِ على الخيل البِطَاء فلا يُعْطِي بذلك مَمْنُوناً ولا نَزِقَا[1]
هذا وَلَيْسَ كَمَنْ يَعْيَا بِحُجَّتِهِ وَسْطَ النديّ إذا ما ناطقٌ نَطَقَا[2]
لو نال حيٌّ من الدنيا بِمَكْرُمَةٍ أُفْقَ السماءِ لَنالَتْ كَفُّهُ الأُفقَا

وكان زهيرٌ كثيرَ المدح لهرم، ويروى أن بنتاً لسنان بن أبي حارثة رأت بنتاً لزهير بن أبي سلمى في بعض المحافل، وإذا لها شارةٌ وحالٌ حسنة، فقالت: قد سرني ما أرى من هذه الشارة والنعمة عليك [فقالت: إنها منكم]. فقالت: بلى والله لك الفضل، أعطيناكم ما يَفْنَى، وأعطيتمونا ما يبقى!

وقد قيل: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لابنة هرم بن سنان: ما وهَب أبوك لزهير؟ قالت: أعطيناه مالاً وأثاثاً أفناه الدهر. قال: لكن ما أعطاكموه لا تُفْنِيه الدهور. وقد صدق عمر رضي الله عنه، لقد أبقى زهير لهم ما لا تفنيه الدهور، ولا تُخْلِقه العصور، ولا يزال به ذكر الممدوح سامياً، وشرفه باقياً، فقد صار ذكرهم عَلَماً منصوباً، ومثلاً مضروباً، قال الطائي، وذكرهم في شعره:[3]

ما لي ومَالكَ شِبْهٌ حين أذكرهُ إلا زُهيرٌ وقد أصْغَى له هَرِمُ

وقال يوسف الجوهري يمدح الحسن بن سَهْل:
لو أنَّ عَيْنَيْ زهيرٍ أبصرتْ حَسَنا وَكيْفَ يَصْنَعُ في أموالِهِ الكرمُ
إذن لَقَالَ زُهيرٌ حين يُبْصِرهُ هذا الجوادُ على العلاتِ لا هَرِمُ[4]

وقال آخر، ويدخل في باب تفضيل الشعر:
الشعرُ يَحفَظُ ما أَوْدَى الزمان بهِ والشعرُ أفضل ما يُجْنَى من الكرَمِ

---

(١) الجواد: الذي يجود بما عنده من الجري. الممنون: المقطوع. النزق: الذي يبطىء بعد الجري، والذي يعطي ثم يكفّ.
أراد أن ممدوحه فضل الناس فضل الجياد على البطاء من الخيل.
(٢) النديُّ: مجلس القوم.
امتدحه بالكرم، والجرأة، والبلاغة، وأنه لا يعيا بخطته في منتدى القوم.
(٣) أبو تمام، الديوان: ٢/٣٦٨. والبيت من قصيدة يعاتب بها محمد بن سعيد كاتب الحسن بن سهل.
(٤) في الديوان: «حِينَ أُنْشِدُهُ».

لـولا مقـالُ زهيـرٍ فـي قصـائـدهِ ما كـان يُعْـرَفُ جُـودٌ كـان من هَـرِمِ

وقيل: أعطى هرم [العطاء الجزيل] عوض قول زهير فيه:(١)

تـاللَّـه قـد علمـت سَـرَاةُ بنـي ذُبْيَـان عـامَ الْحَبْـسِ والأَصْـرِ(٢)
أنْ نِعْـمَ حَشْـوُ الـدِّرْعِ أنـت إذا دُعِيَـتْ نَـزَالِ وَلُـجَّ فـي الـذُّعْـرِ(٣)
حـامي الـذِّمـارِ على مُحَـافظـة الْـ ـجُلَّـى أميـنُ مُغيَّـبِ الصَّـدْرِ(٤)
حَـدِبٌ علـى المَوْلَـى الضَّـرِيكِ إذا ضـاقـت عليـه نـوائـبُ الـدَّهْـرِ(٥)
وَمُـرَهَّـقُ النيـران يُحْمَـدُ فـي الـ ـلأْوَاءِ غيـرُ مُلعَّـنِ القِـدْرِ(٦)
وَالستـرُ دونَ الفـاحشـاتِ، ومـا يلقـاكَ دونَ الخيـرِ مـن سِتْـرِ(٧)

وقال:(٨)

إن البخيـلَ ملـومٌ حيـثُ كـان ولَـ ـكنّ الجـوادَ على عِـلاَّتِـه هَـرِمُ(٩)
هُـوَ الكـريـمُ الـذي يُعطيـكَ نـائِلَـهُ عَفْـواً، ويُظْلَـم أحيـانـاً فَيَظَّلِـمُ(١٠)

---

(١) زهير بن أبي سلمى، الديوان: ص ٢٨.

(٢) السَّراةُ: جمع سريّ، وهو الشريف. الحبس: هو أن يحدق العدو بالقوم، فيحبسوا أموالهم ولا يخرجوها إلى الرعي خشية أن يغار عليهم. والأصر: كالحبس، والضيق وسوء الحال.

(٣) في الديوان: «ولنعم حشو الدرع أنت إذا». دعيت نزال: تداعى القوم بالنزول عن الخيل والتضارب بالسيوف حين اشتداد الحرب وتزاحم الأقران. لجّ في الذعر: تتابع الناس في الفزع.

(٤) الجُلَّى: النائبة الشديدة. على محافظة الجُلّى: أي لمحافظته على الجلى. والجلّى أيضاً: جماعة العشيرة. وحامي الذمار: أي يحمي ما يجب عليه أن يحميه من حرمه. وأمين مغيب الصدر: أي مؤتمن على ما يغيب في صدره ويضمره.

(٥) الحدبُ: المشفقُ. المولى: ابن العم. الضريك: المحتاج. وفي الديوان: «نابت عليه نوائب الدهر».

(٦) مرهق النيران: تغشى الضيفان نيرانه. واللأواء: الشدة. وغير مُلعَّن القِدْر: أي محمود القِدْر، لأنه لا يأكل ما في قدره وحده دون ضيفه وجاره واليتيم والمسكين.

(٧) يقول: بينه وبين الفاحشات ستر من الحياء وتقى الله، ولا ستر بينه وبين الخير.

(٨) زهير بن أبي سلمى، الديوان: ص ٩١.

(٩) على علاته: على ما ينوبه من قلة ذات يد وعوز.

(١٠) في الديوان: «هو الجواد». يعطي عفواً: بلا ملل ولا تعب. وقوله: ويظلم أحياناً: أي يطلب منه في غير موضع الطلب وغير وقته. يَظَّلِمُ: يحتمل هذا الظلم لجوده وكرمه.

وَإِنْ أتـاه خليـلٌ يَـوْمَ مسـألـةٍ   يقولُ: لا غائبٌ مَالِي ولا حَرِمُ[١]

الخليل: الذي أخلّ به الفقر؛ إلى غير ذلك من مُختارِ مدحه فيه.

[فضل الشعر]

ولما امتدح نُصَيْبٌ عبدَ اللَّه بن جَعفر رضي الله عنه أمر له بإبل وخيل، وثياب ودنانير ودراهم، قال له رجل: أتُعْطي لمثل هذا العبد الأسود هذا العطاء؟ فقال: إن كان أسود فإن شِعْرَه أبيض، وإن كان عبداً فإن ثناءه لَحُرٌّ، ولقد استحق بما قال أكثرَ مما أُعْطِي وهل أعطيناه إلا ثياباً تبلى، ومالاً يَفْنَى، ومطايا تَنْضَى، وأعطانا مديحاً يُرْوَى، وثناءً يَبْقَى.

وقال الأخطل يعتدُّ على بني أمية بِمَدْحِهِ لهم:

أبنـي أُمَيَّـةَ إِنْ أخـذتُ نـوالَكُـمْ   فَـلَمَـا أَخَـذْتُـمْ مـن مَـديحـيَ أكثَـرُ
أبنـي أُمَيَّـةَ لـي مَـدائـحُ فِيكُـمُ   تُنْسَـوْن إِنْ طَـال الـزمـانُ وَتُـذْكَـرُ

ولما مدح أبو تمام الطائي محمد بن حسان الضبي بقصيدته التي أولها:[٢]

أسقـى طُلـولَهـمُ أَجَـشٌّ هَـزِيـمُ   وَغـدَتْ عليهـم نَضْـرَةٌ وَنعيـمُ[٣]

وصَلَه بمال كثير، وخلع عليه خلعة نفيسة، فقال يصفها:[٤]

قَد كسانا مِنْ كُسْوَةِ الصيف خِرْقٌ   مُكْتَـسٍ مِـنْ مَكـارمٍ وَمَسَـاعِ[٥]
حُلَّـةً سـابِـريَّـةً وكِسَـاءً   كَسَحَـا القَيْـضِ أو رداءِ الشجـاعِ[٦]
كالسراب الرقراقِ في الحُسْنِ، إلاّ   أنـه لَيْـسَ مِثْلَـهُ فـي الخِـدَاعِ[٧]

---

(١) الخليل: الفقير، ذو الخلة، أي الفقر. لا حرم: أي غير ممنوع مالي عنه.
(٢) أبو تمام، الديوان: ٢/ ١٥١. وفيه أنه يمدح بهذه القصيدة أبا الحسين محمد بن الهيثم بن شُبانة.
(٣) الأجش: الخشن الصوت، وأراد به الرعد. الهزيم: صوت الرعد.
(٤) أبو تمام، الديوان: ١/ ٤٠٦.
(٥) الخِرْقُ: الكريم.
(٦) الحلة: الثوب. سابرية: رقيقة. سحا القيض: يعني ما تحت القيض، وهو القشر الأعلى من البيضة. والشجاع هنا: الحيّة. ورداء الشجاع: جلد الحية الذي ينسلخ عنها. يريد أن الثوب الذي كساه إياه رقيق.
(٧) السراب: ما يلمع كالماء في وسط النهار.

قَصَبِيّا تَسْتَرْجِفُ الريحُ مَتْنَيـ ـه بأمرٍ من الهبوبِ مُطاعِ[١]
رَجَفَانا كأنهُ الدهرَ منهُ كَبِدُ الصبّ أوْ حَشَى المُرْتاعِ[٢]
لازماً ما يليهِ تَحْسَبُهُ جُزْ ءًا من المتنينِ والأضلاعِ[٣]
كِسْوةٌ مِنْ أغَرَّ أروعَ رَحْبِ الصَّـ ـدرِ رَحبِ الفؤادِ رَحْبِ الذِّراعِ[٤]
سَوفَ أكسوكَ ما يُعَفِّي عليها من ثناءٍ كالبُردِ بُردِ الصَّنَاعِ[٥]
حُسنُ هاتيكَ في العيونِ، وهذا حُسْنُهُ في القلوبِ والأسماعِ

فقال: لعنةُ الله عليّ إن بقي عندي ثوب أو يَصِل إلى أبي تمام؛ وأمَر بِحمْلِ ما في خزائنه إليه.

بعض الأخبار عن أبي تمام

قال إبراهيم بن العبّاس الصولي لأبي تمام: [أمراءُ] الكلام يا أبا تمام رعيَّةٌ لإحسانك، قال: [ذاك] لأني أستضيءُ بنورك، وأرِدُ شريعتك.

وكان الطائي مع جَوْدَة شعره بليغَ الخطاب، حاضرَ الجواب، وكان يقال: ثنتان قَلّما يجتمعان: اللسانُ البليغ، والشعر الجيد.

وقال الحسن بن جُنَادة الوشَّاء: انصرف أبو تمام من عند بعض أصحاب السلطان، فوقف عليَّ، فقلت: من أين؟ فقال: كنت عند بعض الملوك فأكلنا طعاماً طيّباً، وفاكهة فاضلة، وبُخِّرنا وغُلِّفْنا؛ فَخَرجْتُ هارباً من المجلس، نافراً إلى التسلي، وما في منزلي نبيذ [فإن كان عندك منه شيء فامنحني، فقلت: ما عندي نبيذ]، ولكن عندي خَمْرٌ أريده لبعض الأدوية، فقال: دع اسمه، وأعْطِنَا جِسْمَه، فليس يثنينا عن المدام، ما هَجَّنْتُه[٦] به من اسم الحرام.

(١) القصبي: ثوب من الكتان ناعم. تسترجف: تطلب رجفانه. وأراد بمتنيه: ظهره، أو ما ظهر منه.
(٢) أي: كأنه في ارتجافه كبد العاشق أو حشا المرتاع، والضمير في منه يعود إلى الهبوب، والدهر منصوب على الظرفية الزمانية.
(٣) لازما ما يليه: أي يلزم لرقته ما يليه من الجسد، فتحسبه جزءاً منه. والمتنين: مثنى متنة: جنبة الظهر.
(٤) في الديوان: «خِلْعَةٌ من أغرَّ...».
أَغرّ: كريم. أروع: يعجب الناس بخصاله. والرحب: الواسع.
(٥) يُعفِّي عليها: يمحوها. الصناع: الحاذق في الصنعة.
(٦) هجَّنته: قبّحته.

[استنجاز أعرابي مَوْعِدَة]

قال عبيد اللَّه[١] بن محمد بن صدقة: كنَّا عند أبي عبيد اللَّه، فدخل عليه أعرابي قد كان له عليه وَعد، فقال له: أيها الشيخ السيد، إني والله أتَسَحَّبُ على كرمك، وأستوطِيء فراشَ مجدك، وأستعين على نعمك بقدرك؛ وقد مضى لي موعدان، فاجعل النُّجْحَ ثالثاً، أَقُدْ لك الشُّكْر في العرب شادخَ الغُرَّة، باديَ الأوضاح. فقال أبو عبيدالله: ما وعدتك تغريراً، ولا أخّرتُك تقصيراً، ولكن الأشغال تقطعني، وتأخذ بأوْفَر الحظّ مني، وأنا أبلغ لك جهد الكفاية، ومنتهى الوُسْع بأوفر مأمول، وأحمد عاقبة، وأقرب أمَدٍ، إن شاء الله تعالى.

فقال الأعرابي: يا جلساءَ الصِّدْق، قد أحصرني التطول، فهل من معين مُنْجِد ومساعدٍ منشد؟ فقال بعضُ أحداث الكتاب لأبي عبيد اللَّه: والله ـ أصلحك الله ـ لقد قصدك، وما قصدك حتى أمَّلَك، وما أمَّلَك إلا بعد أن أجال النظر، فأمن الخطر، وأيقن بالظَّفَر، فحقق له أمله بتهيئة القليل، وتهنئة التعجيل. قال الشاعر:

إذا ما اجْتَلاهُ المَجْدُ عن وَعْدِ آملٍ تَبَلَّج عن بِشْرٍ لِيَسْتَكْمِلَ البِشْرا[٢]
وَلم يَثْنِهِ مَطْلُ العداةِ عنِ التي تَصونُ له الحَمْدَ المُوفَّرَ والأجْرا[٣]

فأحضر أبو عبيد اللَّه[٤] للأعرابي عشرةَ آلافِ درهم، وقال الأعرابي للفتى: خُذْها فأنت سببها. فقال: شكرُك أحبُّ إليَّ منها، فقال له أبو عبيد اللَّه: خُذْها فقد أمَرْنا له بمثلها. فقال الأعرابي: الآن كَمُلَت النعمة، وتمّت المنة.

[معاوية بن يسار]

وكان أبو عبيد اللَّه واسعَ الذرَّع، سابغَ الدرع في الكرم والبلاغة، واسمُه معاوية بن يَسَار[٥].

وكان يقول: إنّ نخوةَ الشرف تُناسِبُ بَطَرَ الغِنَى، والصبرُ على حقوق الثَّرْوَةِ أشدُّ من

(١) في نسخة: «عبد اللَّه» في المواضع كلها.
(٢) بَلِجَ وجهه بَلَجاً: تَنضَّر سُروراً. والبِشْرُ: طلاقة الوجه.
(٣) المَطْلُ: التسويف والتأجيل والتأخير.
(٤) في نسخة: «أبو عبد اللَّه»، في المواضع كلها.
(٥) في نسخة: «معاوية بن بشار».

الصَّبْرَ على أَلَمِ الحاجة، وذلُّ الفقر يسعى على عزِّ الصبر، وجور الولاية مانع من عَدْل الإنصاف، إلا من ناسب بعد الهمة، وكان لسلطان عزمه قوة على شهوته.

وكان يقول: لا يُكْسَرُ رأسُ صناعة إلا في أخسِّ رُتَّان، وأرذلِ سلطان، ولا يعيبُ العلمَ إلا سن انسلخ عنه، وخرج منه.

وكان يقول: حُسْنُ البِشْر عَلم من أعلام [النجاح] ورائد من [روّاد الفلاح]، وما أحسن ما قال زهير:[1]

تَـــراهُ إذا مـــا جِئْتَـــهُ مُتهلِّـــلاً كـأنَّـك تُعْطِيـه الـذي أَنْـتَ سَـائِلُـهْ

وقال له المهديُّ بعد أن قتل ابنَه على الزندقة: لا يمنعك ما سبق [به] القضاءُ في ولدك، من [ثلج صَدْرِكَ] وتقديم نُصْحِك؛ فإني لا أعرض لك رأياً على تُهمة، ولا أؤخر لك قدماً عن رتبة، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما كان [ولدي حسنة] من نَبْت إحسانك أرضُهُ، ومن تفقُّدِك سماؤه، وأنا طاعة أمرك، وعَبْد نهيك، وبقية رأيك لي أحسن الخَلْفَ عندي.

وكان يقول: العالِمُ يمشي البَرَازَ آمناً، والجاهل يهبط الغيطان كامناً، ولله درّ زهير حيث يقول:[2]

السّتْـــرُ دُونَ الفـــاحشـــاتِ ومـــا يَلْقـــاك دونَ الخيـــرِ مِـــنْ سِتْـــرِ

وقال أبو عبيد اللَّه: ذاكرني المنصورُ في أمرِ الحُسَين[3] بن قَحْطَبَة، فقال: كان أوثق الناس عندي، وأقربهم من قلبي، فلما لقي أبا حنيفة انتكث، فقلت: إن فسدت نيتُه فَسَيضَعهُ الباطلُ كما رفعه الحقُّ، وتشهد مخايلُه عليه كما شهِدَتْ له، فتعدل في أمره من شَكّ إلى يقين. ثم قال لي: اكتُمْ عليَّ ما أَلْقَيْتُ عليك.

قال عمران بن شهاب: استعنت على أبي عبيد اللَّه في أمرِ ببعضِ إخوانه وكان قد تقدَّم سؤالي إيَّاه فيه، فقال لي: لولا أن حقّك لا يُجْحَد ولا يضاع، لحجبت عنك حُسْنَ نظري؛ أظننتني أجْهل الإحسانَ حتى أُعلّمه، ولا أعرف موضعَ المعروف حتى أُعرَّفه؟ لو

(١) زهير بن أبي سلمى، الديوان: ص ٦٨. والبيت من قصيدة يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر.
(٢) سبق وروده وشرحه في مكان سابق.
(٣) في نسخة: «الحسن».

كان يُنَالُ ما عندي إلا بغيري لكنت مثل البعير الذّلول؛ يحمل عليه الحمل الثقيل، إن قِيدَ انقاد، وإن أنيخ بَرَكَ، ما يملك من نفسه شيئاً، فقلت: معرفتك بموضع الصنائع أثبت معرفة، ولم أجعل فلاناً شفيعاً إنما جعلته مذكّراً. قال: وأي إذكار أبلغ عندي في رَعْي حقّك من مسيرك إليه وتسليمك عليه، إنه متى لم يتصفّح المأمول أسماءَ مؤمّليه غدوة ورواحاً لم يكن للأمل محلاً، وجرى عليه المقدارُ لمؤمّليه على يديه بما قدر، وهو غَيْرُ محمود على ذلك ولا مشكور، ومالي إمامٌ بعد وردي من القرآن إلا أسماء رجال أَهْل التأميل، حتى أعرضهم على قلبي، فلا تَسْتَعِنْ على شريفٍ إلا بِشَرَفِه؛ فإنّه يرى ذلك عيباً لِعُرفه؛ وأنشد:

وَذاكَ امـرؤ إنْ تـأْتِـهِ فـي عَظيمـةٍ ... إلـى بَسابـهِ لا تَـأْتِـهِ بِشَفيـعِ

ومن توقيعاته: الحق يُعْقِب فَلْجاً أو ظفراً، والباطل يُورث كذباً ونَدَماً.

وكتب إليه رجل: والنفس مولعة بحبِّ العاجل. فكتب إليه: لكن العقل الذي جعله الله للشهوة زِمَاماً وللهوى رِباطاً موكّل بحبِّ الآجل، ومستصغِرٌ لكل كثير زائل.

قال مصعب بن عبد اللّه الزبيري: وَفَدَ زياد الحارثي على المهدي وهو بالرّيّ وليّ عهد، فأقام سنتين لا يَصِلُ إليه شيء من برّه، وهو ملازم كاتبه أبا عبيد اللّه، فلما طال أمره دخل إلى كاتبه فأنشده:

مـا بَعْـدَ حَـولـيـنِ مَرّا مـن مُطـالبـةٍ ... وَلا مُقَـامَ لِـذي ديـنٍ وذِي حَسَـبِ
لَئِـنْ رَحلْـتُ ولـم أَظْفَـرْ بِفـائـدةٍ ... مِنَ الأميرِ لَقَدْ أَعذرتُ في الطَّلَبِ

فَوَّقع أبو عبيد اللّه: يصنعُ الله لك! فكتب إليه:

مـا أردتُ الـدعـاءَ مِنْـكَ لأنّـي ... قَـدْ تيَقَّنْـتُ أنـه لا يُجَـابُ
أَيُجَـابُ الـدعـاءُ مِـنْ مُستطيـلٍ ... جُـلُّ تَسبيحِـهِ الخَنَـا والسِّبَـابُ(١)

ألفاظ لأهل العصر، في ذكر الاستطالة والكبر

مع ما يشاكِلُ ذلك من معانيها، ويطرق نواحيها من المساوي والمقابح. فلان لسانُه مِقْرَاضٌ للأعراض، لا يأكل خُبْزَه إلا بلحوم الناس. هو غرضٌ يُرْشَقُ بسهام الغيبة، وعلم

(١) الخَنا: الفحش في الكلام.

يقصد بالوقيعة، قد تناولته الألسن العاذلةُ، وتناقلت حديثَهُ الأنديةُ الحافلة. قد لزمه عار لا يُمْحَى رَسْمُه، ولزمه شنَار لا يزولُ وَسْمُه، فأصبح [نَقْلَ كلّ لسان، وضُحْكَة كل إنسان[١]، وصار دولة الألسن، ومُثْلَة الأعين. وقد عرّض عرضه] غرضاً لسهام الغائبين، وألسنة القاذفين، وقلّد نفسه عظيم العار والشّنار[٢]، والسّبّة الخالدة على الليل والنهار. قد أسكرته خَمْرَة الكبر، واستغرقَتْهُ غُرَّة التّيه، كأن كسرى حامل غاشيته، وقارون وكيل نفقته، وبِلْقِيس إحْدَى داياته، وكأنَّ يوسف لم يَنْظُرْ إلا بطلعته، [وداود لم ينطق إلّا بنغمته]، ولقمان لم يتكلم إلا بحكمته، والشمس لم تطلع إلا من جبينه، والغمام لم يَنْدَ إلا من يمينه، وكأنه امتطى السّماكين، وانتعل الفرقدين، وتناول النّيِّرَين بيدين، وملك الخافقين، واستعبد الثقلين، وكأن الخضراء له عرشت، والغبراء باسمه فرشت.

فلان له من الطاوُس رِجْلُه، ومن الوَرْدِ شَوْكه، ومن الماء زَبَدُه، ومن النار دخانها، ومن الخمر خُمارها، قد هبّت سمائمُ نمائمه، ودبَّت مكايد عقاربه، والنمام يضرب بسَيْفٍ كليل إلا أنه يقطع، ويضرب بعضد واهِن إلا أنه يوجع. هو تمثالُ الجبن، وصورة الخوف، ومقرّ الرعب؛ فلو سمّيت له الشجاعة لخافَ لَفْظَها قبل معناها، وذِكْرَهَا قبل فحواها، وفزع من اسمها دون مسماها، فهو يملك من تخوفه أضغاثَ أحلام، فكيف بمسموع الكلام؟ إذا ذكرت السيوف لمس رأسَه هل ذهبَ، ومسّ جبينَه هل ثُقبَ؟ كأنه أُسْلِمَ في كتّاب الجُبْنِ صبياً، ولُقِّنَ كتاب الفشل أعجمياً. وَعْدُه بَرْقٌ خلّب. وروغان ثعلب. غيم وعده جَهام[٣]، وحدُّ سَيفِه كَهام[٤]. حصلتُ منه على مواعيد عرقوبية[٥]، وأحزان يعقوبية[٦]، قد حرمني ثمرَ الوعد، وجرَّني على شَوْك المَطْلِ. فتى له وَعْدٌ أَخَذَ من البَرْق الخلَّبِ خلقاً، وقد تناول من العارض الجهام طبعاً، وتركني أَرْعَى رِياضَ رجاء لا يُنبت، وأَجْنِي ثمار أمل لا يُورق؛

---

(١) النُّقْلُ: ما يُتَنقَّلُ به على الشراب من فواكه وكوامخ وغيرها، أو ما يُتفكَّهُ به من جوز ولوز وبندق ونحوها. والضُّحْكَةُ: الذي يضحك منه الناس.

(٢) الشَّنارُ: الأمر المشهور بالقبح.

(٣) الجَهَامُ: السحاب لا ماء فيه.

(٤) كَهَمَ السيف، فهو كهامٌ وكهيم: كَلَّ.

(٥) مواعيد عرقوبية: نسبة إلى عرقوب، وهو مضرب المثل في الخلف والمطل.

(٦) أحزان يعقوبية: نسبة إلى يعقوب نبي الله تعالى، الذي حزن على ابنه يوسف وبكاه، حتى ابيضت عيناه من الحزن. وقد ذكره الله تعالى بقوله: ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ من الحُزْنِ فَهوَ كَظِيمٌ﴾ (سورة يوسف، آية ٨٤).

فأَنا في ضمان الانتظار، وإسار عِدَةٍ ضِمار[1]. هو يرسل بَرْقَه، ولا يسيل وَدْقه، ويقدم رَعْدَه، فلا يمطر بعدهُ. وَعْدُه الرقم على بساط الهواء، والخطّ في بسيط الماء.

حلَّ هذا من قول أبي الفضل بن العميد:[2]

لا أستفيقُ من الغرام، ولا أرى ... خِلْواً من الأشجان والبُرَحَاءِ[3]

وَصروفُ أيامٍ أقمنَ قيامتي ... بنَوى الخليطِ وَفُرْقَةِ القُرَنَاءِ[4]

وَجَفاء خِلّ كنتُ أحسبُ أنّهُ ... عَوْني على السراءِ والضرّاءِ

ثَبْتِ العزيمةِ في العقوقِ، وَوِدُّهُ ... مُتَنَقِّلٌ كَتَنَقُّلِ الأحياءِ[5]

ذي خَلَّةٍ يأتين أَثْبتُ عهدِهِ ... كالخطّ يُرْسَم في بسيطِ الماءِ[6]

أردت هذا البيت.

هو صخرة خَلْقَاء[7]، لا يستجيبُ للمُرْتَقَى، وحيّة صمّاء لا تسمع للرُّقَى، كأني أستنقر بالجوّ رَعْدَا، وأهزّ منه بالدعاء طودا، هو ثابت العِطف [نابي العطف]، عاجز القوة، قاصر المُنّة، يتعلقّ بأذناب المعاذير، ويحيل على ذنوبِ المقادير. هو كالنعامة تكونُ جملاً إذا قيلَ لها طِيري، وطائراً إذا قيل لها سيري. يفاض له بذل، ولا يفوّض إليه شغل، ويملأُ له وَطْب، ولا يُدْفَع له خَطْب، قد وفر همّه على مطعم يجوّدُه، ومَلْبَس يجوِّده، ومَرْقَد يمهّده، وبنيان يشيّده.

هذا كقول الحطيئة:[8]

---

(١) الضمار: الغائب الذي لا يُرْجَى.

(٢) الأبيات من قصيدة وردت في يتيمة الدهر للثعالبي: ٣/٢٠٣، وكان ابن العميد أرسلها إلى بعض إخوانه، ليعرضها على أبي الحسن العباسي.

(٣) البرحاء: الشدّة.

(٤) النوى: البُعْدُ، أو الناحية يُذْهَب إليها. والخليط: الجماعة الذين أمرهم واحد، قال ابن ميادة:

إنَّ الخليطَ أَجدّوا البَيْنَ فَانْدَفَعُوا ... وَما رَبُوا قَدَرَ الأَمْرِ الذي صَنَعُوا

(ابن منظور، لسان العرب: خلط). والقرناء: جمع قرين، وهو المقارن والمصاحب، والزوج.

(٥) في يتيمة الدهر: «كَتنقُّلِ الأفياءِ».

(٦) في يتيمة الدهر:

ذي ملَّةٍ يأتيكَ أَثبتُ عَهْدِهِ ... كالخَطِّ يَرْقُمُ في بَسيطِ الماءِ

(٧) خلقاء: ملساء.

(٨) البيت من قصيدة قالها الحطيئة في هجاء الزبرقان بن بدر. ويقال: إن الزبرقان شكاه إلى عمر بن =

دَعِ المكارِمَ لا ترحَلْ لِبُغْيَتِها واقْعُدْ فإنكَ أَنْتَ الطاعمُ الكَاسِي

قَلْب نَغِل، وصَدْرٌ دغِل، وطويَّةٌ معلولة، وعقيدة مَدْخُولَة، صَفْوُه رنق[(١)]، وبرّه مَلَق، قد مُلىء قلبُه رَيْنا، وشُحِنَ صدرُه مَيْنا[(٢)]، يدَّعِي الفضلَ وهو فيه دَعِيّ، دَأْبه بثّ الخدائع، والنّفْثُ في عُقد المكايد، ضميرُه خُبث، ويمينُه حِنْث، وعهده نَكْث. هو سحابة صَيْف، وطارقُ ضَيْف، قوته غنيمة، والظفر به هزيمة. هو العَوْد المركوب، والوَتَرُ المضروب، يَطَؤُهُ الخفُّ والحافِرُ، ويستضيمُه الواردُ والصادر. [يغمض عن الذكر]، ويَصْغُر عن الفِكْر. ذاتُه لا يوسَم أغفالها، وصفتُه لا تنفرج أقفالها. هو أقلُّ من تبنة في لَبِنة، ومن قلامة في قُمَامة. وهو بيذق الشِّطْرَنْج في القيمة والقامَة، جَهْلُه كثيف، وعَقله سخيف، لا يستترُ من العقل بِسجْفٍ، ولا يشتمل إلاّ على سخف. يمدُّ يدَ الجنون فيَعْرُك بها أُذُنَ الحَزْم، ويفتح جِرَاب السخف فيصفع به قَفَا العقل. لا تزالُ الأخبارُ تورد سفائح جَهْلِه وخُرْقه، والأنباءُ تنقلُ نتائجَ سُخْفِه وحُمْقه. قد ظلّ يتعثَّرُ في فضولِ جَهْلِه، ويتساقطُ في ذيولِ عقله. هو سمينُ المالِ مهزول النَّوال. ثَرْوَةٌ في الثريا وهمَّةٌ في الثَّرَى.

وَجْهُه كَهَوْلِ المطلع، وزوال النّعمة، وقضاءِ السّوءِ، وموتِ الفُجَاءة. هو قَذَى العَيْن، وشَجَى الصَّدْرِ، وأذَى القلب، وحُمَّى الروح، وَجْهُه كآخر الصك، وظلم الشكّ، كأَنَّ النحسَ يطلع من جَبِينه، والخلّ يقطر من وجنته. وَجْههُ طَلْعَة الهَجْر، ولفظُه قِطَع الصَّخر. وجهُهُ كحضورِ الغَرِيم، ووصول الرقيب، وكتاب العَزْل، وفِرَاق الحبيبِ. له من الدينار نَضْرَته، ومن الوَرْدِ صُفْرَتُه، ومن السحاب ظُلمَتُه، ومن الأسد نكهته[(٣)]. هو عصارةُ لُؤْمٍ في قرارة خُبْث. ألأم مهجة في أسقط جثّة. حديث النِّعْمَة، خبيثُ الطعمة، خبيث المركب، لئيم المتسب، يكادُ من لُؤْمِه يُعْدِي من جلس إلى جَنْبِه، أو تَسَمَّى باسْمِه. قد أُرْضِع بلبان

= الخطاب فقال: إنه هجاني؛ فقال عمر: وما قال لك؟ قال: قال لي: دع المكارم... البيت. فقال عمر: ما أسمع هجاءً ولكنها معاتبة؛ فقال الزبرقان: أو ما تبلغ مروءتي إلاّ أن آكلَ وألبس! فقال عمر: عليّ بحسان، فجيء به فسأله، فقال: لم يهجه، ولكن سلح عليه، فأمر به عمر، فجعل في نقير في بئر، ثم استتابه، وهدده بقطع لسانه، ونهاه عن هجاء الناس. (الأصفهاني، الأغاني: ٢/ ١٥٤ ـ ١٥٥).

(١) الرنق: الكدر.

(٢) الرَّيْنُ: الدنس، وأراد الحقد والضغن، والمين: الكذب.

(٣) النكهة: ريح الفم، والأسد معروف بالبخر، وهو نتن الفم.

اللُّؤْم، وربِّي في حِجْر الشؤم، وفُطِم عن ثدي الخَيْرِ، ونشأ في عَرْصَة الخُبْثِ، طلَّقَ الكرم ثلاثاً لم ينطق فيه استثناءً، وأعْتَقَ المجدَ بتاتاً لم يستوجب عليه ولاء. هو حمار مبطّن بثور مفروز بِتَيْس، مطرّز بطرر، [أتى من اللؤم بنادر]، لم تَهْتَدِ له قصةُ مادر[١]. هو قصيرُ الشبر، صغيرُ القِدْرِ، قاصر القَدْر، ضيّق الصَّدْرِ، ردّ إلى قيمة مثله في خبث أصله، وفَرْط جهله، لا أمسَ ليومه، ولا قديم لقومه، سائلُه محروم، ومالُه مَكْتُوم؛ لا يَحينُ إنفاقه، ولا يحلّ خناقه. خيرُه كالعنقاء تَسْمَعُ بها ولا ترى. خُبْزُه في حالق، وإدامه في شَاهِق. غِنَاه فَقْر، ومَطْبَخُه قَفْر، يملأ بطنَه والجار جائع، ويحفظُ مالَه والعِرْضُ ضائع، قد أطاع سُلطان البُخْلِ وانخرط كيف شاء في سِلْكِهِ. هو ممن لا يبضّ حَجَره، ولا يثمر شجره، سُكّيت الحَلْبَة[٢]، وساقةُ الكتيبة[٣]، وآخِرُ الجريدة[٤]. لُعْنَةَ العائب، وعرضة الشاهد والغائب. هو عَيْبَةُ العيوب، وذَنوب[٥] الذُّنوب. وقال أبو الفضل الميكالي:

وَطلعـةٍ بِقُبْحِهـا قـد شُهِـرَتْ ... تحكـي زوالَ نعمـة مـا شُكِـرَتْ
كـأنّهـا عـن لحمهـا قـد قُشِـرَتْ ... أَقْبِـحْ بهـا صحيفـةً قـد نُشِـرَتْ
عُنـوانهـا إذا الـوحـوشُ حُشِـرَتْ ... يَلعنهـا مـا قَـدَّمَـتْ وأخّـرتْ
صَـاحِبُهـا ذو عـورةٍ لـو سُتِـرتْ ... إن سـارَ يـومـاً فـالجبـالُ سُيِّـرتْ
أو رَامَ أَكْـلا فـالجحيـمُ سُعِّـرَتْ

من بديع الزمان يشكو الحيري القاضي

ويختص بهذه الأنواع رسالة بديع الزمان إلى القاضي علي بن أحمد يشكو أبا بكر الحيري القاضي ويذمّه ـ وقد أطلتُ عِنان الاختيار فيها لصحّة مبانيها، وارتباط ألفاظِها بمعانيها:

---

(١) مادر: مضرب المثل في البخل، كان له حوض يملأه ماءً ليسقي دوابه، فإذا فرغ قذف فيه الحصى الكثير لئلا يستقي غيره.
(٢) الحلبة: موضع جري الخيل المتسابقة. وسكيتها: أراد أنه يأتي في آخر المتسابقين.
(٣) الساقة من الجيش: مُؤَخَّرُه.
(٤) الجريدة: خيلٌ لا رجَّالة فيها، ودفتر أرزاق الجيش في الديوان، وسعفة طويلة تُقَشَّر من خوصها.
(٥) الذَّنُوبُ: الدلو العظيمة، والوافر الذنب. ويقال: يوم ذنوب: طويل الشَّرّ.

الظُّلامة ـ أطال اللهُ بقاءَ القاضي ـ إذا أتَتْ من مجلسِ القضاءِ، لم ترق إلاّ إلى سيّدِ القضاة. وما كنت لأقصر سيادتَه على الحكامِ، دون سائر الأنام، لولا اتصالُهم بسببِه، واتّسَامُهم بلقبه، وهَبْهم مطفّلين على قَسْمِهِ، مغيرين على اسمه، ألهم في الصحة أدِيم كأَديمه[١]، أو قديمٌ في الشرفِ كقديمه، أو حديث في الكرم كطريفه؛ فهنيئاً لهم الأسماء، وله المعاني، ولا زالت لهم الظواهرُ، وله الجواهر. ولا غروَ أن يُسمَّوْا قضاة، فما كلُّ مائع ماء، ولا كلّ سَقْفٍ سماء، ولا كلّ سيرة عَدْل العُمْرَين[٢]، ولا كلّ قاض قاضي الحَرَمَيْن[٣]، ويا لثارات القضاء! ما أرخص ما بِيع، وأسرع ما أضيع! والسنةُ الإنذار، قبل خلو الديار، وموت الخيار، ألاَ يُغَار لحلى الحسناء، على السوداء، ومركب أُولِي السياسة، تحت السَّاسةِ، ومجلس الأنبياء، من تصدّر الأغبياء، وحِمَى البزاة من صَيْد البغاثِ[٤]، ومرتع الذكور[٥] من تسلّط الإناثِ؟ ويا للرجال، وأين الرجالُ! ولي القضاء من لا يملكُ من آلاتِ غير السِّبَالِ[٦]، ولا يعرف من أدواته غير الاعتزال، ولا يتوجّه في أحكامه إلا إلى الاستحلال، [ولا يرى التفرقة إلا في العيال] ولا يُحْسِنُ من الفقه غير جَمع المال، [ولا يتقن من الفرائض إلا قلة الاحتفال، وكثرة الافتعال] ولا يدرس من أبواب الجدال إلا قبيح الفعال، وزُورَ المقالِ، ذاك أبو بكر القاضي، أضاعَه اللهُ كما أضاع أمانَته، وخان خزانته، ولا حاطه من قاضٍ في صَوْلَة جندي، وسبلة كردى... إلى أن قال: أيكفي أن يُصْبِحَ المرءُ بين الزقّ والعودِ، ويمسي بين موجبات الحدود، حتى يكمل شبابه، وتشيب أترابُه. ثم يلبس دَنِّيَته[٧]، ليخلع دينيّته، ويسوي طيلسانه، ليحرف يده ولسانه، ويقصر سِبَالَه، ليطيل حباله، ويُظْهر شَقَاشقه[٨]، ليستر مَخَارقه، ويبيّض لحيته، ليسوّدَ صحيفته، ويبدي ورَعه،

---

(١) الأديم: الجلد.

(٢) العُمَران: أبو بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

(٣) الحرمان: الحرم المكّي، والمسجد النبوي بالمدينة المنورة.

(٤) البُغاث: طائر أبغث اللون، أصغر من الرخم، بطيء الطيران، وفي المثل: «إن البغاث في أرضنا يَسْتَنْسِر»، يراد: من جاورنا عزَّ بنا.

(٥) في نسخة: «ومربع الذكور».

(٦) السِّبالُ: جمع سبلة، وهو الشارب، ويقال: مقدم اللحية وما أسبل منها على الصدر.

(٧) الدَّنِّيّة: قلنسوة كان القضاة يلبسونها.

(٨) الشقاشق: جمع شَقْشِقَة: شيء كالرئة يخرجه الجمل من فيه إذا هاج وهدر، يقال: هدرت شقشقة فلان: ثار أو أفصح في كلام.

ليخفي طمعه، ويغشى مِحْرَابه، ليملأ جِرَابه[١]، ويكثر دُعاءه، ليحشوَ وعاءه، ثم يخدم بالنهار أمعاءَه، ويعالج بالليل وَجْعَاءَه، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالماً، ويقعد حاكماً؟ هذا إذا المجد كالوه بِقفْزَان[٢] وباعوه في سوق الخسران! هيهات حتى يَنْسَى الشهوات، ويَجُوب الفلوَات، ويعتضد المحابرَ، ويحتَضِن الدفاتر، وينتج الخواطر، ويُحالف الأسفار، ويعتاد القِفَار، ويصل الليلةَ باليوم، ويعتاض السهرَ من النوم، ويحمل على الروح، ويجني على العين، وينفق من العيش، ويحزن في القلب، ولا يستريح من النظر إلا إلى التحديق، ولا من التحقيق إلا إلى التعليق؛ وحاملُ هذه الكلف إن أخطأه رائدُ التوفيق، فقد ضلّ سواء الطريق، وهذا الحِيرِيُّ رجل قد شغله طلبُ الرياسة عن تحصيل آلاتها، وأعجله حصولُ الأمنية عن تمحل أدواتها:[٣]

والكلبُ أحسنُ حالةً ... وَهو النهاية في الخَسَاسَةْ
مِمّنْ تَصَدَّى للريا ... سة قَبْلَ إبّانِ الرياسَةْ

فَوُلّي المظالم وهو لا يَعرفُ أسرارَها، وحَمَل الأمانةَ وهو لا يَدْري مقدارَها؛ والأمانةُ عند الفاسق خفيفةُ المحمل على العاتِق، تُشْفق منها الجبال، ويحملها الجهّال، وقعد مَقْعَد رسولِ الله ﷺ بين حديثه يروى، وكتاب الله يُتْلى، وبين البينة والدعْوَى، فقبّحه اللهُ تعالى من حاكم لا شاهِد عنده أعدل من السَّلّة والجام[٤]، يُدْلَى بهما إلى الحكّام، ولا مزكى أصدق لديه من الصُّفر[٥]، ترقص على الظفر، ولا وثيقة أحبُّ إليه من غمزات الخصوم، على الكيس المحتوم، ولا كفيل أوقع بوفَاقِه من خبيثة الذّيل، وحمال الليل، ولا وكيل أوعز عليه من المنديل والطبق، في وقت الغَسَق والفَلَق، ولا حكومة أَبغض إليه من حكومة المجلس، ولا خصومة أوحش لديه من خصومة المُفْلِس، ثم الويل للفقير إذا ظُلِم، فما يغنيه موقف الحكم إلا بالقَتْل من الظلم، ولا يجبره مجلس القضاء إلا بالنار من الرمْضَاء. وأقسم لو أن اليتيم وقف بين أنياب الأسود، بل الحيات السُّود، لكانت سلامته منهما أرجى من سلامته إذا وقع من هذا القاضي بين عَقاربه وأقاربه؛ وما ظنُّ القاضي بقومٍ يحمِلونَ الأمانةَ على مُتُونهم،

(١) الجِرابُ: وعاء يحفظ فيه الزاد وغيره.
(٢) قفزان: جمع قفيز، وهو مكيال.
(٣) في نسخة «عن تنخل أدواتها».
(٤) السلّة: السرقة، والجام: الوعاء الذي تُشْرَبُ به الخمر.
(٥) الصُّفر: جمع أصفر، وهو الدينار.

ويأكلون النارَ في بطونهم، حتى تغلظ قَصَراتهم[1] من مالِ اليتامى، وتسمن أكفالهم من مال الأيامى، وما رأيه في دار عمارتُها خرابُ الدور، وعُطلة القدور، وخَلاَء البيوت، من الكسوة والقوت، وما قوله في رجل يُعَادِي الله في الفَلْس، ويبيعُ الدِّينَ بالثمن البخْس، وفي حاكم يبرُز في ظاهر أهل السَّمْتِ، ويباطن أصحاب السبتِ، فِعْله الظلمُ البَحْت، وأكله الحرام السُّحْت. ومَا قوله في سوس لا يقع إلا على صوف الأيتام؛ وجرادٍ لا يقع إلا على الزرع الحرام، ولص لا ينقب إلا خزانة الأوقاف، وكردى لا يُغِيرُ إلا على الضعاف، وليث لا يفترِسُ عباد الله إلا بين الركوع والسجود، وخارب[2] لا ينهب مالَ الله إلا بين العهود والشهود.

وذكر في هذه الرسالة فصلاً في ذِكْر العلم ـ وهو مستطرف البلاغة، مستعذب البراعة ـ قال:

والعلم ـ أطال اللهُ بقاءَ القاضي ـ شيء ما تعرفُه، بعيد المرام، لا يُصَادُ بالسّهام، ولا يُقْسَمُ بالأزلام[3]؛ ولا يُرعى في المنام [ولا يُضْبَطُ باللجام، ولا يُورَث عن الأعمام، ولا يكتب للئام]، وزَرْع لا يَزْكُو[4] حتى يصادِفَ من الحَزْمِ ثَرًى طيباً، ومن التوفيق مطراً صَيِّباً؛ ومن الطبْعِ جوّاً صَافياً، ومن الجهد روحاً دائماً، ومن الصبر سقيا نافعاً، والعلم عِلْق[5] لا يباع ممن زاد، وصَيْدٌ لا يألف الأوغاد، وشيءٌ لا يُدْرك إلاّ بنزع الروح، وعَوْن الملائكةِ والرّوح، وغَرضٌ لا يصابُ إلا بافتراش المدَر[6]، واتِّساد الحجَر، وردّ الضجرَ، وركوب الخَطَرِ، وإدْمَان السهر، واصطحاب السفر، وكَثْرَة النظَرِ، وإعمال الفكر، ثم هو معتاص إلا على من زكا زَرْعه، وخلا ذرعه، [وكرم أَصْله وفَرْعه، ووعى بصره وسمعه]، وصفا ذهنه وطبعُه، فكيف يناله من أنفق صِبَاه على الفحْشاء؛ وشبابَه على الأحشاءِ، وشغل نهاره بالجمع، وليلَه بالجماع، وقطع سَلْوته بالغنى، وخَلَوته بالغناء، وأفرغ جده على الكيس، وهزله في الكأس؛ والعَلم ثمرٌ لا يصلح إلا للغَرْس، ولا يغرس إلا في النفس، وصيد لا

(١) القصرات: جمع قَصَرَة (بالتحريك)، وهي أصل العنق.
(٢) الخارب: السارق.
(٣) الأزلام هنا: قداح الميسر.
(٤) لا يزكو: لا ينمو.
(٥) العِلْقُ (بالكسر): النفيس.
(٦) المَدَرُ: صغار الحصى.

يقع إلا في الندر، ولا ينشب إلاّ في الصدر، وطائر لا يخدعه إلاَّ قنَص اللفظ، ولا يعلقه إلاَّ شَرَكُ الحفظ [ولا ينشب إلاّ في الصدر،] وبَحْر لا يخوضُه الملاّح، ولا تطيقه الألواح، ولا تهيجه الرياح، وجبَلٌ لا يتسنم إلا بِخُطا الفِكْر، وسماء لا يصعد إلا بمِعْراج الفهم، ونَجْمٌ لا يلمس إلا بيَدِ المجد.

ومن مفردات الأبيات في المعايب والمقابح

قول أبي تمام:(١)

مَسَاوٍ لو قُسِمْنَ على الغَواني   لما أُمْهِرْنَ إلاَّ بالطلاقِ(٢)

آخر:

قَوْمٌ إذا جَرَّجَانٍ منهمُ أمِنُوا   من لُؤْمِ أحْسابِهم أن يُقتلوا قَوَدا(٣)

البحتري:(٤)

نَبا في يدي، وابن اللئيمةِ وَاجِدٌ   وَيَنْبُو الخبيثُ الطَّبْع وَهْوَ صَقِيلُ

ابن الرومي في رجل يعرف بابن رمضان:(٥)

رَأَيْتُكَ تَدّعِي رَمضانَ دَعوى   وَأنتَ نظيرُ يومِ الشَّكِّ فيه

وله في أعمى:(٦)

كيف يَرْجُو الحياءَ منهُ صَديقٌ   ومَكانُ الحياءِ منه خَرابُ(٧)

غيره:

هو الكَلْبُ، إلاّ أنَّ فيه ملالةً   وَسُوءَ مُرَاعاةٍ وما ذَاكَ في الكَلْبِ

---

(١) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٢٥٠. والبيت من مقطوعة يهجو بها ابن الأعمش.
(٢) في الديوان: «لَما جُهِّزْنَ».
(٣) جَرَّ: اكتسب جريرة. يريد أنهم لا يساوون أحداً من الناس، ومن شرط القود ـ وهو الاقتصاص من القاتل بقتله ـ التكافؤ، فليسوا يقتلون أصلاً.
(٤) البحتري، الديوان: ١/ ٣٨٨. والبيت من قصيدة يمدح بها حمولة.
(٥) ابن الرومي، الديوان: ٦/ ٣٧٩.
(٦) ابن الرومي، الديوان: ١/ ٤٠٨.
(٧) الحياء: الحشمة، والحياء (الثانية): فرج أمّه.

آخر:

أبا دُلَفٍ يا أَكْذَبَ الناسِ كُلّهم ... سِوَايَ فإني في مَديحِكَ أَكْذَبُ

أبو الفضل الميكالي:

هُوَ الشَّوْكُ لا يُعْطِيك وافِرَ مِنَّةٍ ... يدَ الدَّهْرِ إلاّ حين تَضْرِبهُ جَلْدا

[قولهم في اللحن وتعلم العربية]

قال المأمون لبعض وَلِده وسمع منه لحنا: ما على أحدِكم أن يتعلَّم العربية، فيقيم بها أَوَدَه[١]، ويزيّنُ بهَا مَشْهده، ويفلُّ[٢] حُجَجَ خَصْمه، بمسِّ كتاب حكمه[٣]، ويملك مَجْلس سُلْطانه، بظاهرِ بيانه؛ ليس لأحدكم أن يكونَ لسانُه كلسان عبدِه أو أمته، فلا يزالُ الدهر أَسِيرَ كلمته.

وقال رجلٌ للحسن البصري يا أبو سعيد، قال: كَسْبُ الدراهم شغَلك أن تقولَ يا أبا سعيد، ثم قال: تعلّموا العلم للأديان، والنحوَ للسان، والطبَّ للأبدان.

وكان الحسن كما قال الأعرابي وسمع كلامه: والله إنه لفصيحٌ إذا لفظ، نصيحٌ إذا وَعظ. وقيل له: يا أبا سعيد، ما نراكَ تلحن، قال: سَبَقْتُ اللحن. أخذه أبو العتاهية، وقيل له: إنك تخرج في شعرك عن العَرُوض، فقال: سبقت العروض.

وقال إسحاق بن خلف البهراني:

النحوُ يصلحُ من لسانِ الألْكَنِ ... والمرءُ تُعْظِمُه إذا لم يَلْحَنِ[٤]

فإذا طلبتَ من العلومِ أجلَّها ... فأجلُّها منها مُقيمُ الألْسُنِ

وقال علي بن بسام:

رأيتُ لسانَ المَرْءِ رائدَ عِلْمِه ... وَعُنْوانَهُ فَانْظُرْ بماذا تُعَنْوَنُ

ولا تَعْدُ إصلاحَ اللسانِ فإنهُ ... يُخَبِّرُ عَمّا عِنْدَهُ وَيُبيِّنُ

---

(١) أوده: اعوجاجه.

(٢) يفلّ: يكسر ويضعف.

(٣) في نسخة: «بمسكتاتِ حكمه».

(٤) لكن فلان لَكْناً وَلُكْنَةً: عيَّ وَثَقُلَ لسانه.

علـى أن لـلإعـراب حَـدًّا، وَرُبّمـا سَمِعْتَ من الإعراب ما ليس يَحْسُنُ
ولا خيرَ في اللّفْظِ الكريهِ استماعُهُ ولا فـي قبيـح اللَّحْـنِ والقَصْـدُ أزْيَـنُ

وقال بعضُ أهل العصر، وهو أبو سعيد الرستمي:

أَفِي الحقِّ أن يُعْطَى ثلاثون شاعراً وَيُحرَمُ ما دونَ الرّضا شَاعِرٌ مثلي
كمـا سَـامَحُـوا عَمْـراً بـواوِ زيـادةٍ وَضُويِقَ بسم اللّه في أَلِفِ الوَصْلِ

أبو الفتح البستي:

حُـذِفْـتُ وغيـري مُثبَـتٌ فـي مَكـانـهِ كـأنـي نُـونُ الجمـعِ حيـن يُضَـافُ

وقال:

أَفْدِي الغزالَ الذي في النَّحْوِ كلَّمني مُنَـاظِـراً فـاجتنيـتُ الشّهـدَ مـن شَفَتِـهْ
فـأوْرَدَ الحُجَـجَ المقبـولَ شـاهِـدُهـا مُحققـاً ليـرينـي فَضْـلَ مَـعْـرفَتِـهْ
ثـم اتفقـتُ علـى رَأْيٍ رَضِيـتُ بـهِ والرفعُ من صِفتِي والنصبُ من صِفتِه

الحسن اللحام:[١]

أنـا مِـنْ وُجـوهِ النحـوِ فِيكُـمْ أفْعَـلُ وَمِـنَ اللغـاتِ إذا تُعَـدُّ المُهمَـلُ[٢]

[لَوْعَةُ الشوق]

وقال أحمد بن يوسف:

كتب غلامٌ من ولد أنو شروان ممن كان أحد غلمان الديوان، إلى آخر منهم وكان قد علق به، وكان شديدَ الكَلَف به والمحبّة له: ليس من قَدْري ـ أدام الله سعادَتك ـ أَن أقولَ لمثلك جُعِلْتُ فِدَاك؛ لأني أراك فوقَ كلِّ قيمة خطيرة وثمن مُعْجِز، ولأنَّ نفسي لا تُسَاوِي نفسك، فتُقْبَل في فِدْيتك، وعلى كل حال؛ فجعلني اللهُ فِدَاءَ ساعة من أيامك، اعلم أيها السيد العليُّ المنزلة، أنه لو كان لِعَبْدِك من شدة الخطب أمرٌ يقِفُ على حدّه النعت[٣]، لاجتهدنا أن يُضْعِفَ[٤] من ذلك ما عسى أن يعطف به زمام قَلْبِك، وتحنو له على الرّقة به

(١) في نسخة: «أبو الحسن اللحام».
(٢) أفعل: يريد أنه غير منصرف.
(٣) النعت: الوصف.
(٤) في نسخة: «لاجتهد أن يصف».

والتحفّي أثناء جوانحك، ولكن الذي أمسيت وأصبحت ممتحَناً به فيه شَسَعَ[1] على كل بيان، ونزح عَنْ كلّ لسان؛ والحب أيها المالك لم يَشُبْهُ قَذَى ريبة، ولم يختلط به قلب مَعَاب، فلا ينبغي لمن كرمت أخلاقُه أن يعاف مقاربة صاحبه المدل بحرمة نيته، والذي أتمناه أيها المولى اللطيف مجلس أقف فيه أمامك، ثم أبوح بما أضنى جسدي، وفتّ كبدي، فإن خفّ ذلك عليك ورأيت نشاطاً من نفسك إليه كنتَ كمن فكّ أسيراً وأبرَأَ عليلاً، ومن الخير سلك سبيلاً، يتوعَّرُ سلوكُها على منْ كان قبله، ومَنْ يكون بعده؛ ثم أضاف إلى ذلك منّة لا يُطيقها جَبَلٌ رَاس، ولا فلك دائر، فرأيك أيها السيد المعتمد في الإسعاف، قبل أن يَبْدرَني الموتُ؛ فيحول بيني وبين ما نزعت إليه النفس مواصلاً برًّا إن شاء الله تعالى.

فأجابه: تولّي الله تعالى ما جرى به لسانك بالمزيد، ولا أَوْحش ما بيننا بِطائر فُرْقَة، ولا صافر تشتّت، وضمَّنَا وإياك في أوثَق حبال الأُنس، وأؤكد أَسبابِ الأُلْفَة؛ وقفت على ما لخصته من العجز من بلوغ ما خامرَ قلبك[2]، وانطوى في ضميرك، من الشَّغَف المقلق، والهوى المضرع، ولعمري لو كشَفْتُ لك عن مِعْشَار ما اشْتَمَل عليه مضمر صدري لأيقنت أنَّ الذي عندك إذا قِسْتَه إلى ما عندي كالمتلاشي البائد، ولكنك بفَضْل الإنعام سبقْتَنا إلى كَشْف ما في الضمير. وأما طاعتي لك، وذمامي إليك؛ فَطَاعةُ العبد المُقْتَنَى، الطائع لما يَحْكُم له وعليه مولاه ومالِكُه، وأنا صائرٌ إليك وَقْتَ كذا؛ فتأهَّبْ لذلك بأحمد عافية، وأتمّ عُقْدَة[3]، وأَسْعد نجم جرى بالأُلفة، إن شاء الله تعالى.

وكتب بعض الكتَّاب: إني لأكْرَهُ أَنْ أفديك بنفسي استحياءَ من التقصير في المعاوضة، ومن التخلّف في الموازنة، وعلى الأحوال كلِّها، فَقَدَّم اللهُ رُوحِي عنك، وصانني عن رُؤْية المكروه فيك.

وقال المتنبي:[4]

فِدًى لك من يُقَصّر عن مَدَاكا فلا مَلِكٌ إذَنْ إلاَّ فَدَاكا[5]

---

(١) شسع: بعد.

(٢) خامر قلبك: خالطه.

(٣) في نسخة: «وأتم عاقبة».

(٤) المتنبي، الديوان: ٢/ ٤٠٥. والأبيات من قصيدة قالها عند وداعه لعضد الدولة، في الأول من شعبان سنة ٣٥٤ هـ/ ٩٦٤ م، وهي آخر شعر قاله.

(٥) المدى: الغاية. يقول: يفديك كل من قصر عن غايتك، وإن استجيب هذا الدعاء، فداك الملوك=

وَلـو قُلْنَـا فِـدًى لـك مَـن يُسَـاوِي دَعَـوْنَـا بـالبقـاء لِمَـنْ قَـلاَكـا(١)
وآمَنَّـا فـداءَكَ كـلَّ نَفـسٍ وإن كـانـت لِمَمْلَكـةٍ مِـلاَكـا(٢)

[وقال عبيد اللّٰه بن شنيب: كتب إليَّ بعض إخواني من أهل البصرة كتاباً ملح فيه وأوجز، وهو: أطال الله بقاءَك، كما أطال حباءك، وجعلني فداك إن كان فيّ فداؤك.

كَتَبْتُ ولـو قَـدِرْتُ هـوًى وَشـوْقـاً إليـكَ لَكُنْـتُ سَطْـراً فـي كتـابـي]

وكتب آخر إلى إبراهيم وأحمد ابني المدبّر، وقد أصابتهما مِحْنَةٌ ثم أردفتها نعمة: لو قُبلت فيكما، ودانيتُ قدريكما، لقلت: جعلني الله فداكما، ولكني لا أجزي عنكما، فلا أُقبل بكما، وقد بلغتني المحنة التي لو مات إنسان غَمًّا بها لكنته [ثم اتصلت النعمة التي لو طار امرؤ برحابها لكنته] وكتب تحته:

وَلَيْـسَ بِتَـزْويـقِ اللسـانِ وَصَـوْغـهِ وَلكنَّـهُ قـد خَـالـطَ اللَّحْـمَ والـدَّمَـا

وكتب ابن ثوابة إلى عبيد اللّٰه بن سليمان يعتذِرُ في تَرْك مكاتبته بالتفدية [الله يعلم، وكفى به عليماً، لقد وددت مكاتبتك بالتفدية] فرأيت عيباً أن أفديك بنفسٍ لا بدَّ لها من فَنَاء، ولا سبيلَ لها إلى بقَاء، ومَنْ أظهر لك شيئاً وأضمر لك خِلافَه فقد غشّ؛ والأمر إذا كانت الضرورَةُ تُوجبُ أنه مَلَقٌ(٣) لا يحقق، وإعطاء لا يتحصّل، لم يجب أن يخاطبَ به مِثْلَك، وإن كان عند قومٍ نهايةً من نهايات التعظيم، وَدَليلاً من دلالات الاجتهاد، وطريقاً من طرق التقرّب.

قال الزبير بن أبي بكر: قال لي مسلمة بن عبد اللّٰه بن جندب الهذلي: خرجت أريدُ العقيق ومعي زَيَّان السوّاق؛ فلقينا نسوةٌ فيهن امرأةٌ لم أرَ أجملَ منها فأنشدت بيتينِ لزَيَّان:

أَلاَ يـا عبـادَ اللّـٰهِ هـذا أخـوكُـمُ قَتيـلٌ، فَهَـلْ فِيكُـم لـه اليـوم ثـائـرُ؟

= كلهم، لأنهم جميعاً مقصرون عنك.

(١) يساوي: أي يساويك، فحذف المفعول للعلم به. وقلاك: أبغضك.
أي: ولو قلنا: يفديك من كان مساوياً لك، كان ذلك دعاءً لأعدائك بالبقاء، إذ لا يساويك أحد منهم.

(٢) مِلاكُ الشيء: ما يقوم به، أي وجعلنا كل نفس آمنة من أن تفديك، ولو كانت نفس ملك كبير الشأن، تقوم مملكته به، ويضمن لها البقاء ببقائه.

(٣) الملق: الدعاء والتضرّع.

خُذُوا بدمي، إن متُّ، كُلَّ خَريدةٍ مَريضةِ جَفْنِ العَيْنِ والطَّرْفُ ساحِرُ[١]

ثم قال: شأنك بها يابنَ الكرام فالطلاقُ له لازمٌ إن لم يكن دَمُ أبيك في نقابها. فأقبلت عليَّ وقالت: أنت ابن جندب؟ فقلت: نعم. قالت: إن قتيلنا لا يُودى، وأسيرنا لا يفدى، فاغْتَنِمْ لنفسك، واحتسب أباك.

بنو عذرة

قال أبو عبيدة: قال رجل من فزارة لرجل من بني عذرة: تعدُّونَ موتكم من الحبّ مزية، وإنما ذاك من ضَعْف المنّة، وعَجْز الروية. فقال العذري:

أما إنكم لو رأيتم المحاجرَ البُلْج[٢]، ترشق بالأعين الدُّعْج[٣]، فوقها الحواجبُ الزُّج[٤]، [وتحتها المباسم الفُلْج][٥]، والشِّفَاهُ السُّمْر، تفترّ عن الثنايا الغُرّ، كأنها بَرَد الدُّر، لجعلتموها اللات والعُزّى، ورفضتم الإسلام وراء ظهوركم:

وصف الحسان

وقال أعرابي: دخلتُ بغداد فرأيتُ فيها عيوناً دُعْجاً، وحواجبَ زُجًّا، يَسْحَبْنَ الثياب، ويَسْلُبْنَ الألباب.

وذكر أعرابي نساءً فقال: ظعائن في سوالفهن طول، غير قبيحات العُطُول[٦]، إذا مشين أَسْبَلْنَ الذيول، وإن رَكِبْنَ أثقلْنَ الحُمول.

ووصف آخر نساء فقال: يتلثّمن على السبائك، ويتّشِحْنَ على النيازك[٧]، ويتّزِرْنَ

---

(١) الخريدة: البِكْرُ، العذراء.
(٢) البُلْجُ: جمع أبلج وبلجاء، وقد بلج الوجه بلجاً: تنضَّر سروراً، وَبلُجَ فلان: بَعُدَ ما بين حاجبيه، وكل واضح: أبلج.
(٣) الدُّعْجُ: جمع أدعج ودعجاء، وقد دعجت العين دَعَجاً، وَدُعْجَةً: اشتد سوادها وبياضها واتسعت.
(٤) الزُّجُّ: جمع أَزَجّ وزَجّاء، وقد زَجَّ الحاجب زَجَجاً: دَقَّ في طولٍ وتقوّس.
(٥) الفُلْجُ: جمع أَفْلج وَفَلْجَاء، وقد فلجت المرأة فَلَجاً وَفَلَجَةً: تباعد ما بين أسنانها خلقةً، ويقال: فلج ثغره، وفلجت أسنانه.
(٦) العُطُولُ: يقال: عطلت المرأة عَطَلاً وَعُطُلاً وَعُطُولاً: خلت من الحلي، فهي عاطل، والجمع عواطل.
(٧) النيازك: جمع نيزك، وهو جرم سماوي يسبح في الفضاء، فإذا دخل في جو الأرض احترق =

على العُوَاتِك، ويرتفقن على الأرائك، ويتهادَيْن على الدَّرَانك[١]، ابتسامُهن وَميض، عن ثَغْرِ كالإغريض، وهن إلى الصِّبَا صُور، وعن الخَنا حُور[٢].

[وصف الهوى، وأمره]

سئل بعضُ الحكماء عن الهوى، فقال: هو جليسٌ مُمْتع، وأَلِيف مُؤْنِس، أحكامه جائرة[٣]، ملكَ الأبدانَ وأرواحها، والقلوبَ وخواطرها، والعيون ونواظرَها، والنفوسَ وآراءها، وأعطى زمام طاعتها، وقيادَ مملكتها، تَوارَى عن الأبصار مَدْخَلُه، وغمض عن القلوب مَسْلَكه.

وَسُئِلت أعرابيةٌ عن الهوى فقالت: لا مُتِّعَ الهوَى بملكه، ولا مُلِّيَ بسلطانه، وقبض الله يدَه، وأَوْهَن عَضُده؛ فإنه جائر لا ينصف في حكم، أعمى ما ينطقُ بعدل، ولا يقصر في ظلم، ولا يَرْعَوِي لِلَوم، ولا ينقادُ لحقّ، ولا يُبْقي على عقل ولا فهم، لو ملك الهوى وأطيع لردّ الأمورَ على أدبارها، والدنيا على أعقابها.

ووصف أعرابي الهوى فقال: هودَاءٌ تَـدْوَى به النفوسُ الصِّحَاح، وتسيل منه الأرواح، وهو سقم مكتتم، وجَمْر مُضْطَرِم؛ فالقلوبُ له منضجة، والعيون ساكبة[٤].

قال [أبو] عبيد اللّٰه بن محمد بن عمران المرزباني:[٥] أخبرني المظفر بن يحيى، قال: أحبّ رجلٌ امرأةً دونه في القَدْر، فَعَذَلَهُ عمّه، فقال: يا عمّ، لا تَلُمْ مُجْبَراً على سَقَمه؛ فإن المقر على نفسه مُسْتَغْنٍ عن منازعة خَصْمِه، وإنما يُلام من اقترف ما يقدر على تركه، وليس أمرُ الهوى إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل فيدبره؛ بل قُدْرَتُهُ أغلبُ، وجانِبُه أعزّ من أن تنفذ فيه حيلةُ حازِم، أو لطف محتال.

= وظهر كأنه شهاب ثاقب متساقط، والنيزك أيضاً: الرمح القصير.

(١) الدرانك: البُسُط، واحدها درنك.

(٢) صور: مائلات، وحور: راجعات.

(٣) في نسخة: «أحكامه جائرة».

(٤) في نسخة: «والعيون ساكبة» أي تسبل الدمع.

(٥) هو أبو عبد اللّٰه، محمد بن عمران بن موسى بن سعيد بن عبد اللّٰه المرزباني، الخراساني الأصل، البغدادي: كاتب، اخباري، راوية، كثير السماع. ولد ببغداد وتوفي فيها سنة ٣٨٤ هـ/ ٩٩٤ م. (عمر كحالة، معجم المؤلفين: ١١/ ٩٧).

وقال بعضهم: رأيت امرأتين من أهل المدينة تُعَاتِب إحداهما الأخرى على هَوًى لها، فقالت: إنه يقال في الحكمة الغابرة، والأمثال السائرة: لا تَلُومنَّ من أساءَ بك الظنّ إذا جعلتَ نفسَك هدَفاً للتهمة، ومن لم يكن عَوْناً على نفسه مع خَصْمه لم يكن معه شيء من عُقْدَة الرأي، ومن أَقْدَم على هَوًى وهو يَعلمُ ما فيه من سوءِ المغبّة سلط على نفسه لسان العَذْلِ، وضيع الحَزْمَ. فقالت المعذولة: ليس أَمرُ الهوى إلى الرأي فيملكه، ولا إلى العقل فيدبره، وهو أغلب قدرةً، وأمنع جانباً من أن تنفذ فيه حيلة الحازم، أو ما سمعت قول الشاعر:

لَيْسَ خَطْبُ الهوَى بِخطْبٍ يسيرِ لا يُنَبّيك عنهُ مِثْلُ خَبيرِ
لَيْسَ أمرُ الهَوى يُدَبَّرُ بالرَّأْ ي ولا بالقياسِ والتفكيرِ
إنما الأمرُ في الهوى خَطَراتٌ مُحدَثاتُ الأمورِ بَعْدَ الأمورِ

قال المرزباني: أخبرني الصولي أنّ هذه الأبيات لِعُلَية بنت المهدي[١]، ولها فيها لَحْنٌ.

وقيل لعبد اللَّه بن المقفع: ما بالُ العاقل المميز الذهن، واللبيب الفطِن، يتعرض للحب وقد رأى منه مواضعَ الهلكة، ومصارعَ التّلَف، وعلم ما يؤول[٢] إليه عُقْبَاه، وترجع به أُخْراه على أولاه؟ فقال: زُخْرِفَ[٣] ظاهرُ العشق بجمال زينة يستدعي القلوب إلى مُلامَسَتِه، ومُلّي بعاجل حلاوة يطّبي[٤] النفوسَ إلى مُلابَسَتِهِ، كظاهر زخرف الدنيا، وبهاء رونقها، ولذيذ جَنَى ثمرها، وقد سكرت أبصارُ قلوب أبنائها عن النظر إلى قبيح عيوب أفعالها، فهم في بلائها منغمسون، وفي هلكة فتنتها متورّطون، مع علمهم بسوءِ عواقب خَطْبها، وتجرُّع مرارةِ شربها، وسرعة استرجاعها ما وهبت، وإخراجها مِمَّا ملكت، فليس يَنْجُو منها إلا مَنْ حَذِرها، ولا يهلك فيها إلا من أَمِنها، وكذلك صُورةُ الهوى؛ هما في الفتنة سواء.

---

(١) عُلَيَّة بنت المهدي بن المنصور، من بني العباس، وأخت هارون الرشيد: أديبة، شاعرة، من أحسن الناس وأظرفهم، وكانت حسنة الدين، لا تُغني ولا تشرب النبيذ إلا إذا اعتزلت الصلاة، فإذا طهرت أقبلت على الصلاة وقراءة القرآن. وكانت تخص الرشيد بالغناء والشعر، فلما مات تركت الغناء، فألح عليها الأمين فغنته. توفيت سنة ٢١٠ هـ/ ٨٢٥ م. (ابن العماد، شذرات الذهب: ١/ ٣١١؛ فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٢/ ١٨٦).

(٢) يؤول: يرجع.

(٣) زُخْرِفَ: زُيِّن.

(٤) يُطبّي النفوس: يدعوها.

[بعض ما جاء في العفاف]

وقال ابن دُرَيد: قال بعضُ الحكماء: أَغْلِق أبواب الشبهات بأفعال الزهادة، [وافتح أبوابَ البر بمفاتيح العبادة] فإنَّ ذلك يُدْنِيك من السعادة، وتستوجب من اللهِ الزيادة.

وقال غيرُه: إنَّ اللذةَ مشوبةٌ بالقُبح؛ ففكّروا في انقطاع اللذةِ وبقاءِ ذِكْرِ القُبحِ.

قال أبو عبد اللّه بن إبراهيم بن عرفة [نَفْطَوَيْه]:(١)

لَيْسَ الظريفُ بِكاملٍ في ظَرفِه حتى يكونَ عن الحرامِ عفيفا
فإذا تعفَّفَ عن محارمِ رَبّهِ فَهُناكَ يُدْعَى في الأنامِ ظَرِيفا

وقال:

كم قد ظَفَرْتُ بمن أَهوَى فَيمنَعُني منه الحياءُ وخَوْفُ اللّهِ والْحَذَرُ
وَكم خَلَوْتُ بمن أَهْوَى فَيُقْنِعُني مِنْهُ الفكاهَةُ والتقبيلُ والنَّظَرُ
أَهْوَى الملاحَ وأَهْوَى أَنْ أُجالِسَهُمْ وَلَيْسَ لي في حَرَامٍ مِنْهُمُ وَطَرُ
كَذلِكَ الحبُّ لا إتيانُ مَعْصِيَةٍ لا خيرَ في لذةٍ مِنْ بَعْدِها سَقَرُ

وقال العباس بن الأحنف:

أتأذنونَ لِصَبٍّ في زِيَارتِكُمْ فَعِنْدَكُمْ شَهواتُ السَّمْعِ والبَصَرِ
[لا يُضمر السوءَ إن طالَتْ إقامتُه عَفُّ الضميرِ وَلكِنْ فاسِقُ النظرِ]

وقال بعضُ الطالبيين:

رَمَوْني وإياهم بِشَنْعاءَ هُمْ بها أَحَقُّ، أَدَالَ اللّهُ منهم وَعجَّلاَ
بِأمرٍ تَركناه وَرَبِّ محمدٍ جَميعاً فإما عِفَّةً أو تَجمُّلاَ

وقال سعيد بن حميد:

زَائرٌ زارَنا على غَيْرِ وعدِ مُخْطَفُ الكَشْحِ مُثْقَلُ الأردَافِ

(١) هو أبو عبد اللّه، إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان بن المغيرة بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي، الملقب بنفطويه النحوي الواسطي. أديب بارع، له تصانيف حسان. توفي سنة ٣٢٣ هـ/ ٩٣٥ م. (ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١/ ٤٧؛ القفطي، إنباه الرواة: ١/ ١٧٦؛ السيوطي، بغية الوعاة: ١٨٧؛ ابن النديم، الفهرست: ٨١).

غـالـبَ الخـوفَ حيـن غـالبهُ الشـو ... قُ وأخفَـى الهـوَى وليـس بخـافِـي
غَـضَّ طـرفـي عنـه تُقـى اللّـهِ فـاختـر ... تُ علــى بَـذلِـه بقــاءَ التَّصــافــي
ثـم ولّـى والخـوفُ قـد هَـزَّ عِطْفَيْـ ... ـه ولـم يَخْـلُ مـن لِبـاس العَفَـافِ

وفي الحديث الشريف: «مَنْ أحبَّ فعفَّ فمات فهو شهيدٌ».

والعفافُ مع البَذْل، كالاستطاعة مع الفعل، كما قال صريع الغواني:

وَمـا ذمّـيَ الأيـام أنْ لَسْـتُ مـادحـاً ... لِعَهْـدِ ليـاليهـا التـي سلَفَـتْ قبـلُ
ألاَ رُبَّ يـومِ صـادقِ العَيْـشِ نِلْتُـهُ ... بهـا ونَـدامَـاي العَفـافـةُ والبَـذْلُ[١]

وأنشد الصولي لأبي حاتم السجستاني[٢] في المبرّد، وكان يلزم حَلْقَته، وكان من المِلاَح وهو غلام:

مـاذا لقيـتُ اليـومَ مـنْ ... مُتَمجِّـنٍ خَنِـثِ الكـلامْ[٣]
وَقَـفَ الجمـالُ بِـوَجْهِـهِ ... فَسَمَـتْ لـه حَـدَقُ الأنـامْ
حَـرَكَـاتُـهُ وَسُكُـونُـهُ ... يُجْنَـى بهـا ثَمَـرُ الأثـامْ
فـإذا خَلَـوْتُ بمثلـهِ ... وعَـزَمْـتُ فيـه علـى اعتـرامْ[٤]
لـم أعْـدُ أخـلاقَ العَفَـا ... فِ وذاكَ أَوْكَـدُ للغَـرَامْ
نَفْسِـي فِـدَاؤكَ يـا أبـا الْـ ... ـعبـاس جَـلَّ بـك اعتصـامْ
فـارْحَـمْ أخـاكَ فـإنـهُ ... نَـزْرُ الكَـرَى بـادي السقـامْ
وأنِلْـهُ مـا دُونَ الحـرا ... مِ فليـس يَـرْغَـبُ فـي الحـرامْ

وكان أبو حاتم يتصدَّق كلَّ يوم بدرهم، ويختم القرآن في كل أسبوع.

---

(١) الندامى: جمع نديم، وهو الذي يجالسك على الشراب.
(٢) هو أبو حاتم، سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني: من كبار العلماء باللغة والشعر، من أهل البصرة. كان المبرد يلازم القراءة عليه. له نيف وثلاثون كتاباً، منها: كتاب «المعمرين» و«النخلة» و«المختصر» في النحو. توفي سنة ٢٤٨ هـ/ ٨٦٢ م. (الزركلي، الأعلام: ٣/ ١٤٣).
(٣) المُتَمجِّنُ: الكثير المجون. وخنث الكلام: لينه وتكسره.
(٤) اعترام: يقال: عرم فلان عَرْماً: اشتد، وَخَبُث، وكان شريراً، وعرم فلاناً واعترمه: أصابه بشراسةٍ وأذًى.

وذكر أنه اجتمع أبو العباس بن سُرَيج الشافعي، وأبو بكر بن داود العباسي في مجلس علي بن عيسى بن الجراح الوزير، فتناظَرَا في الإيلاء، فقال ابن سريج: أنت بقولك: «من كثرت لَحَظاته دامَتْ حَسَراته» أبْصَرُ منك بالكلام في الإيلاء، فقال أبو بكر: لئن قلت ذلك فإني أقول:

أُنـزِّه فـي رَوْضِ المَحَاسِـن مُقْلَتـي ... وأَمْنَـعُ نفسـي أَنْ تَنـالَ مُحَـرَّمَـا

وأحمِلُ من ثِقَل الهوَى ما لَوْ أنه ... يُصَبُّ على الصَّخْر الأصمِّ تهدَّمَا

وَينطقُ طَرْفِي عن مُتَرْجَمِ خَاطِرِي ... فَلَـوْلاَ اختـلاسِـي رَدَّهُ لَتكلَّمـا

رأيتُ الهوَى دَعْوَى من الناسِ كلِّهم ... فلسـتُ أرى حُبًّا صَحيحـاً مُسلَّمـا

فقال أبو العباس: بم تفتخرُ عليّ؟ وأنا لو شئت لقلت:

وَمُطَـاعِـمٍ للشّهْـدِ مِـنْ نَغَمـاتِـه ... قَـدْ بِـتُّ أَمْنعـهُ لـذيـذَ سِنَـاتِـه[١]

صبًّـا بِحُسْـنِ حـديثـه وكـلامِـهِ ... وأُكـرِّر اللحظـاتِ فـي وَجنـاتِـه

حَتّـى إذا مـا الصبـحُ لاح عَمـودُهُ ... وَلّـى بِخَـاتـمِ رَبِّـهِ وَبُـرَاتِـه[٢]

فقال أبو بكر: أصلح الله الوزير، تحفظ عليه ما قال حتى يقيمَ شاهدَين عَدْلين أنه ولى بخاتم ربه! فقال أبو العباس: يلزمني في هذا ما يلزمك في قولك: أنزه في رَوْض المحاسن مُقْلَتي... البيت. فضحك الوزيرُ، وقال: لقد جَمَعْتُما ظرفاً ولُطفاً وفَهْماً وعلماً.

ألفاظ لأهل العصر، في محاسن النساء

هي روضةُ الحُسْنِ، وضرَّةُ الشَّمْسِ، وبَدْرُ الأرض. هي من وجهها في صباحٍ شَامِسٍ، ومن شَعْرِها في ليل دَامس[٣]، كأنها فلقة قَمَر على بُرْج فضة. بَدْرُ التَّمِّ يضيء تحت نِقابها، وغُصْنُ البانِ يهتز تحت ثيابها، ثَغْرُها يجمعُ الضريب والضرَب[٤]، كأنهُ نثر الدرّ، كما قال البحتري:[٥]

---

(١) السِّنَةُ: النُّعاسُ.

(٢) البُراتُ: جمع بُرَة: حلقة من صفر أو غيره تضعها المرأة في أنفها للزينة، أو كل حلقة أو سوار أو قرط أو خلخال وما أشبه ذلك.

(٣) شامس: ذو شمس (على النسب)، ودامس: مظلم.

(٤) الضريب: اللبن، والضرب: عسل النحل.

(٥) البحتري، الديوان: ١/ ٣٨١. والبيت من قصيدة يمدح بها أحمد بن محمد الطائي.

إِذا نَضَــوْنَ شُفُــوفَ الــرَّيْــطِ آونــةً ... قَشَرْنَ عَنْ لؤلؤِ البَحْرَين أَصْدَافا[١]

قد أنْبَتَ صدرُها ثمرَ الشباب، خَرطَتْ لها يدُ الشبابِ حُقّيْنِ[٢] من عاج، كأنها البدرُ قُرِّط بالثريَّا، ونيطَ بها عِقْدٌ من الجوزاء، أعلاها كالغُصْن ميّال، وأسفلها كالدِّعص[٣] مُنْهال، لها عُنق كإبريق اللُّجَيْن، وسُرَّة كَمدْهُن العاج، نِطَاقُهَا مُجْدِب، وإِزَارُها مُخْصِب. مَطلَعُ الشمس من وَجْهِها، ونَبْت الدرِّ من فيها، وملقط الوَرْد من خدّها، ومنبع السِّحْرِ من طَرْفِها، ومبادىء الليل من شَعْرِها، ومغرس الغصن من قدِّهَا، ومهيل الرَّمْلِ من رِدْفِها.

ولهم في محاسن الغلمان والمعذرين

زاد جمالُه، وأقمر هِلاله. ترقرقَ في وجهِه ماءُ الحُسْنِ، شادِنٌ[٤] فاترٌ طَرْفه، ساحرٌ لَفْظه. غلامٌ تأخذُه العَيْن، ويَقْبَله القَلْبُ، ويأخذه الطَّرْفُ، وترتاح إليه الرّوح. تكادُ القلوبُ تأكله، والعيون تَشْرَبُه. جرى ماءُ الشباب في عُوده فتمايلَ كالغُصْنِ، واستوفى أقسامَ الحُسْنِ، ولبس ديباجةَ المَلاَحة، كأنَّ البَدْرَ قد ركب أزراره، لا يشبَع منه الناظرُ، ولا يُرْوَى منه الخاطِر، كاد البدرُ يَحكِيه، والشمسُ تشبهه وتُضَاهيه، صور تَجْلو الأبصار، وتُخْجِل الأقمار، شادنٌ مُنْتَقِبٌ بالبَدْر، ومكتَحِلٌ بالسحر. ما هو إلاّ نُزْهة الأبصار، وَمُخْجِل الأقمار، وبِدْعة الأمصار، غمزات طَرْفه تُخْبِر عن ظَرْفِه، ومنطِقُه ينطقُ عن وَصْفه. تخالُ الشمسَ تبرقعَتْ غرَّتَه، والليل ناسب أصداغَه وطُرَّتَه، الحُسْنُ ما فوق أزراره، والطِّيبُ ما تحت إزاره، شادن يَضْحَكُ عن الأقحوان، ويتنفّسُ عن الريحان، كأنّ خدَّه سكران من خَمْر طرفه، وبغداد مسروقةٌ من حُسْنِه وظَرْفِه، أعجمت يدُ الجمالِ نونَ صُدْغِه بِخَال، هذا محلول من قول ابن المعتز:

غِــلالــة خَــدّهِ صُبِغَــتْ بِــوَرْدٍ ... وَنُــونُ الصُّــدْغِ مُعْجَمَــةٌ بِخَــالِ

له عينان حَشْوُ أجفانهما السِّحْرُ، كأنه قد أعار الظَّبْيَ جِيدَه، والغُصْنَ قدَّه، والراح رِيحَه، والوَرْدَ خدَّه، الشّكل[٥] من حَرَكاته، وجميعُ الحُسْنِ بعض صفاته. قد ملك أزِمَّةَ القلوب، وأظهر حجَّةَ الذنوب، كأنما وَسَمَه الجمالُ بنهايته، ولحظَهُ الفلكُ بعنايته، فصاغَه من

(١) نضون: خلعن. الشفوف: واحد شفّ: الثوب الرقيق. الريط: جمع ريطة: الملاءة.
(٢) «حقين»: تثنية حقّ: وعاء من عاج يوضع فيه الطيب، وأراد ثدييها.
(٣) الدِّعْصُ: الكثيب من الرمل.
(٤) الشادن: ولد الظبية الذي قوي واستغنى عن أُمّه.
(٥) الشكل: الدلال.

لَيْله ونهاره، وحَلاَّهُ بنجومه وأقماره، ونَقَّبه ببدائع آثاره، ورَمَقَه بنواظر سُعودِه، وجعله بالجمال أحدَ حدوده. وقد صَبَغ الحياءُ غِلاَلَة وَجْهه، وَنُشر لؤلؤُ العرق عن وَرْدِ خدّه. تكادُ الألحاظُ تسفكُ من خَدِّه دمَ الخجَلِ. له طرّة كالغَسَقِ، على غُرَّةٍ كالفَلَق. جاءنا في غِلالة تنمُّ على ما يستره، وتجفو مع رِقّتها عما يظهره. وجهٌ بماءِ الحُسْنِ مغسول، وطَرْف بِمِرْود السِّحْرِ مكحول، ثغر حُمِيَ حمايةَ الثغور، وجُعِل ضرّة لقلائد النحور. السِّحْرُ في ألحاظه، والشهدُ في ألفاظه. اختلس قامةَ الغُصْنِ، وتوشّح بمطارف الحسن، وحكى الروض غبَّ المُزْن[1]. الأرضُ مشرقةٌ بنورِ وجهه، وليل السِّرار في مثل شَعْره[2]. الجنةُ مجتناةٌ من قُرْبه، وماءُ الجمالِ يترقرقُ في خدِّه، ومحاسنُ الربيع بين سَحْرِه ونَحْرِه، والقمرُ فَضْلَةٌ من حُسْنِه. ما هو إلا خالٌ في خدِّ الظَّرف، وطِرَازٌ على علم الحُسْنِ، ووَرْدَةٌ في غُصْنِ الدهرِ، ونَقْشٌ على خاتم الملك، وشمسٌ في فَلَك اللطف. هو قَمَرٌ في التصوير، شمسٌ في التأثير. منظر يملأ العيونَ، ويملكُ النفوس، زَرافين أَصداغه[3] معاليق القلوب. كأنَّ صُدْغَهُ قرط من المسك على عارض البَدْر. وجهُه عرس، وصدغه مَأْتم، ووصله جنة، وهجره جهنم. أصداغُه قد اتخذت شَكْلَ العقارب، وظلمت ظُلْمَ الأقارب. إن كان عقرب صُدْغه تلسع، فترياق رِيقه يَنْفَع. كأن شاربَه زِئْبَرُ الخزّ الأخضرِ[4]، وعِذَارُه طراز المِسْك والعَنْبَر [الأذفر][5]، على الوَرْدِ الأحمر. إذا تكلّم تكشَّفَ حِجَابُ الزمرّد والعقيق، عن سِمْطِ الدرِّ الأنيق. قد هَمَّ أرقَمُ الشَّعْر على شاربِه، وكاد فم الحُسْن يقبّله. كأنَّ العِذَار ينقش فصَّ وَجْهِه، ويحرق فِضَّة خدّه. طرَّزَ الجمالُ ديباج وجْهِه، وأبانَ عِذَارُه العذرَ في حُبّه. [لعب الربيعُ بخدّه، فأنبت البنفسجَ في وَرْده. لما احترقتْ فضةُ خدّه، احترق سواد القلب من حبّه].

كَيْفَ لا يَخْضَرُّ شَارِبُهُ ... وَمِيَاهُ الحُسْنِ تَسْقِيهِ

ولهم في نقيض ذلك، في ذم خروج اللحية

قد انتقب بالدَّيْجُورِ، بعد النور؛ فَدَوْلةُ حُسْنِه قد أعرضَتْ أيامه، وانقرضَتْ دَوْلَتُه

(١) المُزْنُ: السحاب يحمل الماء، الواحدة مُزْنَة.
(٢) ليل السرار: آخر ليالي الشهر العربي.
(٣) الزرافين: جمع زرفين، وهو الحلقة، يقال: زرفن صدغيه: جعلهما على شكل الزرفين.
(٤) الزئبر: الزغب والوبر الذي يعلو المنسوجات.
(٥) مِسْكٌ أذفر: جيد إلى الغاية، وقد ذفر الشيء: اشتدت رائحته.

وأحكامُه. استحال خدُّه دُجا، وزمرّد خَدِّه سُبَجا[١]؛ وأخمدت نارُ حُسْنه بعد الإيقاد، ولَبس عارضُه ثوبَ الحِدَاد. ذَبُل وَرْدُ خدِّه، وتشوَّك زعفَرانُ خطه. فارقنا خَشْفا، ووافانا جِلْفا[٢]، وفارَقنا هلالاً وغَزَالا، وعاد وبالاً ونَكالاً[٣]. مالي أرى الآباطَ جائِشة:[٤] والآنافَ مُعْشِبة، والعيون منورة، والأزرار مرعى، والأظفارَ حِمًى، واللحى لبودا، والأسنان خُضْراً وَسُودا.

من رسائل البديع ومقاماته

من رسالة لمن طلب وداده

وكتب إلى بديع الزمان بعضُ من عُزل عن ولاية حسنة يستمدُّ وداده ويستميل فؤاده؛ فأجابه بما نسخته: وَرَدَتْ رُقْعَتُكَ أطالَ الله بقاءك فأَعَرْتُهَا طرف التعزّز ومددت إليها يدَ التقزز، وجمعت عليها ذَيلَ التحرُّز، فلم تند على كَبدي، ولم تحظ بناظري ويَدِي. ولقد خطبت من مَودّتي ما لم أجِدْك لها كَفِيًّا، وطلبت من عِشرتي ما لم أرَكَ لها رضيًّا؛ وقلت: هذا الذي رفع عنًّا أجفان طَرْفه، وشال بشعرات أنفه، وتَاه بحُسْنِ قَدِّه، وزهَا بوَرْدِ خَدِّه، ولم يَسْقِنا من نَوْئِه، ولم نَسِرْ بضوئه؛ فالآنَ إذْ نسخ الدهرُ آيَةَ حُسْنِه، وأقام مائل غُصنه، وفَلَّل غَرْب عُجْبِه[٥]، وكفَّ شَأْوَ زَهْوِه، وانتصر لنا منه بشعرات قد كسفت هلاله، وأكسفَتْ بالَه، وَمَسَخَتْ جمالَه، وغيّرتْ حاله، وكدّرَتْ شِرْعتَه[٦]، ونكّرت طَلْعَتهُ، جاء يستقي من جرفنا جَرفا[٧]، ويغرف من طيتنا غَرْفا، فمهلاً يا أبا الفضل مهلاً:

أَرَغِبْتَ فينا إذْ عَلاَ ... كَ الشَّعْرُ في خَدّ قَحِلْ
وَخَرجْتَ من حدِّ الظبا ... ء وَصِرْتَ في حدّ الإبِلْ
أَنَشَأْتَ تَطْلُبُ عِشْرَتي ... عُدْ للعداوةِ يا خَجِلْ

---

(١) السبج: جمع سبجة أو سبيجة، وهي كساء أسود، والمراد أن شعر عارضيه قد نبت.
(٢) الخَشْفُ: ولد الظبية أول ما يولد، يطلق على الذكر والأنثى. والجِلْفُ: الكزّ الغليظ الجافي.
(٣) الوبال: الشدة، والثقل، والفساد، وسوء العاقبة. والنكال: العقاب أو النازلة.
(٤) الآباط: جمع إبط: باطن المنكب والجناح. جائشة: هائجة، متدفقة.
(٥) فلل: كسر، والضرب: الحدّ.
(٦) الشِّرْعَةُ: موضع ورود الماء، وتكديرها: تصيير ماؤها كدراً.
(٧) الجَرْفُ: المال الكثير من الصامت والناطق، والكلأ الملتف.

أنسيت أيامك؛ إذ تُكَلِّمنا نَزْراً[١]، وَتَنْظُرنا شَزْراً[٢]، وتجالسُ مَنْ حضر، ونسرق إليك النظر، ونهتزّ لكلامك، ونهش لسلامك:

فَمَنْ لك بالعينِ التي كُنْتُ مرةً ... إليك بها في سالفِ الدَّهْرِ أَنْظُرُ

أيام كنت تتمايل، والأعضاء تتزايَل، وتتغانج، والأجسادُ تَتَفالج، وتتفلّت، والأكباد تتفتّت، وتخطر وترفل، والوَجْدُ بِنا يَعْلو ويسفل، وتُدْبر وتُقْبل، فتمني وتخبل، [وتصد] وتُعْرِض، فتضني وتمرض:

وَتَبْسِمُ عَنْ أَلْمَى كأنَّ مُنَوّرا ... تَخلّل حُرّ الرملِ دِعْصٌ له ندِ[٣]

فأَقْصِر الآن فإنه سوقٌ كَسَد، ومتاعٌ فَسد، ودولة أعرضت، وأيام انقضت:

وَعَهْدُ نِفَاق مَضَى ... وَسُوقُ كَسادٍ نَزَلْ
وَخَدٌّ كأَنْ لم يكُنْ ... وَخَطٌّ كأن لَمْ يَزَلْ

ويوم صار أمس، وحسرة بقِيتْ في النفس، وثغر غاضَ ماؤُه فلا يرشف، وريق خدع فلا ينشف، وتمايَل لا يعجب، وتثنّ لا يطرب، [ووجه زال بهاؤه]، ومُقْلة لا تجرح ألحاظها، وشفَة لا تفتن ألفاظها، فحتّام تُدِلّ، وإلاَمَ نحتملُ وعَلاَم؟ وآن أن تُذْعِن الآن، وقد بلغني ما أنت مُتَعَاطيه من تمويهٍ يجوز بعد العِشاء في الغَسَق، وتشبيه يتفضحُ عند ذوِي البصر والصدق؛ من إفنائك لتلك الشعرات جفّا وحَصّا، وَإِنْحائِك عليها نقصاً وقصّا. وسيكفينا الدهرُ مؤونة الإنكار عليك، بما يزف من بنات الشعر وأمهاته إليك؛ فأما ما استأذنت فيه رَأيي من الاختلاف إلى مجلسي فما أقلَّ إليك نشاطي، وأضيق عنك بساطي، وأشنع قلقي منك، وأشد استغنائي عن حضورك، فإن حضرت فأنت داءٌ نَرُوضُ عليه الحلم، ونتعلم به الصبر، ونتكلف فيه الاحتمال، ونُغْضِي منه الجَفْنَ على قَذى، ونَطْوي منه الصدر على أذى، ونجعله للقلوب تأنيباً، وللعيون تأديباً. ومالك إلا أن تعتاض من الرغبة عنّا رغبةً فينا. ومن ذلك التدلّل علينا تذلّلاً لنا، ومن ذلك التعالي

---

(١) النَّزْرُ: القليل.
(٢) الشَّزْرُ: نظرة الإعراض، أو الغضب، أو الاستهانة.
(٣) البيت لطرفة بن العبد، أنظر ديوانه: ص ٢١. والألمى: الذي يضرب لون شفتيه إلى السواد، والأنثى لمياء. كأن منوراً: يعني أقحواناً منوراً. حرٌّ كل شيء: خالصه. الدعص: الكثيب من الرمل، والجمع أدعاص.

تَبَصْبُصاً[١]، ومن ذلك التغالي ترخُّصَا، وما بالُ الدهر أعقبك من التزايد تنقصاً، ومن التسحُّب على الإخوان تقمُّصاً، ولئن اعتَضْتَ من الذهاب رُجوعاً، لقد اعتضنا من النزاع نُزُوعاً[٢]، فأنا برَحْلِكِ وجانبك، ملقًى حَبْلُك على غارِبك، لا أُوثِر قُرْبَك، ولا أَنْدَه سِرْبك[٣]، والسلام.

المقامة الأسدية من إنشاء البديع

ومن إنشاء بديع الزمان في مقامات الإسكندري ولعلّ ما فيها من الطول غير مملول.

قال: حدثنا عيسى بن هشام قال: كان يبلغُني من مقامات الإسكندري ما يُصْغِي له النَّفُور، ويَنْتَفِضُ له العصفور، ويُرْوَى لي في شِعْره ما يَمْتزج بِأَجْزاء الهواء رِقَّةً، ويَغْمُضُ عن أوهام الكَهَنَةِ دِقةً، وأنا أسألُ اللهَ بقاءه، حتى أُرْزَقَ لقاءَه، وأتَعجّب من قعودِ هِمَّته بحالتِهِ، مع حُسْنِ آلَتِهِ، وقد ضربَ الدهر شؤونه أسدادا[٤] وهلمّ جرّا. إلى أنِ اتفقَتْ لي حاجةٌ بِحِمْصَ، فشحَذْتُ إليها الحِرْصَ، في صُحْبَةِ أفرادٍ كنجوم اللَّيلِ، أَحْلَاس[٥] لظهورِ الخيلِ، فأخذنا الطريق نَنْتهبُ مسافتَه، ونستأصِلُ شَأْفته، ولم نَزَلْ نَفْرِي أَسْنِمَةَ النِّجَادِ[٦] بتلك الجيَادِ، حتى صِرْن كالعِصِيِّ، ورَجَعْن كالقِسِيِّ، وتَاحَ لنا وادٍ في سَفْحِ جبل، ذي أَلَاءٍ وأَثْلٍ، كالعذارى يُسَرِّحْن الضفائرَ، وَيَنْشُرْن الغدائر، فمالتِ الهاجرةُ بنا إليها، فنزلنا نُغَوِّر ونَغُور، وربَطْنا الأفراسَ بالأَمْراس، ومِلْنا مع النُّعاس؛ فما راعَنا إلا صهيلُ الخيول، ونظرتُ إلى فَرَسي وقد أرْهَفَ أُذنيه، وطمَحَ بعينيه، يَجُذُّ قُوَى الجَبل بمشافره[٧]، ويَخُدُّ خَدَّ الأرضِ بحوافره[٨]، ثم اضطربت الخيلُ، فأرسلت الأبوال، وقطَّعَتِ الحِبالُ، وصار كلٌّ منا إلى

---

(١) يقولون: بصبص الكلب بذنبه: حركه يتملق به صاحبه، وبصبصت الإبل: حركت أذنابها عند الحداء وأسرعت، وبصبص في دعائه: رفع سبابتيه إلى السماء وحركهما.
(٢) نزعت النفس إلى الشيء نزاعاً: اشتاقته، ونزعت عنه نُزُوعاً: انصرفت.
(٣) نَدَهَ الرجل نَدْهاً: صاح، ونده البعيرَ ونحوه: زجره وطرده عن أي شيءٍ بالصياح، وكان من طلاقهم في الجاهلية أن يقول الرجل للمرأة: اذهبي فلا أَنْدَهُ سَرْبَك.
(٤) في رواية: «ضرب الدهم شؤونه، بأسداد دونه». والأسداد: جمع سَدّ، وهو الحاجز بين شيئين، والبناء في مجرى الماء ليحجزه.
(٥) الأحلاس: جمع حِلْس: كلّ ما ولي ظهر الدابة تحت القتب والرحل والسرج، وقوله: أحلاس لظهور الخيل، أي أنهم يلازمون ظهورها، كناية عن شجاعتهم وفروسيتهم.
(٦) النجاد: جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض، ضد السهل.
(٧) يَجُذُّ: يقطع.
(٨) خَدَّ الأرض خدًّا: حفرها.

سلاحه، فإذا الأسدُ في فَرْوة الموت، قد طلع من غابه، متنفخاً في إهابه، كاشراً عن أنيابه، بطَرْف قد ملىء صَلَفًا، وأنف قد حشى أنفاً. وصدر لا يبرحه القلب، ولا يسكنه الرُّعب، فقلنا: خَطْبٌ والله ملمّ، وحادِثٌ مهمٌّ، وتبادرَنا إليه من سَرْعان الرُّفقة فتى:

أخضـر الجِلْـدة مـن بَيْـتِ العَـرَبْ يمـلأُ الـدَّلْـوَ إلـى عقـد الكَـرَبْ

بقلبٍ ساقه قدرٌ، وسيفٍ كله أثرٌ، فَملكتْهُ سورة الأسد، فخانته أرضُ قدمه، حتى سقط ليده وفمه، وتجاوز الأسد مَصْرَعه، إلى مَن كان معه، ودَعا الحينُ أخاه، إلى مثل ما دعاه، فسار إليه، وعقل الرُّعب يديه، فأخذ أرضه وافترس الليثُ صدره، ولكن شغلتُ بعمامتي فمه، حتى حقنتُ دمه، وقام الفتى فوَجأَ بطنه حتى هلك من خوفه[1]، والأسد بالوجأة في جوفه، ونهضنا على أثر الخيل، فتألفنا منها ما ثبت، وتركنا ما أَفلتَ، وعدنا إلى الرفيق لنجهزَه.

فلمـا حَثَـوْنَـا التُّـرْبَ فـوقَ رفيقنـا جَـزعنـا ولكـن أيُّ سـاعـةِ مَجـزعِ

وعدنا إلى الفلاة، فهبطنا أرضها، وسرنا حتى إذا ضمرت المزاد، ونفِدَ الزادُ، أو كاد يدركه النفاد، ولم نملك الذهاب ولا الرّجوع، وخفنا القاتلين الظمأ والجوعَ، عنَّ لنا فارسٌ فَصَمَدْنا صَمْدَه، وقصدنا قصده، ولما بلغنا نزلَ عن حاذ فرسه ينقُشُ الأرضَ بشفتيه، ويلقي الترابَ بيديه، وعمدني من بين الجماعة، فقبل ركابي، وتحرَّم بثيابي، ونظرتُ فإذا وَجه يبرق برق العارض المتهلل، وفرس متى ما ترقَّ العينُ فيه تسهل، وعارضٌ قد اخضرَّ، وشاربٌ قد طر، وساعدٌ ملآن، وقضيب رَيَّان، ونجار تركيّ، وزي ملكي، فقلت: ما جاء بك؟ لا أبالك! فقال: أنا عبد بعض الملوك، همَّ من قتلي بِهَمٍّ، فهمت على وجهي إلى حيث تراني، وشهدت شواهدُ حاله، على صدق مقاله، ثم قال: أنا اليوم عبدُك، ومالي مالك، فقلت: بشرى لك وبك، أدَّاك سيرُكَ إلى فناءٍ رَحْب، وعيش رَطْب، وهنأتني الجماعة، بحسب الاستطاعة، وجعل ينظرُ فتقتلنا ألحاظه، وينطقُ فتفتننا ألفاظه، والنفسُ تناجيني فيه بالمحظور، والشيطان من وراء الغرور، فقال: يا سادة، إنَّ في سفح هذا الجبل عيناً، وقد ركبتم فلاة عَوْراء[2]، فخذوا من هنالك الماء، فلوينا الأعنة إلى حيث أشار،

---

(١) وَجَأَ فلاناً وَجْئاً وَوِجَاءً: دفعه بِجُمْعِ كَفِّه في الصدر أو العنق، ويقال: وجأه باليد والسكين: ضربه.

(٢) فلاة عوراء: صحراء ليس بها ماء.

وبلغناه وقد صهرت الهاجرة الأبدان، وركبت الجنادبُ العيدان[١]، فقال: ألا تقيلون في هذا الظل الرَّحب، على هذا الماء العذب؟ فقلنا: أنت وذاك، فنزل عن فَرَسه، ونحى منطقته، وحلَّ قرطقته[٢]، فما استتر عنا إلا بغلالةٍ [تنمُّ] على بدنِه، فما شكَكْنا أنَّه خاصم الولِدَان، ففارقَ الجنَان، وهرَب من رضْوَان، وعمد إلى السروج فحطَّها، وإلى الأفراسِ فحشَّهَا[٣]، وإلى الأمكنة ففرشها، وقد حارتِ البصائر فيه، ووقعت الأبصارُ عليه، وودَ كل منا شبقاً، وخنث اللفظ ملَقا. وقلت: يا فتى، ما أَلطفَك في الخِدْمَة! وأحسنَك في الجملة! فالويلُ لمن فارَقْتَه، وطُوبى لمن رافَقْته، فكيفَ نَشْكُر الله على النعمة بك؟! فقال: ما ستَرَوْنه أكْثر، أتعْجبكم خِفتي في الخِدْمة، فكيف لو رأيتُموني في الرُّفْقة؟ أُرِيكم من حِذْقي طُرَفا، لتزدادُوا بي شَغَفاً؟ فقلنا: هاتِ، فعمد إلى قَوْس [أحدِنا] فأوْتَرَه؛ وفوَّق سَهْماً فرماه في السماء، وأتْبَعه بآخر فشقَّه في الهواء، وقال: سأريكم نوعاً آخر، ثم عمد إلى كنانتي فأخذها، وإلى فرسي فعلاه، ورمى أحدنا بسهم أثبته في صَدْرِه، وآخر طيره سن ظهره، فقلت: ويحكِ! ما تصنعُ؟ قال: اسكت يا لُكَع، والله ليشدنَّ كل منكم يدَ رفيقه، أو لأغصنَّهُ بريقِه، فلم نَدْر ما نصنعُ، وأفراسنا مربوطة، وسرُوجنا محطوطةٌ، وأسلِحَتُنا بعيدة، وهو راكبٌ ونحن رَجَّالة، والقوسُ في يده يرشُقُ بها الظهورَ، ويمشُق بها[٤] البطونَ والصدورَ، وحين رأينا منه الجِدَّ، أخذْنا القِدَّ[٥]، فشدّ بعضنا بعضاً، وبقيت وَحْدي لا أجِدُ من يشدُّنِي، فقال: اخرُجْ بإهابك[٦]، عن ثيابك، ثم نزل عن فرسه، وجعل يصفعُ الواحِدَ منا بعد الآخر، ويقول: أقمت قضيبك، فخذ نصيبك، [ونزع ثيابه] وصار إليَّ وعليّ خُفَّانِ جديدان فقال: اخلعهما لا أُمَّ لك، فقلت: هذا خفّ لَبِسْتُه رَطباً، فليس يمكنني خلعه فقال: عليّ نزعه، ثم دنا لينزعَ الخُفّ، ومدَدْتُ يَدِي إلى سكّين فيه وهو مشغول، فأَثْبَتُّه في بطنه، وأبنتُه من مَتْنِه[٧]. فما زاد على فَم فَغَرَه[٨]، وأَلْقَمَه حجَره، وقُمْتُ إلى أصحابي فَحَلَلْتُ أيدِيَهم، وتوزَّعنا سلَب المقتولَيْن، وأدركْنَا الرفيق، وقد جاد بنفسه،

---

(١) ركبت الجنادب العيدان: كناية عن اشتداد الحرّ.
(٢) القرطق: ضرب من الكساء.
(٣) حَشَّها: قَدَّم لها الحشيش.
(٤) يمشق: يضرب في سرعة.
(٥) القدّ: السير من جلد يُربط به الأسير.
(٦) الإهاب: الجلد.
(٧) أبنته: أظهرته، وأراد: أنفذته. والمتن: الظهر.
(٨) فغر فمه: فتحه.

وصار إلى رَمْسِه[١]، وصِرْنَا إلى الطريق فوردنا حِمْصَ بعد ليال، فلما انتهينا إلى فُرْضَةٍ من سُوقِها رأينا رجلاً قد قام على رأس ابن وبُنَيّة، بِجِراب وعُصَيَّة، وهو يقول:

رَحِمَ اللَّهُ مَن حَشَا … في جِرَابي مَكَارِمَهْ
رَحِمَ اللَّهُ مَن رَثَى … لسعيدٍ وفَاطِمَهْ
إنَّهُ خَادِمٌ لكُمْ … وهْيَ لا شكَّ خَادِمَهْ

قال عيسى بن هشام: فقلت: إنَّ هذا الرجل هو الإسْكَندري الذي سَمِعْتُ به وسأَلْتُ عنه فإذا هو هو، فدَلَفْتُ إليه، فقلت له: أحكمك حكمك، فقال: درهم، فقلت:

لَكَ دِرهمٌ في مِثْلِه … مَا دامَ يُسْعِدُني النَّفَسْ
فاحْسِبْ حِسَابَكَ والتمسْ … كيما تنال المُلتمَسْ

لك دِرهم في اثنين، وفي ثلاثة، وفي أربعة، وفي خَمْسة حتى بلغتُ العشرين، ثم قلت: كم معك؟ قال: عشرون رغيفاً، فأمرتُ له بها، وقلت: لا نصرة مع الخِذْلان، ولا حِيلَةَ مع الحِرْمَانِ.

لأبي فراس الحمداني يتغزل

وقال أبو فراس الحمداني:[٢]

سَكِرْتُ من لَحْظِه لا مِنْ مُدَامتِه … وَمَال بالنومِ عَنْ عَيْني تمايُلُهُ
ومَا السُّلافُ دَهَتْني بل سَوالِفُه … ولاَ الشَّمولُ دَهَتْني بل شَمائِلُهُ[٣]
أَلْوَى بِصَبْري أَصْدَاغٌ لُوِيسنَ لهُ … وَغَالَ عَقْلِي بما تَحْوي غَلاَئِلُهُ[٤]

لابن المعتز في الغزل

وقال ابنُ المعتزّ، وقد تقدَّم عنه في هذه الألفاظ:

---

(١) الرمس: القبر.
(٢) أبو فراس الحمداني، الديوان: ص ٢٢٥.
(٣) السُّلاف: أفضل الخمر وأخلصها. وفي الديوان: «ولا الشمول ازدهتني».
(٤) ألوى به: ذهب، وغال عقلي: أضاعه وأهلكه.
وفي الديوان:
أَلْوَى بِعَزْمِيَ أَصْدَاغ لُوِينَ لَهُ … وَغَالَ صَبْرِيَ ما تَحْوِي غَلائِلُهُ

وَيــومٍ فــاخِتــيّ الــدَّجــنِ مُــرْخٍ عَــزَالِيَــه بِهَطْــلٍ وانهمــالِ[١]
أَبَحْــتُ سُــرورَه وظَللــت فيــه بِــرَغْــمِ العــاذلاتِ رَخِــيَّ بَــالِ
وَســاقٍ يجعــلُ المنــديــلَ منــهُ مكــانَ حمــائــلِ السيــفِ الطــوالِ
غِــلالــةُ خَــدّه صُبِغَــتْ بِــوَرْدٍ وَنــونُ الصُّــدْغ مُعْجَمــةٌ بِخَــالِ
بــدا وَالصبــحُ تحــتَ الليــلِ بــادٍ كَطِـرْفٍ أبلـقٍ مُـرْخَـى الجِـلالِ[٢]
بِكــأسٍ مــن زجــاجٍ فيــه أُسْــدٌ فَــرائسهــنَّ ألبــابُ الــرجــالِ
أَقــولُ وَقــدْ أخــذتُ الكــأس مِنــهُ وَقَتْــلكَ الســوءَ رَبَّــاتُ الحِجَــالِ

وقد أحسنَ ما شاء في قوله: «فرائسهن أَلْبابُ الرجالِ» وإن كان أصل المعنى لأبي نواس في ذكر تصاوير الكاس.

لأبي نواس في وصف يوم شرب

قال الصولي: مَرَّ أبو نواس بالمدائن فعدل إلى سَاباط[٣]، فقال بعضُ أصحابه: ندخل إيوان كسرى؛ فرأينا آثاراً في مكانٍ حسَن تدلُّ على اجتماع كان لقومٍ قبلنا، فأقمنا خمسة أيام نشربُ هناك، وسألنا أبا نواس صِفةَ الحالِ، فقال:[٤]

وَدارِ نَــدامَــى عَطَّلُــوهــا وأَدْلجُــوا بهــا أثــرٌ منهــم جَـدِيـدٌ ودارِسُ[٥]
مَساحِبُ من جَرِّ الزّقاق على الثَّرَى وأُضْغـاثُ رَيْحـانٍ جنـيٌّ ويَابِسُ[٦]
ولــم أرَ منهــم غيــرَ مــا شهِـدَتْ بـهِ بِشَـرقـيِّ سَـابَـاطَ الـديـارُ البَسَـابِسُ[٧]

(١) فاختي: منسوب إلى الفاختة، واحدة الفواخت، وهي من ذوات الأطواق من الحمام، يشبه لونها ضوء القمر. والدَّجْنُ: إلباس الغيم الأرض وأقطار السماء. والعزالى: جمع عزلاء، وأصلها مصب الماء من الراوية، ويقال: أرخت السماء عزاليها: إذا أُريد الكناية عن اشتداد المطر.
(٢) الطِّرْفُ: الكريم من الناس والخيلِ ونحوها. وقد بلق الفرس بَلَقاً وبُلْقَةً: كان فيه سواد وبياض، فهو أبلق، وهي بلقاء، والجمع بُلْقٌ. والجِلالُ: الغطاء.
(٣) ساباط: موضع بمدائن كسرى.
(٤) أبو نواس، الديوان: ص ٣٧.
(٥) أدلجوا: ساروا من أول الليل. دارس: من درس الرسم: عفا وتغيّر.
(٦) مساحب: بدل من أثر في البيت السابق. الزقاق: أوعية الخمر. أضغاث ريحان: جمع ضغث، والضغث: القبضة منه.
(٧) في الديوان: «ولم أَدْرِ من هم». البَسابِسُ: جمع بسبس: القفر الخالي.

حَبَسْتُ بها صَحْبِي فَجمَّعتُ شَمْلهم   وإنـي علـى أمثالِ تلـك لَحابِـسُ[١]
أقَمْنَـا بهـا يـومـاً وَيَـوْمـاً وثـالثـاً   ويـومٌ لـه يـوم الترحُّـل خَـامِـسُ[٢]
تُـدَارُ علينـا الـرَّاحُ فـي عَسْجَـدِيّـةٍ   حَبَتهـا بـأنـواع التصـاويـرِ فـارسُ[٣]
قَـرارَتُهـا كِسْـرَى وفـي جنَبَـاتهـا   مَهًـى تَـدَّريهـا بـالقِسِـيِّ الفـوارسُ[٤]
فَلِلـرَّاحِ مـا زُرَّتْ عليـه جُيـوبُهـا   وللمـاءِ مـا دارتْ عليـه القَـلاَنِـسُ[٥]

وقال علي بن العباس النوبختي: قال لي البحتري: أتدري من أين أخذ الحسن قوله: «ولم أرَ منهم غير ما شَهِدَتْ به»؟... البيتَ ـ فقلت: لا، قال: من قول أبي خراش:[٦]

وَلـم أدرِ مَـنْ ألقَـى عليـه رِداءهُ   سِوَى أنه قد سُلَّ عن مَاجِدٍ مَحْضِ

فقلت: المعنى مختلف، فقال: أما ترى حَذْوَ الكلامِ واحداً، وإن اختلف المعنى؟!

قال الجاحظ: نَظَرْنَا في الشعر القديم والمُحْدَث فوجَدْنا المعاني تُقْلَب ويؤخذ بعضُها من بعض، غير قول عَنْتَرة في الأوائل:[٧]

وَخَـلا الـذبـابُ بهـا يُغَنِّـي وَحْـدَهُ   غَسِداً كَفِعْـلِ الشـارب المُتَـرنِّـمِ[٨]

---

(١) في الديوان: «فَجدَّدْتُ عهدهم».
(٢) في الديوان: «ويوماً له يوم الترحل خامس».
(٣) في الديوان: «حَبَتْهَا بألوانِ التصاوير». وفي عسجدية: في كؤوس عسجدية، والعسجد: الذهب.
(٤) قرارتها كسرى: يريد أن في قرارة الكأس صورة كسرى، وفي جوانبها صور مهى. والمهى: البقر الوحشي، الواحدة مهاة. وَتدرّيها: تختلها لتصطادها من غير أن تشعر. والقسيُّ: جمع قوس. والفوارس: جمع فارس.
(٥) القلانس: أغطية الرؤوس الشائعة في ذلك الحين.
(٦) أبو خراش: هو خويلد بن مرّة، أحد بني قرد بن عمرو بن سعد بن هذيل: شاعر مخضرم، وفاتك مشهور، أدرك الجاهلية والإسلام، وأسلم وهو شيخ كبير، ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وله معه أخبار. واشتهر بالعدو، فكان يسبق الخيل، وشعره سهل متين. توفي نحو ١٥ هـ/ نحو ٦٣٦ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٥٥٤؛ الأصفهاني، الأغاني: ٢١/ ٢٢٩).
(٧) عنترة بن شدّاد: الديوان: ص ١٩٧.
(٨) في شرح المعلقات العشر للهواري: «وخلا الذباب بها فليس ببارح». خلا: انفرد. ببارح: بتارك، والبراح: الزوال، يقال: ما برحت قائماً، أي: ما زلت. والغردُ: المُطرِّبُ بصوته. والمترنم: الذي يُرجِّعُ الصوت بينه وبين نفسه. وفي الديوان: «هزجاً كفعل الشارب المترنم». والهجز: سريع الصوت مُتداركه.

هَـزِجـا يَحُـكُّ ذِرَاعَـهُ بِـذرَاعِـهِ   قَدْحَ المُكِبِّ على الزنادِ الأَجْذَمِ[1]

وقول أبي نواس في المحدثين:

قَـرارتُهـا كِسـرى وَفـي جَنَبـاتها   مَهـى تَـدَّريها بـالقسـيِّ الفـوارسُ

فَلِلـرَّاح مـا زُرَّتْ عليـه جُيـوبُهـا   وَللمـاءِ مـا دارَتْ عليـه القـلانـسُ

لأبي العباس الناشيء

أخذه أبو العباس الناشيء فقال وولَّد معنًى زائداً:

وَمُـدَامَـةٍ لا يبتغـي مِـنْ رَبِّـهِ   أَحـدٌ حَبـاهُ بهـا لَـدَيْـهِ مَـزِيـدا

فـي كـأسهـا صُـوَرٌ تَظـنّ لِحُسْنهـا   عُـرُبـاً بَـرزْنَ مـن الخيـام وَغِيـدا[2]

وَإذا المـزاج أثـارهـا فَتقسَّمـتْ   ذَهبـاً وَدُرًّا تَـوْأَمـاً وَفـريـدا

فَكـأَنَّهُـنَّ لَبِسْـنَ ذاك مَجَـاسِـدا   وَجَعَلْـنَ ذا لِنُحُـورِهِـنّ عُقُـودا[3]

لأبي خراش

وأبياتُ أبي خراش، وكان خراش وعروة غَزَوا ثمالة فأسَروهُمَا، وأخذوهما وهمّوا بقتلهما، فنهاهم بنو رزام، وَأَبى بنو هلال إلا قَتْلَهما، وأقبل رجل من بني رزام فألْقَى على خراش رداءَه، وشُغِلَ القومُ بِقَتْل عُرْوة، وقال الرجل لخراش: انْجُهْ، فنجا إلى أبيه، فأخبره الخبر، ولا تعرفُ العرب رجلاً مدح مَنْ لا يعرفه غَيْرُهُ:

حَمِـدْتُ إلَهـي بعـد عُـرْوة إذ نَجـا   خَرَاشٌ وبعضُ الشرِ أهونُ من بعضِ[4]

---

(١) في الديوان: «غَرِداً يَسنُّ ذِراعَهُ بِذراعِهِ». يَسنّ: يحدد، ومنه: سنَّ السكين: حدّدها، وسنَّ الثوب: صقله. ومعنى يحك ذراعه بذراعه: يمُرُّ إحداهما على الأخرى. المُكِبُّ: المُقْبِلُ على الشيء. الأجذم: المقطوع اليد.

(٢) عُرُب: جمع عَروب، وهي المرأة المتحببة إلى زوجها.

(٣) المجاسد: جمع مِجْسَد، وهو الثوب الملامس للجسد.

(٤) «وبعض الشرّ أهون من بعض»: مثل يُضرب عند ظهور الشَّرَّيْنِ بينهما تفاوت (الميداني، مجمع الأمثال: ١/ ٩٤)، وهو من قول طرفة بن العبد وقد أَمر النعمان بن المنذر بقتله:

أبـا مُنْـذِرٍ أَفْنَيْـتَ فَـاسْتَبْـقِ بَعْضَنَـا   حَنانَـيْكَ بَعْضُ الشرِّ أَهونُ من بَعْضِ

(ديوانه: ص ٦٦).

فَــواللَّــهِ لا أَنْسَــى قتيــلاً رُزِئْتُــهُ   بِجَانبِ قُوسَى ما مَشَيْتُ على الأرضِ(١)
بلــى إنّهــا تَعْفُــو الكُلــومُ، وَإنمــا   نُـوكَّـل بـالأدنـى وإنْ جَـلَّ مـا يَمضِـي
وَلــم أَدْرِ مَــنْ أَلقَــى عليــه رِدَاءَهُ   سـوى أنَّه قـد سُـلَّ عـن ماجِـدٍ مَحْـضِ
وَلــم يــكُ مَثْلُــوجَ الفــؤادِ مُهبّجــاً   أضاع الشبابَ في الرَّبيلةِ والخَفْضِ(٢)
وَلكنّــه قَــدْ لــوَّحَتْــهُ مَخَــامِــصٌ   علـى أنـهُ ذو مِـرّة صـادِقُ النهـضِ(٣)
كــأَنَّهــمُ يَشَّبَّــون بِطــائــر   خَفيفِ المشَاشِ عَظْمُه غيرُ ذي نَحْضِ(٤)
يُبــادِرُ فَــوْتَ الليــلِ فَهْــوَ مُهَــابِــذٌ   يَحُـثُّ الجنـاحَ بِـالتبسّـطِ وَالقَبْـضِ(٥)

الربيلة: الخَفض والدعة، والمهابذ: المجتهد في العَدْو والطيران.

أبو خراش يرثي أخاه عروة

وقال أبو خراش يرثي أخاه عروة:

تقــولُ أراه بعــد عُــرْوَةَ لاهيــاً   وذلــك رُزْءٌ لــو عَلمْــتِ جَليــلُ
فَـلا تَحْسَبـي أنـي تَنـاسَيْتُ عَهْـدَهُ   وَلكــنَّ صَبْـري يـا أُمَيْـمَ جَميــلُ
ألــم تَعْلمــي أنْ قَــدْ تَفَـرَّقَ قَبْلَنـا   خَليــلاَ صَفــاءٍ مــالــكٌ وعَقيــلُ
وَأَنّـي إذا مـا الصبحُ أُنسِيتُ ضَوْءَهُ   يُعــاوِدُنــي قِطْــعٌ علــيَّ ثَقيــلُ
[أبـى الصبـر أنـي لا أزالُ يُهيجنـي   مَبيــتٌ لنسا فيمـا مَضَـى وَمَقيـلُ]

مالك وعقيل اللذان ذكرهما نَديما جذيمة الأبرش، وكانا أتياه بابنِ أخته عمرو، وكان قد استهوَتْه الجِنّ، فمنّاهما فتمنّيا مُنادمتَه، وهما اللذان عنى متمّم بن نُوَيْرَةَ في مرثية أخيه مالك:

وَكُنّـا كَنَـدْمَـانَـيْ جَـذِيمـةَ حِقْبَـةً   مـن الـدهرِ حتّى قيـلَ لَـنْ يتَصـدَّعـا

(١) في الأغاني (٢١/ ٢٤٣): «ما حَيِتُ على الأرضِ». قوسى: ببلاد السراة من أهل الحجاز.
(٢) مثلوج الفؤاد: ضعيف الفؤاد، بارد القلب. مُهبّج: مُثقل. والربيلة: كثرة اللحم وتمامه. أي: لم يكن متثاقلاً إذا دعي، ولم يُضيّع أيامه في اكتساب اللحم والشحم.
(٣) في الأغاني: «قد نازعته مجاوعٌ». والمخامص: المجاوع، الواحدة: مخمصة. ذو مِرَّة: ذو عقل وأصالة وإحكام، قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى، ذو مِرَّةٍ فَاسْتَوى﴾ (سورة النجم، الآيتان ٥، ٦).
(٤) المُشَاشُ: العظم لا مُخَّ فيه. والنَّحْضُ: اللحمُ المُكْتَنِزُ.
(٥) مُهابذ: من هبذ هَبْذاً: أسرع في مِشيته أو طيرانه

فَلمَّا تَفَرّقْنا كأني وَمَالِكاً لِطُولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ لَيْلَةً معَا

لابن الرومي

وقول عَنْترة في وَصْفِ الذباب أَوْحَد فرد، ويتيم فَذّ، وقد تعلّق ابن الرومي بذيله وزاد معنًى آخر في قوله:[(١)]

إذا رَنَّقتْ شَمْسُ الأصيلِ وَنفَّضَتْ على الأفقِ الغَرْبيّ وَرْساً مُزَعْزَعا[(٢)]
وَلاحَظتِ النُّوارَ وَهْيَ مَريضةٌ وَقدْ وَضعَتْ خَداً على الأرضِ أَضْرَعا[(٣)]
كَما لاَحَظتْ عُوَّادَها عَيْنُ مُدْنَفٍ تَوجَّعَ من أوصابِهِ ما تَوجَّعَا[(٤)]
وَبيَّنَ إغضاءُ الفِرَاقِ عَليْهِما كَأنَّهُما خِلاَّ صَفاء تَودَّعَا
وقَد ضَربَتْ في خُضْرَةِ الرَّوْضِ صُفْرةٌ من الشمس فَاخْضَرّ اخضِرَاراً مُشَعْشَعَا
وَظلَّتْ عُيونُ النّوْرِ تَخْضَلُّ بِالنَّدى كما اغْسرَوْرَقَتْ عَيْنُ الشَّجيِّ لِتَدْمَعَا
وَأذْكى نَسيمَ الرّوْضِ رَيْعَانُ ظِلِّه وَغَنّى مُغَنِّي الطيرِ فيه مُرَجِّعَا[(٥)]
وَغَرَّد رِبْعِيُّ الذبابِ خِلالَهُ كما حَثْحَثَ النَّشْوَانُ صَنْجاً مُشرَّعَا[(٦)]
فَكانتْ أرانينُ الذبابِ هُناكُمُ على شَدَواتِ الطيرِ ضَرْباً مُوقّعَا[(٧)]

لأبي نواس

وذكر أبو نواس معنى قولِهِ في تصاوير الكؤوس في مواضع من شعره فمن ذلك:[(٨)]

---

(١) ابن الرومي، الديوان: ٤/ ١١٦. والأبيات من قصيدة طويلة اسمها «رمي البندق».
(٢) رَنَّقت الشمس: مالت للغروب. الورس: الزعفران (نبت ذو نور أصفر يُصْبَغُ به). مزعزع: مفرق، وفي الديوان: «مذعذعا». يشبه منظر مغيب الشمس بالزعفران الأصفر وقد تفرّق متبدداً. وفي رواية: (شرح المقامات للشريشي).
إذا ارْتعَتْ شمْسُ الأَصيلِ وَفيَّضت على الأُفقِ الغربي وَرْساً مُرصَّعا
(٣) في الديوان: «إلى الأرض».
(٤) المدنف: المريض. الأوصاب: جمع وصب: التعب. وفي الديوان: «عُوَّادُهُ».
(٥) في الديوان: «فَـجَّعَا».
(٦) حثحث الشيءَ: حَرَّكهُ. الصَّنْجُ: صفائح صفر صغيرة مستديرة تُثَبَّتُ في أطراف الدفّ، أو في أصابع الراقصة، يُدَقُّ بها عند الطرب.
(٧) وفي رواية: «وكانت أهازيج الذباب».
(٨) أبو نواس، الديوان: ص ٤٤٨.

بَنَيْنَا على كِسْرَى سَماءَ مُدَامَةٍ مُكَلَّلَةً حَافَاتُهَا بِنُجُومِ[١]
فَلَوْ رُدَّ في كِسْرَى بن ساسانَ رُوحُهُ إذاً لاَصْطَفَانِي دُونَ كلِّ نَدِيمِ[٢]

[وصف الدمن والأطلال]

وأول هذا الشعر:

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نَسِيمِ على طولِ ما أَقْوَتْ وَحُسْنِ رُسُومِ[٣]
تَجافَى البِلَى عَنْهُنَّ حتى كأنَّما لَبِسْنَ على الإقْواءِ ثَوْبَ نَعيمِ

وهذا معنًى مليح وإن أخذه من قول أعرابي:

شَطَّتْ بِهِمْ عَنْكَ نيةٌ قُذُفٌ غادرت الشَّعْبَ غيرَ مُلْتَئِمِ[٤]
وَاسْتَوْدَعَتَ سِرَّهَا الديارَ فما تَزدادُ طِيباً إلاّ على القِدَمِ

لابن وهيب

وهذا ضِدّ قول محمد بن وهيب:

طَلَلاَنِ طالَ عَلَيْهِما الأمَدُ دَرَسا فلا عَلَمٌ ولا قَصَدُ[٥]
لَبِسَا البِلَى فكأنَّما وَجَدَا بعد الأحِبَّة مِثْلَ ما وَجَدُوا

للأخطل

وقال الأخطل:

لأَسْمَاءَ مُحْتَلٌّ بناظرةِ البشرِ قَدِيمٌ ولمَّا يَعْفُهُ سالفُ الدَّهْرِ
يكادُ من العِرْفَانِ يَضْحَكُ رَسْمُهُ وَكَمْ من ليالٍ للديارِ وَمنْ شَهْرِ

---

(١) مكللة: محفوفة ومحاطة، والمراد بالنجوم: الحَبَب.
(٢) اصطفاني: اختارني.
(٣) الدمن: جمع دمنة، وهي آثار الديار. وأقوت: أقفرت.
(٤) النية: المكان الذي ينوي المسافر إليه، ونية قذف: بعيدة، وشطت: بَعُدت، والشَّعْبُ: الجماعة الكبيرة من الناس، أو الجماعة تتكلم لساناً واحداً.
(٥) القَصْدُ: استقامة الطريق، يقال: هو على القَصْد، وعلى قصد السبيل: إذا كان راشداً، وقد حرّك للضرورة الشعرية.

لأبي صخر

هذا أيضاً كقول أبي صخر الهذلي:

لِلَيْلَى بـذاتِ الْجَيْش دارٌ عـرَفْتُهـا   وَأُخْـرَى بـذاتِ البَيْـنِ آيـاتُهـا سَطْـرُ
كَـأَنَّهُمـا م الآن لـم يتغَيَّـرا   وَقدْ مَرَّ للدارينِ من بَعْدِنا عَصْرُ(١)

لمزاحم العقيلي

وقد قال مُزَاحِم العقيلي:(٢)

تَـراهـا علـى طـولِ الْقَـواءِ جَـدِيـدةً   وَعَهْـدُ المغـانِـي بـالحلـولِ قـديـمُ

وقرأ الزبير بن بكار أخبار أبي السائب [المخزومي] فلما بلغ إلى قول مالك بن أسماء الفزاري:(٣)

بكـتِ الـديـارُ لِفَقْـدِ سَـاكِنهـا   أَفَعِنْـدَ قلبـي أَبْتَغِـي الصَّبْـرَا؟

لابن وهيب

هذا البيت نظير قول ابن وهيب:

بيْنَـاهُـمُ سَكَـنٌ بِجيـرَتِهِـمْ   ذَكَـروا الفِـراقَ فـأصبحـوا سَفْـرا
فَظللْـتُ ذا وَلَـهٍ يُعـاتِبُنـي   مَـنْ لا يـرَى أَمْـرِي لـه أَمْـرَا

---

(١) «م الآن»: أصله من الآن فحذف النون للتخفيف، ومثله قول المتنبي:
نَحْنُ رَكْبٌ م الجنِّ في زيِّ ناسٍ   فَوْقَ طيرٍ لها شُخُوصُ المالِ
(ديوانه: ١/ ٢٥٥). وبيتا أبي صخر من قصيدة قالها في أم حكيم ليلى بنت سعد القضاعية، وكانا يتواصلان برهة من دهرهما، زُوِّجت بغيره، ورحل بها زوجها إلى قومه، (الهواري أحلى قصائد الغزل في العصر الأموي: ٣٩).

(٢) هو مزاحم بن عمرو بن الحارث من بني عامر بن عقيل: شاعر كان يسكن الروضات من بلاد بني عقيل. شعره فصيح الألفاظ، سهل التراكيب، متين السبك. توفي بُعَيْد سنة ٩٠ هـ/٧٠٨ م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٥٢٠).

(٣) هو مالك بن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري: شاعر إسلامي غزل، وأخته هند بنت أسماء زوج الحجاج، وهو ممن عُرف بالجمال في العرب. حبسه الحجاج وعذبه لخيانة ظهرت عليه، ويقال: إنه هرب من السجن وظل متوارياً حتى مات الحجاج. (الأصفهاني، الأغاني: ١٧/ ١٦٩).

وإن أبا السائب قال عند سماع البيت الأوسط: ما أسرع هذا! أما اهتَدَوْا! أما قدّموا ركاباً! أما ودَّعُوا صديقاً! فقال الزبير: رحم الله أبا السائب! فكيف لو سمع قولَ العباس بن الأحنف:

سـأَلـونـا عَـنْ حَـالِـنـا كيـف أَنـتُـمُ فَقَـرَنَّـا وَدَاعَنَـا بـالـسُّـؤَالِ
مـا أَنَخْنَـا حتـى ارتَحَلْنَـا فمـا فَـ ـرّقْـنَ بيـن النـزول والإرتِحـالِ[1]

هكذا رواه الزبير بن بكار لمالك بن أسماء، ورواها غيره لأيوب بن شبيب الباهلي.

ومن ألفاظ أهل العصر، في صفة الديار الخالية

دارٌ لَبِسَت البِلى، وتعطَّلت من الحُلى. دار قد صارت من أهلها خالية، بعد ما كانَت بهم حَالية. دار قد أَنْفَد البين سكانَها، وأقعد حيطانها، شاهد اليأس منها ينطِقُ، وحَبْلُ الرجاءِ فيها يقصر. كأنّ عُمْرانها يُطْوَى وخرابَها يُنْشَر، أركانُها قيام وقعود، وحيطانها ركَّعٌ وسُجود.

يشبه الأول من قول مالك بن أسماء قول مزاحم العقيلي:

بكَـتْ دارُهـم مِـنْ فَقْـدِهـم فَتهلَّلَـتْ دُمـوعـي، فـأَيَّ الجـازِعَيْـنِ أَلُـومُ؟[2]
أَمستعبـرٌ يَبْكـي علـى الهـون والبِلَـى أمَ آخــر يَـبْـكــي شَجْــوَه فَـيَهِيــمُ

للمتنبي

أبو الطيب المتنبي:[3]

لَـكِ يـا منـازِلُ فـي القلـوبِ منـازِلُ أَقْفَـرْتِ أنـتِ وَهُـنَّ منـكِ أَوَاهِـلُ
يَعْلَمْـنَ ذاك، ومَـا علمـتِ، وإنمـا أولاَ كُمـا يُبْكَـى عليـهِ العـاقِـلُ[4]

(١) الإرتحال: هكذا وردت بهمزة قطع، لضرورة إقامة الوزن، والصواب أنها بهمزة وصل.
(٢) تهللت دموعي: انهلت وانصبت.
(٣) المتنبي، الديوان: ١/٣٢٦. والبيتان مطلع قصيدة يمدح بها أبا الفضل أحمد بن عبد اللّه بن الحسين الأنطاكي.
(٤) يقول: إن القلوب التي هي منازل لديار الأحبة تعلم أن الأحبة قد رحلوا وتركوها خالية، ولكن الديار لا تعلم ذلك، فالذي يعلمه هو الأولى بالبكاء عليه لعلمه بما أصابه.

لعلي بن جبلة

وقال علي بن جَبَلة[1]، في معنى قول العباس بن الأحنف:

زائـــرٌ نَـــمَّ عليـــه حُسْنُـــهُ كَيْـفَ يُخْفِـي الليـلُ بَـدْراً طَلَعَـا
بِـأَبِـي مَـنْ زَارَنِـي مُكْتَتِمـاً خـائفـاً مِـنْ كـلِّ أَمـرٍ جَـزِعَـا
رَصَـدَ الغَفْلَـةَ حتـى أَمْكَنَـتْ وَرَعَـى الحـارِسَ حتـى هَجَعَـا
رَكِـبَ الأهـوالَ فـي زَوْرَتِـهِ ثُـمّ مـا سلّـم حتَّـى ودَّعَـا

للحسين بن الضحاك

وقال الحسين بن الضحاك:

[بِـأَبِـي زَوْرٌ تَلَفَّـتُّ لَـهُ فَتَنفَّسْـتُ عليـه الصُّعَـدا[2]
بَينمـا أَضْحَـكُ مَسْـرُوراً بِـهِ إذ تَقَطَّعْـتُ عليـه كَمَـدَا[3]

للمتنبي

[أبو الطيب المتنبي]:[4]

بِـأَبِـي مَـنْ وَدِدتُـه فـافتـرَقْنَـا وقَضَـى اللّـهُ بعـد ذاك اجتمـاعـا
فَـافتـرَقْنَـا حَـوْلاً، فلمـا اجْتَمَعْنـا كـانَ تَسْلِيمُـه علـيَّ الـوداعـا[5]

وقال أبو الحسن جحظة: قال لي خالد الكاتب: دخلتُ يوماً بعض الدِّيارات فإذا أنا بشابٍّ مُوثَق في صِفَاد حسن الوجه؛ فسلّمتُ عليه، فردَّ عليَّ، وقال: مَنْ أنت؟ قلت: خالد بن يزيد، فقال: صاحب المقطعات الرقيقة؟ قلت: نعم! فقال: إن رأيت أنْ تفرِّجَ عني ببعض ما تنشدني من شعرك فافْعَل، فأنشدته:

---

(١) هو أبو الحسن، علي بن جبلة بن مسلم بن عبد الرحمن: شاعر مطبوع، مجيد، فصيح، وكان أعمى، أسود، أبرص. ولد ببغداد، واشتهر بمدح القائدين أبي دلف العجلي، وحميد الطوسي، وقيل: إنه مات ميتة شنيعة سنة ٢١٣ هـ/٨٢٨ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١٧١؛ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد: ١١/٣٥٩).

(٢) الزور: الزائر، وأصله مصدر فوصف به. والصُّعدا: أصله الصعداء ممدوداً، فقصره للضرورة.

(٣) الكمد: الحزن.

(٤) المتنبي، الديوان: ١/١١٧. والبيتان مما نظمه الشاعر ارتجالاً وهو صبيٌّ.

(٥) الحول: العام.

تَـرشَّفْـتُ مـن شَفَتَيْهَـا عُقـاراً وَقبّلْـتُ مـن خَـدِّهـا جُلّنـارا[١]
وعَـانَقْـتُ منهـا كثيبـاً مَهيـلاً وَغُصْنـاً رَطِيبـاً وَبـدراً أَنـارا
وَأَبصـرْتُ مـن نُـورهـا فـي الظـلامِ لِكـلِّ مكـانٍ بِليْـلٍ نهـارا

فقال: أحسنت! لا يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ، ثم قال: أجِزْ لي هذين البيتين:

رُبَّ ليـلٍ أمـدَّ مـن نَفَـسِ الْعَـا شِـق طُـولاً قَطَعْتُـه بـانتحـابِ
وَحـديـثٍ ألـذّ مـن نَظَـرِ الـوا مـق بَـدَّلتُـه بِسُـوءِ العتـابِ

فوالله لقد أَعملت فكري فما قدرت أن أجيزهما. [ويمكن أن يجازا بهذا البيت:

وَوِصَـالٍ أقـلّ مِـنْ لَمْحـة الْبَـا رِق عُـوِّضْـتُ عَنْـهُ طُـولَ اجتنـابِ]

[طول الليل]

لابن الرومي

وقال ابنُ الرومي في طول الليل:[٢]

رُبَّ ليـلٍ كـأنـه الـدهـرُ طـولاً قَـدْ تنـاهَـى فَلَيْـسَ فيـه مَـزيـدُ[٣]
ذي نجـومٍ كـأنهـنّ نُجـوم الشَّـ ـيْـبِ لَيْسَـتْ تَغيـبُ لَكِـنْ تَـزيـدُ[٤]

لبشار

وهذا من أجود ما جاء في هذا المعنى، وقد قال بشار:[٥]

لِخـدَّيْـكَ مِـن كفَّيْـك فـي كـلّ ليلـةٍ إلى أن ترى وَجْهَ الصباح وِسَادُ[٦]
تَبِيـتُ تُـراعـي الليـلَ تـرجـو نَفـادهُ وَليـس لِلَيْـلِ العـاشقيـنَ نَفـادُ[٧]

---

(١) العقار: الخمر. الجلنار: زهر الرمّان.
(٢) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ٣٠٢.
(٣) في الديوان: «رب ليل تراه كالدهر طويلاً».
(٤) في الديوان: «ليست تغور».
(٥) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ٤٤.
(٦) أي تبيت متوسداً كفيك من غير اضطجاع، حتى يطلع الصباح.
(٧) تراعي الليل: تشايعه بالنظر، وأصله من رَعْي الإبل. وترجو نفاده: تتمنى زواله أو انتهاءه. والخطاب في البيتين لنفسه على طريقة التجريد.

وقال:[1]

خَليليّ ما بالُ الدُّجَى لا تَزَحْزَحُ ... ومَا بالُ ضَوءِ الصُّبحِ لا يَتوضَّحُ[2]
أَضلَّ النهارُ المُسْتَنيرُ سبيلَهُ ... أم الدهرُ ليلٌ كلّه لَيْسَ يَبْرَحُ
كأنَّ الدجَى زادَتْ وما زادَت الدُّجَى ... ولَكِنْ أطالَ الليلَ هَمٌّ مُبرِّحُ[3]

وقال [أيضاً]:[4]

طالَ هذا الليلُ، بل طالَ السَّهرْ ... وَلقد أعرفُ لَيْلِي بالقِصَرْ
لم يَطُلْ حتى جفاني شَادِنٌ ... نَاعِمُ الأطرافِ فتّانُ النظَرْ[5]
لِيَ في لَيْليَ منهُ لَوْعَةٌ ... مَلَكَتْ قلبي وسَمْعِي والبصَرْ[6]
فكأن الهمّ شخصٌ مَاثِلٌ ... كُلَّمَا أَبْصره النّومُ نَفَرْ[7]

وقال أيضاً:[8]

كأنَّ فُؤادَهُ كُرةٌ تَنَزّى ... حِذارَ البَيْنِ إنْ نَفَعَ الحِذَارُ[9]
يُروّعُه السِّرارُ بكلّ شيءٍ ... مَخافةَ أن يكونَ به السِّرارُ[10]

---

(١) بشار بن برد، الديوان: ٢/ ٩٦. والأبيات من قصيدة قالها في النسيب بمحبوبته «سعدى».
(٢) الدجى: سواد الليل وظلمته. وضح الصبح: ظهر.
(٣) يقول: لم يطل الليل حقيقةً، ولكن هَمًّا شديد الوطأة على النفس أشعرني بطوله.
(٤) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ٥٩.
(٥) الشادن: الظبي إذا قوي وترعرع واستغنى عن أُمّه.
(٦) في الديوان: «لي في قلبي منه لوعة». واللوعة: وجع القلب من المرض والحب والحزن، وقيل: هي حرقة الحزن والهوى والوجد.
(٧) شخص ماثل: قائم. وضمير «نفر» عائد إلى النوم، وهو من قولهم: نفر الظبي إذا شرد.
(٨) بشار بن برد، الديوان: ٣/ ٢١٥. والأبيات من قصيدة طويلة يفتخر فيها بِمُضر وانتصارهم لخلفاء بني أمية، وذلك قبل قيام الخلافة العباسية.
(٩) في الديوان: «كأن فؤاده ينزى حذاراً». وتنزّى: تثب، وأصله تَتنزّى. والحذار: التيقظ والاحتراز. والبين: الفراق.
(١٠) في الديوان: «بِكُلِّ أَمْرٍ». يردعه: يفزعه. السِّرارُ: المحادثة السرية. وأصل قول بشّار من قوله تعالى: ﴿وَيَحْسَبُونَ كلّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ، هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ، قَاتَلَهُم الله أَنّى يُؤْفَكُون﴾. (سورة المنافقون، آية ٤٤).

[كـأن جُفـونَـهُ سُمِلَـتْ بِشَـوْكٍ ... فَلَيْـسَ لِنَـوْمِـهِ فيهـا قَـرارُ][1]
أقـولُ وَليلتـي تَـزْدَادُ طُـولاً: ... أمـا لِلّيْـلِ بَعْـدَهُـم نَهـارُ
جَفَـتْ عينـي عـن التغميـضِ حتَّـى ... كـأنَّ جُفـونَهـا فيهـا قِصـارُ[2]

قيل لبشار: من أين سرقت قولك:

يُـرَوِّعُـه السـرارُ بكـلِّ شـيءٍ

فقال: من قول أشعث الطمع، وقد قيل له: ما بلغ من طَمَعِك؟ قال: ما رأيتُ اثنين يتسارّان إلا ظننتهما يُريدان أن يأمرا لي بشيء. وأخذه أبو نواس فقال:[3]

لا تُبيحَـنّ حُـرْمَـةَ الكتمـانِ ... رَاحـةُ المستهـامِ فـي الإعـلانِ[4]
قَـد تَسَتَّـرْتُ بـالسكـوتِ وبـالإطـ ... ـراق جَهْـدي فَنَمَّـتِ العينـانِ[5]
تَـركَتْنـي الـوُشَـاة نُصْـبَ المُشيـريـ ... ـن وأُحـدوثـةً بِكُـلِّ مكـانِ[6]
مـا نَـرى خـالِيَيْـنِ فـي النـاسِ إلا ... قُلْـتُ مـا يَخْلُـوان إلا لِشَـانـي

ومثل قول بشار:

جَفَـتْ عَيْنـي عَـنِ التَّغْميـضِ

البيت، قولُ الآخر:

كـأنَّ المُحـبَّ بِطـول السُّهَـادِ ... قَصيـرُ الجفـونِ وَلـم تَقْصُـرِ

وقد تناول هذا المعنى العتابي [فأفسده وقال]:

وَفي المآقِي انقباضٌ عَنْ جُفونِهما ... وَفـي الجفـونِ عـن الآمـاقِ تَقْصِيـرُ

(١) في الديوان: «فليس لِوَسْنَةٍ فيها قرارُ». وسمل العين: فقأها بمسمار أو حديد محماة. والوسنة: الغفلة، النعاس، ومنه امرأة وسنانة: فاترة الطرف. والقرار: الهدوء والاستقرار.
(٢) جفت: بعدت. التغميض: إطباق الجفون، النوم.
(٣) أبو نواس، الديوان: ٢٤٦.
(٤) في الديوان: «لأُبيحنَّ».
(٥) جهدي: طاقتي.
(٦) نُصْب: أمام وتجاه.

وقال المتنبي:[١]

أعِيدوا صَباحي فَهْوَ عند الكواكبِ ... وَرُدُّوا رُقادي فَهْوَ لَحْظُ الحبائبِ[٢]

كــأنَّ نهــاري لَيْلــةٌ مُــدلهِمَّــةٌ ... على مُقْلةٍ من فَقْدِكم في غَياهبِ[٣]

بَعيــدةٌ مــا بَيْــنَ الجفــونِ كــأنمــا ... عَقَدْتُمْ أعالِي كلّ هُدْبٍ بحاجبِ[٤]

أيهما أوصف لطول الليل؟

وقال الشعبي: تشاجر الوليدُ بن عبد الملك ومسلمة أخوه في شعر امرىء القيس والنابغة في طول الليل، أيهما أشعر؟ فقال الوليد: النابغة أشعر، وقال مسلمة: بل امرؤ القيس، فرضيا بالشعبي؟ فأحضراه، فأنشده الوليد:[٥]

كِلينــي لِهــمٍّ يــا أُميمــةَ نــاصِــبِ ... وَليــلٍ أُقــاسيه بطيءِ الكــواكــبِ[٦]

تَطـاولَ حتـى قلـتُ ليـس بِمُنْقَـضٍ ... وليس الذي يَرْعَى النجومَ بآيبِ[٧]

وَصَــدْرٍ أراحَ الليــلُ عــازِبَ هَمّــهِ ... تَضاعفَ فيه الحُزْنُ من كُلّ جانبِ[٨]

وأنشده مسلمة قول امرىء القيس:[٩]

وَليـلٍ كَمـوْجِ البَحْـرِ أرْخَـى سُـدُولَـهُ ... علـيّ بـأنـواع الهمـوم لِيَبْتَلـي[١٠]

---

(١) المتنبي، الديوان: ٣٨٧/١. والأبيات من قصيدة يمدح بها أبا القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي.

(٢) الكواعب: جمع كاعب، وهي الفتاة التي نهد ثديها. والحبائب: جمع حبيبة. ولحظهن: بمعنى رؤيتهن. يقول: رُدّوهن عليَّ حتى يرتد صباحي ورقادي.

(٣) في الديوان: «فإن نهاري». مدلهمة: شديدة السواد. والغياهب: الظلمات.

(٤) الهُدْبُ: الشعر النابت على أشفار العين، والمراد بأعالي الهدب، ما نبت منه على الجفن الأعلى.

(٥) النابغة الذبياني، الديوان: ص ٩.

(٦) كليني: دعيني، اتركيني. أميمة بالفتح، والأحسن بالضم، قال الخليل بن أحمد: من عادة العرب أن تنادي المؤنث بالترخيم، فلما لم يرخم هنا، بسبب الوزن، أجراها على لفظها مرخمة، وأتى بها بالفتح. ناصب: متعب، أو صاحب تعب، على النسب، والنصب: التعب.

(٧) آيب: راجع، والقياس أن يقال: آئب، ولكنهم قد يخففون الهمزة بقلبها ياءً لأن الياء تجانس الكسرة. وأراد بالذي يرعى النجوم نفسه، وقيل: أراد به الصبح.

(٨) أراح الهم: ردّه إليه. العازب: البعيد.

(٩) امرؤ القيس، الديوان: ص ٤٨. والأبيات من قصيدته المعلقة.

(١٠) الإرخاء: الستر وغيره. السدول: الستور، واحدها سَدْلٌ. والابتلاء: الاختبار. وقوله: «بأنواع الهموم» أي: بضروب الهموم.

فَقلتُ لـه لمـا تمطّـى بِجَوْزِه وأردفَ أعجـازاً وَنـاءَ بِكَلْكَـلِ[١]
ألا أيُّهـا الليـلُ الطـويـلُ ألا انْجَلـي بِصُبحٍ، وما الإصباحُ مِنْكَ بأمْثَلِ[٢]
فيـا لـكَ مـن ليـلٍ كـأن نُجـومَـهُ بِكُـلِّ مُغـارِ الفَتْـلِ شُـدّتْ بِيَذْبُـلِ[٣]

فطرب الوليد طرباً، فقال الشعبي: بانت القضية.

معنى قول النابغة:

وصَـدْرٍ أراحَ اللَّيْـلُ عَـازِبَ هَمِّـهِ

أنه جعل صَدْرَه مأوى للهموم، وجعل الهموم كالنَّعَم السارحة الغادية، تسرحُ نهاراً ثم تأتي إلى مكانها ليلاً. وهو أول من استثار هذا المعنى، ووصف أن الهمومَ مترادفةٌ بالليل لتقييد الألحاظ عما هي مطلقة فيه بالنهار، واشتغالها بتصرُّف اللحظ عن استعمال الفكر، وامرؤ القيس كره أن يقول: إن الهمَّ يخفُّ عليه في وقت من الأوقات فقال: وما الإصباح منك بأمثل.

للطرماح

وقال الطرماح بن حكيم الطائي:

ألا أيهـا الليـلُ الـذي طـالَ أصْبِـح بِيَـوْم، ومـا الإصبـاح فيـك بـأَرْوَحِ
علـى أَنَّ للعينيـنِ فـي الصُّبْح رَاحـةً لِطَـرْحِهمـا طَـرْفَيْهِمـا كـلّ مَطْـرَحِ

فنقل لفظ امرىء القيس ومعناه، وزاد فيه زيادةً اغتفر له معها فُحْش السرقَةِ وإنما تنبّه عليه من قول النابغة، إلا أنّ النابغة لوّح، وهذا صرّح.

لابن بسام

وقال ابن بَسَّام:

---

(١) في شرح المعلقات: «لما تمطى بصلبه» أي: لما تمدد بظهره، وتمطى الرجل: مدَّ مطاه، أي ظهره. والصلب: الظهر، والجوز: الوسط. والأعجاز: الأواخر. والكلكل: الصدر.

(٢) الانجلاء: الانكشاف، يقال: جلوته فانجلى، أي كشفته فانكشف. والأمثل: الأفضل. وفي شرح المعلقات: «وما الإصباح فيك».

(٣) المُغار: المحكم الفتل. يذبل: جبل بعينه. والأمراس: جمع مرس، وهو الحبل. وفي شرح المعلقات للزوزني: ص ٢٧: «كأن نجومه بأمراس كتانٍ إلى صُمّ جندل». الصمُّ: جمع أصمّ: الصلب. والجندل: الصخرة.

لا أَظْلُـــمُ الليـــلَ ولا أدّعـــي ... أنَّ نجـومَ الليـلِ لَيَسَـتْ تَغُـورْ(١)
لَيْلـي كمـا شـاءَتْ، فـإنْ لـم تَـزُر ... طـالَ، وإن زارت فَلَيْلِـي قَصيـرْ

وإنما أغار ابنُ بسام على قولِ علي بن الخليل فلم يغير إلا القافية:

لعلي بن الخليل

لا أَظلـــمُ الليـــلَ ولا أدّعـــي ... أنَّ نجـومَ الليـل لَيَسَـتْ تَـزولْ
لَيْلـــي كمـــا شَـــاءتْ، قصيـــرٌ إذا ... جـادَتْ، وإن ضنّـتْ فَلَيْلـي طَـويـلْ

وهذه السرقةُ كما قال البديعُ في التنبيه على أبي بكر الخوارزمي في بيت أخذ رويّه وبعض لفظِه: «وإن كانت قضية القَطْع تجب في الربع، فما أشد شفقتي على جوارِحه [أجمع]؛ ولعمري إن هذه ليستْ سرقةً، وإنما هي مكابرة محضة، وأحسب أن قائله لو سمع هذا لقال: هذه بضاعَتُنا رُدَّت إلينا، فحسبت أن ربيعة بن مكدم وعُتيبة بن الحارث بن شهاب كانا لا يستحلاّن من البيت ما استحله، فإنهما كانا يأخذان جُلَّهُ(٢)، وهذا الفاضل قد أخذ كله، وقد أخذ علي بن الخليل من قول الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان:(٣)

لا أَسْـأَلُ اللّـهَ تغييـراً لمـا صَنَعـتْ ... نـامَـتْ وإن أسهـرَتْ عَيْنَـيَّ عينـاهـا
فَـالليـلُ أطـولُ شـيءٍ حيـن أَفَقِـدُهـا ... وَالليـلُ أقصـرُ شـيءٍ حيـنَ ألقـاهـا

وابن بسام في هذا [الشعر] كما قال الشاعر:

فَتًـــى يقـــولُ الشعـــرَ إلا أنـــهُ ... فـي كُـلّ حـالٍ يَسْـرِقُ المَسْـرُوقـا

ألفاظ لأهل العصر في طول الليل والسهر وما يعرض فيه من الهموم والفكر

ليلة من غُصَصِ الصَّدْرِ، ونِقَم الدهْرِ. ليلةُ همومٍ وغموم، كما شاء الحسود، وساءَ

---

(١) تغور: تغرب.
(٢) جُلّهُ: معظمه.
(٣) هو أبو العباس، الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي الحادي عشر. كان منهمكاً في اللهو، وحين ولي الخلافة أمعن في التهتك والاستهتار، وترك أمر الدولة، فساء الناسَ ذلك منه، وأطمع به الطامحين إلى الخلافة فقتلوه سنة ١٢٦ هـ/ ٧٤٤ م. له شعر جيد أكثره في الخمر. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٦٨٩).

الوَدود. ليلة قصّ جناحُها، وضَلَّ صباحُها. ليل ثابتُ الأطناب، طامي الغوارب، طَامح الأمواج[١]، وافي الذَّوائب. ليال ليست لها أسْحَار، وظلمات لا تتخللها أنوار. بات بليلة نابغية[٢]، يُراد قوله:[٣]

فَبِـتُّ كـأنّـي سَـاوَرتْنـي ضَئيلَـةٌ من الرُّقْشِ في أَنيابها السُّمُّ نَاقعُ[٤]
[يُسَهَّـدُ مـن ليـلِ التمـامِ سَليمُهـا لِحَلْـي النسـاءِ فـي يديـهِ قَعـاقـعُ][٥]

بات في الصيف بليلة شتوية. سامَرَتْهُ الهموم، وعانَقَتْهُ الغموم، واكتحَلَ السُّهاد، وافترش القَتَاد[٦]، فاكتحل بِمُلْمُول السهَر، وتململ على فراش الفِكر. قد أُقِضَّ مِهاده، وقَلِقَ وسادُه. هموم تفرِّقُ بين الجَنْبِ والمهاد، وَتَجْمَعُ بين العين والسُّهاد. طَرْف بِرَعْيِ النجوم مطروف، وفراش بشعار الهمِّ محفوف. كأنه على النجوم رقيب، وللظلام نَقِيب.

ولهم فيما يتصل بضدّ ذلك من ذكر [إقبال] الليل وانتشار الظلمة، وطلوع الكواكب

أقبلَتْ عساكِرُ الليل، وخفقَتْ راياتُ الظلام. وقد أرخى الليلُ علينا سُدولَه، وسحب الظلام فينا ذيوله. توقَّد الشفقُ في ثوب الغَسَق. أقبلت وفودُ النجوم [وجاءت مواكب الكواكب. تفتّحت أزاهير النجوم]، وتوردت حدائقُ الجو، وأَذْكَى الفَلَكُ مصابيحه. قد طفت النجومُ في بَحْرِ الدُّجَى، ولبس الظلامُ جلباباً من القار. ليلة كغراب الشباب، وحَدَقِ الحِسَان، وذوائب العذَارى. ليلة كأنها في لباسِ بني العباس[٧] ليلة كأنها في لباس

(١) في نسخة: «طاغي الأمواج».
(٢) نابغية: نسبة إلى النابغة الذبياني.
(٣) النابغة الذبياني، الديوان: ص ٨٠. والبيتان من قصيدة يمدح بها النعمان بن المنذر، ويعتذر إليه، ويهجو مرة بن ربيع بن قريع.
(٤) ساورتني: واثبتني. ضئيلة: أفعى دقيقة اللحم. الرقش: جمع رقشاء: التي فيها نقط بيض وسود. الناقع: القاتل، الثابت.
(٥) يُسهد: يمنع من النوم. ليل التمام: ليالي الشتاء الطوال. السليم: الملدوغ، تفاؤلاً له بالسلامة. قعاقع: أصوات. وكان من عادتهم في الجاهلية أن يجعلوا الحلي والخلاخل في يد الملدوغ ويحركونها لئلا ينام فيدب السمّ فيه.
(٦) القتاد: الشوك.
(٧) كان بنو العباس قد اتخذوا السواد شعاراً في لباسهم، وفي راياتهم وبنودهم.

الثكالى. وكأنها من الغَبَش في مواكب الْحَبَش. ليلة قد حلك إهابها، فكأنّ البحر يهابُها.

ولهم في ذكر النوم والنعاس

شرِبَ كَأسَ النعاس، وانتشى من خَمر الكَرى(١)، قد عَسْكر النُّعَاسُ بِطَرْفه، وخيّم بين عينيه. غرق في لُجَّةِ الكَرى، وتمايل في سَكْرَة النوم. قد كحل الليلُ الورَى بالرقاد، وشامت الأعين أجفانها في الأغماد.

وفي انتصاف الليل وتناهيه، وانتشار النور، وأفول النجوم

قد اكْتَمل الظلامُ. قد انتصفنا عُمْرَ الليلِ، واستغرقْنا شبابَه. قد شاب رأسُ الليل، كاد ينِمُّ النسيمُ بالسَّحَرِ. قد انكشفَ غطاءُ الليلِ. انْهَتَك سترُ الدّجى، وَشمِطَتْ ذَوَائِبُه، وتقوَّسَ ظَهْرُهُ وتهدَّم عُمْرُهُ. قُوِّضت خيامُ الليل، وخلع الأُفُق ثوبَ الدجى. أَعرض الظلامُ وتولى، [وتدلّى] عنقودُ الثريا. طُرِّز قميصُ الليل بغرَّة الصبح، وباح الصبح بسِرِّه. خلع الليلُ ثيابَه، وحَدَر الصبحُ نِقابَه. لاحت تباشيرُ الصبح، وافترَّ الفَجْرُ عن نواجذه، وضرب النورُ في الدجى بعمود. بَثَّ الصبح طَلائِعَهُ. تبرقَعَ الَليل بغُرَّةِ الصبح. أطار بازِي الصبح غرابَ الليلِ، وعزلت نوافج الليل(٢) بجاماتِ الكافور(٣)، وانهزم جُنْدُ الظلام عن عَسْكَر النور. خَلعْنا خلعة الظّلامِ، ولبسنا رداء الصباح، وملأ الآذان بَرْقُ الصباح، وسطع الضوء، وطلع النور، وأشرقت الدنيا، وأضاءت الآفاق. مالت الجَوْزاءُ للغروب، وولت مواكبُ الكواكب، وتناثرت عقودُ النجوم، وفَرّت أسرابُ النجوم من حدَقِ الأنام، وَهَى نِطاقُ الجوزاء، وانطفأ قنديل الثريا. قال بعضُ الأعراب: خرجنا في ليلة حِنْدِس(٤) قد ألقَتْ على الأرض أكارِعَها(٥)، فَمحَتْ صورة الأبدان، فما كنّا نتعارف إلا بالآذان.

قال ابن محكان السعدي(٦):

---

(١) الكرى: النوم.
(٢) النوافج: جمع نافجة: الريح الشديدة الهبوب، أو وعاء المسك في جسم الظبي.
(٣) جامات: جمع جام: إناء للشراب والطعام من فضة وغيرها.
(٤) الحندس: الظلمة أو الليل الشديد الظلمة.
(٥) الأكارع: جمع كُراع، وهو من الإنسان ما دون الركبة إلى الكعب، ومن البقر والغنم: مستدقّ الساق العاري من اللحم.
(٦) هو أبو الأضياف، مرة بن محكان، من سعد بن زيد مناة، من بطن يقال لهم بنو ربيع: شاعر =

وَليلٍ يقولُ الناسُ في ظُلماتِه سَواءٌ صَحيحاتُ العيونِ وَعُورُها
كأنَّ لنا مِنْهُ بيوتاً حَصينةً مُسُوحا أعاليها وَساجاً سُتورُها(١)

وهذا بارع جداً، أراد أنَّ أعلاه أشدُّ ظلاماً من جوانبه.

وقال أعرابي في صفته: خرجتُ حين انْحَدَرت النجومُ، وشالَتْ أرْجُلُها، فما زِلْتُ أصْدَعُ الليلَ حتى انصدعَ الفجر.

ومن بديع الشعر في صفةِ الليل قول الأعرابي:
والليلُ يَطْردهُ النهارُ ولا ترى كالليلِ يَطْردُهُ النهارُ طَريدَا
فتَراهُ مِثْلَ البيتِ مَالَ رِواقُهُ هَتكَ المُقوّضُ سِتْرَهُ المَمْدُودَا(٢)

ومن البديع:
على حينَ أثنى القومُ خَيْراً عَلَى السُّرَى وَطارتْ بأُخرى الليلِ أجنِحَةُ الفَجْرِ

آخر:
وَليْلٍ ذي غَياطِلَ مُدْلَهِمٌ رَميتُ بنَجْمِه عرضَ الأُفولِ(٣)
يَردُّ الطرفَ مُنقبضاً كَليلا وَيَمْلأُ هَوْلُهُ صَدْرَ الدَّليلِ

ابن المعتز:
هامَتْ ركائِبنا إليك بِنا بِظَليلِ أهْلِ النارِ والمنحِ

= إسلامي مقلّ، من شعراء الدولة الأموية. عاصر الفرزدق وجرير، فأخملا ذكره لنباهتهما في الشعر، وكان شريفاً خجولاً جواداً. حبسه مصعب بن الزبير، ثم أمر بقتله سنة ٧٠ هـ/ ٦٩٠م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٥٧٦؛ الأصفهاني، الأغاني: ٢٢/ ٣٤٨).

(١) المسوح: جمع مِسْح، وهو ثوب من شعر أسود يشبه ثوب الرهبان. والساج: خشب شجر ينبت بالهند، ولونه أسود.

(٢) رِواقُ البيت: مُقَدَّمُهُ.

(٣) الغياطل: جمع غيطلة: الظلمة المتراكمة، وغيطلة الليل: التجاج سواده. والغيطلة أيضاً: التباس الظلام وتراكمه، والشجر الكثيف الملتفّ. قال الفرزدق في الغيطلة الظلمة: (ديوانه: ٢/ ١١٨).
لِيَبْكِ ابنَ لَيْلى كُلُّ سَارٍ لِنَائلٍ على عُرْضِ لَيْلٍ مُدْلَهِمٍّ الغَياطِلِ
وقال امرؤ القيس في الغيطل والغيطلة بمعنى الشجر الملتف: (ديوانه: ص ١١١).
وظَلَّ يُرَنِّحُ في غَيْطَلٍ كَما يَستَديرُ الحِمارُ النَّعِرْ

فَكَـــأَنَّ أيـــديهـــنَّ دائبـــةً يَفْحَصْـــنَ لَيْلَتهـــنَّ عـــن صُبـــحِ

وقال كشاجم:

سَقْيـاً لليـلٍ قَصـرَتْ مُـدَّتـهُ بـديـرِ مَـرَّان مَـرّ مشكـورا
وَبـاتَ بَـدْرُ الـدُّجَـى يُشَعْشِعهـا نُـوريَّـةً تمـلأُ الـدُّجَـى نُـورا[١]
غـارَتْ علـى نفسهـا وَقَـد سَفـرتْ فعـادَ جَيـبُ الحبـاب مَـزْرُورا
حتَّـى رأيـتُ الظـلام يـدرجُـه الـ ـغـرب وَدَرْجَ الصبـاحِ مَنشُـورا[٢]
فَـاختلـطَ الليـلُ والنهـارُ كَمـا تَخْلِـطُ كـفٌّ مِسْكـا وَكـافـورا

وقال علي بن محمد الكوفي:

مَتَى أرْتَجي يوماً شِفاءً من الضَّنا إذا كـان جـانيـهِ علـيَّ طبيبـي
وَلـي عـائـداتٌ ضِفْتُهـنَّ فَجِئْنَ فـي لِبـاسِ سـوادٍ فـي الظـلام قشيـبِ[٣]
نُجـومٌ أُراعِـي طـولَ لَيْلـي بُـرُوجَهـا وَهُـنَّ لِبُعْـدِ السيـر ذاتُ لُغـوبِ[٤]
خَـوافـقُ فـي جُنْـحِ الظـلام كـأنهـا قُلـوبٌ مُعنَّـاةٌ بِطـولِ وَجيـبِ[٥]
تَرَى حُوتَها في الشرقِ ذاتَ سباحةٍ وَعَقْـرَبهـا فـي الغـربِ ذاتَ دَبيـبِ[٦]
إذا مـا هـوَى الإكْليـلُ منهـا حَسِبْتَـهُ تَهـدُّلَ غُصْـنٍ فـي الـريـاضِ رطيـبِ
كـأَنَّ التـي حـولَ المجـرَّةِ أوردَتْ لِتَكْـرَعَ فـي مـاءٍ هنـاكَ صَبيـبِ
كأنّ رسولَ الصُّبْح يخلطُ في الدُّجى شجـاعـةَ مِقْـدام بِجُبْـنِ هَيُـوبِ
كـأنّ اخضِـرار البَحْـرِ صَـرْحٌ مُمـرَّدٌ وَفيـه لآلٍ لـم تُثَـنْ بِثُقـوبِ[٧]
كـأنَّ سـوادَ الليـلِ فـي ضـوء صُبْحـهِ سَـوادُ شبـابٍ فـي بيـاض مَشيـبِ
كـأنَّ نـذيـرَ الشمـسِ يَحْكـي بِبِشْـرِه عَلِـيَّ بـنَ داودٍ أخِـي وَنَسِيبـي

(١) يشعشها: يمزجها، وأراد الخمر.
(٢) وفي نسخة: «وبرد الصباح منشورا».
(٣) القشيب: الجديد.
(٤) اللُّغوبُ: التعب والإعياء.
(٥) الوجيب: خفقان القلب واضطرابه.
(٦) الحوت والعقرب والإكليل والمجرة: نجوم في السماء.
(٧) صرح: قصر عالٍ. مُمرَّدٌ: مُطوّل، أي عالٍ. لم تُثَنْ: لم تُعَبْ.

وَلـولا اتِّقـائي عَتْبَـهُ قلـتُ سيـدي ... ولكـن يَـرَاهـا مـن أجـلِّ ذنـوبـي
جَـوادٌ بمـا تَحْـوِي يَـدَاهُ مُهَـذَّبٌ ... أديـبٌ غَـدا خِـلاًّ لكـلِّ أديـبِ
نَسيـبُ إخـاءٍ وَهـو غيـرُ مناسـبٍ ... قَـريـبُ صفـاءٍ وَهْـوَ غَيْـرُ قـريـبِ
وَنِسبـةُ مـا بيـنَ الأقـارِب وَحْشَـةٌ ... إذا لـم يُـؤَنِّسْهـا انتسـابُ قُلـوبِ

[أخو الصفاء قريب]

وهذا البيت كقول الطائي[١]:

وَقلـتُ أخـي قـالـوا أخٌ مـن قـرابـةٍ ... فَقُلْـتُ لَهُـمْ إنّ الشكـولَ أقـارِبُ[٢]
[نَسيبـي فـي رأيـي وعـزمـي ومَـذهبـي ... وإنْ بـاعَـدَتْنَـا فـي الأصـول المنـاسـبُ][٣]

وقال عبد السلام بن رغبان[٤]، وسلك طريق الطائيّ [فما ضلَّ عنها]:

أخ كنـتُ أبكيـه دمـاً وَهْـوَ حـاضـرٌ ... حِـذاراً، وتعمـى مُقْلتـي وَهْـوَ غـائِـبُ
بِكـاءَ أخٍ لـم تَحْـوِه بقـرابـةٍ ... بَلَـى إنّ إخـوانَ الصفـاء أقـارِبُ
فَمـاتَ فمـا شَـوْقـي إلـى الأجْـرِ واقـفٌ ... ولا أنـا فـي عُمْـرِي إلـى اللـهِ راغِـبُ
وَأظلمـتِ الـدنيـا التـي أنـتَ نُـورُهـا ... كـأنَّـك لِلـدنيـا أخٌ وَمُنـاسِـبُ
يُبَـرِّدُ نيـرانَ المصـائـبِ أننـي ... أرى زمنـاً لـم يَبْـقَ فيـهِ مَصـائِـبُ

وفي هذه القصيدة:

تَـرشَّفْـتُ أيـامـي وَهُـنَّ كـوالـحٌ ... إليـك، وغـالَبْـتُ الـرَّدَى وَهْـو غـالِـبُ
وَدافعـتُ فـي كَيـدِ الـزمـان وَنَحْـرِهِ ... وأيُّ يـدٍ لـي والـزّمـانُ المُحـارِبُ؟
وَقُلْـتُ لـه: خَـلِّ ابْـنَ أُمِّـي لِعُصْبَـةٍ ... وَهـأنَـا أو فَـازْدَدْ فـإنّـا عَصـائِـبُ
فـواللّـهِ إخـلاصـاً مـن القـولِ صـادقـاً ... وإلاَّ فَحُبِّـي آلَ أحمـدَ كـاذِبُ

---

(١) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٢٨١. والبيتان من قصيدة يرثي بها غالب بن السَّعْدي.
(٢) الشكول: جمع شِكْل: المثيل المشابه. وفي الديوان: «قالوا أخ ذو قرابة» و«فقلتُ ولكنَّ الشكول».
(٣) في الديوان: «نسيبي في عَزْم ورأي ومذهب».
(٤) هو الشاعر المعروف بديك الجنّ الحمصي.

لَـوَ أنَّ يَـدي كـانَـتْ شِفـاءك أوْ دَمـي ... دَم القلبِ حَتّى يَقضِبَ الحَبْلَ قاضِبُ[١]
لَسلّمـتُ تَسْلَيـمَ الـرِّضـا واتخـذتها ... يـداً للـرَّدَى مـا حَـجَّ للّـهِ راكِـبُ
فتًى كـان مثلَ السيفِ مِنْ حيثُ جِئْتَهُ ... لِنـائبـةٍ نـابَتْـكَ فَهْـوَ مُضـارِبُ
فَتًـى هَمُّـه حَمْـدٌ علـى الـدهـر رائـحٌ ... وإن نـابَ عنـه مَـالُـهُ وَهْـوَ عـازِبُ[٢]
شَمـائِـلُ إن تَشْهَـدْ فَهُـنَّ مَشـاهِـدٌ ... عِظـامٌ، وإن تَـرْحَـلْ فَهُـنَّ رَكـائِـبُ

وقال الطائي لعليّ بن الجهم[٣]:

إن يُكْـدِ مُطَّـرَفُ الإخـاء فـإنَّـا ... نَغْـدُو ونَسْـرِي فـي إخـاءٍ تـالـدِ[٤]
أو يَفْتَـرِقْ نَسَـبٌ يُـؤلِّـفْ بينـا ... أَدَبٌ أقمنـاهُ مُقـامَ الـوالـدِ
أو يَخْتَلِفْ مـاء الـوِصـالِ فَمـاؤُنـا ... عَـذْبٌ تَحَـدَّرَ مـن غمـامٍ وَاحِـدِ

وقال محمدُ بن موسى بن حماد: سمعتُ عليّ بن الجهم، وذكر دِعبلا فلعنه، وكفره، وقال: وكان يطعَنُ على أبي تمام، وهو خيرٌ منه ديناً وشعراً، فقال رجلٌ: لو كان أبو تمام أخاك ما زدت على مَدْحِك له. فقال: إلاَّ يكن أخا نَسَب فهو أخو أدَب، أما سمعتَ ما خاطبني به؟ وأنشد الأبيات.

وقال رجل لابن المقفع: إذا لم يكن أخي صديقي لم أحبه، قال: نعم صدقت، الأخ نسيبُ الجسم، والصديق نسيب الروح.

وقال أبو تمام يخاطب محمد بن عبد الملك الزيات[٥]:

---

(١) يقضب: يقطع.
(٢) عازب: بعيد.
(٣) أبو تمام، الديوان: ١/ ٢٢٥. والأبيات من قصيدة يمدح بها علي بن الجهم القرشي الشاعر وقد جاء يودعه لسفر أراده، وكان له صديقاً.
(٤) إن يُكْدِ: إن يقلّ خيره. المطّرف: المستحدث. التالد: القديم. أي: إن لم يثمر الإخاء الحديث، فإنَّ إخاءنا قديم.
(٥) أبو تمام، الديوان: ٢/ ٥٤. والأبيات من قصيدة يمدح بها محمد بن عبد الملك الزيات، ويقال: إن الزيات لما قرأ هذه القصيدة استحيى من جفائه، واحتجَّ عليه بأنه مدح غيره مِمّن هو دونه، وأنه لو اقتصر عليه لأعطاه وأغناه.

أبـا جَعْفَـرٍ إن الجهـالـةَ أمُّهـا وَلـودٌ، وأمُّ العلـم جَـدَّاءُ حـائِـلُ[(١)]
أَرى الحَشْوَ والدَّهْماءَ أضحوا كأنَّهم شُعـوبٌ تـلاقَـتْ دُونَنَـا وقبـائـلُ[(٢)]
غَـدَوْا وكـأنَّ الجهـلَ يَجْمَعُهُـمْ أبـا وَحَـظُّ ذوي الآداب فيهـم نَوَافِـلُ[(٣)]
فَكُـنْ هَضْبَـةً نَـأْوِي إليهـا وَحَـرَّةً يُعَـرِّدُ عَنْهـا الأعـوجـيّ المُنـاقِـلُ[(٤)]
فـإنَّ الفتـى فـي كـل حـالٍ مُنـاسـبٌ مناسـبَ روحـانيـةً مَنْ يُشـاكـلُ[(٥)]

وقال البحتري لأبي القاسم بن خرداذبه[(٦)]:

إن كُنْتَ من فـارسٍ فـي بيـتِ سُؤددهـا وَكنـتَ مـن بُحْتُـري البيـتِ والنَّسَـبِ[(٧)]
فلـم يَضِـرْنـا تَنـائـي المَنْصِبَيْـنِ وقَـدْ رُحْنَـا نَسِيبيـنِ فـي عِلْـمٍ وفـي أدبِ[(٨)]
إذا تَقَـارَبَـتِ الآدابُ والتـأمَـتْ دَنَـتْ مَسَـافـةُ بيـن العُجْـمِ والعُـربِ[(٩)]

---

(١) جَدّاء: صغيرة الثدي. الحائل: التي مضى عليها سنون لا تحمل فيها ولا تلد. يقول: إن الجهل يتناسل وينتشر، في حين أن العلم عقيم يتلاشى ويندثر.
(٢) الحشو: صغار الإبل، وأراد بها: صغار الناس. والدهماء: عامة الناس. دوننا: أي دون العلماء والأدباء. يقول: هم على اتصال وتعارف، على حين أهل العلم غرباء عنهم.
(٣) في الديوان:
غـدوا وَكـأنَّ الجَهْـلَ يَجْمَعُهُـمْ بـهِ أبٌ وَذَوُوا الآدابِ فيهـمْ نَـواقِـلُ
نواقل: مفردها ناقلة، ويقال: بنو فلان ناقلة في بني فلان، أي ضَلُّوا قومهم وانتقلوا إليهم. والناقلة في الأصل: شبه زيارة يلحق بالصميم ولا يحتاج إليه. والنوافل: جمع نافلة، وهي بمعنى ناقلة. أي إن الجهال يجتمعون وكأنهم أخوة، أما الأدباء فأشبه بالطفيليين.
(٤) الحَرَّةُ: الأرض البركانية ذات الحجارة السوداء. يُعرِّدُ: يهرب. الأعوجي: المنسوب إلى أعوج، وهو فرس من خيول العرب المشهورة. المناقل: السريع نقل القوائم. يقول: كن للأدباء موئلاً منيعاً لا تغير عليه خيول الحشو والدهماء.
(٥) في الديوان: «فإن الفتى في كلّ ضَرْبٍ مُناسبٌ». والضرب: النوع. يشاكل: يماثل.
(٦) البحتري، الديوان: ٢/٢٢.
(٧) في الديوان: «إذ كان من فارسٍ» و«وكنت من طيِّءٍ في البيت والحَسَبِ».
(٨) في الديوان: «رحنا نسيبين في خُلُقٍ وفي أدبِ».
(٩) في الديوان: «إذا تَشاكلتِ الأخلاقُ واقتربتْ».

[وصف النجوم]

لابن هانىء الأندلسي

وقد احتَذى طريقه أبو القاسم محمد بن هانيء، فقال يمدحُ جعفر بن علي، وذكر النجوم، فقال:

جَعَلْنا حَشايانا ثِيابَ مُدامِنا ... وَقدَّتْ لنا الظلماءُ من جِلْدِها لُحْفَا
فَمنْ كبدٍ تُدْني إلى كبدٍ هَوًى ... وَمِنْ شفَةٍ تُوحي إلى شفَةٍ رَشْفَا
بِعَيْشِكَ نَبِّهْ كأسَهُ وَجُفونَهُ ... فَقد نبّه الإبريقُ من بعدِ ما أغفَى
وَقد فَكَّتِ الظلماء بَعْضَ قُيودِها ... وقَدْ قامَ جَيْشُ الليلِ لِلفجرِ فَاصْطَفَّا
وَوَلّتْ نُجومٌ لِلثريا كأنَّها ... خَواتمُ تَبْدو في بنَانِ يدٍ تَخْفَى
وَمَرَّ على آثارِها دَبَرانُها ... كَصاحبِ رِدْءٍ أَكْمَنَتْ خيله خَلْفا[1]
وأقبلت الشّعرى العَبُورُ مُلبةً ... بِمِرْزَمها اليعبوبِ تُجْنِبُهُ طَرْفَا[2]
وقد بادَرَتْهَا أخْتُها من وَرائها ... لِتخرقَ من ثِنْيَيْ مَجرَّتها سِجْفا[3]
تخافُ زَئِيرَ الليث يَقْدُمُ نَثْرة ... وبربر في الظلماءِ يَنْسِفُها نَسْفَا
كأنَّ السِّمَاكَيْنِ اللَّذين تظاهرا ... على لِبْدَتَيْهِ ضامِنان له الحَتْفَا[4]
فذا رامحٌ يَهْوي إليه سِنَانُهُ ... وذا أعزل قد عضّ أنمله لَهْفَا
كأن رقيبَ النجمِ أجدل مرقبٍ ... يقلّب تحتَ الليلِ في ريشةٍ طَرْفَا
كأن سهيلا في مَطالِع أفقهِ ... مُفَارِقُ إلفٍ لم يَجِدْ بعده إلفا
كأنَّ بني نَعْشٍ ونَعْشاً مَطافلٌ ... بِوَجْرَة قد أضللن في مَهْمهٍ خِشْفَا[5]
كأن سُهاها عاشِقٌ بين عُوَّدٍ ... فآونةً يَبْدُو وآونةً يَخْفَى
كأن مُعلَّى قُطْبِها فارسٌ لهُ ... لواءان مَرْكُوزانِ قد كَرِهَ الزَّحْفَا

(١) الدبران: منزل القمر.
(٢) الشعرى العبور: نجم.
(٣) السّجْفُ: أحد السترين المقرونين، بينهما فرجة.
(٤) اللبدة: الشعر المتراكب بين كتفي الأسد، وفي المثل: هو أمنع من لبدة الأسد.
(٥) الخشف: ولد الظبية أول ما يُولد.

كَـأَنَّ قُـدامـى النَّسـر والنَّسْـرُ واقـعٌ قُصِصْنَ فلم تَسْمُ الخَوافي به ضَعْفَا
كـأنَّ أخـاهُ حيـن دوَّم طـائـراً أتى دُونَ نصف البَدْرِ فاختطف النِّصْفَا
كـأنَّ الهـزيـعَ الآبنـوسـيّ مَـوْهِنـا سَرى بـالنسيـج الخُسْرُوانيِّ مُلْتَفّا(١)
كـأنَّ ظـلامَ الليـلِ إذْ مـال مَيْلـةً صريـعُ مُدامٍ بـات يشرَبُهـا صِرْفـا
كـأنَّ عمـودَ الفجـر خـاقـانُ عَسكـرٍ من التركِ نادى بالنجاشيِّ فاستَخْفَى
كـأن لـواءَ الشمـسِ غُـرَّةُ جعفـرٍ رأى القِرْن فازدادَتْ طلاقته ضِعْفَا(٢)

لابن طباطبا العلوي

وقال ابن طباطبا [العلوي](٣):

كـأن اكتتـامَ المُشْتـري فـي سَحَـابـهِ وَديعـةُ سـرٍّ فـي ضَميـرِ مُـذيـعِ
كـأن سُهَيْـلا والنجـومُ أمـامَـهُ يُعـارِضُهـا راعٍ وراءَ قَطِيـعِ
وقـد لاحَـتِ الشِّعـرى العَبُـور كَـأَنَّهـا تَقَلُّـبُ طَـرْفٍ بـالـدمـوعِ هَمُـوعِ(٤)
وَأَضْجَعَـت الجـوزاءُ فـي أُفْقِ غَـرْبِهـا فَبـاتَـتْ كَنَشْـوانٍ هنـاك صَـريـعِ
إلـى أَنْ أجـابَ الليـلُ دَاعِـي صُبْحِـهِ وكـانَ يُنـادي منـهُ غَيْـرَ سميـعِ

وقال:

وَكَـأَنَّ الهـلالَ لمـا تبَـدّى شَطْـرَ طـوقِ المـرآةِ ذِي التـذهيـبِ
أو كَقَـوْسٍ قـدِ انحَنَـتْ طَـرَفـاهُ أو كَنُـونٍ فـي مُهْـرَقٍ مكتـوبِ

لعلي بن محمد العلوي

وقال علي بن محمد العلوي يصف القمرَ، وقد طرح جرمه على دِجلة:

(١) الهزيع: الجزء من الليل. الموهن: نحو من منتصف الليل، أو بعد ساعة منه. والآبنوسي: أراد الأسود.
(٢) القِرْن: البطل المماثل في القتال.
(٣) هو أبو الحسن، محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم العلوي، المعروف بابن طباطبا: شاعر، أديب، عالم. ولد بأصبهان وتوفي بها. من تصانيفه: كتاب «عيار الشعر». و«العروض». توفي سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٤م. (المرزباني، معجم الشعراء: ٤٤٧).
(٤) الهَمُوعُ: مبالغة في الهامع، ويقال: دمع هموع: سيّال، وقد همعت العين هَمْعاً وَهُمُوعاً: دمعت..

لـم أنْـسَ دِجْلَـة والـدُّجَى مُتَصـرِّمٌ والبَـدْرُ فـي أفـق السمـاء مُغَـرِّبُ
فَكَـأنَّهـا فيـه رداءٌ أزرقٌ وَكَـأنَّـهُ فيهـا طـرازٌ مُـذْهَـبُ

لتميم بن المُعزّ

وقال [الأمير] تميم بن المعز، وكان يحتذي مثل ابن المعتز، ويقف في التشبيهات بجانبه، ويفرغ فيها على قالبه، ويتبعه [في] سلوك ألفاظ الملوك:

اسقيـانـي فَلَسْـتُ أُصْغـي لِعَـذْلِ لَيـس إلاّ تَعِلَّـةَ النفـس شُغْلِـي
أأطيـعُ العـذولَ فـي تـركِ مـا أهـ ـوَى كـأني اتَّهَمْتُ رَأْيِي وعَقلِي
عَلِّـلانـي بهـا فقـد أقبـل الليـلُ كَلَـوْنِ الصـدودِ مـن بعـد وَصْـلِ
وَانْجلَى الغَيْمُ بعد ما أضحكَ الرَّوْ ضَ بكـاءُ السحـابِ جـادَ بِـوَبْـلِ[١]
عـن هـلالٍ كَصَـوْلجـانِ نُضَـارٍ فـي سمـاءٍ كـأنّهـا جـامُ ذَبْـلِ[٢]

وقال:

رُبَّ صَفْـراء عَلَّلَتْـي بِصَفْـرا ءَ وَجُنْـحَ الظَّـلام مُـرْخَـى الإزارِ
بَيْـنَ مـاءٍ وَرَوْضَـةٍ وَكُـرُومٍ وَرَوابٍ مُنِيفَـةٍ وَصَحـارِ[٣]
تَـتَثَنّـى بـه الغُصُـونُ علينـا وَتُجِيـبُ القِيـانُ فيهـا القَمَـارِي[٤]
وكـأن الـدُّجـى غَـدَائـرُ شَعْـرٍ وكـأَنَّ النُّجـومَ فيهـا مَـدَارِي[٥]
وانْجَلَـى الغَيْـمُ عـن هِـلالٍ تبـدَّى فـي يَـدِ الأُفْـقِ مثـل نِصْـفِ سِـوَارِ

وقال:

عَتِبَـتْ فـانثنـى عليهـا العِتـابُ ودَعـا دَمْـعَ مُقلتيْهـا انْسِكَـابُ

---

(١) الوبل: المطر الشديد القطر.
(٢) الذَّبْلُ: جلد السلحفاة البرية أو البحرية، يتخذ منه السوار والأمشاط. والذابل: الرمح الدقيق، والذبالة: الفتيلة التي تُسْرَج.
(٣) الروابي: جمع رابية: ما ارتفع من الأرض.
(٤) تتثنى: تتمايل، والقيان: جمع قينة، وهي الأمة المغنية. والقماري: جمع قمري، وهو ضرب من الحمام.
(٥) المداري: جمع مدرى، وهي خشبة أو حديدة يمشط بها الشعر.

وَضَعتْ نحو خَدِّها بيديها ... فَالْتَقى الياسمينُ والعُنَّابُ
رُبَّ مُبْدِي تَعَتُّبٍ جعل العَتْـ ... ـبَ رِياءً وَهمّه الإعْتَابُ
فَاسقنيها مُدَامةً تَصْبُغ الْكَا ... سَ كَما يَصْبُغ الخُدودَ الشبابُ
ما ترى الليل كيف رَقّ دُجَاهُ ... وَبَدا طَيْلَسانُه يَنْجَابُ؟
وكأنَّ الصباحَ في الأفق بازٍ ... والدُّجَى بين مِخْلَبَيْهِ غُرابُ
وكأنَّ السماءَ لُجةُ بَحْرٍ ... وكأنَّ النجومَ فيها حَبَابُ
وكأنَّ الجوزاءَ سَيْفٌ صَقِيلٌ ... وكأنَّ الدُّجى عليها قِرابُ(١)

من وصف الشراب والكؤوس والسُّقاة في الليل

وقال:

وزنْجيَّة الآباءِ كَرْخِيَّة الجَلَبْ ... عَبِيريَّة الأنفاسِ كَرْمِيَّة النَّسَبْ
كُمَيْت بزَلْنَا دَنَّها فتفجَّرَتْ ... بأحْمرَ قانٍ مثل ما قَطَر الذَّهَبْ(٢)
فلما شَرِبْنَاها صَبَوْنَا كأنَّنَا ... شَرِبْنَا السرورَ المَحْضَ واللَّهوَ والطَّرَبْ
ولم نأتِ شيئاً يسخط المجدَ فِعْلُه ... سوى أننا بِعْنَا الوقارَ من اللَّعِبْ
كأن كؤوس الشَّرْبِ وهي دوائرٌ ... قطائعُ ماءٍ جامدٍ تحملُ اللَّهَبْ
يمدّ بها كفا خضيبا مُديرُها ... وَلَيْسَ بشيءٍ غيرها هو مُختضِبْ
فَبِتْنَا نُسَقَّى الشَّمسَ واللَّيلُ راكدٌ ... وَنقربُ من بَدْرِ السماءِ وما قَرُبْ
وقد حَجَبَ الغيمُ الهلالَ كأنهُ ... سِتارةُ شَرْبٍ خلفها وَجْهُ من أحبّ
[كأنّ الثريّا تَحْتَ حُلكةِ لَوْنِها ... مَداهنُ بلّور على الأرضِ تَضْطَرِبْ]

وقال:

كأنَّ السحابَ الغرَّ أصْبحن أكؤسا ... لنا، وكأنَّ الراحَ فيها سَنَا البَرْقِ
إلى أنْ رأيتُ النجمَ وَهْو مُغَرِّبٌ ... وَأقبل راياتُ الصباحِ من الشرقِ
كأن سوادَ الليلِ والصبحُ طالعٌ ... بقايا مجال الكُحْلِ في الأعْيُنِ الزُّرْقِ

---

(١) القِرابُ: غمد السيف.
(٢) بزل الشيء بَزْلاً: شقه، وبزل الشراب: شقّ إناءه ليسيل.

وقال:

وكَـأسٍ يُعِيـدُ العُسْـر يُسـراً، وَيَجْتَنـي ... ثمـارَ الغِنـى للشّـربِ مـن شجـر الفَـقْـرِ
يـولّـد فيهـا المـزجُ دُرًّا مُنضَّـداً ... كما فُتِّتَتْ فوق الثرى نُقَطُ القطرِ[١]
صِغَـارٌ وَكُبْـرَى فـي الكُـؤوس كـأنّهـا ... علـى الـرّاحِ واواتٌ تَجمَّعْـنَ فـي سَطْـرِ
إذا حَثَّهـا السـاقـي الأغـرّ حَسِبْتَهـا ... نُجـومَ الثريـا لُحْـنَ فـي راحَـةِ البَـدْرِ
صَبَحْتُ بها صَحْبي وقد رَنْدَجَ الدُّجى ... بِفضّـة لألاءِ الصبـاحِ سَنَـا الفَجْـرِ[٢]
وَقـد أزْهَـرَتْ بِيـضُ النجـومِ كـأنّهـا ... علـى الأُفُـقِ الأعْلـى قـلائـدُ مـن دُرِّ

وقال:

ألاَ فـاسْقِيـانـي قَهْـوَةً ذهبيـةً ... فقـد ألبسَ الآفـاقَ جُنْحُ الـدُّجَى دَعَـجْ
كـأنَّ الثـريـا والظـلامُ يحفُّهـا ... فصـوصُ لُجَيْنٍ قـد أحـاط بِهَا سبَجْ[٣]
كـأنَّ نجـومَ الليـلِ تحـتَ سـوادِهِ ... إذا جـنّ زنجـيٌّ تَبَسَّـمَ عـن فَلَـجْ

وقال:

أيـا دَيْـرَ مـرحنـا سَقَتْـك رُعـودُ ... مـن الغَيْـمِ يَهْمـي مُـزْنُهـا ويَجُـودُ
فَكَـمْ وَاصَلتْنَـا فـي رُبَـاك أوَانِـسُ ... يَطُفْـنَ علينـا بـالمُـدامَـةِ غِيـدُ[٤]
[وكم ناب عن نُور الضحى فيك مَبْسِمٌ ... ونـابَـتْ عـن الـوردِ الجنـيِّ خُـدُودُ]
وَمـاسَـتْ علـى الكثْبـانِ قُضْبَـانُ فِضَّـةٍ ... فَـأثْقَلهـا مـن حَمْلِهِـنّ نُهـودُ[٥]
وَإذْ لِمَّتِـي لَـمْ يُـوقـظ الشيـبُ لَيْلَهـا ... وإذ أَثَـرِي فـي الغـانيـاتِ حَميـدُ[٦]
ليـالـيَ أغـدُو بيـن ثَـوْبَـيْ صبـابـةٍ ... وَلَهْـوٍ، وأيـامُ الـزمـانِ هُجُـودُ[٧]

---

(١) القطر: المطر. وفي نسخة: «نقطة القطر».
(٢) رندج: سوَّد، من اليرندج، وهو ما يُسوّد به الخفّ.
(٣) السبج: خرز أسود.
(٤) أوانس: جمع آنسة، وهي الفتاة التي يؤنس بها أو بحديثها. غيد: جمع غيداء، وهي الشابة الجميلة الناعمة.
(٥) ماس فلان مَيْساً وَمَيَساناً: تبختر واختال. الكثبان: جمع كثيب، وهو الرمل المستطيل المُحدودب.
(٦) اللِّمَّةُ: شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن، الجمع لِمَمٌ وَلِمامٌ.
(٧) هُجودٌ: نيام.

وقال:

سَـألْتُـه قُبْلَـةً منـه علـى عَجَـلِ فَاحْمرَّ من خَجَلٍ واصفَرَّ من وَجَلِ[1]
وَاعْتَـلَّ مـا بيـنَ إسعـافٍ يُـرَقِّقُـهُ وَبَيْـنَ مَنْـعٍ تمـادَى فيـه بـالعِلَـلِ[2]
وَقـال: وَجْهِـيَ بَـدْرٌ لا خفـاءَ بـهِ وَمُبْصِـرُ البَـدْرِ لا يَـدْعُـوهُ لِلقُبَـلِ

وهذا ينظرُ إلى قوله:

أبـــاحَ لِمُقلتـــي السَّهَـــرَا وَجَـــار علـــيّ واقْتَـــدَرَا
غـــزالٌ لـــو جَـــرَى نَفَسِـــي عليـــه لَـــذَابَ وَانْفَطَـــرا[3]
ولَكِـــنْ عَيْنُـــهُ حَشَـــدَتْ عَلـــيَّ الغُنْـــجَ والحَـــوَرا
وَمَـــنْ أُوْدَى بـــه قَمَـــرٌ فَكيـــفَ يُعَـــاتَـــبُ القَمَـــرا[4]

كأنه ذهب إلى قول أبي نُوَاس[5]:

كـــأنَّ ثيَـــابَـــهُ أَطْلَـ ـعْـــنَ مِـــنْ أزراره قَمَـــرَا
يَـــزِيـــدُكَ وَجْهُـــه حُسْنـــا إذا مـــا زِدْتَـــهُ نَظَـــرا
بعَيْـــنِ خـــالَـــطَ التَّفْتيـ ـــرُ مِـــنْ أجفـــانهـــا الحَـــوَرا
وَوَجْـــهٍ سَـــابـــرِيٍّ لـــو تَصَـــوَّبَ مَـــاؤُه قَطَـــرا[6]

قيل للجاحظ: مَنْ أَنْشَدُ الناس وأشعرهم؟ قال: الذي يقول: وأنشد هذه الأبيات.

ونظيرُ قوله:

كـــأنَّ ثِيَـــابَـــهُ أَطْلَـ ـعْـــن مِـــنْ أزرارِه قَمَـــرَا

قولُ الحكم بن قَنْبَر المازني:

وَيْلِي على مَنْ أطارَ النومَ فَامْتَنَعا وزَاد قلبـي إلـى أَوْجَـاعـهِ وَجَعَـا

(١) الوَجَلُ: الخوف والفزع.
(٢) أسعف فلان: دنا وقرب، وأسعف فلاناً: واتاه وقرب منه في مصافاة ومعاونة.
(٣) انفطر الشيء: انشقّ.
(٤) أودى به: أهلكه.
(٥) الأبيات في العمدة في محاسن الشعر لابن رشيق: ٢/ ١٢١، ولم نجدها في ديوانه.
(٦) السابري: أصله الثوب الرقيق الجيد، شبه به الوجه في ملاسته ونعومته.

وقال تميم:

نَقَّبَتْ وَجْهَهَا بِخَزٍّ وَجَاءتْ بِمُدَامٍ مُنَقَّبٍ بِزُجَاجِ
فَتَأَمَّلْتُ في النقابَيْنِ منها قَمَراً طالعاً وَضَوْءَ سِراجِ
فَاسقيَاني بلا مِزاجٍ فإنّي في المعالي صِرْفٌ بغير مِزَاجِ
وَانظرا الأفْق كيف بَدّلهُ الإصبـ ـباحُ من بَعْدِ آبنوسٍ بِعَاجِ[١]

وقال:

إذا حَذِرْتَ زَماناً لا تُسَرُّ بِهِ كَمْ قَدْ أتى سَهْلُ دَهْرٍ بعد أَصْعَبِهِ
فَاقْبَلْ من الدهرِ ما أعطاكَ مُختلطاً لَعَلَّ مُرَّك يَحْلُو في تَقلُّبِهِ
خُذْهَا إليك، وَدَعْ لَوْمِي، مُشَعْشَعَةً مِنْ كَفِّ أَقْنَى أسيلِ الخدِّ مُذْهَبِهِ[٢]
في كل مَقْعِدِ حُسْنٍ فيه مُعْتَرِضٌ عليه يَحْمِيهِ من أن تَستبدَّ بِهِ
فَكُحْلُ عَيْنَيْهِ مَمْنُوعٌ بِخَنْجَرِهِ وَوَرْدُ خَدَّيْهِ مَحْمِيٌّ بِعَقْرَبِهِ
لا تَتْرُكْ القَدَحَ الملآن في يدِهِ إنّي أخافُ عليه من تَلَهُّبِهِ
فَصُنْهُ عن سَقْيِنَا؛ إني أغارُ بِهِ وَسَقِّه وَاسْقِني من فَضْلِ مَشْرَبِهِ
وانظُرْ إلى الليلِ كالزّنجيِّ مُنْهزِماً والصبحُ في إثره يَعدُو بأشْهَبِهِ
والبَدرُ مُنْتَصِبٌ ما بين أنْجُمِهِ كأنه مَلِكٌ ما بَيْنَ مَوْكِبِهِ

من المختار من شعر تميم بن المعز

وإذا أفضيت إلى ذكره، فهاك من مختار شعره، [قال]:

مُسْتَقبَلٌ بالذي يهوى وإن كَثُرَتْ منه الذنوبُ وَمقْبُولٌ بما صَنَعا
في وجهِهِ شافعٌ يَمْحُو إساءتَهُ من القلوبِ وَجيهٌ حيثما شَفَعا
كأنما الشمسُ من أثوابه بَرزَتْ حسناً، أو البدرُ من أزرارِهِ طَلعا

استعارة [مأخوذة] من قول الآخر، وهو ابن زُرَيق[٣]:

---

(١) أراد بالآبنوس: السواد والظلمة، وبالعاج: البياض والنور.
(٢) الأقنى: وصف من القنا، وهو ارتفاع قصبة الأنف. وَخَدٌّ أسيل: مستطيل في رقة ونعومة.
(٣) هو أبو علي الحسن بن زريق الكوفي: شاعر، كاتب، عاش في الكرخ (الجانب الغربي من بغداد). ويبدو أن حاله في بغداد رقَّت، فرحل إلى الأندلس متكسباً بشعره، فأخفق. ويقال: إنه مات هناك=

أستودعُ اللَّه في بغداذَ لِي قَمَراً ... بالكَرْخِ من فَلَكِ الأَزْرَارِ مَطْلَعهُ[١]

ومن قول أحمد بن يحيى الفران:

بَدا فكأنما قمرٌ ... على أزرارِهِ طلَعَا

يَحُثّ المِسْكَ من عَرقِ الـ ... ـجبينِ بَنانُهُ وَلَعا

وقال أبو ذر أستاذ سيف الدولة:

نَفْسي الفِدَاء لِمن عَصيْتُ عَواذلي ... في حُبِّه لم أخْشَ مِنْ رُقَبائِهِ

الشمسُ تظهرُ في أسِرَّة وَجْههِ ... والبدرُ يَطْلُعُ من خِلالِ قَبائِهِ[٢]

وقال تميم:

أأعذل قَلبي وَهْوَ لي غيرُ عاذِلٍ ... وأعْصي غرامي وهو ما بين أضْلعي

ومَنْ لي بِصَبْرٍ أستزيلُ به الجَوى ... ولا جَلَدي طَوْعِي ولا كَبدي مَعِي

فأوّلُ شوقِي كانَ آخرَ سَلْوَتي ... وآخرُ صَبْرِي كان أوّلَ أدْمُعي

وقال:

وَرْدُ الخدودِ أَرَقُّ مِنْ ... وَرْدِ الرياضِ وَأنْعَمُ

هذا تَنشَّقهُ الأنو ... فُ وذَا يُقَبِّلهُ الفَمُ

وإذا عَدَلْتُ فأفضَلُ الـ ... ـوَرْدَيْنِ وَرْدٌ يُلْثَمُ

لا وَرْدَ إلاَّ ما توَلَّـ ... ـى صَبْغَ حُمْرَتِهِ الدَّمُ

هذا يُشمُّ ولا يُضَمُّ ... وذَا يُضَمُّ وَيُشْمَمُ[٣]

سُبْحَانَ مَن خَلقَ الخُدو ... دَ شقائقاً تَتَنَسَّمُ

= كمداً، في خان كان ينزل فيه نحو ٤٢٠هـ/ ١٠٢٩م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ٣/ ٩٠).

(١) البيت من قصيدة طويلة (أربعون بيتاً) اهتم بها الأدباء اهتماماً كبيراً، عارضها أحمد بن جعفر الواسطي، وأبو بكر العيدي (ت ٥٨٠ هـ/ ١١٨٤ م)، وَخمَّسها أحمد بن ناصر الباعوني (ت ٨١٦ هـ/ ١٤١٣ م)، وشرحها علي بن عبد الله العطوي (ت ١١١٩ هـ/ ١٧٠١ م) وولي الدين يكن (ت ١٩٢٠ هـ/ ١٣٣٨ م).

(٢) القَبَاءُ: ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص، وَيُتَمَنْطَقُ به.

(٣) يُشْمَمُ: أصلها يُشَمُّ، لكنه فكَّ الإدغام لإقامة الوزن.

وأعـــارَهــــا الأصــــداغ فَهْـ ـــي بهـــا شَقيـــقٌ يُعْلَـــمُ
واستنطَـــقَ الأجفـــانَ فَهْـــي بلَحْظِهـــــا تتكلَّـــــمُ
وَتُبِيـــنُ للمحبـــوبِ عَـــنْ ســـرِّ الحبيـــبِ فيفهَـــمُ
وَتشيـــرُ إنْ رأت الـــرقيـــبَ بلَحْظِهـــا فَتُسلِّـــمُ
وأعـارَهـا مَـرضـاً تَصِـحُّ بِـه القلـــوبُ وَتَسْقَـــمُ
فِتَـــنُ العُيـــونِ أجَـــلُّ مـــن فِتَـــنِ الخُـــدودِ وَأَعْظَـــمُ

وقال:

إنْ كـانـتِ الألحـاظُ رُسْـلَ القلـوبْ فينـا فمـا أهـونَ كَيْـدَ الـرقيـبْ
قَبَّلْـتُ مَـنْ أهـوى بعينـي ولـم يَعلَـمْ بِتقبيلـيَ خَـدُّ الحبيـبْ
لَكِنَّــه قــد فَطِنَــتْ عَيْنُــهُ بِلَحْـظِ عينـي فِطْنَـةَ المُستـريـبْ
إنْ كـانَ علـمُ الغيـبِ مُسْتَخْفِيـاً عَنّـا فَعِنْـدَ اللّحـظِ عِلْـمُ الغُيـوبْ

وقال:

قـالـوا الـرحيـلُ لِخَمْسَـةٍ تـأْتـي سَـريعـاً مـن جُمـادى
فَـأجَبْتُهُـم إنـي اتخـذْ ت لـه الأَسَـى والحُـزْنَ زَادا(١)
سبحـانَ مَـنْ قَسَـم الأسـى بيـن الأحِبَّـةِ والبعـادا
وأعـارَ لـلأجفـانِ حُسْـ ـنـاً تَسْتَـرِقُّ بـه العبـادا(٢)

وقال:

عَقْـرَبُ الصُّـدْغِ فـوق تُفّـاحـةِ الخـدّ نعيـمٌ مُطَـرَّز بِعَـذابِ
وَسيـوفُ اللحـاظ فـي كـلّ حِيـنٍ مـانعـاتٌ جَنـى الثنـايـا العِـذَابِ(٣)
وَعيـونُ الـوشـاةِ يُفْسِـدْن بـالـرِّقْـ ـبـةِ والمَنْـعِ رؤيـةَ الأحبـابِ(٤)
فَمتـى يَشْتَفِـي المُحِـبُّ وَتُطْفَـى بـالتـدانـي حَـرَارَةُ الإكتئـابِ

---

(١) الأسى: الحزن الشديد.

(٢) تسترقّ: تستعبد.

(٣) جنى الثنايا: أراد به الريق. والثنايا: جمع ثنية، وهي إحدى الأسنان الأربع التي في مقدم الفم، ثنتان من فوق وثنتان من تحت.

(٤) الرقبة: المراقبة.

وقال:

تـرى عِـذَارَيْـهِ قَـدْ قـامـا بِمَعْـذِرتـي عند العَذُول فَيَغْدُو وَهْوَ يَعْذِرُني[١]
رِيـمٌ كـأنَّ لـه فـي كـل جـارحـةٍ عقدا من الحُسْنِ أو نَوْعاً من الفِتَنِ[٢]
كـأنَّ جـوهـرَهُ مـن لُطْفِـه عَـرَضٌ فَليسَ تَحْـويـه إلا أعْيُـنُ الفطـنِ
واللَّـهِ مـا فَـتَـنَـتْ عينـي مَحَـاسِنُـهُ إلا وقـد سَحَـرَتْ ألفـاظُـهُ أذُنِـي
مـا تَصْـدُرُ العيـنُ عنـه لَحْظَهـا ملَـلاً لأنـه كـلّ شَخْـصٍ مُـرتضًـى حَسَـنِ
يـا مُنْتَهـى أمَلِـي لا تُـدْنِ لـي أجَلـي وَلا تُعَـذِّبْ ظنـونـي فيـك بـالظِّنَـنِ
إنْ كان وَجْهُكَ وَجْهاً صِيغَ من قَمَرٍ فـإنَّ قَـدَّكَ قَـدٌّ قُـدَّ مِـنْ غُصُـنِ[٣]

وقال:

ألا يـا نسيـمَ الـريـح عَـرِّجْ مُسَلِّمـا علـى ذلـك الشخـصِ البعيـدِ المُـودَّعِ
وَهُـبَّ علـى مَـنْ شَـفَّ جِسْمِـي بُعَـادُهُ سَمُوماً بما استملَيْتَ من نارِ أضْلُعِي[٤]
فـإنْ قـال: مـا هـذا الحرورُ؟ فقل لـهُ: تَـنَفُّـسُ مُشْتَـاقٍ بِحُبّـكَ مُـوجَـعِ[٥]

ومختارُ شعره كثير، وقد تفرّق منه قطعةٌ كافية في أعراض الكتاب.

[عَودٌ إلى وصف النجوم] رجع ما انقطع

للصاحب بن عباد

قال الصاحب أبو القاسم إسماعيل بن عبّاد:

لقد رَحَلَتْ سُعْدَى فهل لك مُسْعِدُ؟ وَقد أنجدَتْ داراً فهل أنتَ مُنْجِدُ؟[٦]

---

(١) العِذار: جانب اللحية، ومنه: خلع فلان عذاره: انهمك في الغيّ ولم يَسْتَحِ.

(٢) الريم: الرئم: الظبي الخالص البياض، أو ولد الظبي، الجمع أرآم وآرام، وهي رئمة. وتشبَّه به الحسناء من النساء.

(٣) قُدَّ: شُقَّ، وقد قَدَّ القلم أو الثوب ونحوهما قَدًّا: شَقَّهُ طولاً.

(٤) السَّمُوم: الريح الحارة، أو الحرّ الشديد النافذ في المَسَامّ، وقال تعالى: ﴿وأَصْحَابُ الشِّمَالِ ما أَصْحَابُ الشِّمَالِ في سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ (سورة الواقعة، آية ٤٢).

(٥) الحَرُورُ: حَرُّ الشمس، والحرّ الدائم، والنار، قال تعالى: ﴿وما يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالبَصِيرُ، ولا الظُّلُماتُ ولا النورُ، وَلا الظِلُّ ولا الحَرُورُ﴾ (سورة فاطر، آية ٢١).

(٦) أنجد: ارتفع، أو أتى نَجْداً، والنَّجْدُ: ما ارتفع من الأرض وصلب. وَنَجْدُ: قسم من الجزيرة =

رَعيتُ بِطَرْفِي النَّجْمَ لما رأيتها تَبَاعَدُ بُعْدَ النَّجْمِ بل هي أبْعَدُ
تُنيرُ الثريّا وَهْيَ قُرطٌ مُسَلْسَلٌ وَيَشْغَلُ منها الطرفَ دُرٌّ مُبَدَّدُ[١]
وَتَعْتَرِضُ الجوزاءَ وهيَ كَكاعِبٍ تَمِيّلُ من سُكْرٍ بها وَتَمَيَّدُ[٢]
وَتَحْسَبُها طَوْراً أسيرَ جِنَايَةٍ تَرشّحَ بعدَ المشْي وهو مُقَيّدُ
وَلاحَ سُهيلٌ وهو للصُّبح رَاقِبٌ كما سُلَّ مِنْ غمدٍ جُرَازٌ مُهنّدُ[٣]
أردِّدُ طَرْفِي في النجوم كأنها دنانيرُ لكنَّ السماءَ زَبَرْجَدُ
رأيتُ بها، والصبحُ ما حانَ وِرْدُهُ، قناديلَ والخضراءُ صَرْحٌ مُمَرَّدُ[٤]
وَفيهِ لنا مِنْ مَرْبطِ الشمسِ أشقرٌ إذا ما جَرى فَالريحُ تَكْبُو وَتَرْكُدُ

لأبي علي الحاتمي

وقال أبو علي الحاتمي:

وَليلٍ أقمنا فيه نُعْمِل كأسَنا إلى أن بَدَا للصُّبح في الليلِ عَسْكَرُ
وَنَجْمُ الثريا في السماءِ كأنهُ على حُلَّةٍ زَرْقَاءَ جَيْبٌ مُدَثَّرُ

للبحتري

البحتري:[٥]

وَلقد سَرَيْتُ مع الكواكب راكباً أَعجازها بعزيمةٍ كالكوكَبِ[٦]
والليلُ في لونِ الغُرَابِ كأنهُ هو في حُلُوكَتِه وإن لم يَنعبِ[٧]
وَالعيسُ تَنْصُلُ من دُجَاه كما انجلَى صِبغُ الخِضَابِ عن القَذَالِ الأشْيَبِ[٨]

= العربية، بين الحجاز والعراق، أكثر شعراء العربية القول في طيب هوائه، وحسن نباته.
(١) في نسخة: «ويطرف عنها الطرف درٌّ منضد».
(٢) ماد الشيء مَيْداً، وَمَيَداناً: تحرّك واضطرب، وماد الغصن: تمايل، وماد فلان: تثنّى وتبختر.
(٣) الجراز: السيف القاطع، والمهند: المصنوع في الهند.
(٤) الخضراء: السماء. والصرح المُمرّد: القصر الرفيع.
(٥) البحتري، الديوان: ٢/ ٢٢٩. والأبيات من قصيدة يمدح بها مالك بن طوق.
(٦) في الديوان: «ولقد أبيتُ».
(٧) حَلَكَ حَلْكاً، وحُلْكَةً: اشتدَّ سواده. ونعب الغراب نَعْباً، ونَعيباً، وَنُعاباً، وَتَنْعَاباً: صاح وصَوَّت.
(٨) تنصل: تخرج، ونصل اللون نَصْلاً ونُصُولاً: زال، ويقال: نصل الخضاب، ونصل الشعر أو =

حَتـى تَبـدَّى الفَجْـرُ مـن جَنَبَـاتِـهِ كـالماءِ يَلْمَعُ من خِلاَلِ الطُّحْلبِ(١)

للميكالي

وقال الأمير أبو الفضل الميكالي:

أهلاً بفَجْرٍ قد نَضَى ثَوْبَ الدُّجى كالسيف جُرِّد من سَوَادِ قِرَابِ(٢)
أو غـادةٍ شَقَّـتْ صِـداراً أزرقـا ما بين ثُغْرَتِها إلى الأترابِ(٣)

لرجل من بني الحارث بن كعب

وقال رجلٌ من بني الحارث بن كعب يصف الشمس:

مُخبـأَةٌ أمَّـا إذا الليـلُ جَنَّهـا فَتَخْفَـى وأمَّـا بالنهـار فَتَظْهَـرُ(٤)
إذا انشـقَّ عنهـا سـاطِعُ الفَجْرِ وانْجَلَى دُجَى الليلِ وانجابَ الحِجَابُ المُستَّرُ(٥)
وَألبـس عـرض الأرضِ لـونـاً كـأنـهُ علـى الأفـق الشَّـرْقـيِّ ثـوبٌ مُعَصْفَـرُ
تجلّـتْ وفيهـا حيـن يَبْـدُو شعـاعُهـا وَلـم يَعْـلُ للعيـنِ القصيـرةِ مَنْظَـرُ
عليهـا كَـرَدْعِ الـزعفـرانِ يَشُبُّـهُ شُعَـاعٌ تَـلاَلاَ فهـو أبيـضُ أَصْفَـرُ(٦)
فلمـا علَـتْ وابيـضَّ منهـا اصْفِـرارُهـا وجـالَـتْ كمـا جَـالَ المَنيـحُ المُشهَّـرُ(٧)
وَجلَّلَـتِ الآفـاقَ ضَـوْءاً يُنيـرهـا بِحَـرّ لهـا وَجْـهَ الضُّحَـى تَتسعَّـرُ(٨)
تَـرى الظـل يُطْـوَى حيـن تَبْـدُو وتـارةً تَـراه إذا زالـتْ عـن الأرض يُنْشَـرُ

= الثوب: زال عنه خضابه أو لونه. والقذال: جماع مؤخر الرأس من الإنسان والفرس فوق القفا.

(١) في الديوان: «حتى تَجلَّى». والطحلب: خضرة تعلو الماء الآسن.

(٢) قراب السيف: غمده.

(٣) الثغرة: نقرة النحر. الأتراب: أراد الترائب: عظام الصدر مما يلي الترقوتين، موضع القلادة.

(٤) جَنَّها: سترها.

(٥) انجاب الظلام: انقشع وزال، وانجاب السحاب: انكشف.

(٦) في نسخة: «كدرع الزعفران».

(٧) جال النطاق ونحوه: تحرك واضطرب لسعته، وجال التراب: ارتفع، وجال في الأرض: طاف غير مستقرٍّ فيها. المنيح: أحد ثلاثة أقداح من أقداح الميسر لا نصيب لواحد منها، والآخران: السفيح والوغد.

(٨) وجه الضحى: أوله، وانتصابه على الظرفية.

كمــا بــدأَتْ إذْ أشــرقَــتْ فــي مَغِيبِهــا تَعــودُ كمــا عــادَ الكبيــرُ المُعمَّــرُ
وَتَــدْنَــفُ حتــى مــا يكــادُ شُعــاعُهــا يَبِيــنُ إذا وَلَّــتْ لِمَــنْ يَتبصَّــرُ(١)
فــأَفْنَــت قُــرُونــاً وَهْــيَ فــي ذاك لَــمْ تَــزَلْ تَمُــوتُ وتَحْيَــا كُــلَّ يــومٍ وَتُنْشَــرُ(٢)

[أجمل ما قال العرب]

وقال عبد الملك بن مروان لبعض جلسائه يوماً: ما أحكم أربعة أبياتٍ قالتها العرب في الجاهلية؟ فأنشده:

مَنَــعَ البقــاءَ تَقلُّــبُ الشمــسِ وَطلــوعُهــا مِــنْ حَيْــثُ لا تُمْسِــي
وَطُلُــوعُهــا بَيضــاءَ صــافيــةً وَغُيــوبُهــا صَفْــراءَ كــالــوَرْسِ(٣)
تَجْــرِي علــى كَبِــدِ السمــاءِ كمــا يَجْــرِي حِمــامُ المــوتِ فــي النَّفْــسِ
اليــومَ تَعْلَــمُ مــا يجــيءُ بِــهِ وَمضَــى بِفَصْــلِ قَضــائِــه أَمْــسِ

قال: أحسنت، فأخبرني بأمْدح بيتٍ قالتْهُ العرب في الشجاعة، قال: قول كعب بن مالك الأنصاري:

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا قُــدُمــاً، وَنَلْحَقُهــا إذا لــم تُلْحَــقِ

قال: فأخبرني بأفضل بيتٍ قيل في الجود، فأنشده لحاتم طيء:

أماويّ ما يُغْني الثراءُ عن الفتَى إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصدرُ(٤)
تَــرَيْ أَنَّ مــا أبقيــتُ لــم أكُ رَبَّــهُ وَأَنَّ يــدي ممــا بَخِلْــتُ بــه صِفْــرُ(٥)
ألــم تَــرَ أنَّ المــالَ غــادٍ ورائــحٌ وَيبقَى من المالِ الأحاديثُ والذِّكْرُ(٦)

---

(١) تدنف: تمرض.
(٢) تُنْشَرُ: تُبْعَثُ.
(٣) الورس: نبت من الفصيلة القرنية، ثمرته قرن مُغَطًّى عند نضجه بِغُددٍ حمراء، يستعمل لتلوين الملابس الحريرية.
(٤) أَماويّ: أَراد أَماوية فَرخَّم. وماوية: هي زوجة حاتم، وكانت من أجل نساء العرب، وكان تزوجها بعد وفاة زوجته النوار. وحشرج فلان: رَدَّد نَفَسَهُ في حلقه، وحشرجت روحه في صدره: أوشك أن يموت.
(٥) في الأغاني (١٧/ ٢٩٥): «تَرَيْ أَنَّ ما أَنْفَقْتُ لَمْ يَكُ ضَرَّني».
(٦) في الأغاني: «أَماوِيَّ إِنَّ المال غَادٍ ورَائحٌ».

غَنِينـا زمـانـاً بـالتَّصَعْلُـكِ والغِنَـى فَكُـلاًّ سقـانَـاهُ بِكَـأْسَيْهِمـا الـدَّهْـرُ[١]

فمـا زادَنـا بَغْيـاً علـى ذِي قـرابـةٍ غِنَـانـا، ولا أزرى بـأحسـابِنـا الفَقْـرُ[٢]

قال: فأخبرني عن أحسَن الناس وصفاً، قال: الذي[٣] يقول:[٤]

كـأنَّ قُلـوبَ الطيـرِ رَطبـاً ويـابسـاً لَدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البَالِي[٥]

والذي يقولُ:[٦]

كـأنَّ عُيـونَ الـوَحْـشِ حـول خِبَائنـا وَأَرْحُلِنـا الجَـزْعُ الـذي لَـمْ يُثَقَّـبِ[٧]

والذي يقول:[٨]

وَتَعْـرِفُ فيـه مِـنْ أبيـهِ شَمـائـلاً وَمِنْ خَـالِه وَمِنْ يـزيـدَ وَمِنْ حُجُـرْ

سَمـاحـةَ ذَا، مـع بِـرِّذَا، وَوفـاءِ ذَا وَنـائـلِ ذَا إذا صَحَـا وإذا سَكِـرْ

يريد امرأ القيس.

---

(١) في الأغاني:
غَنِيَـا زَمـانـاً بـالتَّصعْلُـك والغِنَـى كما الدَّهْرُ في أيَّامه العُسْرُ واليُسْرُ
لَبِسْنَـا صُـروفَ الـدَّهْـرِ لِيـناً وَغِلْظَـةً وَكُـلاًّ سَقَـانـاهُ بِـكَـأْسَيْهِمـا العَصْـرُ
(٢) وفي رواية: «فما زادنا بأواً»، والبأو: الفخر والتكبر.
(٣) يريد امرأ القيس بن حجر الكندي.
(٤) امرؤ القيس، الديوان: ص ١٤٥.
(٥) الحَشَفُ من التمر: أردؤه، وهو الذي يجفُّ ويصلب ويتقبض قبل نضجه فلا يكون له نوًى ولا لحاءٌ ولا لحم، ويقال: «أَحشفاً وسوء كيلة» لمن يجمع خصلتين مكروهتين. وأشار بقوله: رطباً ويابساً» إلى كثرة ما تأتي به من القلوب حتى تفضل عن الفراخ، وقد قيل: إن الجوارح لا تأكل قلوب الطير ولا سائر حشوة بطونها.
(٦) امرؤ القيس، الديوان: ص ٧٠.
(٧) الجزع: الخرز.
شبّه عيون الوحش لما فيها من السواد والبياض بالخرز. وجعله مثقباً لأن ذلك أصفى له وأتم لحسنه. وإنما شبّه عيونها وهي سود كلها لا يرى فيها بياض بالجزع، وهو أسود مجزع بالبياض لأنه أراد عيونها وهي ميتة وقد انقلبت فيرى فيها البياض والسواد.
(٨) امرؤ القيس، الديوان: ص ١٠١.

ومن ألفاظ أهل العصر في طلوع الشمس وغروبها

ومتوع النهار[١] وانتصافه، وابتدائه، وانتهائه

بدا حاجبُ الشمسِ، ولمعَتْ في أجنحَةِ الطيرِ، وكشفَتْ قناعَها، ونثرتْ شُعاعَها، وارتفع سُرادِقُها، وأضاءتْ مشارِقُها، وانتشر جناحُ الضوءِ في أفق الجو. طَنّبَ شعاعُ الشمس في الآفاق، وذهَّبَتْ أطْراف الجدران. أينع النهار وارتفع. استوى شَبَابُ النهار، وعلا رونق الضحى، وبلغت الشمسُ كبد السماء. انتعل كل شيء ظلّه، وقام قائمُ الهاجِرَة، وَرَمَت الشمس بِجَمَرَاتِ الظهر. اصفرَّتْ غِلاَلَةُ الشمس، وصارت كأنها الدينارُ يلمعُ في قرارِ الماء، ونفضَتْ تِبراً على الأصيل، وشَدَّتْ رَحْلَها للرحيل، وتصوّبَتْ الشمسُ للمغيب، وتضيّفَت للغروب[٢] فأَذِن جَنْبُها للوُجوب[٣]. شاب النهارُ، وأقبل شبابُ الليلِ، ووقفت الشمسُ للعيان، وشافَه الليلُ لسان النهارِ. الشمسُ قد أشرقَتْ بروجُها، وجنحت للغروب، وشافَهتْ دَرج الوجوب. الجوُّ في أطمار منهجة من أَصائله[٤]، وشفوف مورَّسَة من غَلاَئله[٥]. استتر وَجْهُ الشمسِ بالنِّقَاب، وتوارَت بالحجابِ. كان هذا الأمرُ من مطلع الفلق، إلى مجتمع الغَسَق. فلانٌ يركَبُ في مقدمة الصُّبح، ويرجع في ساقة الشفق، ومن حين تفتحُ الشمس جَفْنَها، إلى أن تغمض طَرْفها، ومن حين تسكنُ الطيرُ أوكارَها، إلى حينَ ينزلُ السَّرَاةُ مِنْ أكوارِها.

المقامة الكوفية

مقامة لأبي الفتح الإسكندري من إنشاء البديع، اتَّصَلَتْ بذكرِ الليلِ والنهار.

قال عيسى بن هشَام: كنت وَأنا فَتِيُّ السنِّ أشدُّ رَحْلِي لكلّ عَمَاية، وأركضُ طِرْفي لكل غَوَاية، حتى شرِبْتُ من العُمْر سائغه، وَلَبِسْتُ من الدهر سابغه، فلمّا صاح النهارُ

---

(١) متوع النهار: يقال: متع النهار إذا ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال.

(٢) تَصوَّبت للمغيب: انحدرت.

(٣) الوُجُوبُ: الغياب، يقال: وجبت الشمس وَجْباً، وَوُجُوباً: غابت.

(٤) الأَطمار: جمع طَمر، وهو الثوب الخلق البالي.

(٥) الشُّفُوف: جمع شَفّ، وهو ستر رقيق يُسْتَشَفُّ ما وراءَه، ويقال: ثوب شَفٌّ: رقيق. مُوَرَّسةٌ: مصبوغة بالوَرْسِ، وهو نبت تستخدم عصارته لتلوين الملابس الحريرية. والغلائل: جمع غِلالة، وهي ثوب رقيق يُلبس تحت الدِّثار.

بجانب ليلي، وجمعتُ للمعادِ ذَيْلي، وطِئْتُ ظَهْرَ المَرُوضةِ، لأَداء المفروضة، وصَحِبَني في الطريقُ رَجُل لم أنكره من سوء، فلما تخالينا، وحين تجالينا، سَفَرَتهُ القصَّةُ عن أصلٍ كوفيّ، ومَذْهَب صوفِيّ، وسِرْنا فلما حللنا الكوفةَ مِلْنَا إلى داره [ودخلناها] وقد بَقَل وَجْهُ النهار[١]، واخضرَّ جانبُهُ، ولما اغتمض جَفْنُ الليل وطَرَّ شاربُه[٢] قُرِعَ علينَا البابُ، فَقُلْنا: من القارعُ المُنْتَابُ؟ فقال: وَفْدُ الليل وبريده، وفَلُّ الجوع وطريده، وأسير الضرّ، والزمن المرّ، وضيفٌ وَطْؤُه خفيف، وضالّتُه رَغِيف، وجارٌ يَستَعْدِي على الجوع، والجَيْبِ المَرقوع، وغريب أُوقِدت النارُ على سفره، ونبحَ العَوَّاء في أثره[٣]، ونُبِذت خَلْفه الحُصيّاتُ، وكُنِسَتْ بعده العَرَصَات، فَنِضْوُه طَلِيح، وَعَيْشُه تبريح[٤]، ومن دون أفراخه مَهَامِهُ فيح[٥].

قال عيسى بن هشام: فَقَبَضْتُ من كيسي قَبْضَةَ الليثِ وبعثتها إليه، وقلتُ: زِدْنَا سؤالاً نَزِدْك نَوَالا، فقال: ما عُرِض عَرْفُ العودِ، على أحرَّ من نار الجُودِ، ولا لُقِيَ وَفْد البرِّ، فأحسن من بريد الشكر، ومن ملك الفَضْل فَليواس، فلا يَذْهبُ العُرْفُ بين اللهِ والناس[٦]، وأما أَنتَ فَحقَّق اللهُ أَمَلك، وجعَل اليدَ العُلْيا لك.

قال عيسى بن هشام: ففتحنا البابَ، فإذا شيخُنا أبو الفتح الإسكندري، فقلنا: يا أبا الفتح، شدّ ما بلَغتْ بك الخَصَاصَةُ، وهذا الزيُّ خاصة! فتبسم وأنشأ يقول:

لا يَغُـــــرنَّـــــكَ الـــــذي أنـــــا فيـــــهِ مـــــنَ الطَّلَـــــبْ
أنـــا فـــي بُـــرْدَةٍ تُشَـــقُّ لهـــا بُـــــــــرْدَةُ الطَّـــــــــرَبْ
أنـــا لـــو شِئـــتُ لاتَّخَـــذْ تُ شِقَـــاقـــاً مـــن الـــذَّهَـــبْ

---

(١) بقل وجه النهار: ظهر.
(٢) طرَّ شاربه: نبت.
(٣) العَوَّاءُ: الكثير العُواء، والمراد الكلب. وقد نبح الكلب نباحاً: صاح، وعوى عُواءً: لوى خطمه ثم صاح صياحاً ممدوداً ليس بنباح، فهو عاوٍ وعوَّاء.
(٤) النضو هنا: المطية. طَليح: هزيل، مريض. وتبريح: من قولهم: «بَرَّح به المرض» إذا شقَّ عليه وأجهده.
(٥) المَهامِهُ: جمع مهمه، وهي الصحراء. الفيح: جمع فيحاء: واسعة.
(٦) هذا من قول الحطيئة:
مَنْ يَفْعَلِ الخَيْـرَ لا يَعْـدَمْ جَـوَازِيَـهُ لا يَـذْهَـبُ العُرْفُ بَيْـنَ اللَّهِ وَالنَّـاسِ
(العمدة: ١/ ٢٨٣). والعُرْفُ: المعروف.

[من رسائل البديع]

من البديع إلى بعض إخوانه

وكتب البديعُ إلى بعض إخوانه: غضبُ العاشقِ أقصرُ عمراً من أن يَنْتَظِرَ عُذْراً، وإن كان في الظاهر مَهَابَةَ سَيْف، إنه في الباطن سحابةُ صَيْف، وقد رَابَني إعراضه صَفْحاً، أفجدًّا قصدَ أمْ مَزْحاً، ولو التبس القَلْبَان حقَّ التباسهما ما وجد الشيطانُ بينهما مساغاً، ولا والله لا أُرِيك رَدًّا، أجدُ منهُ بدًّا، وإن محبة تحتمل شَكًّا لأجْدَرُ محبة، ألاّ تُشْتَرى بحبَّةٍ، وإنْ كان قَصَدَ مَزْحاً فما أغنانا عن مَزْحٍ يحلُّ عُقَد الفؤاد [حتى نقف على المراد، ولا تسعنا إلا العافية] والسلام.

رسالة أخرى من البديع إلى صديق!

وله إليه: المودّة ـ أعزَّك الله ـ غَيْب، وهو في مكانٍ من الصَّدْر، لا ينفذه بصر، ولا يُدْرِكُه نَظَر، ولكنها تُعْرَف ضرورة، وإن لم تظهر صُورَة، ويدرِكها الناس، وإن لم تدركها الحَواسّ، وَيَسْتَمْلِي المرءُ صَحيفَتَها من صدره، ويعلم حالَ غيرِه من نفسه، ويعلم أنها حبٌّ وراء القلب، وقلب وراء الخِلْب[١]، وخِلْب وراءَ العَظم، وعَظْمٌ وراء اللحم، ولحم وراءَ الجلد، وجلدٌ وراء البُرْد، وبُرد [وراء البعد]. ولو كانت هذه الحُجُبُ قوارير لم ينفذها نظر، فَيَسْتَدِلّ عليها بغيرِ هذه الحاسّة بدليل إلاّ أن أزوره، والله لو التبست به التباساً، يجعل رأسينا رأساً، ما زِدْتُه ودًّا، ولو حال بيني وبينه سُورُ الأعرافِ، وَرَمْلُ الأحقافِ، ما نقصته حقاً.

لأبي الفضل الميكالي

وقال الأمير أبو الفضل الميكالي:

وَغَـــزَالٍ مَنَحْتُـــهُ ظَـــاهِـــرَ الـوِدِّ فَجَازى بـالصدِّ والإنتحابِ[٢]
لَـــمْ أَلُمْـــهُ إن رَدَّنـــي لِحِجَـــابٍ رَدَّنـــي والِـــهَ الفـؤاد لِمَـــا بِـــي[٣]

(١) الخِلْبُ: لحمة رقيقة تصل بين الأضلاع.
(٢) في يتيمة الدهر (٤/ ٤٢٧): «منحته خالص الودّ».
(٣) في نسخة:
لَـمْ أَلُمْـهُ إذ انـزوى فـي حجـاب رَدَّنـي وَالِـه الحَشَـا ذا التهـابِ
وفي يتيمة الدهر (٤/ ٤٢٧): «لم ألمه أنِ اتَّقى بحجابٍ».

هُــو رُوحٌ وليــس يُنْكَــر للــرُّو ... حِ تَـوَارٍ عــنِ الــوَرَى بِحِجَــابِ[١]

من البديع إلى أخيه

وللبديع إلى أخيه:

كتابي أطال اللهُ بقاءَك، ونحن وإن بَعُدَتِ الدارُ فَرْعَا نَبْعَة، فلا يَجْنِينَّ بُعْدِي على قُرْبك، ولا تمحوَنّ ذِكْرِي من قلبك، فالأخَوَان، وإن كان أحدُهما بخراسان والآخر بالحجاز، مجتمعان على الحقيقةِ مفترقان على المجاز، والاثنان، في المعنى واحد وفي اللفظ اثْنَانِ، وما بيني وبينك إلا ستر، طولُهُ فِتْرٌ، وإن صاحبني رَفيق، اسمه توفيق، لنلتقينَّ سريعاً ولنسعدَنّ جميعاً، واللهُ وليُّ المأمول.

من ابن العميد لبعض إخوانه

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى بعض إخوانه:

قد قَرُبَ ـ أيدك الله ـ محلك على تَرَاخِيه، وتَصاقَب مُستقرُّك على تَنَائيه؛ لأنّ الشوقَ يُمثّلُك، والذكر يخيّلك؛ فنحنُ في الظاهر على افتراق، وفي الباطن على تلاق، وفي التسميةِ مُتَبَاينون، وفي المعنى متواصلون، وإن تفارقت الأشباحُ، لقد تعانقت الأرواح.

جملة من كلام ابن المعتز في الفصول القصار

الدهرُ سريعُ الوثبة، شنيع العَثْرَة. أهلُ الدنيا كَرَكْبٍ يُسارُ بهم وهم نِيام. والناسُ وَفْدُ البِلى، وسكان الثَّرَى، وأَقْران الرَّدَى. المرءُ نُصْبُ الحوادثِ وأسيرُ الاغترار. الآمالُ حَصَائِد[٢] الرجالِ. الْحِرْصُ يَنْقُصُ المَرْءَ من قَدْرِه، ولا يزيدُ في رِزْقه. الكذب والحسدُ والنفاق أَثَافِيّ الذلّ[٣]. النّمامُ جِسْرُ الشر. الحاسدُ اسمُه صديق ومعناه عدوّ. الحاسدُ ساخِطٌ على القدَر، مغتاظٌ على من لا ذَنْبَ له، بخيل بما لا يملِكُه، يشفيك [منه] أنه يغتمُّ في

(١) في يتيمة الدهر: «هو روحي». توارٍ: اختفاء.

(٢) الحصائد: جمع حصيد، وهو الزرع المحصود، قال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنا به جَنَّاتٍ وَحبَّ الحَصِيدِ﴾ (سورة ق، آية ٩). وحصائد الألسنة: الكلام لا خير فيه، وفي الحديث: «وهل يكبّ الناس في النار على مناخرهم إلاّ حصائد ألسنتهم».

(٣) الأثافي: جمع أُثْفِيَّة، وهي أحد أحجار ثلاثة تُوضع عليها القدر، وثالثة الأثافي: حرف الجبل يجعل إلى جنبه أثفيتان، ويقال: رماه بثالثة الأثافي: بداهية كالجبل.

وقت سرورِك. الفُرْصَة سريعةُ الفَوْتِ بَطيئةُ العَوْد. الصبرُ من ذي المصيبة مصيبةٌ على ذوِي الشَّمات. التواضعُ سُلَّم الشرف، والجُود صِوَانُ العِرْضِ من الذم. الغَدْر قاطع [الأسرار] إذا كثر خُزَّانها ازدادت ضياعاً. السوءُ كشجرة النار يَحْرق بعضُها بعضاً. عَبْدُ الشهوة أَذلُّ من عبد الرقّ. وعاء الخطأ بالصَّمْت يختم، والخرق بالرفْقِ يلحم[١]. الوَعْدُ مرضُ المعروض، والإنجازُ برؤه، والمَطْل تَلفُه. إذا حضرَ الأجل، افتضح الأمل. لا تَشِنْ وَجْهَ العفوِ بالتقريع[٢]. لا تنكحْ خاطبَ سِرّك. ومن زَاد أدبُه على عقله كان كالراعي الضعيف مع شاءٍ كثيرة.

قال أبو العباس الناشىء لأبي سهل بن نوبخت:

زَعمْـتَ أبـا سهـل بـأنـك جـامـعٌ ضُـروبـاً مـن الآداب يَجْمَعُهـا الكَهْـلُ
وَهَبْـكَ تقـولُ الحـقَّ أي فضيلـةٍ تَكُـونُ لِـذي عِلْـمٍ وليس لـه عَقْـلُ

والهمُّ حَبْسُ الروح. قُلوبُ العقلاءِ حصونُ الأسرار. مَن كَرُمَتْ عليه نفسُه هان عليه مالُه. مَنْ جرى في عنان أمله، عثر بأجَلِه. ما كلُّ من [يُحْسِنُ] وعدَه يحسنُ إنجازه. ربما أوردَ الطمعُ ولم يُصْدِر، وضمن ولم يُوفِ. وربما شرق شاربُ الماء قبل ريّه. من تجاوزَ الكفافَ لم يُقْنِعْه إكثارٌ. كلما عَظُمَ قَدْرُ المُنَافَسِ فيه عظمت الفجيعةُ بِفَقْدِه، ومن أَرْحَلَهُ الحِرْص أنْضَاه الطلب. الأمانيّ تُعْمِي أَعْيُنَ البصائر، والحظُّ يأتي من لم يؤمه. وربما كان الطمعُ وعاءَ حَشْوُهُ المتالف، وسائقاً يَدْعُو إلى الندامة. ما أَحْلَى تَلَقِّي البغية، وأمرَّ عاقبة الفراق. من لم يتأمَّل الأمرَ بعَيْنِ عقله، لم تَقَعْ حيلتُه إلاّ على مَقَاتِلِه.

[رثاء المعتضد، وتعزيته]

وقال أبو العباس[٣] يَرْثي المعتضد:[٤]

قَضَوْا ما قضَوْا من أَمرِهم ثم قدَّموا إمـامـاً إمـام الخَلْـق بيـن يَـدَيْـهِ[٥]

(١) يُلْحَمُ: يُلأَمُ، ومنه لحم الأمر: أحكمه وأصلحه.
(٢) شَانَ الشيء: شَوَّهَهُ، وَعابَهُ. والتقريع: اللوم والعتاب.
(٣) هو أبو العباس، عبد الله بن المعتز بن المتوكل على الله بن المعتصم بالله بن هارون الرشيد العباسي.
(٤) ابن المعتز، الديوان: ص ٧٢٣.
(٥) في الديوان:

قَضَـوا ما قَضَـوا مِنْ أَمْرِه ثُمّ قَدَّمُوا إِمـامـاً لَهُـمْ وَالنَّعْـشُ بَيْـنَ يَـدَيْـهِ

وَصَلّـوا عَلَيْـهِ خـاشعيـن كـأَنَّهُـمْ ... صُفُـوفٌ قِيـامٌ لِلسـلامِ عَلَيْـهِ[١]

وقال يَرْثيه:[٢]

قَـالـتْ شُـرَيْـرَةُ مـا لِجَفْنِـك سـاهـراً ... قَلِقـاً، وقـد هـدأَتْ عيـونُ النُّـوَّم[٣]

مـا قَدْ رأيـتُ من الزمـانِ أحلَّ بي ... هذا، وتحت الصَّدْرِ ما لم تَعْلَمي

يـا نفـسُ صَبْـراً للـزمـانِ ورَيْبِـهِ ... فهو المليء بما كَرِهْتِ فَسلّمي[٤]

إنّ الـذي حـازَ الفضـائـلَ كلَّهـا ... هـو ذاك في قَعْرِ الضريح المُظْلِم

أمـا السيوفُ فَمِـنْ صَنائـعِ بَـأْسِـه ... لـولاه لـم يَرْوَيْـن مـن سَفْكِ الـدَّم

وكـأنَّ أَحْـداثَ الـزمـانِ عَبيـدُهُ ... فَمتـى يُـؤَخِّـرهـنّ لا تَسْتَقْـدِم

يَـقْظَـانُ مـن سِنَـةِ المُضَيِّـعِ قَلْبُـهُ ... وَمُعَـوّلٌ لِلمُعْـوِلِ المُتظلِّـم[٥]

يَرْعَى الضغائن قَبْلَ ساعةِ فُرْصَةٍ ... فـإذا رآهـا أمكَنَـتْ لـم يُحْجِـم

كَـمْ فُـرْصَـةٍ تُـرِكَـتْ فصـارَتْ غصَّـةً ... تَشْجَـى بطـولِ تلهُّـفٍ وتَنَـدُّم

وَلَـربّ كَيْـدٍ ظَـلَّ يَسْجُـد بعـدهـا ... فـي بِشْـرِ وَجْـهٍ مُطْلَـقٍ مُتَجهِّـم

وَهـي المنـايـا إن رميـن بِنَبْلِهـا ... يـرميـن في نَفْسِ الأجـلِ الأعظـم

للّـهِ دَرُّكَ أي لَيْـثِ كتيبـةٍ ... والخيـلُ تَعْثُـرُ بـالقَنَـا المُتَحطِّـم

وَلَقَـدْ عَمـرت ولا حَـرِيـمَ مُعَـانِـدٌ ... حَـرمٌ ولا الإسـلامِ بـالمُسْتَسلِـم

وقال للمعتضد يعزّيه بابنه هرون:

يـا نـاصرَ الـديـنِ إذ هُـدَّتْ قـواعِـدُهُ ... وأَصْـدَقَ النـاسِ فـي بُؤْسـى وإنعـام

وقـائـدَ الخيـلِ مـذ شُـدَّتْ مـآزِرُهُ ... مُـذلَّـلاتٍ بـإسْـرَاجٍ وإلجـام

كـأنهـن قنـاً ليسَـتْ لهـا عُقَـدٌ ... يَهُـزُّهـا الـزَّجْـرُ فـي كـرّ وإقـدام

---

(١) في الديوان: «قِيامٌ خُضُوعٌ لِلسّلامِ عليه».

(٢) «وقال يرثيه»: عطف على ما سبق، أي: وقال أبو العباس يرثيه، وقد وجدنا البيتين السابقين في ديوان ابن المعتز، ولم نجد هذه المقطوعة والتي تليها فيه.

(٣) في نسخة: «قالت سريرة» بالسين المهملة.

(٤) ريب الزمان: صرفه، وريب المنون: حوادث الدهر.

(٥) عَوّل الرجل: رفع صوته بالبكاء والصياح، وعَوّل عليه: اعتمد واتكل، يقال: عوّلنا على فلانٍ في حاجتنا فوجدناه نِعْمَ المُعَوَّل.

قُـبّ كطـيِّ ثيـابِ العَصْـبِ مُضمـرةٌ تُقـرِّبُ النـارَ بيـن البيـضِ والهـامِ[1]
وَسـائـسَ الملـك يَـرْعـاه ويكلـؤُهُ إذا حَـلاَ الغَمْـضُ فـي أجفـانِ نُـوَّامِ
تَمْـرِي أنـامِلُـه الـدنيـا لِصَـاحِبهـا ونَصْلُـه مِـنْ عِـدَاهُ قـاطِـرٌ دامِـي[2]
كـالسَّهْـمِ يبعثُـه الـرَّامِـي فَصَفْحَتُـهُ تَلْقى الرَّدَى دُونَهُ، والفُوقُ للرامِي[3]
لا يَشْتَكي الدَّهرَ إنْ خَطْبٌ ألمَّ بهِ إلاّ إلـى صَعْـدَةٍ أو حَـدِّ صَمْصَـامِ[4]
صَبْراً، فَـدَيْنَـاك إنّ الصبرَ عـادَتُنَـا وإن طُـوِينَـا علـى حُـزْنٍ وَتَهْيَـامِ
فَبـادِرِ الأَجْـرَ نَحْـوَ الصَّبْـرِ مُحتَسِبـاً إنَّ الجـزوعَ صَبُـورٌ بعـد أيـامِ

تعزيته في جاريته دريدة

ولما ماتت دُريدة[5]، وهي جارِيةٌ [المعتضد، و] كانت مَسكِينةً عنده، جزع عليها جزعاً شديداً، فقال له عبيد اللّه بن سليمان: مثلُك يا أميرَ المؤمنين تَهُون عليه المصائبُ؛ لأنّك تجدُ من كل فقيدٍ خَلَفا، وتنالُ جميعَ ما تريد من العِوَض، والعِوَض لا يُوجَدُ منك، فلا ابْتَلى اللهُ الإسلام بِفَقْدِك، وعمره بطولِ بقاءِ عُمْرك، وكأن الشاعر عَنَى أمير المؤمنين بقوله:

يُبْكَـى علينـا ولا نَبْكـي علـى أَحَـدِ لَنَحْـنُ أغْلَـظُ أكبـاداً مـن الإبـلِ

فضحك المعتضد وتسلّى وعاد إلى عادته.

قال محمد بن داود الجراح: فلقيني عبيدُ اللّه فأخبرني بذلك، وقال: أردت شعراً في معنى البيت الذي أنشدته فما وجدته؛ فقلت له قد قال البطين البجلي:

طَـوى المـوتُ مـا بيني وبَيْـنَ أَحبَّـةٍ بِهـم كُنـتُ أُعْطِـي مَـن أشـاءُ وأمنـعُ
فَـلا يحسَـبِ الـوَاشُـون أنَّ قَنـاتَنـا تَلِيـنُ، ولا أنَّـا مـن المـوتِ نَجْـزَعُ

(١) قُبٌّ: جمع أَقَبّ، وهو الذي دقَّ خصره وضمر بطنه. والعصب: برد يماني يجمع غزله وَيُشَدّ ثم يُصْبَغ وَيُنْسَج، وقيل: هو برد مُخَطَّط.
والبيض: السيوف، والهام: الرؤوس.
(٢) تمري: من قولهم: مرى فلان الضرع إذا استخرج لبنه.
(٣) فوق السهم: موضع الوتر منه.
(٤) الصمصام: السيف.
(٥) في نسخة: «دويرة».

وَلكــنّ لِــلأُلاّفِ ـ لا بــدَّ ـ لَــوْعَــةً إذا جعلـــت أقـــرانهـــا تَتطلَّـــعُ

فكتبه، وقال: لو حفظته لما عدلتُ عنه.

[من شعر ابن المعتز]

وقال ابن المعتز، وذكر الموتى:[(١)]

وَسُكَّـــانِ دارٍ لا تَـــزَاوُرَ بَيْنَهُـــمْ على قُرْبِ بعضٍ في المحلة من بَعْضِ[(٢)]
كــأنَّ خــواتيمــا مــن الطيــنِ فَــوْقَهُــم فَلَيْسَ لهـا حَتَّـى القِيَـامـةِ مِـنْ فَـضّ[(٣)]

وقال يمدح عبيد اللّه بن سليمان:[(٤)]

أيا مُوصِلَ النُّعْمَى على كلّ حالةٍ إلـيَّ قَـريبـاً كُنْـتُ أو نـازحَ الـدّار
كمـا يَلْحَـقُ الغيـثُ البـلادَ بِسَيْلِـهِ وَإنْ جادَ في أَرضٍ سِواها بإمطارِ[(٥)]
وَيَـا مُقبـلاً والـدَّهْـرُ عنـيَ مُعْـرِضٌ يُقسّـمُ لَحْمِـي بيـن نـابٍ وأظفـارِ[(٦)]
وَيَـا مَـنْ يَـرَانِـي حَيْـثُ كُنْـتُ بِقلبِـهِ وَكَـمْ مـنْ أنـاسٍ لا يَـرَوْنَ بـأَبْصَـارِ[(٧)]
لَقَـدْ رُمْـتَ بـي آمـالَ نَفْسـيَ كلهـا فيا لَهْفَ نَفسي لو أُعِنْتَ بِمِقْدارِ[(٨)]
ذَكَـرتَ مُنَـى سَمْـعِ الإمـامِ وعينِـهِ وَرفَعت ناري كي يَرى ضَوْءَها الساري
وَكَــمْ نِعْمَــةٍ للَّـهِ فـي صَـرْفِ نِقْمَـةٍ تُـرْجَـى وَمكْـرُوهٍ حَـلاَ بعـدَ إمـرار[(٩)]
ومـا كـلُّ مـا تَهْـوَى النفـوسُ بنـافـعٍ ولا كـلّ مـا تخشـى النفـوسُ بِضَـرّارِ

وقوله:

كمـــا يَلْحَـــقُ الغَيْـــثُ البـــلادَ بِسَيْلـــهِ

---

(١) ابن المعتز، الديوان: ص ٤٣٨.
(٢) في الديوان:
وَسكّـــانِ دارٍ لا تَـــواصُـــلَ بَيْنَهُـــمْ على قُرْبِ بَعْضٍ في التجاورِ من بَعْضِ
(٣) في الديوان: «من الطين بينهم». وفَضَّ الشيء: فرّقه، وفضّ الخاتم: كسره وفكّه.
(٤) ابن المعتز، الديوان: ص ٣٠١.
(٥) الغيث: المطر الخَيِّر.
(٦) في الديوان: «ويا مقبلٌ».
(٧) في الديوان: «حيث كنت بذكره»، و«لم يرني بأبصار».
(٨) لم نجد هذا البيت والبيت الذي يليه في رواية الديوان.
(٩) إمرار: من المرارة.

مأخوذ من قول نهشل بن حري[١] وقد بعث إليه كثير بن الصَّلْتِ كُسوةً ومالاً من المدينة:

جَـزَى اللَّـهُ خيـراً والجـزاءُ بكفّـهِ بَني الصَّلْتِ إخوانَ السماحةِ والمَجْدِ
أتـانـي وأَهْلِـي بـالعـراقِ نَـدَاهُـمُ كما انقضَّ سيلٌ مِنْ تِهامةَ أو نَجْدِ

وقال ابن المَوْلَى:

سُـرِرْتُ بِجَعْفَـرٍ إذْ حَـلَّ أَرْضِـي كَمَـا سُـرَّ المُسـافِـرُ بـالإيَـابِ
كَممطـورٍ ببلـدتِـه فـأَضْحَـى غَنِيّـا عـن مُطـالَعـةِ السَّحَـابِ

وبعث عبدُ اللَّه بنُ طاهر إلى أبي الجنوب بن أبي حفصة وهو ببغداد عشرين ألفَ دِرْهم فقال:

لَعَمْـري لَنِعْـمَ الغَيْـثُ غَيْـثٌ أصابنـا بِبَغْـدَادَ مـن أَرْضِ الجـزيـرةِ وَابِلُـهْ[٢]
وَنِعْـمَ الفتـى والبِيـدُ بينـي وبينَـهُ بعشـريـنَ ألفاً صَبَّحَتْنـي رَسـائِلُـهْ[٣]
فَكُنَّـا كَحـيٍّ صَبَّـحَ الغَيْـثُ أهْلَـهُ وَلَـمْ تَـنْتَجِـعْ أَظعـانُـه وحَمَـائلُـهْ
أتـى جُـودُ عبدِ اللَّـهِ حتى كَفَـتْ بِـه رَواحلَنَـا سَيْـرَ الفَـلاَةِ رَوَاحِلُـهْ

[أبو شجاع]

وكانت بنو كلاب ومن والاها من العرب بنواحي الكوفة تجمَّعوا وعزَمُوا على أَخْذِ الكوفة سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة، فبعث أبو شجاع عضد الدولة دِنير[٤] ابن لشكروز فأصلحهما، وكان أبو الطيب المتنبي بها فوصله وبعث إليه خلعاً وقاد إليه فرساً بسَرْجٍ ثقيل، فقال في قصيدة:[٥]

---

(١) نهشل بن حري - وقيل: ابن جُرَيّ - بن ضمرة، من بني دارم بن حنظلة: شاعر إسلامي مخضرم. عاش إلى أيام معاوية، وكان مع علي بن أبي طالب في حروبه. وكان أبوه حَرِّي بن ضمرة، وابنه حَرِّي بن نهشل شاعرين. توفي سنة ٤٥ هـ/ ٦٦٥ م. (ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة: ٦/ ٢٦٨؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٥٣٢).

(٢) الوابل: المطر الغزير.

(٣) البيد: الصحارى، مفردها بيداء.

(٤) في «العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب»: «دلير» باللام مكان النون.

(٥) المتنبي، الديوان: ٢/ ٣٤٠.

فَلَوْ لَمْ يَسِرْ سِرْنا إليه بِأنفُسٍ غرائِبَ يُؤْثِرْنَ الجيادَ على الأهْلِ[١]
وَما أنا مِمَّنْ يَدَّعِي الشَّوْقَ قَلْبُهُ وَيَعْتَلّ في تَرْكِ الزيارةِ بالشغْلِ[٢]
وَلكِنْ رأَيتُ الفَضْلَ في القَصْدِ شِرْكَةً فَكانَ لكَ الفَضْلانِ في القَصْدِ والفَضْلِ[٣]
وَلَيْسَ الذي يَتَّبِعُ الوَبْلَ رائداً كَمَنْ جاءَهُ في دَارِه رائِدُ الوَبْلِ[٤]

[الموفق العباسي]

وكان ابنُ المعتزّ يمدحُ أبا أحمد بن المتوكل، ويلقّب بالناصر والموفّق، وكانت حالُه ترامَتْ في أيام المعتضد إلى غايةٍ لم يبلغها الخليفة، وقد ذكرها الصولي في قصيدة [الصاحب المغرب]، فقال وقد اقتصَّ خلفاء بني العباس من أوّلهم:

وَمُعْتَضِد مِنْ بعدِهِ وَمُوَفَّق يُرَدِّدُ من إرث الخلافةِ ما ذَهبْ
مُوَازٍ لهم في كل فَضْلٍ وَسُؤدَدٍ وَإنْ لم يَكُنْ في العدّ منهم لِمَنْ حَسَبْ

وقال المعتضد، أو قِيلَ على لسانه، لما غلب الموفّق على أمره:

أليس مِنَ العجائبِ أنّ مثلي يرى مَا هَانَ مُمْتَنِعاً عليهِ
وَتُؤخَذُ بِاسْمِهِ الدنيا جَميعاً وَما مِنْ ذاك شَيْءٌ في يديهِ

وشعر ابن المعتز فيه[٥]:

إليكَ امتطينا العيسَ تَنْفُخُ في البُرى وللصُّبْحِ طَرْفٌ بالظلامِ كَحيلُ[٦]

---

(١) في الديوان: «ولو لم تسر سرنا إليك». يؤثرن: يخترن. والجياد: الخيل. أي: لو لم تسر إلينا، لسرنا إليك مصاحبين لأنفس غريبة الأهواء، تختار التعب على الراحة، وصحبة الخيل في الأسفار على صحبة الأهل في المقام طلباً للمجد والعُلى.
(٢) في الديوان: «ويَحتجّ في ترك الزيارة».
(٣) يقول: إذا قصدناك صار لنا فضل نُشاركك فيه، لأن الفضل للقاصد، ولقد قصدتنا أنت، فثبت لك الفضلان: فضل القصد وفضل الصنيع.
(٤) الوبل: المطر الغزير. الرائد: الذي يجول في طلب الكلأ ومساقط الغيث. يقول: ليس من يسعى في طلب الخير كمن يأتيه الخير وهو في مكانه.
(٥) ابن المعتز، الديوان: ص ٥٦٣.
(٦) في الديوان: «تَنْفُخُ في السُّرَى»، «واللَّيل طَرْفٌ بالصباح كحيلُ». والعيس: النوق. والسُّرى: السير ليلاً.

صَـدِيـنَ مـن التَّهْجيـر حتـى كـأنهـا سُيوفٌ جلاَها الصَّقْلُ فهي تَـحُولُ[(١)]
فَبِتْنـا ضيـوفـاً للفَـلاَةِ قِـرَاهُـمُ عَنيـقٌ ونَـصٌّ دائـمٌ وذَميـلُ[(٢)]
يَهُـزّ بُـرودَ العَصْـبِ فَـوْقَ مُتـونِهـا نسيـمٌ كَنَفْـثِ الـراقيـاتِ عَليـلُ
وَلمّـا طغَـى أَمْـرُ الـدَّعـيّ رَمَيْتَـهُ بِعَـزْمٍ يـردُّ العَضْـبَ وَهْـوَ فَليـلُ[(٣)]
وَجـرَّدَ مـن أغمـادِهِ كُـلّ مُـرْهَـفٍ إذا مـا انتضَتْـهُ الكـفُّ كـاد يَسيـلُ[(٤)]
جَـرى فَـوْقَ مَتْنَيـهِ الفِـرنْـدُ كـأنمـا تَنفّـس فيـه القَيْـنُ وَهْـوَ صقيـلُ[(٥)]
وأعلمتـهُ كيـف التصـافُـح بـالقَنَـا وكيف تُروَّى البيضُ وَهْيَ مُحُولُ[(٦)]
سَـريـعٌ إلـى الأعـداء، أَمـا جَنـابُـهُ فَمـاضٍ، وأمّـا وَجْهُـهُ فَجميـلُ[(٧)]
وَيُقَري السؤال العُذْرَ من بَعْدِ مالهِ وَيَسْتَصْغِـرُ المعـروفَ حيـنَ يُنيـلُ[(٨)]

أخذ معنى قوله: «نسيم كنفث الراقيات عليل» عبدُ الكريم بنُ إبراهيم، فقال:

سَـلامٌ علـى طيـبِ رَوْحـاتنـا إلـى القَصْـرِ والنَّهَـرِ الخِضْـرِمِ[(٩)]
إلـى مُـزْبِـدِ المَـوْج طـامِـي العُبَـا بِ يقـذِفُ بـالْبَـانِ والسـاسـمِ[(١٠)]
تخـالُ بـه قَطمـاً مُقْـرَمـا يكـرّ علـى قَطِـمٍ مُقْـرِمِ[(١١)]
ويَسجُـو فَيسحـبُ فـي ذائـلٍ يَمَـانٍ تَسهَّـم بـالأنجُـمِ[(١٢)]

---

(١) هذا البيت، والأبيات الثلاثة التي تليه ليست في رواية الديوان.
(٢) العنيق والنص والذميل: ضروب من السير السريع.
(٣) العضب: السيف القاطع. والفليل: المكسور.
(٤) في الديوان: «وجَرَّدت من أغماده». المرهف: السيف المُرقَّق، المُحدَّد. انتضته: رفعتهُ، امتشقتهُ، سَلَّتهُ.
(٥) في الديوان: «ترى فوق مَتْنَيْهِ»، و«هو ثقيلُ». والفرند: جوهر السيف وماؤه. والقين: الحداد.
(٦) مُحول: عطشى.
(٧) في الديوان: «أما جَنَانُهُ». والجنان: القلب.
(٨) لم نجد هذا البيت في رواية الديوان.
(٩) الخضرم: العظيم.
(١٠) الساسم: شجر أسود، ويقال: هو الآبنوس.
(١١) القَطِمُ: الغضبان، وفحل قَطِمٌ وَقِطَمٌ وَقِطْيَمٌ: صؤول، وَقَطِمَ الفحلُ: اهتاج وأراد الضِّراب. والقَرْمُ من الفحول: الذي يُتْرَك من الركوب والعمل، ويودع للضراب.
(١٢) سجا الشيءُ سَجْواً وَسُجُوًّا: سكَن، ويقال: سجا الليل، وسجا البحر، وسجت الريح.

كـــأن الشمـــالَ علـــى وَجْهِـــهِ بهـــا سَقَـــمٌ وهـــي لَـــمْ تَسْقَـــمِ
ضَعيفَـــةُ رَشٍّ كَنَفْـــثِ الـــرّقَـــى علـــى كَبِـــدِ المُـــدْنَـــف المُغْـــرَمِ
إذَا دَرجَـــــتْ فـــــوقَـــــه دَرجَتْـ ـــه فـــي حَبَـــك الـــزَّرَدِ المُحْكَـــمِ
وَقَـــــد جَلَّلَتْـــــهُ بـــــأَوراقِهـــــا فُـــروعٌ غَـــذتْهـــا نِطَـــافُ النَّـــمِ
عَلَتهـــا الحَمـــامُ بِتَغْـــريـــدِهـــا كمـــا سَجَـــعَ النّـــوْحُ فـــي مَـــأْتَـــمِ
كـــأنّ شعـــاعَ الضُّحَـــى بيْنَهـــا على السَّوْسَـنِ الغـضّ والخُـرَّمِ(١)
وَشـــائـــع مـــن ذَهَـــبٍ ســـائـــلٍ علـــــى خُســـــروَانيَّـــــةٍ نُعَّـــــمِ
رُبـــاً تَفقّـــأ مـــن فـــوقهـــا عَـزَالـي الـربيـع لَهـا المـرْهِـمِ(٢)
علـــى كُـــلّ مُحبيـــة خلـــةٍ تَسَـــدَّى علـــى جَـــدْوَلٍ مُفْعَـــمِ(٣)
كَمـــا فَتـــلَ الـــوَقْـــفَ صَـــوَّاغُـــه وَكـــالأرقـــمِ انْسَـــابَ لِـــلأرْقَـــمِ

[صاحب الزنج]

وقول ابن المعتز «ولما طغا أمرُ الدعيّ» يريد صاحب الزنج بالبصرة، وكانت شوكته قد اشتدّت وظُفِر به بعد مواقعة كثيرة، وفي ذلك يقول ابنُ الرومي في قصيدة طويلة جداً يمدح فيها أبا أحمد [الموفق بن المتوكل، وصاعد بن خالد، والعلاء بن صاعد ابنه، وهي من أجود شعره، فقال]:(٤)

أبـــا أحمـــد أَبليـــتَ أمّـــةَ أحمـــدٍ بـلاءً سيـرضـاهُ ابـنُ عمّـك أحمَـدُ
حَصرْتَ عميدَ الزنج حتى تخاذلَتْ قُـــواه، وأَودَى زادُه المتـــزَوِّدُ(٥)

---

(١) الخُرَّمُ: نبت كاللوبياء، بنفسجيّ اللون، من فصيلة القرنفليات.
(٢) العزالى: جمع عزلاء: مصب الماء من القربة ونحوها، ويقال: أرسلت السماء عزاليها: انهمرت بالمطر، وأرخت الدنيا عَزاليها: كثر نعيمها.
(٣) المفعم: الملآن.
(٤) ابن الرومي، الديوان: ٢/ ١٢٠.
(٥) عميد الزنج: صاحبهم الذي قام بالثورة المعروفة في العصر العباسي. ولد في ورذنين من قرى الري، وظهر في أيام المهتدي بالله سنة ٢٥٥ هـ، وكان يرى رأي الأزارقة من الخوارج. التف حوله سودان أهل البصرة ورعاؤها، فامتكلها واستولى على الأبلة، وتتابعت جيوش العباسيين لقتاله، فتغلب عليها، واستولى على جنوب العراق كله، وبلغ أنصاره ثلاثمائة ألف مقاتل، واستمر أمره إلى أن ظفر به الموفق بالله في أيام المعتمد، وقتله سنة ٢٧٠ هـ. وأودى: هلك.

فظــلَّ، ولــم تَقْتُلْــهُ، يَلْفِــظُ نَفْسَــهُ وظــلَّ، ولــم تَــأْسِرْهُ، وَهْـوَ مُقَيَّـدُ
وَكــانَــتْ نَــواحِيـه كِثافـاً فلـم تَـزَلْ تَحيَّفُهَــا شَحْــذاً كــأَنَّــكَ مِبْــرَدُ[1]
تُفــرِّقُ عَنْــهُ بــالمكــايــدِ جُنْــدُهُ وَيَزْدادُهُـمْ جُنْداً وَجُنْدُكَ مُحْصَدُ[2]
وَلابِــسُ سَيْفِ القِرْنِ بعد استلابِـهِ أَضــرُّ لـه مـن كَـاسِـديْـهِ وأكْيَـدُ[3]
فمــا رُمْتَــهُ حَتَّــى استقــلَّ بِــرَأْسِـهِ مَكــانَ قنــاةِ الظهــرِ أسمــرُ أَجْـرَدُ

[هذا مأخوذ من قول مسلم بن الوليد:

وَرأس مهـــراق قـــد ركبـــت قُلّتَـــهُ لَــدْنـاً يقـومُ مَقـامَ الليـتِ والجيـدِ][4]
وَلـــم تـــأل إنـــذاراً لـــه غيـــرَ أنّـــهُ رأى أنّ مَتْنَ البحـرِ صَـرحٌ مُمـرَّدُ[5]
سَكَنْـتَ سُكُـونـاً كـان رَهْنـاً بِـوَثْبـةٍ عَماسٍ، كذاك الليثُ للوَثْبِ يَلبدُ[6]

هذا مأخوذ من قول النابغة[7]:

وَقُلْـتُ يـا قـوم إن الليـثَ مُنْقَبِـضٌ علـى بَـراثِنِـهِ لِلْـوَثْبـةِ الضـارِي[8]

ويقول في مدح صاعد:[9]

يُقَـــرَّظ إلا أنّ مـــا قِيـــلَ دُونـــهُ وَيُـــوصَـــفُ إلا أَنَّـــهُ لا يُحــــدَّدُ[10]
أرقّ مـــن المـــاءِ فـــي حُســـامِـــهِ طِباعاً، وأَمْضَى مِنْ شَباهُ وأَنْجَدُ[11]

---

(١) تَحيّفُها: تنقصها وتأخذ من جوانبها. وفي الديوان: «تحيفها سحتاً»، والسحت: العذاب.
(٢) في الديوان: «وتزدادهم جنداً وجيشك محصد». والجيش المحصد: المحكم، المجتمع المتضافر.
(٣) في الديوان: «أَخَرُّ لَهُ مِنْ كاسِرَيْهِ».
(٤) قُلّةُ كُلِّ شيء: قمته وأعلاه. واللَّدْنُ: الليِّنُ، وقناة لدنة: لينة المَهزَّة. اللِّيتُ: صفحة العنق.
(٥) مَرّد البناء: سوّاه وملّسه، وطوّله، فهو مُمرَّد، قال تعالى: ﴿إنه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوارِير﴾.
(٦) عماس: شديدة. ولبد بالمكان: أقام به.
(٧) النابغة الذبياني، الديوان: ص ٥٥.
(٨) في الديوان: «لوثبة الضاري». الليث: الأسد. البراثن: الأظفار. الضاري: المتعود. يقول: إن الملك منقبض متجمع للغزو والوثوب فعل الأسد الضاري.
(٩) أي: ابن الرومي.
(١٠) في الديوان: «يُقَرَّضُ».
(١١) شباة السيف: حَدُّ طرفه.

لــه سَــوْرَة مُكْتَنَّــةٌ فــي سَكينــةٍ كما اكتنَّ في الغِمْدِ الجُرَازُ المُهنَّدُ(١)
كــأنّ أبــاهُ حيــنَ سَمَّــاهُ صَــاعِــداً رأى كيف يَرْقَى في المعالي ويَصْعَدُ

[لما سمع البحتري هذا البيت قال: مني أخذه، في قوله في العلاء بن صاعد]:(٢)

سَمَّــاهُ أُسْــرَتُــهُ العَــلاَءَ وإنَّمــا قَصــدوا بــذلــكَ أَن يَتِــمَّ عُــلاَهُ

وهذا في قوله، كما قال [ابن] المرزبان وقد أنشد لابن المعتز في مناقضة الطالبيين:

دَعُــوا الأُسْــدَ تَسكُــنُ فــي غــابِهــا وَلا تَــدْخُلــوا بيــن أَنْيَــابِهــا
فَنحْــنُ وَرِثْنَــا ثيــابَ النبــي فَلِــمْ تَجــذِبُــونَ بِهُــدَّابِهــا؟

[قال:] قد أخذه من [قول] بعض العباسيين:

دَعُــوا الأُسْــدَ تَسْكُــنُ أَغيــالهــا وَلا تَقْــرَبُــوهــا وأَشْبَــالَهــا(٣)

ولكنه سرق سَاجاً، وردَّ عاجاً، وغلَّ قطيفة، وردّ دِيباجاً.

ومن قصيدة ابن الرومي:

تَــراهُ علــى الحَــرْبِ العَــوَانِ بِمَنْــزِلٍ وآثــارُه فيهــا، وإنْ غــابَ، شُهَّــدُ(٤)
كما احْتَجَبَ المِقدارُ والحكمُ حُكْمُهُ على الخَلْقِ طُرًّا لَيْسَ عَنْهُ مُعَرَّدُ(٥)

البحتري:(٦)

وَلِــيَ الأُمــورَ بِنَفْسِــهِ، وَمحلُّهــا مُتقــارِبٌ، ومَــرامُهــا مُتبــاعِــدُ
يَتكفَّــلُ الأدنَــى، وَيُــدْرِكُ رأيــه الْـ أَقْصــى، وَيَتْبَعُــهُ الأَبِــيُّ العــانِــدُ
إنْ غَــارَ فَهْــوَ مِــنَ النبــاهــةِ مُنْجِــدٌ أو غــابَ فهــو مِــنَ المهــابــةِ شــاهِــدُ

---

(١) السَّوْرَةُ: الحِدَّةُ. المكتنة: الهادئة. الجُراز: السيف القاطع.
(٢) البحتري، الديوان: ١/ ٣٣٦.
(٣) أغيال: جمع غَيْل: موضع الأسد، والغَيْلُ أيضاً: الشجر الكثيف المُلتفّ الذي يُسْتَتَرُ فيه.
(٤) في الديوان: «عن الحرب العوان بمعزلٍ». وحرب عوان: قُوتِلَ فيها مرَّةً بعد أُخرى.
(٥) في الديوان: «على الناس طُرًّا». وليس عنه معرد: ليس عنه مهرب، والمُعرِّدُ: المنحرف عن الطريق أو الهدف.
(٦) البحتري، الديوان: ٢/ ٢٠٦. والبيت من قصيدة يمدح بها الحسن بن مُخلّد.

وقال أعرابي يصف رجلاً: كان إذا ولّى لم يطابق بين جفونه، ويرسل العيونَ على عيونه؛ فهو غائبٌ عنهم، شاهد معهم، والمحسِنُ آمن، والمسيء خائف.

فَتَى رُوحُهُ روحٌ بَسيطٌ كِيانُهُ ... وَمَسْكَنُ ذاكَ الرُّوحِ نُورٌ مُجَسَّدُ
صَفَا ونَفَى عنه القَذَى فَكأنَّهُ ... إذا ما اسْتَشَفَّتْهُ العقولُ مُصعَّدُ
كَرُمْتُمْ فجاشَ المُفْحَمُونَ بِمَدْحِكُمْ ... إذا رَجَزُوا فيكم أَثَبْتُمْ فَقَصَّدوا
أَرى مَنْ تعاطى ما بلغتم كَرائمٍ ... مَنالَ الثريَّا وَهْوَ أَكْمَهُ مُقْعَدُ
كما أزهرتْ جَنّاتُ عَدْنٍ وأثمرَتْ ... فأضْحَتْ وَعُجْمُ الطيرِ فيها مُغَرِّدُ

وفي هذه القصيدة يقول:(١)

لِمَا تُؤْذِنُ الدنيا به مِنْ صُروفها ... يكون بكاءُ الطفلِ ساعةَ يُولدُ
وإلا فما يُبكِيه منها وإنها ... لأفسَحُ مما كان فيه وأَرْغَدُ
إذا أبصر الدنيا استهلّ كأنهُ ... بما سوفَ يَلْقَى من رَداها يُهَدَّدُ

قال الصولي: افتتح ابنُ الرومي هذه القصيدة على ما لا يلزمه من فتح ما قبل حَرْفِ الروي اقتداراً فحمله ذلك على أن قال:

مُتاحٌ له مِقْدارهُ فَكأنَّما ... تَقَوَّضَ ثَهْلانُ عليه وَصِنْدَدُ(٢)

ثهلان: اسم جبل، وهذا لا يصحّ، إنما هو صندِد بكسر الدال؛ لأن فعلَلا لم يجيء إلا في أربعة أحرف: درهم، وهِجْرَع [للأحمق]، وهِبْلَع الذي يبلعُ كثيراً، وقلعم للذي يقلع الأشياء.

وقول ابن المعتز في وصف السيف:

كأنما تنفّس فيه القيْنُ وهو صَقيلُ

معنى بديع في وصف الفرند، وقد قال:(٣)

---

(١) صاحب القول هنا هو الشاعر ابن الرومي.
(٢) في الديوان: «مَناكَ له مقداره». ثهلان: جبل ضخم بالعالية. وصندد: جبل بتهامة. والمتاح: المُهيَّأُ والمُقدَّرُ.
(٣) ابن المعتز، الديوان: ص ٢٣.

وَلِي صارمٌ فيه المنايا كَوامنٌ فما يُنْتَضَى إلا لِسَفْكِ دِماءِ[١]
ترى فوق مَتْنَيْهِ الفِرِنْدَ كأنهُ بَقِيَّةُ غَيْمٍ رَقَّ دُونَ سَماءِ

وقال أيضاً إسحاق بن خلف:

ألقى بِجَانِبِ خَصْرِهِ أَمْضَى من الأَجَلِ المُتاحْ
وَكأنما ذَرَّ الهبا ء عليه أَنفاسُ الرياحْ

ولما صار سيفُ عمرو بن معد يكرب الذي كان يسمَّى الصمصامة إلى الهادي، ـ وكان عمروٌ وهبه لسعيد بن العاص، فتوارثَه ولدُه إلى أن مات المهدي، فاشتراه موسى الهادي منهم بمال جليل، وكان أوسعَ بني العباس كفًّا، وأكثرهم عطاء ـ ودعا بالشعراء، وبين يديه مِكْتَل فيه بَدْرَة، فقال: قولوا في هذا السيف؛ فبدر ابن يامين البصري فقال:

حَازَ صَمْصَامةَ الزُّبَيْدِي من بيـ ـنِ جَميع الأنام مُوسى الأمينُ[٢]
سَيْفُ عَمْرو وكان فيما سَمِعْنا خَيرَ ما أُغْمِدَتْ عليه الجُفونُ
أخضر اللون بين خَدَّيه بردٌ من ذُعَافٍ يَميسُ فيه المَنُونُ[٣]
أوْقَدتْ فَوْقَه الصواعِقُ ناراً ثم شابَتْ فيه الذعافَ القيونُ[٤]
فإذا ما سَللتَهُ بَهرَ الشمـ ـسَ ضياءً فلم تَكد تَسْتَبِينُ[٥]
ما يُبَالي مَنِ انْتَضَاهُ لِحَرْبٍ أشِمالٌ سَطَتْ بِهِ أو يَمينُ
يَستطِيرُ الأبصارَ كالقَبَسِ المُشْـ ـعَلِ ما تستقرُّ فيه العيونُ
وَكأَنَّ الفِرِنْدَ والجوهر والجا ري على صَفْحَتَيْهِ ماءٌ مَعِينُ
نِعْمَ مِخْرَاقُ ذي الحفيظةِ في الهيـ ـجاء يَعْصَى به وَنِعْمَ القرينُ

قال موسى: أصبت ما في نفسي، واستخفَّه [الفرح] فأمر له بالمِكْتَل[٦] والسيف؛

(١) الصارم: القاطع، الباتر. وانتضى السيف: أخرجه من غمده.
(٢) الصمصامة والصمصام: السيف الصارم لا ينثني.
(٣) الذعاف: السُّمُّ. يميس: يتبختر. المنون: الموت.
(٤) شابت: خلطت. القيون: جمع قين: الحدَّاد.
(٥) بهر الشمس: غلبها ضياءً ولمعاناً.
(٦) المِكْتَلُ: زِنْبِيلٌ يُعْمَلُ من الخوص، الجمع مكاتل.

فلما خرج قال للشعراء: إنما حُرمتم من أجلي، فشأنكم المكتل وفي السيف غناي [فقام موسى] فاشترى منه السيف بمالٍ جليل.

البحتري:[(١)]

قَـدْ جُـدْتَ بـالطِّـرْفِ الجـوادِ فَثَنِّـهِ ... لأَخِيكَ من جَدْوَى يديك بِمُنْصُلِ[(٢)]
يَتنـاولُ الـرّوحَ البعيـدَ مَنـالـهُ ... عَفْـواً، ويفتـح فـي الفضـاءِ المُقْفَـلِ
بـإنـارةٍ فـي كـلّ حَتْـفٍ مظلِـم ... وَهـدايـةٍ فـي كـل نفـسٍ مجهـلِ[(٣)]
يَغْشَـى الـوغـى فـالترسُ ليـس بِجُنَّةٍ ... مِـنْ حـدّه، والـدِّرْعُ ليـس بِمَعْقِـلِ[(٤)]
مـاضٍ وإن لـم تُمْضِـه يَـدُ فـارسٍ ... بَطَـلٍ، وَمصْقُـولٌ وإن لـم يُصْقَـلِ
مُصْـغٍ إلـى حُكْـم الـرَّدَى فـإذا مَضَـى ... لـم يلتفِـتْ، وإذا قضَـى لـم يَعْـدِلِ
مُتَـوقِّـدٌ يَفْـري بـأوّل ضَـرْبَـةٍ ... مـا أدركَـتْ ولـو أنَّهَـا فـي يَـذْبُـلِ[(٥)]
فَكـأنَّ فَـارِسَـه إذا اسْتَعْصَـى بـه الـزّ ... حفـان يَعْصـي بـالسِّمَـاكِ الأعـزلِ[(٦)]
فـإذا أصـابَ فَكُـلُّ شـيء مَقْتَـلٌ ... وَإذا أُصِيـبَ فمـا لـه مـن مَقْتَـلِ
حَملـتْ حَمـائِلَـهُ القـديمـةَ بَقْلَـةٌ ... مِـنْ عَهْـدِ عـادٍ غَضَّـةٌ لـم تَـذْبُـلِ

وقال أبو القاسم بن هانىء للمعز:

عَجَبـاً لِمُنْصُلِـكَ المقلَّـدِ كيـفَ لـم ... تَسِـلِ النفـوسُ عليـكَ مِنْـهُ مَسيـلا
لـم يَخْـلُ جبّـارُ الملـوكِ بـذكـرِهِ ... إلا تشحَّـطَ فـي الـدمـاءِ قتيـلا[(٧)]

---

(١) البحتري، الديوان: ٢/٣٦٩. والأبيات من قصيدة يمدح بها محمد بن علي بن عيسى القمي الكاتب.
(٢) في الديوان: «لأخيك من أُدَدٍ أَبيك بِمُنْصُلِ». الطِّرْفُ: الكريم من الناس والخيل ونحوها، والمراد هنا: الجواد الكريم. والجدوى: العطاء. والمنصل: السيف.
(٣) في الديوان:
يـا نـارةً فـي كُـلِّ حَتْـفٍ مُظْلِـمٍ ... وَهِـدايـةً فـي كُـلِّ أَرْضٍ مَجْهَـلِ
(٤) الجُنَّةُ: السُّتْرَةُ، وكلّ ما وقى من سلاحٍ وغيره. والمعقل: الملجأ والحصن.
(٥) في الديوان: «متألقٌ يفري...». يفري: يقطع. يذبل: اسم جبل في بلاد نجد.
(٦) في الديوان:
وكـأنَّ شـاهِـرَهُ إذا اسْتَعْصَـى بـهِ ... فـي الـرَّوْعِ يَعْصـي بـالسِّماكِ الأَعْـزَلِ
(٧) تَشَحَّطَ في دمه: اضطرب وتخبَّط.

فـإذا رأينـاهُ رأينـا عِلّـةً ... للنيـراتِ ونَيّـراً مَعْلـولا
بـك حُسْنُـه مُتقلّـداً وبهـاؤهُ ... مُتنكّبـاً وَمَضـاؤُه مَسْلـولا
فـإذا غضبـتَ عَلَتْـهُ دُونَـك رُبْـدةٌ ... يَغْـدُو بهـا طَـرْفُ الـزمـان كَحيـلا[١]
وإذا طَرِبْتَ إلى الرِّضا أهدَى إلى ... شَمْـس الظهيـرة عَـارِضـاً مَصْقُـولا
كَتَب الفِرِنْدُ عليه بَعْضَ صِفَاتِكُمْ ... فَعَـرفْـتُ فيـه التـاجَ والإكليـلا

وقال:

هَـلْ يُـدْنِيَنّي مـن فَنائِك سَابحٌ ... مَـرِحٌ وَجـائلـةُ النّسـوعِ أَمـونُ[٢]
وَمُهنّـدٌ فيـه الفِـرِنْـدُ كـأنّـهُ ... دُرٌ لـهُ خَلْـفَ الفـراتِ كميـنُ
عَضْبُ المضـارب مقفـراً مـن أَعيـن ... لَكنّـه مـن أنفـسٍ مَسْكُـونُ[٣]

وأهدَى الكندي إلى بعض إخوانِه سيفاً، فكتب إليه: «الحمدُ لله الذي خصَّك بمنافع كمنافع ما أهديتَ، وجعلكَ تهتزُّ للمكارم اهتزاز الصارم، وتمضي في الأمورِ مضاء حَدَّة المأثور، وتصونُ عرضك بالإرفادِ[٤]، كما تُصَانُ السيوفُ بالأغماد، ويطرد ماء الحياءِ في صفحات خدّك المشوف، كما يشفّ الرونقُ في صفائح السيوف، وتصقلُ شرَفك بالعطياتِ، كما تصقلُ متونُ المشرفيّات[٥].

[وفد الشام بين يدَي المنصور]

قدم على أبي جعفر المنصور وَفْدٌ من الشام بعد انهزام عبد اللّه بن علي، وفيهم الحارثُ بن عبد الرحمن الغفاري، فتكلّم جماعةٌ منهم، ثم قام الحارث فقال: يا أميرَ

(١) الرُّبْدَةُ: سوادٌ يخالطه حُمْرَةٌ، يقال: اربدَّ وجهه: احمرَّ حُمْرَةً فيها سواد عند الغضب، واربَدَّ الرجل وتربَّد: تَعبَّسَ.

(٢) سابح: أي فرس سابح، وقد سبح الفرس: مدَّ يديه في الجري، فهو سابحٌ وسبوحٌ. النسوعُ والأنساعُ والنُّسْعُ: جمع نِسْع، وهو سير عريض تُشَدُّ به الحقائب أو الرحال. ويقال: قلقت أنساع الدابة ونسوعها: ضمرت، وجائلة النسوع: الضامرة. والأمون: المطية المأمونة لا تعثر، ولا تفتر.

(٣) عضب: قاطع.

(٤) الإرفاد: الإعطاء.

(٥) المشرفيات والمشرفية: السيوف المنسوبة إلى المشارف، تُجْلَبُ منها. قال المتنبي:

نُعِـدُّ المَشْـرَفِيَّـةَ وَالعَـوالـي ... وَتَقْتُلنـا المَنُـونُ بـلا قِتـال

(ديوانه: ٢/ ١٤).

المؤمنين؛ إنا لَسْنَا وَفْدَ مباهاة، ولكنا وَفْدُ توبة استخفَّت حَليمَنا؛ فنحن بما قدمنا معترِفون، وبما سلَف منّا مُعتذِرون، فإنْ تُعاقِبنا فبِمَا أجرَمْنا، وإن تَعْفُ عنا فطالما أحسنْتَ إلى من أساء، فقال المنصور: أنتَ خطيب القوم، وردَّ عليه ضياعه بالغُوطة.

وقال رجلٌ من أهل الشام للمنصور: يا أمير المؤمنين، من انتقم فقد شَفَى غَيْظَهُ وانتصف، ومن عفا تفضّل، ومن أخذ حقّه لم يَجبْ شكره ولم يذكر فَضْلُه، وكَظْمُ الغيظِ حلم، والتشفّي طَرَفٌ من الجَزَع، ولم يمدح أهلَ التقى والنهى من كان حليماً بشدَّة العقاب، ولكن بِحُسْنِ الصفْح والاغتفار وشدةِ التغافل، وبعدُ فالمُعاقِب مُسْتَدْعٍ لعداوةِ أولياءِ المُذْنِب، والعافي مُسْتَرْعٍ لِشُكْرهم آمِنٌ من مكافأتهم، ولأن يُثْنَى عليك باتِّسَاع الصَّدْرِ خيرٌ من أن تُوصَفَ بضِيقِه، على أنَّ إقالتك عثراتِ عبادِ الله موجبٌ لإقالةِ عثْرَتك من ربِّهِمْ، وموصول بعفوه، وعقابُك إياهم موصولٌ بعقابه، قال الله عزّ وجلّ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾(١).

[بعض ما قيل في العفو]

وقال بعض الكتاب لرئيسِه وقد عتب عليه: «إذا كُنْتَ لم تَرْضَ مني بالإساءةِ فلم رضيت من نفسك بالمكافأة».

وأذنب رجلٌ من بني هاشم فقبضه المأمون، فقال: يا أميرَ المؤمنين، مَنْ حمل مثلَ دالّتي، ولَبِسَ ثَوْبَ حرمتي، غُفِرَ له مثلُ زَلّتي، قال: صدَقْتَ وعفا عنه.

ولما دخل بعضُ الكتاب على أميرٍ بعد نكبة نالَتْهُ فرأى من الأمير بعضَ الازْدِرَاء، فقال له: لا يَضَعُنِي عندك خمولُ النَّبْوة، وزوال الثروة؛ فإنّ السيفَ العتيق إذا مسَّهُ كثيرُ الصدَإِ استغنى بقليلِ الجلاءِ حتى يَعُودَ حدُّه، ويظهر فِرِنْدُهُ؛ ولم أَصِفْ نفسي عجباً، لكن شُكراً. وقال ﷺ: «أنا أشرفُ وَلد آدم ولا فخر»؛ فجهر بالشكر، وترك الاستطالة بالكبْرِ.

[تميم بن جميل والمعتصم]

وكان تميم بن جميل السدوسي [قد أقام] بشاطىء الفرات، واجتمع إليه كثيرٌ من الأعراب، فَعَظُم أمرُه، وَبَعُدَ ذكره؛ فكتب المعتصمُ إلى مالك بن طَوْق في النهوض إليه،

---

(١) سورة الأعراف، آية (١٩٩).

فتبدَّد جَمْعُه، وظفر به فَحَمَلَهُ مُوثَقاً إلى باب المعتصم، فقال أحمد بن أبي دواد: ما رأيتُ رجلاً عاين الموت، فما هالَه ولا شغله عما كان يجبُ عليه أن يفعَله إلا تميم بن جميل؛ فإنه لما مثلَ بين يدي المعتصم وأحضر السيفَ والنّطَعَ، ووقف بينهما، تأمله المعتصم ـ وكان جميلاً وَسيماً ـ فأَحبّ أن يعلمَ أين لسانُه من منظره، فقال: تكلم يا تميم، فقال: أمَّا إذ أذِنْتَ يا أمير المؤمنين فأنا أقولُ: الحمدُ للهِ الذي أحسن كلَّ شيء خلقه وبدأ خَلْق الإنسانِ من طين، ثم جعل نَسْله من سُلاَلةٍ من ماء مَهِين، [يا أمير المؤمنين:] جبر [الله] بك صَدْعَ الدِّين، ولمَّ بك شَعَثَ المسلمين، وأوضحَ بك سُبُل الحقّ، وأخمدَ بك شِهابَ الباطل؛ إن الذنوبَ تخرس الألسُن الفصيحة، وتُعْيِي الأفئدَة الصحيحة، ولقد عَظُمَتِ الجريرةَ، وانقطعَت الحجّة وساءَ الظنُّ، فلم يبق إلا عفوُك وانتقامُك، وأرجو أَن يكونَ أقربهما مني وأسرعهما إليَّ أشبههما بك، وأولاهما بكرمك، ثم قال:

أرى الموتَ بين السيفِ وَالنّطْع كامناً ... يُلاحظني مِنْ حَيْثُما أتلفَّتُ(١)

وأكبَرُ ظنّي أنكَ اليومَ قاتِلي ... وأيُّ امرىء مما قضَى اللهُ يُفْلِتُ

وَأيّ امرىءٍ يأتي بِعُذْرٍ وحُجّةٍ ... وَسْيفُ المنايا بين عَيْنَيْه مُصْلَتُ(٢)

وما جَزَعِي مِنْ أن أموتَ وإنني ... لأعلمُ أنَّ الموتَ شيءٌ مُوقَّتُ(٣)

ولكنّ خَلْفِي صِبْيةً قَدْ تَركْتُهم ... وأكبادُهُم من حَسْرةٍ تَتفتَّتُ(٤)

فإنْ عشتُ عاشوا سالمين بِغِبْطةٍ ... أذُودُ الرَّدَى عنهم وإن مُتُّ مَوّتُوا(٥)

وَكَمْ قائلٍ لا يبعد اللّهُ دارَهُ ... وآخر جَذْلانٌ يُسَرُّ وَيَشْمَتُ(٦)

فتبسَّم المعتصم وقال: يا جميل، قد وَهَبْتُكَ للصِّبية، وغفرت لك الصّبْوَة، ثم أمر بفكّ قيودِه، وخلع عليه، وعقد له على شاطىء الفُرات.

(١) النطع: بساط من الجلد، كثيراً ما كان يُقتل فوقه المحكوم عليه بالقتل.

(٢) في العمدة في محاسن الشعر: ١/ ١٩٤: «وأيّ امرىءٍ يُدْلي بِعُذْرٍ». وسيف مُصْلَت: مُخْرَجٌ من غمده.

(٣) في العمدة: «وما حَزَني أنّي أَموتُ وإنني». وَمُوقَّتُ: له وقت محدود، لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

(٤) بعده في العمدة:

كأنّي أَراهُمْ حِينَ أُنْعَى إليهمُ ... وَقَدْ خَمّشوا تلك الوُجوهَ وَصَوَّتُوا

(٥) في العمدة: «عاشوا خافضين».

(٦) في العمدة: «فكم قائل: لا أبعد الله داره».

[من المعتصم إلى عبد الله بن طاهر]

وكتب المعتصمُ ـ حين صارت إليه الخلافةُ ـ إلى عبد اللّه بن طاهر: عافانا اللهُ وإياك، قد كانت في قلبي منك هَنَاتٌ غفرها الاقتدار، وَبَقِيَتْ حزازات أَخافُ منها عليك عند نظري إليك؛ فإن أتاك ألْفُ كتابٍ أستقدمك فيه فلا تَقْدم، وحَسْبُكَ معرفةً بما أنا مُنْطَوٍ لكَ عليه إطْلاَعِي إياك على ما في ضميري منك، والسلام.

[الخليفة المعتصم]

قال العباسُ بن المأمون: ولما أَفضَتِ الخلافةُ إلى المعتصم دخلتُ، فقال: هذا مجلسٌ كنتَ أَكْرَه الناسِ لجلوسي فيه، فقلت: يا أميرَ المؤمنين، أنتَ تعفُو عما تيقَّنته، فكيف تعاقب على ما توهَّمته؟ فقال: لو أردت عقابَك لتركت عتابك.

وكان المعتصم شَهْماً، شجاعاً، عاقلاً، مُفوَّهاً، ولم يكن في [خلفاء] بني العباس أميّ غيره؛ وقيل: [بل كان يكتبُ خطًّا ضعيفاً، و] كان سبب ذلك أنه رأى جنازة لبعضِ الخدَم، فقال: ليتني مثله لأتخلّص من الكُتّاب! فقال الرشيد: والله لا عذّبتك بشيء تختارُ عليه الموتَ.

قال أبو القاسم الزجاجي: وهذا شيء يُحْكَى من غير رِواية صحيحة، إلا أنَّ جملته أنه كان ضعيفَ البَصر بالعربية.

وقرأ أحمد بن عمار المذري(١) ـ وكان يتقلّد العَرْضَ عليه في الحضرة ـ كتاباً فيه: «ومطرنا مطراً كُثر عنه الكَلأ» فقال له المعتصم: ما الكَلأ؟ فقال: لا أدري. فقال: إنا لله وإنّا إليه راجعون! خليفة أُميّ وكاتبٌ أُمي! ثم قال: مَنْ يقرب منا من كتّاب الدار؟ فعرف مكان محمد بن عبد الملك الزيات، وكان يَتَوَلّى قهرمَةَ(٢) الدار، ويُشْرِفُ على المطبخ، فأحضره، فقال: ما الكَلأ؟ فقال: النبات كله رطبهُ ويابسُه؛ فالرطب منه خاصة يقال له خَلاً، ومنه سمّيت المخلاَة، واليابس يقال له حشيش، ثم اندفع في صفاتِ البناتِ من ابتدائه إلى اكتماله إلى هَيْجِه، فاستحسنَ ذلك المعتصم، وولاّهُ العَرْض من ذلك اليوم، فلم يزَلْ وزيراً مدةَ خلافتِه [وخلافةِ الواثق]، حتى نكبه المتوكل بحقودٍ حَقَدَها عليه أيام أخيه الواثق.

---

(١) في نسخة: «أحمد بن عمّار الشيذري».

(٢) القَهْرَمانُ: هو المسيطر الحفيظ على ما تحت يديه (فارسي معرب). وقيل: القهرمان: من أمناء الملك وخاصته، كالخازن، والوكيل، والحافظ لما تحت يده.

المعتصم يكتب لملك الروم

وقال الرياشي: كتب ملك الروم إلى المعتصم كتاباً يتهدَّده فيه، فأَمر بجوابه، فلما قُرِىء عليه لم يَرْضَ ما فيه، وقال لبعض الكتاب: اكْتب «أمّا بعدُ فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابَك، والجوابُ ما ترى، لا ما تسمع، وسيعلمُ الكافرُ لمن عُقْبَى الدار».

بين الحجاج وقطري بن الفجاءة

وهذا نظيرُ قول قَطَري[١] للحجّاج، وقد كتب إليه كتاباً يتهدَّده، فأجابه قطري: أما بعد، فالحمدُ للهِ الذي لو شاء لجمع شَخْصَيْنَا؛ فعلمت أَنّ مُثاقَفة الرجال [أقوم] مِنْ تَسْطِير المَقال، والسلام.

[كعب بن معدان الأشعري[٢] عند الحجاج]
[ووصفه بني المهلب بن أبي صُفرَة]

ولما افتتح المهلبُ خراسان، ونَفَى الخوارج عنها، وتفرّقت الأزارقة كتب الحجاجُ إليه أن اكتب لي بخبر الوقيعة، واشرح لي القصةَ حتى كأني شاهِدُها؛ فبعث إليه المهلبُ كعب بن معدان الأشعريّ، فأنشده قصيدة فيها ستون بيتاً تقتصُّ خبرهم لا يخرم منه شيئاً؛ فقال له الحجاج: أخطِيب أم شاعر؟ قال له: كلاهما، أَعزّ الله الأمير! قال: أخبرني عن بني المهلب، فقال له: المغيرةُ سيدهم، وكفاك بيزيد فارساً، وما لقي الأبطال مثل حبيب، وما يستحيي شجاع أن يفرّ من مُدْرِك، وعبد الملك موتٌ [ذُعَاف وسمّ] ناقع، وحسبك بالمفضّل في النّجْدَةِ، واسْتَجْهِزْ قبيصة، ومحمد ليث غاب، فقال الحجاج: ما أراك فضلت عليهم واحداً منهم؛ فأخبِرْني عن جملتهم ومن أفضلهم؟ فقال: هم ـ أَعَزَّ اللهُ الأميرَ! ـ كالحَلْقَة المُفْرَغَة لا يُدْرَى أين طرفها، قال: إنّ خبرَ حَرْبِكم كان يبلغني عظيماً، أفكذلك كان؟ قال:

---

(١) هو أبو نَعامة، قَطَرِيّ بن الفُجاءة بن مازن بن يزيد بن زيد مناة من بني كابية بن حُرْقُوص: خطيب، شاعر، فارس، شجاع، من زعماء الخوارج الأزارقة، أتباع نافع بن الأزرق. قُتل في إحدى معاركه مع الأمويين سنة ٧٨ هـ/ ٦٩٧ م. (فروخ، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٤٥٨).

(٢) كعب بن معدان الأشعري ـ والصحيح الأشقري ـ والأشاقر: قبيلة من الأزد، وأمه من عبد القيس: شاعر، فارس، خطيب، شجاع، من أصحاب المهلب بن أبي صفرة. أثنى الفرزدق عليه فقال: شعراء الإسلام أربعة: أنا، وجرير، والأخطل، وكعب الأشقري. (الأصفهاني، الأغاني: ١٤/ ٢٦٦).

نعم أيها الأمير، والسماع دون العيان. قال: أخبرني كيف رِضَا المهلَّبِ عن جنده ورِضَا جنده عنه؟ قال: أعزَّ الله الأمير، له عليهم شفقة الوالد، ولهم به برّ الولد. قال: أخبرني كيف فاتكم قَطَري؟ قال: كِدْنَاه في منزله فتحوّل عنه، وتوهّم أنه كادنا بذلك، قال: فهلا اتبعتموه، قال: الكلب إذا أُجحر عَقَرَ، قال: المهلبُ كان أَعلمَ بك حيث أَرسلك.

[بشر بن مالك عند الحجاج]
[يصف أبناء المهلّب أيضاً]

وقد رُوِي أنَّ المهلبَ لم فرغ من قَتْل عبد ربه الْحَروري دعا بِشْرَ بنَ مالك فأنْفذه بالبشارة إلى الحجّاج، فلما دخل على الحجاج قال: ما اسْمُك؟ قال: بِشر بن مالك، فقال الحجّاج: بشارة وملك! وكيف خلّفتَ المهلب؟ قال: خلفته وقد أَمن ما خاف، وأَدرك ما طَلبَ، قال: كيف كانت حالُكم مع عدوكم؟ قال: كانت البداءة لهم، والعاقِبَةُ لنا، قال الحجاجُ: العاقبة للمتقين، ثم قال: فما حالُ الجند؟ قال: وَسِعَهُم الحقُّ، وأغناهم النَّفَل، وإنهم لمع رجلٍ يسوسُهم سياسة الملوك، ويقاتِلُ بهم قتالَ الصعلوك، فلهم منه برُّ الوالد، وله منهم طاعة الولد، قال: فما حال ولد المهلب؟ قال: رعاةُ البَيَاتِ حتى يُؤَمِّنُوه، وحُماةُ السَّرْحِ حتى يردوه، قال: فأيهم أفضل؟ قال: ذلك إلى أبيهم، قال: وأَنت أيضاً، فإني أرى لك لساناً وعبارة، قال: هم كالحَلْقة المفرغة لا يُدْرَى أين طرفها، قال: ويحك! أكنت أعددت لهذا المقامِ هذا المقال؟ قال: لا يعلم الغيبَ إلا اللهُ.

[أبو الصقر وصاعد بن مخلد]

ودخل أبو الصقر قَبْلَ وزارته على صاعِد بن مخلد، وهو الوَزير حينئذ، وفي المجلس أبو العباس بن ثَوَابَةَ، فسأل الوزيرُ عن رجل، فقال: أنفي، يريد نفي، فقال ابن ثوابة: في الخَرْءِ، فتضاحك به أهل المجلس، فقام أبو الصقر مُغْضَباً.

[أبو العَيْناء وابن ثَوَابة]

وكان أبو العيناء يُعَادِي ابنَ ثوابة لِمُعاداتِه لأبي صقر؛ فاجتمعا في مجلس صاعد في غدِ ذلك اليوم، فتلاحَيا، فقال ابنُ ثوابة: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك ضَيِّقَ الطعنِ، كثيرَ الوَسَن، خارًّا على الذَّقَن، وقد بلغني تعدّيك على أبي الصقر، وإنما حَلُم عنك؛ لأنه لم يَجِدْ لك عزًّا فيذلّه، ولا عُلوًّا فيضَعه، ولا مَجْداً فيهدمه؛ فعافَ لَحْمَكَ أَنْ يأكله، ودَمَك أن

يَسْفِكَه، فقال ابن ثُوابة: ما تسابّ إنسانان إلّا غلب ألأمهما، فقال أبو العيناءِ: فلهذا غلبتَ بالأمس أبا الصقر!

[من مكارم أبي الصقر]

مما يُعَدُّ من مكارم أبي الصقر أن ابن ثَوابة دخل عليه في وزارتِه، فقال: تالله لقد آثَرك اللهَ علينا وإن كنَّا لخاطئين، فقال أبو الصقر: لا تثريبَ عليك يغفر الله لك [وهو أرحم الراحمين]، فما قَصَّرَ في الإحسانِ إليه، والإنعام عليه، مدة وزارته.

[أبو الصقر وأبو العيناء]

ولما وُلي أبو الصقر الوزارة خيّر أبا العيناء فيما يُحبُّه حتى يفعلَه به، فقال: أُريد أن يكتبَ [لي الوزير] إلى أحمد بن محمد الطائي يعرِّفُه مكاني، ويلزمُه قضاءَ حق مثلي.

فكتب إليه كتاباً بخطّه، فوصَّله إلى الطائي، فسبب له في مدة شهر مقدار ألف دِينار، وعاشره أجمل عشرة، فانصرف بجميع ما يحبّه.

كتاب من أبي العيناء إلى أبي الصقر

وكتب إلى أبي الصقر كتاباً مضمنه: أنا ـ أعزَّك الله ـ طليقُك من الفقر، ونقيذك من البؤس، أخذْتَ بيدي عند عَثْرةِ الدهر، وكَبْوَةِ الكِبَرِ، وعلى أية حالٍ حين فقدت الأولياءَ والأشكال والإخوان والأمثال، الذي يفهمون في غيرِ تَعب، وهم الناسُ الذين كانوا غياثاً للناس، فحللت عقدة الخَلّة، ورَدَدْتَ إليّ بعد النفور النعمة، وكتبت لي كتاباً إلى الطائي، فكأنما كان منه إليك، أتيتُه وقد استصعبَتْ عليَّ الأمور، وأَحاطَتْ بي النوائب؛ فَكَثَّر من بِشْره، وبذَل من يُسْرِه، وأعطى من ماله أكرَمه، ومن برّه أَحكَمه، مُكْرِماً لي مدةَ ما أَقمْت، ومُثْقِلاً لي من فؤاده لما ودَّعت، حكمني في ماله فتحكّمتُ، وأنتَ تعرفُ جَوْري إذا تمكّنتُ، وزادني من طَوْله فشكَرْتُ؛ فأحسن اللهُ جزاءك، وأَعظم حباءك، وقدّمني أمامك، وأَعاذني من فَقْدِك وحمامِك؛ فقد أنفقتَ عليّ مما ملّكك الله، وأنفقتُ من الشكر ما يسّره اللهُ لي، واللهُ عزَّ وجلّ يقول: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾[1] فالحمدُ لله الذي جعل لكَ اليدَ الغالبة، والرتبة الشريفة، لا أَزال اللهُ عن هذه الأمة ما بَسَطَ فيها من عَدْلِك، وبثَّ فيها من رِفْدِكَ.

---

(١) سورة الطلاق، آية (٧).

[أبو العيناء يذم ابن الخصيب]

قطعة مختارة من نسخة الكتاب الذي عمله أبو العيناء في ذمّ أحمد بن الخصيب لَمَّا نُكِب على ألسنةِ الكتّاب والقوّاد وأرباب الدولة [في ذلك الوقت]. قال: ذكره محمد بن عبد اللّه بن طاهر فقال: ما زال يَخرق ولا يرقَع. وما زِلْتُ أتوقع له الذي وَقع فيه. [وذكره أتامش، فقال: عذر بمن آثره، وتخطّى إلى ما لا يقدرهُ، فحل به ما يحذره. وذكره بُغَاءُ فقال: أبطَرتْهُ النعمة، ففجأته النقمة]. وذكره وصيف فقال: تَرك العقلاء على يَأْسٍ مرتبته، والحَمْقَى على رجاء درجته! وذكره موسى بن بُغاء فقال: لولا أنَّ القَدَر يعشي البَصَر، لما نَهَى فينا ولا أَمر. وذكره فارسُ بن بغاء فقال: لم تتمّ له نِعْمَة؛ لأنه لم تَكُنْ له في الخير هِمَّة. وذكره الفضل بن العباس فقال: إن لم يكنْ تاريخ البلاء فما أعظم البلوى. وذكره هرون بن عيسى فقال: كانت دولة من دُوَلِ المجانين، خرجَتْ من الدنيا والدّين. وذكره المُعَلَّى بن أيوب، فقيل له: ما أعجَب ما نكبَ، فقال: نِعْمَتُه أَعجبُ من نَكْبته! وذكره ميمون بن إبراهيم، فقال: لو تأمَّل فعاله فاجتنَبها، لاستغنى عن الآداب أن يطلبها! وذكره محمد بن نجاح فقال: لئن كانت النعمةُ عَظُمَتْ على قوم خرجَ عنهم لقد عَظُمَت المصيبة على قومٍ نزل فيهم! وذكره علي بن [يحيى بن] المنجم، فقال: لم يكن له أوّل يَرْجِعُ إليه، ولا آخر يعود عليه، ولا عقل فيزكو لديه! وذكره محمد بن موسى بن شاكر المنجم فقال: [قبّحه الله] إن ذكرتَ ذَا فَضْلٍ تنقّصه لما فيه من ضِدّه، أوذ كرت ذَا نَقْص تولاّه لما فيه من شكله. وذكره ابنُ ثَوَابة فقال: امرؤ أساءَ عِشْرَة الأحرار، فأصبح مُقفِر الديار. وذكره حجاج بن هرُون فقال: ما كان له في الشرف أسبابٌ مِتَان، ولا في الخير عاداتٌ حِسان. وذكره [أحمد بن حمدون فقال: إن منحته القدرة لقد حملته النكبة. وذكره] محمد بن الفضل فقال: ما زال يستوحِشُ بالنعمة حتى أَنس بالنقمة. وذكره عبد اللّه بن فراس فقال: كنت إذا نصحتهُ زنّاني، وإذا غششته منّاني. وذكره أبو صالح بن عمار فقال: لئن علا بحظ لقد انحط بحق. وذكره سعيد بن حميد فقال: إذا أصاب أحجم، وإذا أخطأ صمم.

[أبو بكر سيبويه وأهل مصر]

وكان في هذا العصر بمصر أبو بكر المعروف بسيبويه ناقلة البصرة يُشْبِهه في حضورِ

جوابه وخطابِه، وحُسْن عبارته، وكَثْرَة رِوَايته، وكان قد تناول البلاذُر[١]؛ فعرضت له منه لُوثة[٢]، وكان أكثرُ الناس يتبعونه ويكتبون عنه ما يقول.

قال يوماً للمصريين: يأهل مصر، أصحابنا البغدادِيون أحزَمُ منكم، لا يقولون بالولد، حتى يتَّخذوا له العُقَد والعُدَد؛ فهم أبداً يعتزلون. ولا يقولون باتخاذ العَقَار خوفاً أن يملِكَهم سوءُ الجوار؛ فهم أبداً يكتنزون. ولا يقولون باتخاذ الحرائر خوفاً أن تَتُوقَ نفسُهم إلى السَّرارِي[٣]؛ فهم أبداً يتسرَّرون. ولا يقولون أبداً بإظهار الغنى [في مكان] عُرفوا فيه بالفقر؛ فهم أبداً يسافرون.

ووقف يوماً بالجامع وقد أخذت الخلقِ مأخَذَها، فقال: يأهل مصر، حيطانُ المقابر أنفعُ منكم، يُسْتَنْزَهُ بها من التعب، ويُسْتَدْفَأُ بها من الريح، ويُسْتَظَلُّ بها من الشمس. والبهائم خيرٌ منكم تُمْتَطَى ظهورُها، وتُحْتَذى جلودها، وتؤكل لحومُها.

وكان أبو الفضل بن خنزابَة الوزير، ربّما رفع أنفَهُ تِيهاً، فقال له سيبويه، وقد رآه فعل ذلك: أشمَّ مني الوزيرُ رائحةً كريهة فشمّر أنفَه، فأطرق واستعمل النهوض، فخرج سيبويه، فقال له رجل: من أينَ أقبلت؟ فقال: من عند الزَّاهِي بنفسه، المدلّ بفرسه، المستطيل على أبناء جِنْسِه.

واستأذن على مسلم بن عبيد اللَّه العلوي، ومسلم من أهل الحجاز نزل مصر، فحجب عنه، فقال: قولوا له: يرجع إلى لبس العَبَاء، ومَصّ النوى، وسُكْنَى الفَلا، فهو أشبَهُ به من نعيم الدنيا.

وكان على شُرَطِ كافور الإخشيدي أحدُ الخاصَّةِ، فوجد عليه سيبويه في بعض الأمرِ، فعزل عن الشرطة، فوليها رَكى صاحب الراضي، فلم يحمده أيضاً، فوقف لكافور وهو مارٌّ إلى الصلاة يوم الجمعة، فقال: أيها الأستاذ، ولَّيت ظالماً، وَعَزَلْتَ ظالماً، قليل الوفاء، كثير الجفاء، غليظ القَفا. فتبسّم ابن بُرك البغدادي، وكان يسايرُ كافوراً، فقال: وهذا ابن بركٍ ممن يغرّك، لن ينفعك ولن يضرّك.

---

(١) البلاذر: شجر هندي يعلو كالجوز، ورقه عريض أغبر سبط حادّ الرائحة، إذا نام تحته شخص سكر، وربما عرض له السبات، وهو يضر المحرورين. ويبثر الفم والبدن، ويقرح، ويورث البرسام.

(٢) اللوثة: الحمق، والهيج، ومسّ الجنون.

(٣) السَّراريُّ: جمع سَرِيَّة، وهي الجارية المملوكة.

وَأُخْلِي الحمام لمفلحِ الحسيني، فأتى سيبويه ليدخلَ، فَمُنِعَ، وقيل: الأمير مفلحٌ به، فقال: لا أنقى الله مغسولَه، ولا بلّغه سُولَه، ولا وقّاه من العذاب مَهُولَه، وجلس حتى خرج، فقال: إن الحمام [لا يُخلى إلاَّ] لأحدِ ثلاثة: مبتلى في قُبله، أو مبتلى في دُبره، أو سلطان يخافُ من شره، فأي الثلاثة أنت؟ قال: أنا المُقدَّم.

وأحضره أبو بكر بن عبد اللّه الخازن فقال: قد بلغني بَذَاءُ لسانِك، وقبيحُ معامَلتك للأشراف؛ فاحذَرْ أن تعودَ فينالَكَ مني أشدُّ العقوبة؛ فخرج [متحزنا فكان] الولدان يتولّعون به ويذكرون له الخازِنَ، فيشتدّ عليه ذلك، فينصرف ولا يكلّمهم؛ فمرّ به رجل يكنى أبا بكر من ولد عقبة بن أبي مُعَيْطٍ، وغلامٌ قد أَلحَّ عليه[1] بذلك، فضحك المعيطي، فقال للغلام: ضرب الله عنق الخازن كما ضرب النبي ﷺ عنق عقبة بن أبي معيط على الكُفر، وضرب ظَهْرَ أبيك بالسوط كما ضرب عليّ بن أبي طالب بأمر عثمان رضي الله عنهما ظهر الوَليد بن عقبة على شُرْب الخمر، وألحقك يا صبيّ بالصِّبْيَة، يريد قولَ النبي ﷺ، وقد قال له عقبة لمَا أمر النبي ﷺ علياً رضي الله عنه بقَتْلِه: «فمَنْ للصِّبية يا رسول الله»؟ قال: النارُ لك ولهم، فانصرف المعيطي وبَطْنُ الأرضِ أَحبُّ إليه من ظَهْرِها.

[رجع إلى أبي العيناء]

وقال أبو العيناء: أنا أوّلُ من أظهر العقوقَ لوالديه بالبَصرة، قال لي أبي: إنَّ اللهَ طاعتَه بطاعتي، فقال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾[2]، فقلتُ يا أبت، إن اللهَ تعالى قد أمِنني عليك ولم يأمنك عليّ، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾[3].

وقال أعرابي لأبيه: يا أبت، إن كبيرَ حقك لا يبطل صغير حقّي عليك، والذي تَمُتّ به إليّ أمتّ بمثله إليك، ولست أزعُمُ أنّا سواء، ولكن لا يحل الاعتداءُ.

ودخل على عبيد اللّه بن سليمان فضمّه إليه، فقال: أنا إلى ضَمّ الكفاية أحوجُ مني إلى ضَمّ اليدَيْن.

وقال له مرة: أنا معك مَقبوض الظاهر، مرحوم الباطنِ[4].

---

(١) في نسخة: «وغلام قد لجَّ عليه بذلك».
(٢) سورة لقمان، آية (١٤).
(٣) سورة الإسراء، آية (٣١).
(٤) في نسخة: «أنا معك مغبوط الظاهر موجود الباطن».

قال أبو الطيب المتنبي:[١]

مـاذا لقيـتُ مـن الـدنيـا وَأَعْجَبُهـا ... أَنّـي بمـا أَنـا بـاكٍ منـه مَحْسُـودُ[٢]

وقال له رجل: يا مُخنَّثُ، فقال:[٣] وضربَ لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ!

[كلمات لأبي العيناء]

وذكر أبو العيناء محمد بن يحيى بن خالد بن برمك، فقال: بأبي وأمي دَامَ الوَجْهُ الطَّلْق، والقول الحّق، والوعد الصّدق، نيته أفضلُ من علانيته، وفعلُه أفضل من قوله. وقال له المتوكل: ما أشدّ ما مرّ عليك من فَقْدِ بصرك؟ فقال: ما حُرِمْتُ منه من النظر إليك أيها الأمير! وقال لعبيد الّله بن يحيى: مسَّنا وأهلنا الضرّ، وبضاعتُنا الحمدُ والشكر، وأنت الذي لا يخيب عنده حرّ. وقال له يوماً: قد اشتدَّ الحجاب، وفحش الحرمان، فقال: ارفق يا أبا عبد الّله، فقال: لو رفق بي فِعْلُكَ لرفق بك قولي! وقال له: أيها الوزير، إذا تغافل أهلُ التفضل هلك أهل التجمّل. وذم رجلاً فقال: لا يعرفُ الحقَّ فينصره، ولا الباطلَ فيُنْكِره. وقيـل لـه: مـا أَبلـغ الكـلام؟ فقـال: مـا أسكَـت المُبْطِـل، وحَيّـرَ المُحِـقّ. وقيـل لـه: مـات الحسن بن سهل، فقال: والله لئن أتعب المادِحينَ، لقد أطال بكاء الباكين، والله لقد أُصِيب بموتِه الأنام، وخرست بفقده الأقلام.

[مما قيل في الرثاء]

لأشجع بن عمرو السلمي

قال أشجع بن عمرو السُّلمي:

مَضَـى ابنُ سعيـدٍ حيـن لـم يَبْقَ مَشْرِقٌ ... ولا مَغْــرِبٌ إلاَّ لَــهُ فيــه مــادِحُ

وَمـا كُنْـتُ أَدْرِي مـا فـواضـلُ كفّـهِ ... على النـاسِ حتى غَـيَّـبَتْهُ الصفائحُ[٤]

---

(١) المتنبي، الديوان: ٢/٣٢٥. والبيت من قصيدة يهجو بها كافوراً الإخشيدي.

(٢) في الديوان: «بما أنا شَاكٍ منه مَحْسُودُ».

(٣) من قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَه، قَالَ مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهيَ رَمِيمٌ﴾. (سورة يٰس، آية ٧٨).

(٤) الصفائح: جمع صفيحة: كل عريض من حجارة أو لوح ونحوهما.

فأَصْبَحَ في لَحدٍ من الأرض مَيّتاً وَكانتْ بِهِ حيًّا تضيق الصَّحاصِحُ[(١)]
كأن لَمْ يَمُتْ مَيْتٌ سواكَ ولم تَقُمْ على أحدٍ إلاَّ عليكَ النوائحُ
فما أنا من رُزْءٍ وإنْ جَلَّ جازِعٌ ولا بِسُرورٍ بعدَ موتِكَ فارحُ
لَئنْ حَسُنَتْ فيكَ المراثي وَذِكْرُها لقد حَسُنَتْ من قَبْلُ فيك المدائحُ
سَأَبكيكَ ما فاضَت دُموعي، فإن تَغِضْ فَحَسْبُكَ منِّي ما تُكِنُّ الجوانِحُ[(٢)]

قوله:

وكانت به حيًّا تَضيقُ الصحاصِحُ

للحسين بن مطير في معن بن زائدة

يتعلّق بقول الحسين بن مطير[(٣)] في مَعْن بن زائدة:[(٤)]

أَلِمَّا على مَعْنٍ وَقُولا لِقَبْرِهِ: سَقَتْكَ الغَوادِي مَرْبعاً ثم مَرْبَعا
فيا قَبْرَ مَعْنٍ أنت أولُ حُفْرَةٍ من الأرض خُطَّت للسماحةِ مَضْجعَا[(٥)]
ويَا قَبْرَ مَعْنٍ كيف وَارَيْتَ جُودَهُ وَقد كانَ مِنْهُ البَرّ والبَحْرُ مُتْرَعا[(٦)]
بلَى قد وَسِعْتَ الجودَ والجودُ ميّتٌ وَلو كان حياً ضِقْتَ حتى تَصَدَّعَا
فَتًى عِيشَ في مَعْرُوفِهِ بعد مَوْتِهِ كما كانَ بَعْدَ السيلِ مَجْرَاه مَرْتَعَا
وَلمَّا مضَى مَعْنٌ مضى الجودُ وانقضى وَأصبحَ عِرْنِينُ المكارمِ أجْدَعَا[(٧)]

---

(١) الصحاصح: ما استوى من الأرض، واحدها صحصح.
(٢) غاض الماء غَيْضاً، ومَغَاضاً، وَمَغيضاً: نزل في الأرض وغاب فيها. تُكِنُّ: تستر، تخفي.
(٣) هو الحسين بن مطير بن مكمل الأسدي: شاعر مقدم في القصيد والرجز، من شعراء الدولتين الأموية والعباسية. مدح بني أمية وبني العباس، وكان كلامه وزيّه يشبهان مذاهب الأعراب وأهل البادية، وذلك بيِّنٌ في شعره. وقيل: إنه أحذق الشعراء في وصف السحاب. توفي نحو ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١١٤؛ الأصفهاني، الأغاني: ١٥/ ٣٣١).
(٤) في العمدة في محاسن الشعر: ٢/ ١٤٨، أنها تُروى لابن أبي حفصة.
(٥) في العمدة: «فيا قَبْرَ مَعْنٍ كُنْتَ أوَّلَ حُفْرَةٍ».
(٦) وارى الشيء: ستره وأخفاه. المترع: الملآن.
(٧) العرنين: أول كل شيء، وما صَلُبَ من عظم الأنف حيث يكون الشمم. أجدع: مقطوع.

لعبد الصمد بن المعذل في عمرو بن سعيد

وهذا كقول عبد الصمد بن المعذل[١] في عمرو بن سعيد بن سَلم الباهلي:

أَقَبْـرَ أبـي أُميـة لَـوْ عُـلاَهُ ... حَملْـتَ إذاً لَضِقْـتَ بـه ذِراعـا
حَـوَيْـتَ الجـودَ والتقـوى وَعَمْـراً ... فَكيـف أطَقْـت يـا قَبْـرُ اضطـلاعـا
لِمَـوْتِهـمُ أطَقْـت لهـم ضَمـانـاً ... وَلَـوْلاَ ذَاك لـم تُطِـقِ اتّسـاعـا

وقول أشجع:

لَئِـنْ حَسُنَـتْ فِيـكَ المَـراثِـي وَذِكْـرُهَـا

للخنساء في أخيها صخر

من قول الخنساء:[٢]

يـا صَخْـرُ بعـدَك هـاجَنـي استعبـاري ... شَـانِيـكَ بـاتَ بـذلّتـي وَصغـاري
كُنَّـا نعـدّ لـك المـدائـحَ مـدّة ... فـاليـومَ صِـرْتَ تُنَـاحُ بـالأشعـارِ

لجنوب في أخيها عمرو

وقالت جَنُوبُ أخت عمرو [ذي الكلب]:[٣]

سـألـتُ بِعَمْـرٍو أخـي صَحْبَـهُ ... فَـأفْظَعَنِـي حيـن رَدُّوا السـؤَالا
فقـالـوا: أُتيـحَ لـه نـائمـاً ... أغـرُّ السـلاحِ عليـه أجَـالا
أُتيـحَ لـه نَمِـرَا أجْبُـلٍ ... فَنـالا لَعَمْـرُكِ مِنْـهُ ونَـالا
فَـأُقْسِـمُ يـا عمـرُو لـو نَبَّهَـاكَ ... إذاً نبَّهَـا مِنْـكَ داءً عُضَـالا
[إذاً نبَّهـا لَيْـثَ عِـرِّيسـةٍ ... مُبيـداً مُفْنِيـاً نُفُـوسـاً ومـالا][٤]

---

(١) هو أبو القاسم، عبد الصمد بن المعذل بن غيلان بن الحكم العبدي، من بني عبد القيس: شاعر عباسي هجّاء. ولد ونشأ في البصرة. توفي نحو ٢٤٠ هـ/ ٨٥٤ م. (الهواري، الشعر والشعراء في كتاب العمدة: ص ٢٥٤).

(٢) لم نجد هذين البيتين في ديوانها (دار صادر).

(٣) هي جنوب، أو ريطة الهذلية: شاعرة جاهلية، ذكرها صاحب «العمدة» في باب التسهيم (٢/ ٣١)، وأورد بعض أبياتها في أخيها عمرو ذي الكلب الهذلي.

(٤) في العمدة: «مُفيتاً مُفيداً نفوساً ومالاً». والعريسة: الشجر الملتف، وهو مأوى الأسد في =

إذاً نَبَّهــا غَيــرَ رِعيــدةٍ ... ولا طـائشـاً دهشـاً حيـن صَـالا
هُمَـا مَـعْ تصـرف رَيْـبِ المنـونِ ... مـن الـدهـر رُكنـاً شـديـداً أمـالا
وقـالـوا: قتلنـاهُ فـي غـارةٍ ... بـآيـة أنْ قَـدْ وَرِثْنَـا النِّبـالا
فَهـلاّ إذاً قِيـلَ ريـب المنـونِ ... فقـد كـانَ فَـذًّا وَكُنْتُـم رِجَـالا[١]
وَقـد عَلِمَـتْ فَهُـمْ عنـد اللقـاءِ ... بـأنهـمُ لـك كـانـوا نِفـالا
كـأنهـمُ لـم يَحسُّـوا بـهِ ... فَيخلـوا نِسـاءهُـم والحِجَـالا
وَلَـمْ ينـزلـوا بِمُحـولِ السنيـن ... بـهِ فيكـونـوا عليـه عِيـالا
وقـد علـم الضيـفُ والمُـرْملـونَ ... إذا اغبَـرَّ أُفـقٌ وَهبَّـتْ شمـالا
وَخلَّـتْ عَـنَ اولادِهـا المـرضعـاتُ ... ولـم تَـرْعَ عيـنٌ لِمُـزنٍ بِـلالا
بـأنّـك كُنْـتَ الـربيـع المُغيـثَ ... لمـن يَعْتَفِيـك وَكُنْـتَ الثِّمَـالا[٢]
وَخَـرْقٍ تَجَـاوَزْتَ مَجْهُـولَـهُ ... بِـوَجْنَـاءَ حَـرْفٍ تَشَكَّـى الكَـلالَا[٣]
[فَكُنْـتَ النهـارَ بـه شَمْسَـهُ ... وَكُنْـتَ دجَـى الليـل فيـه هِـلالا
وَحـيٍّ صَبَحْـتَ وَحـيٍّ أبَحْـتَ ... غَـداة اللقـاءِ منـايـا عِجَـالا
وَكَـمْ مِـنْ قبيـلٍ وإن لـم تَكُـنْ ... أرَدْتَهُـمُ منـك بـاتـوا وِجَـالا

قال عمرو بن شبة: وكان عمرو بن عاصم هذا يَغْزُو فَهْماً فيصيب منهم، فوضعوا له رصَدا على الماء، فأخذوه فقتلوه، ثم مَرُّوا بأخته جَنُوبَ، فقالوا: أخاكِ! فقالت: لئن طلبتموه لَتجدُنّه [منيعاً، ولئن ضفتموه لتجدنَّه مريعاً، ولئن وعدتموه لتجدنه] سريعاً! فقالوا: قد أخذناه فقتلناه، وهذا نبله. فقالت: والله لئن سلبتموه لا تجدون ثِنْتَهُ وافية، ولا حجرته

= خيسه، ومنه قولهم: كمبتغي الصيد في عريسة الأسد، ويقال: عريس أيضاً بلا تاء.

(١) الفَذُّ: الفرد.

(٢) اعتفاه: أتاه يطلب معروفه، والثِّمالُ: الملجأ والغِياثُ، قال أبو طالب يمدح النبي ﷺ:
وَأبيـضُ يُسْتَسْقَـى الغَمَـامُ بِـوَجْهِـهِ ... ثِمـالُ اليتـامـى عِصْمَـةٌ لِـلأرامـلِ
(ابن منظور، لسان العرب: ثمل).

(٣) الخرق: المكان الواسع تتخرّق فيه الرياح، أراد الفلاة. الوجناء: الناقة. والحرف: المهزولة، ولا يقال: جمل حرف، وإنما يقال: ناقة حرف، شبهوها إذا كانت ضامرة من الهزال بالحرف من حروف الهجاء، وهو الألف. تَشَكَّى: أصله تتشكى، فحذف إحدى تائيه. والكلال: التعب والإعياء.

جافية، ولرب ثدي منكم قد افترشه، ونهب قد احتَوشَه؛ ثم قالت الأبيات المتقدمة الذكر.

وأنشد أبو حاتم ولم يقل قائله:

ألا في سبيل اللَّهِ ماذا تَضمَّنتْ ... بُطونُ الثرى واسْتُودِعَ البلَدُ القَفْرُ
بُدورٌ إذا الدنيا دَجَتْ أشرقَتْ بِهِمْ ... وَإنْ أجْدبَتْ يوماً فَأيْدِيهم القَطْرُ
فيا شامتاً بالموتِ لا تَشْمَتن بهم ... حَياتُهُمُ فَخْرٌ وَمَوْتُهم ذِكْرُ
أقاموا بِظَهْرِ الأرض فاخضرَّ عُودُها ... وَصاروا ببطن الأرضِ فاسْتَوْحَشَ الظَّهْرُ

لأبي عبيد اللَّه العتبي يرثي ابنه

وقال أبو عبيد اللَّه العتبي، وتوفي له بنون فُجِع بهم ومات في آخرهم ابنٌ له يكنى أبا عَمْرو كان يقول الشعر؛ فقال يرثيه:

لقد شَمِتَ الواشونَ بي وتَغيّرتْ ... وُجُوهٌ أراها بَعْدَ موتِ أبي عَمْرو
تَجرَّى عَليَّ الدهرُ لما فَقدْتُهُ ... وَلو كان حيّا لاجترأتُ على الدهرِ
أَسكّانَ بطنِ الأرض لو يُقبَلُ الفِدَى ... فَدينا، وأَعطينا بكم ساكني الظَّهْرِ
فيا لَيْتَ مَنْ فيها عليها، ولَيتَ منْ ... عليها ثَوَى فيها مُقيماً إلى الحَشْرِ
وَقَاسمني دَهْرِي بنيّ مُشَاطرا ... فلما توفَّى شطره مال في شَطْرِي
فَصاروا كأن لم يَعْرِفِ الموتُ غَيْرَهم ... فَثُكْلٌ على ثُكْلٍ وَقَبْرٌ على قَبْرِ

وقال في ابن توفي صغيراً:

إنْ يَكُنْ ماتَ صغيراً ... فالأَسَى غَيْرُ صغيرِ
كانَ رَيْحَانِي فأَمْسَى ... وَهْوَ رَيحَانُ القُبُورِ
غَرَسَتْهُ في بَساتيـ ... ـنِ البِلَى أَيْدِي الدهورِ

ومن هنا أخذ أبو الطيب المتنبي قوله:[١]

فَإنْ تَكُ في قَبْرٍ فَإنَّكَ في الحشا ... وَإنْ تكُ طِفْلاً فالأسَى لَيْسَ بالطِّفْلِ[٢]

(١) المتنبي، الديوان: ٢/ ٣٢. والبيت من قصيدة يرثي بها أبا الهيجاء عبد اللَّه بن سيف الدولة الحمداني.

(٢) الأسى: الحزن. يقول: إن تكن قد دُفنت في القبر فإنك مصور في القلب، وإن تكن طفلاً صغيراً، فالحزن عليك ليس بصغير.

لخلف بن خليفة الأقطع

وقال خلف بن خليفة الأقطع:[١]

أُعـاتِـبُ نفسـي إن تَبسَّمْـتُ خَـالِيـا وَقـد يَضْحَكُ المَوْتُور وَهْوَ حَزِيـنُ
وَبـالبذِّ أشجاني وكـم من شَجٍ لـهُ دُوَيْـنِ المُصلّـى والبقيـع، شُجُـونُ
رُبّـى حَـولهـا أمثـالُهـا إن أتيتهـا قَـرَيْنَـك أشجـانـاً وَهُـنَّ سُكُـونُ
كَفى الهجر أنّا لم يَضِح لكَ أمرُنا وَلـم يـأتنـا عمَّـا لـديـكَ يَقيـنُ

لأبي عطاء السندي

وقال أبو عطاء السِّندي[٢] في ابن هبيرة:

ألاَ إنَّ عينـا لـم تَجُـدْ يَـوْمَ واسـطٍ عليـكَ ببـاقـي دَمْعِهَـا لَجمُـودُ
عَشِيـةَ قـام النـائحـاتُ وَشُقِّقَـتْ جُيـوبٌ بـأيـدي مَـأتَـم وَخُـدودُ
فَـإنْ تُمْـسِ مَهْجُـورَ الفِنَـاءِ فـربمـا أقـام بـه بعـد الـوفُـودِ وفُـودُ
فَـإنـكَ لـم تَبْعَـدْ عَلـى مُتعهِّـدٍ بلـى كُـلُّ مـا تَحْـتَ التـرابِ بعيـدُ

لأعرابي

أعرابي:

وَمِنْ عجَبٍ أَنْ بِتَّ مُستودع الثَّرَى وَبِـتُّ بمـا زَوَدْتنـي مُتمتِّعَـا
فلـو أنني أنصفتُـكَ الـودَّ لـم أَبِـتْ خِلافَكَ حتى نَنْطَوي في الثرى مَعا
سَأَحمي الكَرَى عيني وأفترشُ الثرى يَميني إذا صارَ الثرى لـك مَضْجَعا
وَبَعْـدكَ لا آسَـى لِعُظْـمِ رَزِيَّـةٍ قَضَيْتَ فَهوّنْتَ المصائبَ أَجْمَعا

---

(١) هو خلف بن خليفة، من قيس بن ثعلبة بالولاء: شاعر أموي مطبوع، ظريف، راوية. قطعت يده في صباه لسرقة اتهم بها فلقب بالأقطع. وكانت له أصابع من جلد يلبسها. توفي نحو ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م. (ابن قتيبة، الشعر والشعراء: ٢/ ٦٠٢؛ ابن عبد ربه، العقد الفريد: ٦/ ١٤٥).

(٢) هو أبو عطاء، أفلح بن يسار السندي: شاعر فحل، قوي البديهة، من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية. كان عبداً أسود من موالي بني أسد. نشأ بالكوفة، وتشيع للأمويين، وهجا بني هاشم، وكانت في لسانه عُجْمَة. توفي بعد ١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م. (البغدادي، خزانة الأدب: ٤/ ١٧٠؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ١/ ٢٤٥).

ومعنى هذا البيت الأخير تداوله الناس نظماً ونثراً.

[قال أبو نواس في الأمين]:[1]

طَوَى الموتُ ما بيني وبينَ مُحمدٍ ... وَليسَ لما تَطْوِي المنيةُ ناشِرُ
لئن عَمِرَتْ دُورٌ بِمَنْ لا أحِبُّهُ ... لقد عَمِرتْ مِمّنْ أُحِبُّ المقابِرُ[2]
وَكُنْتُ عليه أحْذَرُ الموتَ وَحْدَهُ ... فلم يبقَ لي شيء عليه أحاذِرُ

أم الهيثم السدوسية

وقيل لأمّ الهيثم السدوسية: ما أسرع ما سلوت عن ابنك الهيثم! قالت: أما والله لقد رُزِئته كالبدرِ في بهائه، والرمْح في استوائه، والسيفِ في مَضَائه؛ ولقد فتّتَتْ مصيبتُه كبدي، وأفنى فَقْدُه جلدي، وما اعتَضْتُ من بعده إلاّ أَمْنَ المصائب لِفَقدِه.

أبو العيناء يعزي

وعزَّى أبو العيناء أحمد بن أبي دُواد عن ولدٍ له، فقال: ما أصيب من أثيب والله لقد هان لفقده، جليل المصائب من بعدِه.

لأعرابي مات بنوه بالطاعون

ودخل أعرابي من بادية البصرة إلى الشام ومعه بنون، فلما كان بِقِنَّسْرِينَ مات بنوه بالطاعون فقال:

أبعد بَنِيَّ الدهرَ أرجُو غَضَارَةً ... من العيشِ أو آسى لما فاتَ من عُمْري[3]
غَطارِفَةٌ زُهْرٌ مَضَوْا لسبيلهم ... فَلهفي على تلك الغَطَارِفة الزُّهْرِ[4]
سقى اللَّهُ أجساداً وَرائي تَركْتُها ... بحاضر قنّسرين من صَيِّب القَطْرِ[5]
يُذكّرنيهم كلُّ خير رأيتُهُ ... وشرٌّ، فما أنفكُّ منهم على ذِكْرِ

(١) أبو نواس، الديوان: ص ٥٨١.
(٢) في الديوان: «بِمَنْ لا أَوَدُّهُ».
(٣) الغضارة: تقول: إنهم لفي غضارة من العيش، وفي غضارة عيش: في سعة ونعمة.
(٤) الغطارفة والغطاريف: جمع غُطَارَف وَغِطْريف: السيد الكريم.
(٥) الصَّيِّبُ: السحاب ذو الصوب، والمطر.

هذا البيت كقول الآخر:

رَعاكِ ضمانُ اللَّه يا أُمَّ مالك ... وَللَّهُ أَنْ يرعاك أولَى وأَوسَعُ
يُذَكّرنيكِ الخيرُ والشرُّ والذي ... أخافُ وأرجو والذي أتوقّعُ

لمسلم بن الوليد

وقال مسلم بن الوليد:

وَإني وإسماعيل يومَ وداعِه ... لَكَالغِمْدِ يوم الرَّوع فارقَهُ النَّصْلُ
أما والحبالات الممرَّات بيننا ... رسائل أدَّتها المودةُ والوَصْلُ[(١)]
لما خُنتُ عهداً من إخاءٍ ولا نأى ... بِذكْراكِ نأيٌ عن ضميري ولا شُغْلُ
وَإنيَ في مالي وأهلي كأنني ... لِفَقْدِكَ لا مالٌ لديّ ولا أهلُ
يُذكِّرنيكَ الخيرُ والشرُّ والحِجَا ... وَقيلُ الخنى والحِلمُ والعِلْمُ والجهلُ[(٢)]
فألقاك عن مَذْمومها مُتنزهاً ... وألقاك في مَحْمُودها ولك الفَضْلُ
وأحمَدُ من إخلافِكَ البُخْلَ إنهُ ... بِعِرْضِكَ لا بالمال حَاشى لك البُخْلُ
أمتجعاً مَرْواً بأثقالِ هِمّةٍ ... دعِ الثِّقلَ واحْمِلْ حاجةً ما لها ثِقْلُ
ثَناءً كَعُرْفِ الطيب يُهْدَى لأهلهِ ... وَلَيْسَ له إلاّ بني بَرْمَكٍ أهْلُ
فَإنْ أغْشَ قوماً بعدهم أو أزورهم ... فَكالوَحْشِ يُدْنيها مِنَ القَنَصِ المَحْلُ[(٣)]

ومن ألفاظ أهل العصر في التعازي وما يتعلق بمعانيها من ذكر البكاء والجزع وعظم المصائب

خَبرٌ عزّ على النفوسِ مَسْمَعه، وأثّر في القلوب مَوْقِعُه. خَبَرٌ تصطكُّ له المسامعُ، وترتجُّ به الأضالع، وتسقط له الحبالى، وتَصْحو منه السكارى خبرٌ كادت له القلوبُ تطيرُ، والعقول تَطيشُ، والنفوس تَطيح. خبر يخفض البصر ويقذيه، ويَقْبِض الأملَ ويقدح فيه.

---

(١) الحبالات: جمع حبالة، وهي المصيدة، يقال: حبلت فلانة فلاناً: أوقعته في شباك حبها وسحرته، وحبائل الموت: أسبابه.
(٢) الحجا: العقل. الخنى: الفحش في الكلام.
(٣) القَنَصُ: المَصِيدُ. المَحْلُ: انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ، ويقال: أرضٌ مَحْلٌ: لا مرعى بها.

الخبر في أثناءِ الرجاءِ قد انقطع، وأصمَّ به الناعي وقد أَسمع. ناعي الفضائل قائم، وأنفُ المحاسنِ رَاغم. خبرٌ أَحْرج الصَّدْرَ، وأحلَّ البكاء، وحَرَّم الصبر، وأَطار واقع السكون، وأثار كامِنَ الوجوم، وثقلت وَطْأَته على أجزاءِ النفس، وتأدّت معرته إلى سرِّ القلب. كتبتُ والأرضُ واجِفةٌ، والشمسُ كاسفةٌ، للرزء العظيم، والمُصَاب الجسيم، في فلك الملك، ورُكْنِ المجد، وقريع الشَّرْق والغرب، وما عسى أن يُقَال في الفلك الأعلى إذا انْهَارَ من جوانبه، وتهافَتَ على مناكِبه. أتى الناعي[١]، فندب المساعي، وقامت بواكي المجد، وكسفت شمسُ الفَضْل، وعاد النهارُ أسودَ، والعيش أَنْكَد. غربَ لموته نجمُ الفَضْل، وَكَسَدَتْ سوقُ الأدَب، وقامت نوادب السماحة، ووقف فلكُ الكَرَم، ولطمت عليه المحاسن خدودَها، وشقت له المناقب جُيوبَها، [وبُرودها]، قد كانت الرزيَّةُ بحيث مارت السماءُ مَوْرا، وسارت الجبالُ سيرا، حتى شوهدت الكواكبُ ظهراً، ثم تهافتتْ شفعاً ووتراً، فارتاعت الأُمّة، وانبسطت الظلمة، وارتفعت الرَّحْمَةُ، واضطربت المِلّة، وقامت نوادبُ المجد، وأصبح الناسُ من القيامةِ على وَعْد. إن المجدَ بعده لجاري الدمع، وإنّ الفضل لمنزعج النفس، وإنّ الكرمَ لَحرِجُ الصدر، وإن المُلْكَ لواهِنُ الظَّهْر[٢]. كتابي وأنا من الحياة متذمّم، وبالعيشِ مُتَبَرِّم، بعد ما ماد الطَّوْد الشامخ، وزال الجبل الباذخ[٣]، ونطقت نوادِب المجد، وأقيمت مآتم الفضل. نعى فلان فتنكّر وَجْهُ الدهر، وقبضت مُهْجَةُ الفَخْرِ، فلا قَلْبَ إلاَّ قد تباين صَدْعه، ولا عين إلا وهي ترشحُ بالدَّم بعده. كتبتُ والأحشاءُ محترقة، والأجفانُ بمائها غَرِقة، والدمعُ وَاكِفٌ، والحزن عاكف. مصابٌ أطلق أسْرابَ الدموع وفرَّقها، وأقلق أعشارَ القلوب وأحرقها، مصابٌ فضّ عقودَ الدموع، وشبَّ النارَ بين الضلوع. مصاب أذاب دموعَ الأحرار، فتحلّبت[٤] سحائبُ الدموعِ الغِزار، وانسدَّتْ مسالك السكون والاستقرار. كتبتُ عن عين تَدْمَع، وقلْبٍ يجزع، ونفس تَهْلَع[٥]، وقد أَذْلَلْتُ مَصُون العَبرة، وحجبتُ وافِدَ الحيرة، ومدّ الهمُّ إلى جسمي يَدَ السقم، وجرَّ الدمعُ على خدّي ذيولَ الدم. لولا أن العينَ بالدمع أنطقُ من كل لسان وقلم، لأخبرتُ عن بعض ما

---

(١) الناعي: الذي يخبر بموت الميت.
(٢) الواهن: الضعيف، وواهن الظهر: كناية عن ضعف احتماله الأعباء.
(٣) بَذَخَ الجبل ونحوه بُذُوخاً: علا فبان عُلوّه، فهو باذخ، والجمع: بَواذخُ وَبُذَّخٌ.
(٤) تحلبت: سالت وانهمرت.
(٥) تهلع: تحزن.

أَوْهَنَ ظَهْرِي، وأَوْهى أَزْرِي. إنَّ الفجيعة إذا لم تحاربْ بجيشٍ من البكاء، ولم يُخَفَّفْ من أثقالها بالاشتكاء، تضاعفَ دَاؤها، وازدادَتْ أعباؤها، وعزَّ دواؤها. قد شفيتُ غليلي بما اسْتَدْرَيْتُهُ[1] من أسراب الدموع المتحيرة، وخفّفْتُ عني بعض البُرَحَاءِ بما امترَيْتُه من أخلافها[2] المتحدرة. إن في إسْبَال العَبْرة، وإطلاق الزَّفْرَة، والإجهاش بالبكاء والنشيج[3]، وإعلان الصياح والضجيج، تَنْفيساً عن بُرَحاءِ القلوب، وتخفيفاً من أثقالِ الكُروبِ. قد أَتى الدهرُ بما هدَّ الأصلاب، وأطارَ الألبابَ، من النازلة الهائلة، والفجيعة الفظيعة. رُزْءٌ أضعفَ العزائم القويةَ، وأبكى العيونَ البكيَّة. مصيبةٌ زَلْزَلتِ الأرضَ، وهدَّمَت الكرم المَحْض، وسلبت الأجفان كَرَاها، والأبدانَ قُوَاها. فجيعةٌ لا يُدَاوِي كَلْمَها آسٍ[4]، ولا يسدّ ثَلْمَها تَنَاسٍ[5]. مصيبةٌ تركتِ العقولَ مُدَلَّهَة، والنفوسُ مُولَهة. رُزْءٌ هَضَّ وهاض[6]، وأطال الانخزال والانخفاض، ولم يَرْضَ بأن فَضَّ الأعضاء، حتى أفاض الدماءَ. رزءٌ ملأَ الصدورَ ارتياعاً، وقسم الألبابَ شَعاعاً، وترك الجفونَ مقروحة، والدموع مسفوحة، والقُوى مهدودة، وطرق العزاءِ مسدودة. رزءٌ نكأَ القلوبَ وجرحَها، وأَحرَّ الأكْبَادَ وقرّحها، ما لي يدٌ تخطّ إلاّ بكلفة، ولا نفس تردد إلا غصَّة، ولا عين تنظر إلى من وراء قذًى، ولا صدر ينطوي إلاّ على أذى؛ فالدموعُ واكفة، والقلوب وَاجِفة، والهمّ وارِد، والانسُ شارد.

وَالنَّاسُ مَأْتَمُهم عليه واحدٌ ... في كلّ دارٍ رَنَّةٌ وَزَفِيرُ

كَأني كِنْدَة وهي تَلَهَّفُ على حُجْر[7]، والخنساء تَبْكي على صخر. أنا بين عَبْرَةٍ وزَفْرَة، وأنَّةٍ وحسرة، وتململ واضطراب، واشتعال والتهاب. مصيبةٌ أصبحتُ لِغُمّتها وقيذا، وَلِكُرْبَتِها أخيذا. كَتبتُ وقد ملك الجزَعُ عَزَائي، وحصل ناظري في إسار بكائي، فالقلْبُ دهش، والبَنَان يرتعِش، وأنا من البقاء متوحّش. قد انتهى بي الهلع إلى حيثُ لا

---

(١) استذريته: أسلته.

(٢) البُرَحَاءُ: الشدّة. وامترى الشيء: استخرجه، وامترى الناقة: حلبها. والأخلاف: جمع خِلْف، وهو ضِرْع الناقة، أو حلمته.

(٣) النشيج: الصوت المتردد في الصدر.

(٤) الكَلْمُ: الجرح. والآسي: الطبيب.

(٥) الثَّلْمُ: يقال: ثلم الجدار وغيره ثَلْماً: أحدث فيه شقًّا، وثلم الإناء: كسر حرفه.

(٦) هَضَّ: كسر ودقّ، وهاض العظم: كسره.

(٧) حجر: هو والد الشاعر الجاهلي امرىء القيس، وكان ملكاً على كندة، وقتله بنو أسد.

التَّأَسِّي مُصحِب، ولا التناسي مصاحِب، بي انزعاج يحلّ عُقَدَ الْحَزْم، واكتئابٌ ينقضُ شروط العَزْم. قد بلغ الحزنُ مبلغاً لم أبتذِلْه للنوائب، وإن جلّت وَقْعاً، ونالَت مني مَنالا لم يعتد طرق المصائب، وإن عظُمت فجعاً. كتبتُ عن اضطرابِ نفسٍ، واضطرامِ صدرٍ، والتهاب قلبٍ، وانتهابِ صَبرٍ؛ فما أعظمه مَفْقُوداً! وما أكرمه ملحوداً! إني لأنوح عليه نَوْحَ المناقب[١]، وأَرْثِيه مع النجوم الثواقب، وأبَكِيه مع المعالي والمحاسن، وأثنى [عليه] بثناء المساعِي والمآثر. ليت يمينَ الزمانِ شُلَّتْ قبل أن فتكَتْ بمُهْجة الفضل، وعَيْن الزمانِ كُفَّت قبل أن رأت مَصْرَع الفخر. لقد رُزِئنا من فلان عالماً في شخص، وأمّةً في نفس. مضى والمحاسنُ تَبكِيه، والمناقبُ تعزّى فيه. العيونُ لما قرّت به أسخنها فيه رَيْبُ المنون، ولما شُرِحَتْ به الصدور قبضها بِفَقْدِه المقدور. قد ركبَ على الأعناق، بعد العِتَاق، وعلى الأجياد بعد الجيادِ، وفات فتيتُ المسكِ من مآثره، كما يَفُوحُ العنبرُ من مجامره. كان سنزلُه مَأْلَفَ الأضيافِ، ومَأنس الأشراف، ومُنْتَجَع الرَّكْب، ومَقْصد الوَفْد، فاستبدل بالأُنْس وَحْشَة، وبالغضارة غُبرة، وبالبياض ظُلْمَة، واعتاض من تَزَاحُم المراكب تَلاَدُمَ المآتم[٢]، ومن ضَجيج النداء والصهيلِ، عجيجَ البكاء والعويل. هذي المكارمُ تُبْدِي شَجْوَها لِفَقْدِه وتَلْبس حِدَادَها من بَعْده، وهذي المحاسنُ قد قامَتْ نوادبُهَا مع نوادبه، واقترنَتْ مصائبُها بمصائبه. لو قُبِلَت الفِدْيَة لَوقَيْتُهُ بنفسي وأيامِ عمري، عِلماً بأنَّ العيشَ بمثله من إخوانِ الصفا يَصْفُو، وبظَعْنه عن الدنيا يكدرُ ويَعْفو. لو وُقِي من الموت عزيزُ قومٍ لِعزَّتِه، أو كَبيرٌ بأولاده وأُسرته، أو ذو سُلطان باستطالته وقُدرته، أو زعيم دولةٍ بِحَشْدِه وعُـدَّتِه، لكان الماضي أَحقَّ من وُقي وأولى من فُدِيَ، وكُنا أقدر على دفع ما حدث، وذَبِّ ما كرث وأَرْهَق؛ لكنه الأمرُ المسوّى فيه بين مَنْ عَزَّ جانبُه وذَلَّ، وكَثُر مالُه وقَلَّ، حتى لحق المفضولُ بالفاضل، والناقصُ بالكامل.

ولهم فيما يطابق هذا النحو من وصف الدهر وذم الدنيا

هو الدهرُ لا يُعْجَب من طوارقِه[٣]، ولا ينكر هجوم بوائقه[٤]. عطاؤه في ضمانِ الارتجاع، وحِبَاؤه في قِرَان الانتزاع. من عرفَ الزمان لم يَسْتَشْعِرْ منه الأمان، وتصرّف

(١) المناقب: جمع منقبة، وهي الخصلة من خصال الشرف.

(٢) تلادم المآتم: يقال: التدمت المرأة: ضربت صدرها ووجهها.

(٣) طوارق الدهر: حوادثه.

(٤) البوائق: الدواهي، الواحدة بائقة.

الحوادثِ، بين الموروث والوارث. الدهرُ مشحون بطوارقِ الغِيَر، مَشُوبٌ صَفْوُ إيامه بالكَدَر، ممزوج صَابُه بالعسل، موصولَةٌ حبالُ الأمنِ فيه بأسباب الأجل. قد جعل اللهُ الدنيا دارَ قُلْعة[1]، ومحلَّ نُقْلَة، فمن راحل ليومه ومن مؤخَّر لغده، وكلٌّ متشوّفٌ لأجله[2]، وجارٍ لأمَدِه. ما الدنيا إلا دار النقلة، ولا المقام فيها إلاّ للرّحلة، إنّ المرءَ حقيق إذا طرقه ما يتحيَّف صَبْرَه [ويتطرّق صدره]، أنْ يعودَ إلى عِلْمِهِ بالدنيا كيف نُصِبت على النُّقْلة، وجنبَتْ طويل المهلة، وابتدئت بالنفاد، وشُفع كونُها بالفساد، وأن الثاوِي فيها رَاحِل، والأيام فيها مَرَاحِل. موهوب الدنيا مسلوب وإن أرْجِىء إلى مَهَل، وممنوحها مجذوب وإن أخِّر إلى أَجل. لو خلّد من سَبقَ، لما وسِعَت الأرضُ مَن لحق؛ ولذلك جُعِلَتِ الدنيا دار قُلْعَة، ومحلّ نجعة.

سُبِقْنا إلى الدنيا فلو عاشَ أَهْلُها   مُنِعْنا بها من جَيْئَةٍ وَذُهوبِ
تَملَّكها الآتي تملُّكَ سالبٍ   وَفارقها الماضِي فِراقَ سليبِ

وقال عتبة بن هارون: كنتُ مع فضل الرقاشي، فمرّ بمقبرة، فقال: يأهلَ الديار المُوحِشة، والمحال المُقْفِرة، التي نطق بالخرابِ فِناؤها، وشُيِّد بالتراب بناؤها، ساكِنُها مُغْتَرِب، ومحلّها مُقْتَرِب، أهلُ هذهِ المنازلِ متشاغلون، لا يتواصلون تُواصَل الإخوان، ولا يتزاوَرُون تزاورَ الجيران، قد طحنهم بكَلْكَلِه البِلَى[3]، وأكلَهم الجَنْدَل[4] والثّرَى.

وقال خاقان بن صُبَيْح: لِوَحْشَة الشكّ التمسنا أُنْسَ اليقين، ومن ذلّ الجهل هربنا إلى عزّ المعرفة، وَلِخَوْفِ الضلالةِ لزمنا الجادَّة.

وقال بعضُ الحكماء: كُمونُ المصائب[5] وَسُكونُ النوائب وبَغَتات المنايا مطويَّات في الساعات، متحركات في الأوقات، وربّ مُغْتَبَطٍ بساعة فيها انقضاءُ أجلِه، وَمُتَمتِّع بوقت صار فيه إلى قَبْرِه، وَمُنتظرٍ وُرودَ يوم فيه مَنِيَّتُه.

ووعظ أعرابيٌّ ابنا له أفسدَ مالَه في الشراب، فقال: لا الدهر يَعِظك، ولا الأيامُ تنذرك، والساعات تُعَدُّ عليك، والأنفاسُ تُعَدُّ منك، وأَحَبُّ أَمْرَيْك إليك، أَرَدُّهما للمضرة لديك.

---

(١) دار قُلْعة: أي دار تَحوُّلٍ وانتقال.
(٢) مُتَشوِّفٌ: مُتَطلِّع.
(٣) الكلكل: الصدر.
(٤) الجندل: الحجارة، وقيل: صخرة مثل رأس الإنسان.
(٥) كُمُونُ المصائب: تواريها.

[من مقامات بديع الزمان الهمذاني]

المقامة الأهوازية

ومن إنشاء بديع الزمان في المقامات: حدَّثنا عيسى بن هشام قال: كنتُ في الأهواز في رُفْقة متى ما ترقَّ العينُ فيهم تسهل، ليس منَّا إلا أمرد بِكْر الآمال، بضّ الجمال[١]، أو مختطٌّ حَسن الإقبال، مرجوّ الأيام والليال؛ فأفَضْنَا في العِشْرَة كيف [نضعُ قواعدَها، والأخُوّة كيف] نحكم معاقدها، والسرور في أي وقت نتعاطاه، والأُنْس كيف نَتَهاداهُ، وفائت الحظّ كيف نتلافاه، والشراب [من أين نخلصه، والمجلس كيف نرتبه؟ فقال أحدُنا: على البيت والمنزل، وقال آخر: على الشراب والنقل]، وقال بعضُنا: إلى السماع والجماع، وقمنا نجر أذيال الفسوق، حتى انسلخنا من السوق، واستقبلنا رجلٌ في طِمْرين[٢]، في يُمْناه عُكَّازَة، وعلى كتفه جِنَازَةٌ[٣]؛ فتطيَّرْنا لما رأينا الجنازة، وأعرضْنَا عنها صَفْحا، وطوينا دونها كَشْحا، فصاح بنا صيحةً كادت الأرضُ لها تَنْفَطِر، والنجومُ تَنْكَدِر، وقال: لَتروُنَّها صُغْراً، ولَتركُبنَّها قَسرا. ما لكم تكرهون مِطيَّةً ركبها أسلافكم، وسيركبها أخلافُكم، وتتقذرون سريراً وطئه آباؤُكم، وسيطؤُه أبناؤُكم؟ أما والله لَتُحْمَلُنَّ على هذه العِيدان، إلى تلكم الدّيدان، وَلَتُنْقَلُنَّ بهذه الجياد، إلى تلكم الوِهاد. وَيْحكم تَطيَّرون[٤]، كأنكم مخيّرُون، وتتكرهون، كأنكم مُنزَّهون، هل تنفع هذهِ الطِّيرَة، يا فجرة؟

قال عيسى بن هشام: فقد نقضَ علينا ما كُنَّا عقدناه، وأبطلنا ما كنَّا أَرَدْناه؛ فَمِلْنا إليه، وقلنا: ما أحوجَنا إلى وَعْظِك، وأَعشقَنَا لِلفظك! ولو شئتَ لَزِدْتَ، قال: إنّ وراءكم موارِدَ أنتم وارِدُوها، وقد سِرْتُم إليها عِشْرين حِجّة:

وإنّ امرأً قدْ سارَ عشرينَ حِجَّةً ... إلى مَنْهَلٍ من وِرْدِه لَقَرِيبُ[٥]

وفوقكم مَنْ يعلم أسراركم، ولو شاء لهتك أستارَكم، يعامِلكم في الدنيا بِحِلْم، ويَقْضِي عليكم في الآخرة بعِلم، فليكن الموتُ منكم على ذكر، لئلا تأْتُوا بِنُكْر؛ فإنكم متى

---

(١) بَضٌّ: يقال: بَضَّ البدن بضاضةً وَبُضُوضةً: امتلأ ونَضُر، ويقال: بشرة بَضَّةٌ وبضيضةٌ: رقيقة نضرة.
(٢) الطمر: الثوب الخلق البالي.
(٣) الجِنازَةُ: سرير الميت ما دام فيه (النعش).
(٤) تطيرون: أي تتطيرون: تتشاءمون.
(٥) الحجة: السنة.

استشعرتموه لم تَجْمَحُوا، ومتى ذكرتموه لم تمزحوا، وإن نسيتموه فهو ذاكِرُكم، [وإن نمتُم عنه فهو ثائركم، وإن كرهتُموه فهو زائركم] قلنا: فما حاجتك؟ قال: هي أطولُ من أن تُحَدّ، وأكثر من أن تُعَدّ، قلنا: فسانحُ الوقت؟ قال: ردُّ فائِت العُمْرِ، ودَفْعُ نازلِ الأمرِ، قلنا: ما إلى ذلكَ سبيل، ولكن لكَ ما شئت من متاعِ الدنيا وزخرفها، قال: لا حاجةَ لي فيها.

قوله: وإنَّ امرأ قَدْ سَارَ عِشْرِينَ حِجَّة، مُحرّف عن قول قائله:

وإنّ امــرأ قَــدْ سَــارَ خَمسيــن حِجَّــةً

والبيت لأبي محمد التيمي، أنشده دِعبل:

إذا ما مَضَى القَرْنُ الذي أنتَ فيهمُ ... وَخُلِّفْتَ في قَرْنٍ فأَنت غَرِيبُ[١]

والبيت بعده. قال دعبل: وتزعم الرواة أنه لأعرابي من بني أسد. وقال خلاد الأرقط: كنّا على باب أبي عمرو بن العلاءِ ومعنا التيمي، فذكرنا كتابَ الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم: إني وإياك لِدَتَان[٢]، وإن أمرأ قد سار خمسين حجة لقَمِنٌ أن يَرده. فأصلحناهُ بيتاً، فاجتلبه التيمي في شعره.

[من رسائل بديع الزمان الهمذاني]

من البديع لأبي القاسم الكرخي

وكتب البديع إلى أبي القاسم الكرخي: أنا وإن لم أَلْقَ تطاوُلَ الإخوان إلا بالتطوّل، وتجمل الأحرار إلا بالتجمّل، أحاسب الشيخَ على أخلاقه ضنًّا بما عقدتُ يدي عليه من الظنّ به، والتقدير في مَذْهَبه، ولولا ذاك لَقُلْتُ: في الأرضِ مجالٌ إن ضاقَتْ ظلالُه، وفي الناس واصلٌ إن رَثَّتْ حبالُه، وأؤاخِذُه بأفعاله؛ فإن أَعارني أُذُناً واعيةً، ونفساً مُرَاعية، وقلباً متّعظاً، ورجوعاً عن الذهاب، ونزوعاً عما يقرعُه من هذا الباب، فرشت لِمَودَّته صَدْري، وعقدت عليه جوامع حَصْري، ومجامع عُمْرِي؛ وإنْ ركب من التعالي غَيْر مركب، وذهب من التَّغالي في غيرِ مذهب، أقطعتُه خطة أَخلاقه، ووليته جانبَ إعراضه، فكنت امرأً:

لا أذودُ الطيــرَ عــن شَجَــرٍ ... قَــدْ بَلَــوْتُ المُــرَّ مــن ثَمــرِه

---

(١) القرن: الأمة تأتي بعد الأمة، والقرن من الناس: أهل زمانٍ واحد. والبيت في «لسان العرب: قرن» من غير نسبة.

(٢) لِدَةُ الإنسان: المُسَاوي له في السنّ.

فإني ـ أطال اللهُ بقاء الشيخ مولاي ـ وإن كنت في مقتبل السنّ والعمر، فقد حلبتُ شَطْرَي الدهر[١]، وَرَكِبْتُ ظهري البرِّ والبَحْرِ، ولقيتُ وَفْدَي الخير والشر، وصافحتُ يدي النَّفْع والضرّ، وضربتُ إبطي العُسْر واليُسْر، وبلوتُ طعمي الْحُلوِ والمُرّ، ورضعْتُ ثديي العُرْف والنُّكْر؛ فما تكادُ الأيامُ تريني من أفعالها غريباً، وتُسْمِعُني من أقوالِها عجيباً، ولقيت الأفراد، وطارَحْتُ الآحاد؛ فما رأيتُ أحداً إلاَّ ملأت حافتيْ سمعه وبصره، وشغلت حَيِّزَيْ فكره ونَظَره، وأثقلت كَفّه في الْحُزن، وكفّتَه في الوَزْن، وودَّ لو بارَزَ القِرْنَ[٢] بصفحتي، أو لَقِي الفَضْلَ بصحيفتي، فمالي صَغُرْتُ في عينيه؟ وما الذي أزْرَى بي عنده؟ حتى احتجبَ وقد قَصَدْتُه، ولزِمَ أرضَه وقد حضرته، وأنا أحاشيه أن يجهلَ قَدْرَ الفضلِ، أو يَجْحَدَ فضلَ العلم، أو يمتطي ظَهْرَ التِّيه، على أهليه، وأسأله أن يختصَّني من بينهم بفضل إنعام إن زلت بي مرةً قَدَم رأي في قَصْده، وكأني به وقد غضب لهذه المخاطبة المُجْحِفة[٣]، والرتبة المُتحَيِّفة[٤]، وهو في جنب جفائه يسير، وإن أقلع عن عادته إلى الوفاء، ونزع عن شيمته في الجفاء؛ فأطال الله بقاءَ الأستاذ وأدام عِزَّه وتأييدَه.

كتاب آخر من البديع إلى أبي القاسم

وله إليه رقعة:

يعزُّ عليَّ ـ أطال اللهُ بقاء الشيخ الرئيس ـ أن ينوبَ في خِدْمته قلمي، عن قَدَمِي، ويسعد برؤيته رسولي، دون وُصولي، ويَرِدَ شِرْعَة الأُنسِ به كتابي، قبل ركابي، ولكن ما الحيلةُ والعوائق جمة:

وَعليّ أن أَسْعَى وَلَيْسَ عَليَّ إدراكُ النجاحِ

وقد حضرتُ دارَه، وقبَّلْتُ جدارهُ، وما بي حبُّ الْجُدْرَان، ولكن شغفاً بالقُطّانِ[٥]، ولا عِشْق الحيطان، ولكن شوقاً إلى السكان، وحين عَدَتِ العَوَادِي عنه، أمْليتُ ضميرَ

(١) حلبت شطري الدهر: كناية عن التجربة والإختبار.
(٢) القِرْنُ للإنسان: مثله في الشجاعة والشدة والعلم والقتال وغير ذلك.
(٣) أجحف به: اشتد في الإضرار به، ويقال: أجحف بهم الدهر: استأصلهم، وأجحف بهم الفقر: أذهب أموالهم.
(٤) حاف عليه حيفاً: جار وظلم، وتحيَّف الشيء: أخذ من حافاته وتنقصه.
(٥) قُطَّانُ الدار: أهله، ساكنوه.

الشوقِ على لسان القلم، معتذِراً إلى الشيخ على الحقيقة، عن تقصيرٍ وقع، وفُتور في الخِدْمَةِ عَرَض، ولكني أقول:

إنْ يَكُــنْ تَــرْكِــي لِقَصْــدِكَ ذنبــاً   فَكَفـــــى ألا أرَاكَ عِقـــــابَـــــا

كتاب منه إلى رئيس هراة

وله جواب إلى رئيس هراة عدنان بن محمد: ورد كتابُ الشيخ الرئيس سيدي، فظلت وفودُ النعم تَتْرَى عليّ[١]، ومثلت لديّ وبين يديّ، وقد أخَذَ مكارمَ نفسه، فتجعلها قِلَادة غرْسِه، وتتبّع المحاسن من عِنده، فحلَّى بها نَحْرَ عَبْده، وما أُشبِّه رائع حُلِيه، في نحر وَليّه، إلا بالغُرَّةِ اللائحةِ، على [الدَّهْمَة] الكالحة[٢] لا آخذَ الله الشيخ بوصفٍ نَزَعَه عن عرضه، وزَرَعه في غير أرضه، ونعتٍ سلَخه من خَلْقِه وخُلُقه، وأهداه إلى غير مستحقّه، وفَضْلٍ استفاده من فَرْعِه وأصله، وأوصله إلى غير أهله. ذكر حديث الشوقِ ولو كان الأمرُ بالزيارة حتماً، أو الإذن [جَزْماً] أطلق عزماً، لكان آخر نظري في الكتاب، أول نظري إلى الركاب، ولاستعنتُ على كُلَف السير[٣]، بأجنحة الطير، لكنه ـ أدام الله عزّه ـ صرعني بين يدٍ سريعة النَّبْذ[٤]، ورِجْلٍ وشيكة الأخذِ، وأراني زهداً في ابتغاء، كَحَسْوٍ في ارتغاء[٥]، ونزاعاً في نزوع، كذهاب في رُجوع، ورغبة فيَّ كرغبة عني، وكلاماً في الغِلاف، كالضرب تحت اللحاف، فلم أصرِّحْ بالإجابة وقد عَرَّضَ بالدعاء، ولم أعْلِن بالزيارة وقد أسرَّ بالنداء، ولو لم يَدْعني بلسان المُحاجَاة، ولم يُجاهِرْني بفمِ المناجاة، لكنتُ أسرعَ إليه، من الكرم إلى عطفيه، وفكرتُ في مُرَادِ الشيخ، فوجدتُه لا يتعدّى الكرم يشبّ ناره، والفضل يُدرك ثاره، وإذا كان الأمرُ كذلك فما أولاه بترفيهِ مولاه، عن زَفْرَةٍ صاعدة، بسفرة باعدة، ونكباء جاهدة[٦]. . . وقد زاد سيدي في أمْرِ المخاطبة، وما أحسن الاعتدال، وقد كفانا منه الأستاذ، وأسأله ألاّ يزيد، وقد بدأ ويجب ألاّ يعيد، فلا تنفع كثرة العدّ مع قلة المعدود،

---

(١) تَتْرَى: يقال: جاءوا تَتْرى: متواترين، وتواترت الأشياء: تتابعت.

(٢) أصل الغرة: البياض في وجه الفرس، وأراد البياض مطلقاً، واللائحة: الظاهرة، والكالحة: العابسة.

(٣) كُلَفُ السير: مَشقَّاته.

(٤) النَّبْذُ: الطَّرْحُ، يقال: نبذ الشيء: طرحه، ونبذ الأمر: أهمله ولم يعمل به، ونبذ العهد: نقضه.

(٥) ارتغاء: تصويت، وهو من رغا البعير ونحوه رُغاءً: صوَّت وضجَّ. ومنه: أرغاه: إذا قهره وأذله.

(٦) النكباء: ريح انحرفت ووقعت بين ريحين كالصَّبا والشمال.

والزيادة في الحدّ مع نقصان المحدود نقص من الحدود، وربّ ربح أدى إلى خُسْرَان، وزيادة أفْضَتْ إلى نُقْصَان، ورأي الشيخ في تشريفه بجوابه موفّق إن شاء الله تعالى.

كتاب من الصابي لبعض إخوانه

اجتلَب قولَه في أول هذه الرسالة من قول أبي إسحاق الصابي في جواب كتاب لبعض إخوانه:

وصل كتابك مشحوناً بلطيف بِرِّك، موشَحاً بغامِر فَضْلِك، ناطقاً بصحَّةِ عهدك، صادقاً عن خلوص ودِّك، وفهمتُه وشكرتُ اللهَ تعالى على سلامتك شُكرَ المخصوص بها، وَوَقَفْتُ على ما وصفته من الاعتدادِ بي، وتناهَيْتَ إليه من التقريظ لي، فما زِدْتَ على أن أعَرْتَنِي خِلالَك، وَنَحلْتَنِي خِصالَك، لأنَّكَ بالفضائل أوْلَى، وهي بكَ أحْرَى، ولو كنت في نفسي ممن يشتملُ على وصفه حَدِّي إذا حددت، أو يحيط بكماله وَصْفِي إذا وصَفْت، لَشَرَعْتُ في بلوغها والقرب منها، لكن المادحَ لك مُسْتَنْفِدٌ لك وُسْعه وقد بخَسك، ومستغرق طَوْقَه وقد نَقَصَك، فأبلغُ ما يأتي به المُثْنِي عليك، ويتوصل إليه المُطْرِي لك، الوقوف في ذلك دون منتهاه، والإقرار بالعجز دون غايته ومَدَاه.

لابن الرومي

ونقل البديعُ ما ذكره من تَرْكِ السفر والبغية بما حضر من قولِ ابن الرومي:[١]

أما حقُّ حامِي عِرْضِ مِثْلكَ أن تَرى ... له الرِّفْدَ والتّرفيه أوجبَ وَاجبِ[٢]
أقمــتُ لكــي تــزدادَ نُعْمَــاكَ نِعْمَــةً ... وَتغْنَى بِـوجـهٍ نـاضـرٍ غيـرِ شـاحِـبِ
وَكَــيْ لا يقــولَ القــائلــون أثــابــهُ ... وعـاقبـه والقـول جَـمُّ المسـاغـبِ[٣]
وَليْــسَ عجيبــاً أن يَنُــوبَ تَكَــرُّمٌ ... غُـذِيـتُ بـه مـن آمـلٍ لـك عـائـبِ[٤]
ذِمَــامِــيَ تَــرْعــى لا ذِمــام سفينــةٍ ... وَحقِّي لا حقَّ القِلاص النجائبِ[٥]

(١) ابن الرومي، الديوان: ١/ ٢١٩ ـ ٢٣٦. والبيت من قصيدة يمدح بها أحمد بن ثوابة.
(٢) في الديوان: «أن يُرى». الرفد: الجود.
(٣) في الديوان: «جَمُّ المشاعب». أثابه: كافأه. وجم المشاعب: كثير الطرق.
(٤) غذيت به: نشأت عليه، أي الكرم. والآمل: المُؤَمِّلُ، الراجي. وفي الديوان: «عن آملٍ لك غائب».
(٥) الذمام: الحقوق. والقلاص: جمع قلوص، وهي الناقة الشابة الطويلة القوائم القادرة على =

بين أبي العتاهية وابنه

ودخل على أبي العتاهية ابنه، وقد تصوّف، فقال: ألم أكُنْ قد نهيتُك عن هذا؟ فقال: وما عليك أن أتعوّد الخيرَ، وأنشأ عليه! فقال: يا بني، يحتاجُ المتصوّف إلى رقّة حال، وحلاوة شمائل، ولطافة معنى، وأنت ثقيلُ الظل، مظلم الهواء، راكِد النسيم، جامدُ العينين، فأقبل على سوقك؛ فإنها أعْوَدُ عليك. وكان بزّازاً[(١)].

فقر من كلام المتصوفة والزهاد والقصاص

نُورُ الحقيقةِ، أحسنُ من نور الحديقة. الزهد قَطْعُ العلائق، وهَجْرُ الخلائق. الدنيا ساعة، فاجعلها طاعة. التصوّف تَرْكُ التكلّف. قيل لمتصوّف: أتبيع مُرَقَّعتك؟ قال: أرأيتم صياداً يبيع شبكَته! وقيل لبعضهم: لو تزوَّجْتَ! قال: لو قدرت أن أطلق نفسي لطلقتها، وأنشد:

تَجرَّدْ من الدنيا فَإنَّكَ إنما سَقَطْتَ إلى الدنيا وأنتَ مُجرّدُ

الدنيا نَوْم والآخرة يقظة، والمتوسط بينهما الموت، ونحن في أضغاث أحلام.

ذو النون: العبد بين نِعْمة وذنبٍ، لا يصلحهما إلا الشكر والاستغفار.

غيره: ينبغي للعبد أنْ يكون في الدنيا كالمريض لا بد له من قوت، ولا يوافقه كل طعام. ليس في الجنة نعيمٌ أعظم من علم أهلها أنها لا تزول.

ابن المبارك: الزهد إخفاء الزهد. إذا هرب الزاهدُ من الناس فاطلبه، وإذا طلبهم فاهرب عنه. من أطلق طَرْفَهُ كثر أسفُه. من سُوءِ القدر فَضْل النظر. من طاوعَ طَرْفه، تابع حَتْفَه، ومن نظر بعين الهوى حار، ومن حَكم على الهوى جار، ومن أطال النظر لم يدرِكْ الغاية، وليس لناظرٍ نهاية. ربما أبصر الأعمى رُشْدَه، وَأَضَلّ البصير قَصْدَه. وقيل: ربَّ حربٍ جُنِيت من لفظة، وربّ حبٍّ غُرِسَ من لحظة، وأنشد:

نَظَرْتُ إليها نظرةً لو كَسوْتُها سَرابيلَ أبدانِ الحديدِ المُسَرَّدِ[(٢)]

= السير. ونجائب الإبل: خيارها، الواحدة نجيبة. وفي الديوان: «وحقي لا حق القلاص الذعالبِ». والذعالب: جمع ذعلبة، وهي الناقة السريعة.

(١) البزّاز: بائع البزّ (نوع من الثياب).

(٢) سرد الشيءَ: ثقبه، وسرد الدرع: نسجها، فشكّ طرفي كلّ حلقتين وسَمَّرهما.

لَرقّتْ حَواشِيها وَفُضَّ حَديدُها وَلاَنتْ كما لاَنتْ لِداودَ في اليَدِ[١]

وقال سعيد بن حميد:

نَظرتْ فَقادَتْني إلى الحَتْفِ نَظْرَةٌ إلي بِمَضْمُونِ الضميرِ تُشيرُ[٢]
فلا تَصْرِفنَّ الطَّرْفَ في كلّ مَنْظَرٍ فإنَّ مَعَارِيضَ البلاء كثيرُ
ولم أَرَ مِثْلَ الحبِّ أسقم ذا هوًى ولا مثل حُكْم الحبِّ كَيف يَجُورُ
لقد صُنْتُ ما بي في الضمير لَوَ أنه يُصانُ لدى الطَّرْف النمومِ ضَميرُ

غيره:

اليوم أَيقنتُ أَنَّ الحبَّ مَتْلَفةٌ وأنَّ صَاحِبَه منهُ على خَطَرِ
كيف الحياةُ لِمَنْ أمْسَى على شَرَفٍ من المنيَّةِ بين الخوفِ والحذَرِ[٣]
يَلومُ عينيه أحياناً بِذَنْبِهما وَيَحملُ الذنبَ أحياناً على القدرِ
إذا نأى أو دَنَا فالقلبُ عِنْدكُمُ وَقلبُه أبداً منهُ على سَفرِ

ونظر محمد بن أسباط الصوفي إلى أبي المثنى الشيباني وقد نظر في وجه غلام مليح، فقال: [إياك و] إدْمانَ النظر [فإنه] يكشف الخبر، ويفضَحُ البشَر، ويطول به المكثُ في سقَر[٤].

وقال المعلى الصوفيّ: شكوتُ إلى بعض الزهاد فَسَاداً أَجدُه في قلبي، فقال: هل نظرتَ إلى شيء فتاقَتْ إليه نفسُك؟ قلت: نعم، قال: احفَظْ عينيك؛ فإنك إن أطلقتهما أوقعتَاك في مكروه، وإن مَلَكْتَهُمَا مَلكْتَ سائرَ جوارِحك.

وقال مسلم الخوّاص لمحمد بن علي الصوفي: أوْصِني، فقال: أوصيك بتقوى الله في أمرِك كلّه، وإيثار ما يحبّ على محبتك، وإياك والنظر إلى ما دعاك إليه طَرْفك، وشوّقك إليه قلبك؛ فإنهما إن ملكاك لم تملك شيئاً من جوارحك، حتى تبلغ لهما ما يطالعانك به، وإن ملكتهما كنت الداعي إلى ما أردت، فلم يعصيا لك أمراً ولم يردَّا لك قولاً.

---

(١) الحواشي: جمع حاشية، وحاشية الثوب: جانبه.
(٢) الحتف: الموت.
(٣) الشَّرَفُ: الموضع العالي يُشرف على ما حوله، يقال: هو على شرف من كذا: مشرف عليه ومقارب له.
(٤) سقر: من أسماء جهنم.

قال بعض الحكماء: إن الله عزّ وجلّ جعل القلبَ أميرَ الجسدِ، ومَلِكَ الأعضاءِ؛ فَجَميعُ الجوارِح تَنْقادُ له، وكُلّ الحواسّ تُطِيعهُ، وهو مديرُها، ومصرّفها، وقائدُها وسائقها، وبإرادته تبعثُ، وفي طاعته تتقلّب؛ ووزيره العقل، وعاضِدُه الفهمُ، ورائده العينان، وطليعته الأذنان. [وهما في النقل سواء، لا يكتمانه أمراً، ولا يطوِيانِ دونه سرًّا، يريد العين والأذن].

وقيل لأفلاطون: أيهما أشدّ ضرراً بالقلب السمع أم البصر؟ فقال: هما للقلب كالجناحين للطائر، لا يستقلّ إلا بهما، ولا ينهض إلا بقوتهما، وربما قُصَّ أحدُهما فنهض بالآخر على تعب ومشقة. قيل: فما بالُ الأعمى يعشق ولا يرى، والأصم يعشقُ ولا يسمع؟ قال: لذلك قلت: إن الطائر قد ينهضُ بأحد جناحيه ولا يستقلّ[١] بهما طيراناً، فإذا اجتمعا كان ذهابه أمضى، و[طيرانه] أَوْحَى[٢].

وقال الأسود بن طالوت الجارودي: نظر إليّ أبو الغمر الصوفي وقد أَطلتُ النظرَ إلى غلامٍ جميل، فقال: ويحك! إنَّ طَرْفَكَ لِعَظِيمِ ما اجتنى من البلاءِ قد عرَّضَك للمكروه وطول العناءِ، لقد نظرت إلى حَتْفٍ قاتل للقلوب، وبلاءٍ مُظْهِر للعيوب، وعارٍ فاضح للنفوس، ومكروهٍ مُذْهِل للعقول، أَكُلّ هذا الاغترار بالله جرأك عليه حتى أمنت مَكْرَه، ولم تَخَفْ كيدَه؛ اعلم أنك لم تكن في وقت من أوقاتك، ولا حالةٍ من حالاتك، أقرب إلى عقوبة الله منك في حالتك هذه، ولو أخذك لم يَتخلّصْكَ الثقلان، ولم يَقْبَلْ فيك شفاعةَ إنس ولا جان.

ونظر محمد بن ضوء الصوفي إلى رجل ينظرُ إلى غلام مليح، فقال: كفى بالعبد نقصاً عند الله، وَضَعةً عند ذوي العقول، أن يَنْظُرَ إلى كل ما سَنحَ له من البلاء.

ونظر [أبو] مسلم الخشوعي فأطال النظر، فقال:[٣] إنَّ في خَلْقِ السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأُولي الألباب. ثم قال: سبحان الله! ما أهجمَ طَرْفي على مكروه نفسه، وأدمَنه على تسخّط سيده، وأغراه بما نهى عنه، وأَلْهجَه بما حذّر منه! لقد نظرت إلى هذا نظراً شديداً خشيتُ أنه سيفضحني عند جميع مَنْ يعرفني في عَرْصَة القيامة[٤]؛ ولقد تركني نظري هذا وأنا أَسْتَحِي من الله تعالى إنْ غفر لي! ثم صعق.

---

(١) يستقل: يرتفع.
(٢) أوحى: أسرع.
(٣) هذا قول الله تعالى في سورة آل عمران، آية (١٩٠).
(٤) العَرْصَةُ: ساحة الدار، والبقعة الواسعة بين الدور لا بناء فيها.

ونظر غالبٌ المضرور إلى غلام جميل على فرس رائع، فقال: لا أدري بم أداوي طَرْفي، ولا بم أُعالج قلبي؟ ما أتوبُ إلى الله من ذنب إلا رجعت فيه، ولا أستغفِرُه من أمر إلاّ أتيت أعظم منه، حتى لقد استحييتُ أن أسأله المغفرة لما يلحق قلبي من القنوط من عفوه، لعظيم حالي بالمنكر الذي أصنعُه. فقال له قائل: وأيّ منكر أتيت؟ فقال: أتريدُ مني أكثرَ من نظري هذا! والله لقد خشيت أن يبطل كلُّ عمل قدمته، وخير أسلفته، ثم بكى حتى ألصق خدّه بالأرض.

ورأى بعضُ الزهّاد صوفيا يضحَكُ إلى غلام جَميل، فقال له: يا خارب القلب، ويا مفتضح الطَّرْف؛ أما استحي من كِرَامٍ كاتبين، وملائكة حافظين، يحفظون الأفعال، ويكتبون الأعمال، وينظرون إليك، ويشهدونَ عليك، بالبلاء الظاهر، والغِلّ الدخيل المخامر[١]، الذي أقمت نفسَك فيه مقام مَنْ لا يُبَالي من وقف عليه، ونظر من الخلق إليه.

وقال أبو حمزة بن إبراهيم: قلت لمحمد بن العلاء الدمشقي ـ وكان سيدَ المتصوفة، وقد رأيتُه يماشِي غلاماً وضيئاً مدة ثم فارقه ـ: لِمَ هجرتَ ذلك الفتى بعد أنْ كنتَ له مواصلاً، وإليه مائلاً؟ فقال: والله لقد فارقته من غير قِلًى[٢] ولا مَلَل؛ ولقد رأيتُ قلبي يدعوني إذا خلوت به، وقربت منه، إلى أمر لو أتيته لسقطت من عَيْن اللهِ عزّ وجلّ؛ فهجرتُه تنزيهاً للهِ ولنفسي عن مصارع الفتن، وإني لأرجو أن يعقبني سيدي من مفارقته ما أعقب الصابرين عن مَحارِمه عند صدق الوفاءِ بأحسنِ الجزاء؛ ثم بكى حتى رحمتُه.

قال أبو حمزة: ورأيتُ مع أحمد بن علي الصّوفي ببيت المقدس غلاماً جميلاً، فقلتُ: منذ كم صحبك هذا الغلام؟ فقال: منذ سنين، فقلت: لو سرتما إلى بعضِ المنازِهِ فكنتما فيه كان أحمد لكما من الجلوس في المسجد بحيثُ يراكما الناس؟ فقال: أخافُ احتيالَ الشيطان عليّ به وقت خَلْوتي، وإني لأكره أن يراني اللهُ فيه على معصية فيفرّق بيني وبينه يوم يظفر المحبّون بأحبابهم.

قال أبو الفتح البستي:

تَنازَعَ الناسُ في الصوفيّ، واختلفوا فيــهِ وَظنّــوه مُشْتَقّــا مــن الصــوفِ

---

(١) خامر به: استتر، وخامر الشيءَ: مارسه وخالطه، يقال: خامر فلان فلاناً، وخامره الداء، وخامره الشك. وخامر المكان: لزمه وأقام به.

(٢) القِلى: البُغْضُ.

وَلسْتُ أَنْحَلُ هـذا الاسـمَ غيرَ فتًى صَافَى فَصُوفِيَ حتى لُقّبَ الصُّوفي

ورأى بقراط رجلاً من تلامذته يتفرّس في وَجْه أوحَيا، وكانت فائقة الجمال، فقال: ما هذا الشغل الذي منعك الرويّة والفكرة؟ فقال: التعجبُ من آثار حكمة الطبيعة في صورة أوحيا، فقال: لا تجعلنَّ نظرك لشهوتك مركباً، فيجمع لك في الوحول الأذية؛ ولتكُنْ نَفْسُكَ منه على بال، إنَّ آثار الطبيعة في وَجْه أوحيَا الظاهرة تمحق بصرك، وإن فكرت في صورتها الباطنة تحد نظرَك.

وقال بَعْضُهُمْ: رأيتُ جاريةً حسناء الساعِد؛ فقلت: يا جارية، ما أحسن ساعِدَك! فقالت: [أجل، لكنه] لم تختص به، فغضَّ بَصَرَ جسمك عما ليس لك؛ لينفتح بصرُ عقلك فترَى مالك.

الرأي والهوى

وقال بعضُ الفلاسفة اليونانيين: فضلُ ما بين الرَّأْي والهوى أنَّ الهوَى يَخُصُّ والرأي يعمّ، وأن الهوى في حيز العاجل، والرأي في حيز الآجل، والرأي يبقى على طول الزمان، والهوى سريع الدثور(١) والاضمحلال، والهوى في حيز الحِس، والرأي في حيّز العقل.

وقال بعضُ الحكماء: من انقاد لِهوَاه عرضته الشهوات.

وقال آخر: من جَرَى مع هواه طَلْقاً(٢)، جعل عليه للذل طرقاً.

وقال ابن دُريد: أَوصَى بعضُ الحكماء رجلاً فقال: آمرك بمجاهدة هواك؛ فإنه يقال: إنَّ الهوى مفتاحُ السيئات، وخصيم الحسنات، وكلّ أهوائك لك عدو، وأعداهما هوى يَكْتُمكَ نفسَه، وأعدى منه هوى يمثّل لك الإثم في صورةِ التقوى، ولن تفصل بين هذه الخصوم إذا تناظرت لديك إلا بجَزْمٍ لا يشوبه وَهن(٣)، وَصِدْقٍ لا يطمع فيه تكذيبٌ، ومَضَاءٍ لا يقاربُه التثبيط، وَصَبْرٍ لاَ يغتاله الجزع، وهمة لا يتقسّمها التضييع.

وقال أبو العتاهية:

لا تأمنِ الموتَ في طَرْفٍ وفي نَفَسٍ وَلـو تَمَنَّعْـتَ بِـالحجّـاب والحَـرَسِ

---

(١) الدثور: الهلاك.

(٢) طلقاً: شوطاً.

(٣) الوهن: الضعف.

فمــا تــزالُ سِهَــامُ المــوتِ نــافـذةً ... فـي جَنْـبِ مُـدَّرِعٍ منـا وَمُتَّـرِسِ[١]
مـا بـالُ دِينِـكَ تـرضـى أن تُـدنّسَـهُ ... وَثوبُكَ الدهرَ مَغسولٌ من الدَّنَسِ[٢]
تَرْجـو النجـاةَ ولـم تسلُـكْ مسَالِكَهـا ... إنَّ السفينـةَ لا تَجْـرِي علـى يَبَـسِ

[من البدائه في مجالس الخلفاء]

خرج شبيب بن شيبة من دارِ المهدي، فقيل له: كيف رأيتَ الناس؟ قال: رأيتُ الداخل راجياً والخارجَ راضياً. نحا إلى هذا المعنى ربيعةُ الرقي[٣] فقال:

قَـدْ بَسَـطَ المهـديّ كـفَّ النـدى ... للنــاس والعفــو عــن الظــالِــمِ
فَــالــراحــلُ الصــادِر عــن بــابــهِ ... مُبشـــــرٌ للـــــواردِ القــــادمِ

وقال مسلم بن الوليد في نحو هذا المعنى:

جَزيْتَ ابنَ منصورٍ على نَأْيِ دارِهِ ... جَـزاءَ مُقِـرٍّ بـالصنيعـة شـاكِـرِ
فَتًى راغـمَ الأموالَ واصطنع العُـلاَ ... وَأرَّثَ نيـرانَ النـدى للعشـائـرِ[٤]
[تَرى الناسَ أَرسالاً على بابِ دارِهِ ... [عَلَى آمِنٍ يَحْدُو بِهِ حملُ صادِرِ]

وقال المتنبي:[٥]

وَألقَـى الفـمَ الضحَّـاكَ أَعْلَـمُ أنَّـهُ ... قَرِيبٌ بذِي الكفِّ المُفَدَّاةِ عَهْدُهُ[٦]

أخوال السفاح

دخل خالد بن صفوان على أبي العباس السفاح، وعنده أخواله من بني الحارث بن

---

(١) المُدَّرِعُ: لابس الدرع، وأصله مُتدرع. والمُتَّرس: لابس الترس.
(٢) الدَّنَسُ: الوسخ.
(٣) هو أبو شبابة، وقيل: أبو ثابت، ربيعة بن ثابت الأنصاري الرقيّ: شاعر مقدم غَزِل، كان ينزل الرقّة، وبها ولد ونشأ. أشخصه المهدي إليه فمدحه بعدة قصائد وأثابه عليها مالاً كثيراً. وكان الرشيد العباسي يأنس به، وله معه مُلَحٌ كثيرة. توفي سنة ١٩٨ هـ/ ٨١٣ م. (ابن المعتز، طبقات الشعراء: ١٥٧؛ الأصفهاني، الأغاني: ١٦/ ١٨٩؛ البغدادي، خزانة الأدب: ٦/ ٣٠١).
(٤) أَرثَّ النار: أوقدها.
(٥) المتنبي، الديوان: ٢/ ٢٦١. والبيت من قصيدة يمدح بها كافوراً الإخشيدي.
(٦) يقول: إذا لقيت فماً يضحك علمت أنه قريب العهد بلثم كَفِّك لنعمة بذلتها لصاحبه، فانثنى عنك مسروراً.

كَعْب، فقال: ما تقولُ في أخوالي؟ فقال: هم هامة الشرف، وعِرْنِينُ الكَرم، وغَرسُ الجود، إنّ فيهم لخصالاً ما اجتمعَتْ في غيرهم من قومهم؛ إنهم لأطولهم أمماً، وأكرمهم شِيماً، وأطيبهم طعماً، وأوفاهم ذمماً، وأبعدهم همماً، الجمرة في الحرب، والرِّفْد في الجَدْبِ، والرأس في كل خَطْب، وغيرهم بمنزلة العَجْب[1]. فقال: وصفت أبا صفوان فأحسنْتَ، فزادَ أخوالُه في الفخر؛ فغضب أبو العباس لأعمامه، فقال: أَفخرٌ يا خالدُ؟ قال: أعلى أخوال أميرِ المؤمنين! قال: وأنتَ من أعمامه؟ قال: كيف أفاخر قوماً هم بين ناسج برد، وَسَائس قِرْد، ودابغ جِلْد، دلَّ عليهم هدهُد، وعرّقهم جُرَذ، وملكتهم أمّ ولد! فأشرق وَجْهُ أبي العباس.

قال يموت ابن المزرّع: سمعتُ خالي الجاحظ، وذكر كلام خالد هذا، فقال: والله لو فكر في جَمْعِ معايبهم، واختصار اللفظ في مَثَالبهم، بعد ذلك المدحِ المهذب سَنَةً لكان قليلاً، فكيف على بديهته لم يَرُضْ له فكراً.

هكذا أورد هذه الحكاية الصولي، وقد جاءت بأطولَ من هذا، وليس من شَرْطِنا.

لمعن بن أوس

قال معن بن أَوس الهذلي:

لَعمْـرُكَ مـا أَدْرِي وإنـي لأَوْجَـلُ ... علـى أَيِّنـا تَـأْتـي المنيـة أَوّلُ[2]
وَإني أخـوك الـدائمُ الـودِّ لـم أَحُـلْ ... إذا نـاب خطـبٌ أو نَبَـا بـك مَـنْـزِلُ
كـأنـكَ تَشْفِـي منـكَ داءَ مَسَـاءَتـي ... وَسُخْطِي، وما في رَيْبَتي ما تَعَجَّلُ
وَإنْ سُوءَتَنِي يوماً صبرتُ إلى غدِ ... لِيعقـبَ يـومـاً آخـرٌ منـك مُقْبِـلُ
سَتقطـعُ فـي الـدنيـا إذا مـا قطعتنـي ... يَمينَـكَ فـانْظُـرْ أيّ كـفّ تبـدَّلُ
وفي الناس إن رثَّتْ حِبالُك واصلٌ ... وفـي الأرض عـن دارِ القلى مُتَحَوَّلُ
إذا أنـت لـم تُنْصِفْ أخاك وَجدْتَـهُ ... على طَرَفِ الهجران إنْ كـان يَعْقِـلُ
ويَركب حدَّ السيف من أن تَضِيمَهُ ... إذا لم يكن عن شَفْرةِ السيفِ مَزْحَلُ[3]
وكنْـتُ إذا مـا صـاحـبٌ رامَ ظنتـي ... وَبَـدَّل سـوءًا بـالـذي كـان يفعـلُ

---

(١) العجب: أصل الذنب، ومؤخرة كل شيء.
(٢) الوجل: الخوف، وأوجلُ: أكثر وَجَلاً.
(٣) زَحَلَ عن مكانه زَحْلاً وَزُحولاً: زال، وتنحّى وتباعد. والمَزْحَلُ: المكان يُزْحَلُ إليه، ويقال: إن لي عنك مَزْحَلاً: أي مُتَنَدَحاً.

قَلبتُ لـه ظَهْـرَ المِجَـنّ ولـم أدُمْ عليـهِ العهـدَ إلاَّ ريثمـا أتحـوَّلُ(١)
إذا انْصَرَفَتْ نفسي عن الشيء لم تَكَدْ علـيَّ بِـوَجْـهٍ آخـرَ الـدهـرِ تُقْبِـلُ

ودخل عبد اللّه بن الزبير على معاوية بن أبي سفيان وأنشد شعر مَعْن، فقال: لمن هذا؟ فقال: لي يا أمير المؤمنين، قال: لقد شَعُرْتَ بعدي يا أبا بكر! ثم دخل عليه مَعْن فأنشد الشعر بعينه، فقال: يا أبا بكر، ألم تقل إنه شعرك؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنه ظِئري(٢) فما كان له فهو لي. أراد معاتبة معاوية فعاتبه بشعر مَعْنٍ؛ ليبلغ ما في نفسه، وليس ادِّعاؤه له على حقيقة منه.

وقال خالد بن صفوان: دخلتُ على هشام بن عبد الملك، فاستَدْنَاني حتى كنت أقربَ الناس إليه، ثم تنفّس الصعداء، وقال: يا خالد، ربَّ خالدٍ جلس مجلسك هو أشهى إليّ حديثاً منك! فعلمت أنه أراد خالداً القَسْري، فقلت: أفلا تعيده يا أمير المؤمنين؟ فقال: هيهات؟ إن خالداً أدلّ فأملَّ، وأوجف فأعجف، ولم يَدَعْ لراجع مرجعاً. وتمثل بهذا البيت:

إذا انْصرَفَتْ نَفْسي عنِ الشيءِ لم تَكَد عليـه بَـوَجْـهٍ آخـرَ الـدهـرِ تُقْبِـلُ

وروى أبو حاتم عن أبي عبيدة قال: كان عبد الملك بن مروان في سَمَرِه مع أهل بيتِه وولده وخاصّته، فقال لهم: لِيَقُلْ كلُّ واحدٍ منكم أحسن ما قيل من الشعر، وليفضّل [مَنْ] رأى تفضيله، فأنشدوا وفضّلوا، فقال بعضهم: [امْرُؤ القيس، وقال بعضهم:] النابغة، وقال بعضهم: الأعشى، فلما فرغوا قال: أشعرُ الناس والله من هؤلاء الذي يقول، وأنشد بعض هذه الأبيات التي أنشد، وهي لمعن بن أوس:

وَذي رَحِـمٍ قَلَّمْـتُ أظفـارَ ضِغْنِـهِ بِحِلْمـيَ عنـه وَهـو لَيْـسَ لَـهُ حِلْـمُ
يُحـاوِل رغمـي لا يحـاولِ غَيْـرهُ وَكالموتِ عندي أن يَحُلّ به الرغْمُ
فإنْ أعْفُ عنه أُغْضِ عيناً على قَذًى وَلَيْـسَ بـالصَّفْـحِ عـن ذنبـهِ عِلْـمُ
وَإن أنتصـرْ منـه أَكُـنْ مثـلَ رائـشٍ سِهـامَ عَدوّ يُستهاضُ بها العَظْـمُ(٣)
صَبَـرْتُ علـى مـا كـان بينـي وَبيْنَـهُ ومَا يستوي حَرْبُ الأقاربِ والسّلْمُ
وَبـادرتُ منـه النـأيَ والمَـرْءُ قـادرٌ على سَهْمِهِ ما كان في كفّه السهمُ

---

(١) المِجَنُّ: الترس، وقلب له ظهر المجن: عاداه بعد مَودّة.
(٢) ظئر الرجل: ابنه من الرضاع.
(٣) راش السهم: ركّب عليه الريش. ويُسْتَهاضُ: يُكْسَرُ.

وَيشتمُ عرضي في المغيَّبِ جَاهداً … وليس لَهُ عندي هَوَانٌ ولا شَتْمُ[1]
إذا سُمْتُهُ وَصْلَ القرابةِ سامني … قَطيعتَها، تلك السفاهةُ والإثمُ
فإن أدْعُه للنَّصْفِ يَأْبَ إجابتي … وَيَدْعُو لِحُكْمِ جائرٍ غَيْرُهُ الحُكْمُ[2]
فَلولا اتقاءُ اللَّهِ والرَّحِم التي … رِعَايَتُها حقٌّ وَتعطيلها ظُلْمُ
إذا لَعَلاَهُ بارقٌ وَخَطَمْتُهُ … بِوَسْمِ شَنَارٍ لا يُشَابِهُهُ وَسْمُ[3]
وَيسعى إذا أبني لِيَهْدِمَ صالِحِي … وَلَيْسَ الذي يبني كَمَنْ شَانُه الهَدْمُ
يَودُّ لَوَ انّي مُعْدِمٌ ذو خَصَاصةٍ … وأكرهُ جَهْدِي أنْ يُخالِطَه العُدْمُ[4]
وَيَعْتَدُّ غُنْماً في الحوادث نَكبتِي … وما إنْ له فيها سَنَاءٌ ولا غُنْمُ
فما زِلْتُ في لِيني له وَتَعطُّفي … عليهِ كَمَا تَحْنُو على الوَلَدِ الأمُّ
وَخَفْضي له مِنّي الجناحَ تألّفاً … لِتُدْنِيَهُ مني القرابةُ والرَّحْمُ
وَصَبْرِي على أشياءَ منه تَريبني … وَكَظْمِي عَنْ غَيْظي وقد ينفعُ الكَظْمُ
لأَسْتَلَّ منهُ الضِّغْنَ حتى اسْتَلَلْتُهُ … وَقَدْ كان ذا ضِغْنٍ يصوبه الحَزْمُ[5]
رأيتُ انْثِلاماً بيننا فَرقَعْتُهُ … بِرفقيَ أحياناً وقد يُرْقَع الثَّلْمُ[6]
وأبرأتُ غِلَّ الصدرِ منه تَوسُّعاً … بحلمي كما يُشْفَى بِالادْوِيَةِ الكَلْمُ
فَأطفأتُ نارَ الحربِ بيني وَبَيْنَهُ … فأصبحَ بعدَ الحربِ وَهْوَ لنا سَلْمُ

[من رسائل أبي الفضل بن العميد]

من ابن العميد إلى أبي عبد اللّه الطبري

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي عبد اللّه الطبري:

وصل كتابُك فصادفني قريبَ عهد بانطلاق، من عَنَتِ الفراق، وأوقفني مُنْتَريحَ

---

(١) في المغيب: أي عندما أكون غائباً عنه.
(٢) للنصف: أي للعدل والنصفة. ويأبى إجابتي: يرفضها ويمتنع عنها.
(٣) خطمه: ضرب خَطْمَه (أنفه)، وخطم أنْف فلان: ألصق به عاراً. والوسم: العلامة. والشنار: الأمر المشهور بالشنعة والقبح.
(٤) الخصاصة: الفقر والحاجة وسوء الحال.
(٥) استل الشيء: سَلَّهُ: نزعه. والضغن: الحقد الشديد.
(٦) الثلم: الكَسْرُ أو الشقّ.

الأعضاء والجوانح من حر الاشتياق، فإنّ الدهرَ جرى على حكمِه المألوف في تحويلِ الأحوال، ومضى على رَسْمِه المعروف في تبديل الأبدال، وأعتقني من مخالَّتك عِتقاً لا تستحقُّ به ولاء، وأبرأني من عهدتك براءة لا تستوجِبُ معها دَرَكا ولا استثناء، ونزع من عُنُقي رِبقَةَ الذلّ في إخائك بِيَدَيْ جفائك، ورشّ على ما كان يحتدم في ضميري من نيرانِ الشوق ماء السلوّ، وشنَّ على ما كان يلتهبُ في صَدْري من الوَجْد ماءَ اليأس، ومسح أعشار قلبي فَلأَمَ فُطُورَها بجميل الصبر[١]، وَشَعَبَ أفلاذَ كبدي فلاحم صُدُوعَها بِحُسْن العزاءِ، وَتَغلْغَل في مَسالِك أنفاسي فعوض نفسي من النزاع إليك نُزُوعاً عنك[٢]، ومن الذهاب فيك رجوعاً دونك، وكشفَ عن عيني ضَبَابات ما ألقاهُ الهوَى على بصري، ورفع عنها غيابات ما سَدَلَه الشك دُون نظري، حتى حدَر النقاب عن صفحاتِ شِيَمك، وَسفَر عن وجوه خَليقتِك؛ فلم أجدْ إلاّ منكراً، ولم ألق إلا مستكبراً، فوليتُ منها فِراراً، ومُلِئتُ رُعْباً، فاذهب فقد ألقيت حَبْلَكَ على غاربك، ورددتُ إليك ذميماً عهدك.

وفي فصل من هذه الرسالة: وأما عُذْرُكَ الذي رُمْتَ بَسْطَه فانقبض، وَحاولْتَ تمهيدَه وتقريرَه فاستَوْفَزَ وأعرض، ورفعتَ بِضَبْعِه فانخفض، فقد ورد ولقيته بوجهٍ يؤثر قُبولَهُ على رَدِّه، وتزكيته على جرحه، فلم يفِ بما بذلته لك من نفسه، ولم يقم عند ظنّك به، أنَّى وقد غطّى التذمُّمُ وَجْهَه، ولفَّ الحياء رَأْسَهُ، وغضّ الخجلُ طَرْفَه؛ فلم تتمكن من استكشافه، وولّى فلم تقدر على إيقافه، ومضى يعثرُ في فضولِ ما يغشاه من كرب حتى سقط، فقلنا: لليدِ والفم؛ ثم أمر بمطالعة ما صحبه فلم أجده إلاّ تأبَّط شراً، أو تَحَمَّلَ وِزْراً.

وقوله هذا محلول من عقد نظمه إذ يقول:[٣]

إقْرَ السلامَ على الأميرِ وَقُلْ لهُ ... قَدْكَ اتَّئِبْ أَرْبَيْتَ في الغُلَوَاءِ[٤]

---

(١) لأم: ضمَّ وجمع ولحم. والفطور: جمع فطر، وهو الشق.

(٢) النزاع: الشوق، والنزوع: الإنصراف.

(٣) القصيدة في «يتيمة الدهر» للثعالبي: ٣/ ٢٠٣.

(٤) في اليتيمة:

أَبلغْ رِسالتي الشَّريفَ وَقُلْ لَهُ ... قَدْكَ اتَّئِبْ أَرْبَيْتَ في الغُلَوَاءِ

وفي البيت تضمين لصدر بيت لأبي تمام هو مطلع قصيدته التي يمدح بها محمد بن حسّان الضبي، وتمامه:

قَدْكَ اتَّئِبْ أَرْبَيْتَ في الغُلَواءِ ... كَمْ تَعْذِلُونَ وَأَنْتُمُ سُجَرَائي

(أبو تمام، الديوان: ١/ ٨٦).

أنتَ الذي شَتَّتَ شَمْلَ مَسرَّتي ... وَقَدَحْتَ نارَ الشوقِ في أحشائي
وَرضيتَ بالثمنِ اليسيرِ مَعُوضةً ... منّي، فهلاّ بِعْتَني بِغَلاءِ
وسألتُكَ العُتْبَى فلم تَرَني لها ... أهلاً، فَجُدْتَ بِعذْرَةٍ شَوْهاءِ[١]
وَرَدَتْ مُموّهةً فلم يَرفَعْ لها ... طَرْفٌ، ولم تُرْزَقْ من الإصغاءِ
وَأَعارَ مَنْطِقها التَّذمُّمَ سَكْتةً ... فَتراجعَتْ تمشي على استِحْيَاءِ
لم تُشْفَ من كَمدٍ، وَلم تَبردْ على ... كَبِدٍ، وَلم تَمْسَحْ جَوانبَ داءِ[٢]
دَاوتْ جَوًى بِجَوًى وَليْسَ بِحَازمٍ ... مَنْ يَستكفُ النارَ بالحَلْفَاءِ[٣]
من يُشْفَ مِنْ كَمدٍ بآخر مثلِهِ ... أَثَرَتْ جَوارِحُهُ على الأدواءِ[٤]

وله إليه رسالة: أخاطب الشيخ سيدي ـ أطال الله بقاءه ـ مخاطبةَ مُحْرَجٍ يروم الترويحَ عن قَلْبِه؛ ويريغ التفريجَ[٥] من كَرْبِهِ؛ فأكاتبهُ مكاتبةَ مصدور، يريدُ أن ينفثَ بعضَ ما به، ويخفّفَ الشكوى من أوصابه، ولو بَقِيَتْ في التصبّر بقيةٌ لسكتّ، ولو وجدت في أثناء وجدي مَخرجة يتحلّلها تَجلُّدٌ لأمسكت؛ فقديماً لَبسْتُ الصديقَ على عِلاَّته، وَصفَحْتُ له عن هَناته، ولكني مغلوب على العزاء، مأخوذٌ عن عادتي في الإغضاء، فقد سلّ من جفائك ما ترك احتمالي جفاءً، وذهب في نفسي من ظلمك ما أنزف حلمي فجعله هباء، وتوالى عليّ من قُبْحِ فعلِك في هجر يستمر على نَسَق، وصدّ مطَّرِدٍ مُتَّسِق، ما لو فُضّ على الوَرَى، وأُفيض على البَشَر لامتلأتْ منه صُدورُهم، فهل أقدرُ على ألاّ أقول، وهل نَكِلُكَ إلى مراعاتك، وهل نشكوك إلى الدهرِ حليفك على الإضرار، وعقيدك على الإفساد[٦]، وأشكوه إليك، فإنكما وإن كنتما في قطيعة الصديق رَضِيعَيْ لِبَان، وفي استيطاء مركب العقوق شريكي عنان، فإنه قاصرٌ عنك في دقائقَ مخترعة، أنتَ فيها نسيجُ وَحْدِك، وقاعد عما تقوم به من لطائف مبتدعة، أنْتَ فيها وحيدُ عصرك، أنتما متفقان في ظاهرٍ يَسُرُّ الناظرَ، وباطنٍ

(١) في اليتيمة: «وَجِئْتَ بِغدْرَةِ الشَّوْهَاءِ». والعتبى: الاسترضاء. والعذرة: الاعتذار.
(٢) الكمد: الحزن والغيظ.
(٣) يستكف: يمنع. والحلفاء: الحَلَفُ (للواحدة والجمع) وواحدته أيضاً: حَلْفَاةٌ. والحلفاء: الأَمَةُ الصخَّابة.
(٤) في «اليتيمة»: «أثرت جوانحه».
(٥) يروم ويريغ، كلاهما بمعنى: يطلب.
(٦) عقيدك: معاهدك ومعاقدك، يريد أنَّهما مُتفقان.

يسوءُ الخابر، وفي تبديل الأبدال، والتحول من حالٍ إلى حال، وفي بثِّ حبائلِ الزورِ، ونَصْبِ أَشراك الغرور، وفي خلف الموعود، والرجوع في الموهوب، وفي فظاعة اهتضام ما يعير، وشناعة ارتجاع ما يمنح، وقَصْدِ مُشَارَّة الأحرار(١)، والتحامل عند ذوي الأخطار، وفي تكذيب الظنون، والميلِ عن النباهة للخمول، إلى كثير من شِيَمكُما التى أسندتُما إليها، وَسُنَّتكُما التي تعاقدتُما عليها، فأين هو ممن لا يجاري فيه نقض عُرى العهود، ونكث قُوَى العقود؟ وأنى هو عن النميمة والغيبة، ومشي الضرَاء في الغِيلة(٢)، والتنفق بالنفاق في الحيلة. وأَين هُو ممن ادَّعى ضروبَ الباطل، والتحلّي بما هو منه عاطل، وتنقّص العلماء والأفاضل؛ هذا إلى كثير من مَسَاوٍ منثورة أنت ناظِمُها، ومَخَازٍ متفرقة أنت جامِعُها. أنت أيّدك الله إنْ سوّيتَه بنفسك، ووزنته بِوَزْنِك، أظلَمُ منه لذويه، وأعق منه لبنيه؛ وهَبْك على الجملة قد زعمت - مفترياً عليه - أنه أشدُّ منك قدرةً، وأعظمُ بَسْطَةً، وأتمّ نصرةً، وأطلق يداً في الإساءة، وأمضى في كل نكاية شباة(٣)، وأحدّ في كل عاملة شَدَاة(٤)، وأعظم في كل مكروه مُتَغَلْغَلاً، وآلف إلى كل محذور متوصلاً، إن الدهر الذي ليس بمُعتِب من يجزعُ، وإن العُتْبَى منك مأمولة، ومن جهتك مرقوبة، وهيهات! فهل توهَّم أنه لو كان ذا روح وجثمان، مصوراً في صورةِ إنسان، ثم كاتبتهُ أستعطفه على الصلة، وأستعفيه من الهجْرِ، وأذكره من المودة، وأستميل به إلى رعايةِ المِقَة، وأستعد على ما أشاعه الفراقُ في نفسي من اللوْعة، وأَضْرَمه بالبعادِ في صدري من الحرقة، كان يَستَحْسِنُ ما استَحْسَنْته من الاضطراب عند جوابي، ويستجيز ما استَجَزْتهُ من الاستخفافِ بكتابي.

وله فصل في هذه الرسالة، وقد ذكر دعواه في العلم:

وَهبْكَ أفلاطون نفسه فأينَ ما سَنَنْتَهُ من السياسةِ، فقد قرأناه، أتجدُ فيه إرشاداً إلى قطيعة صديق، وأحسبك أرسطاطاليس بعَيْنِه، أين ما رَسَمْتَهُ من الأخلاق؟ فقد رأيناه فلم نَرَفيهِ هدايةً إلى شيء من العُقُوق، وأما الهندسة فإنها باحثةٌ عن المقادير، ولن يعرفها إلا مَنْ

---

(١) المُشارَّةُ: المخاصمة.

(٢) مشى فلان الضراء: أي مشى مستخفياً فيما يواريه من شجر ونحوه، ويقال ذلك لمن يوصف بأنه يختل ويخدع. والغيلة: يقال: أضرَّت الغيلة بولد فلان: إذا أرضعته وهي حامل، أو أُتيتْ وهي مُرْضِع.

(٣) شباة السنان: حَدُّهُ.

(٤) الشداة: بقية القوة، وَحَدُّ كلّ شيء.

جهل مقدارَ نفسه، وقَدرَ الحقّ عليه وله؛ بل لك في رؤساء الآداب العربية [مِنَّا ريحٌ ومضطرب، ولسنا نُشَاحّك[١]، لكن أتحب أن تتحقّق بالغريب من القول، دون الغريب] من الفعل؟ وقد أغربت في الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدي للرجوع عنه. وأما النحوُ فلن تُدْفَعَ عن حذق فيه، وبَصَرٍ به، وقد اختصرتَه أوْجزَ اختصار، وسهلت سبيلَ تعليمه على من يجعلك قُدْوة، ويرضى بك أسوةً، فقلت: الغدرُ والباطلُ وما جرى مجراهما مرفوعٌ، والصدق والحق وما صَاحَبَهُما مخفوض، وقد نُصِبَ الصديقُ عندك، ولكن غرضاً يُرْشَقُ بسهام الغَيْبةِ، وعَلَما يقصد بالوقيعة، ولست بالعروضي ذي اللّهجةِ فأعرف قَدْرَ حذقك فيه، إلا أني لا أراك تتعرَّضُ لكاملٍ فيه، ولا وافرٍ، وليتك سبحتَ في بحر المجتثّ حتى تخرج منه إلى شَطّ المتقارب.

وفي فصل منها أيضاً:

وهَبْنِي سكتُّ لدعواك سُكوتَ متعجّب، ورضيتُ رِضَا مُتسخّط، أيَرْضى الفضلُ اجتذابَك بأهدابه، من يدي أهليه وأصحابه، وأحسبك لم تزاحِمْ خِطابَه، حتى عرفت ذلة نَفَرِه وقلة بصَرِه، فاصدقني هل أنشدك:

لَــوْ بِــأَبَــانَيْــن جــاءَ يَخْطِبُهــا ضَــرِّج مــا أَنْــفُ خَــاطِــبٍ بــدَمِ[٢]

وليت شعري بأي حلى تصدّيت لَهُ، وأنت لو تتَوَّجْتَ بالثريّا، وقلدت قِلادة الفلك، وَتَمنْطَقْتَ بمنطقة الجوزاء، وَتوشَّحْتَ بالمجرّة لم تكن إلا عُطُلاً، ولو توشَّحْتَ بأنوارِ الربيع الزاهر، وسرّجت جبينك غُرَّةَ البدرِ الباهرِ، ما كنتَ إلا عُطُلا، سيما مع قلّة وفائك، وضَعْفِ إخائك، وظلمة ما تتصرّف فيه من خِصالك، وتراكم الدُّجَى على ضلالِك، وقد نَدِمْتُ على ما أعرتك من ودِّي، ولكن أي ساعةِ مَنْدَم، بعد إفناء الزمان في ابتلائك، وَتَصفُّحي حالاتِ الدهر في اختيارك، وبعد تضييع ما غَرَسْتهُ، ونقض ما أسَّسْتهُ، فإن الودادَ غرسٌ إذا لم يوافق ثرى ثريًّا، وجوًّا غَذِيًّا[٣]، وماء رَوِيًّا، لم يُرْجَ زكاؤُه، ولم يجر نماؤُه، ولم تفتّح أزهارُه،

---

(١) تَشَاحُّوا في الأمر وعليه: تسابقوا إليه متنافسين فيه، وتشاحَّ الخصمان: بدا حرصهما على الغلبة.

(٢) البيت لمهلهل بن ربيعة، وقبل هذا البيت قوله:

أنْكَحَهَــا فَقْــدُهَــا الأراقِــمَ فــي جَنْــبٍ وكــانَ الخِبــاءُ مِــنْ أَدَمِ

(لويس شيخو، شعراء النصرانية: ١/١٧٩).

وأبانان: جبلان في نواحي البحرين.

(٣) جَوًّا غذياً: طيب الهواء.

ولم تجن ثمارُه، وليت شعري، كيف ملك الضلالُ قِيادي حتى أشكل عليَّ ما يحتاجُ إليه الممزوجان، ولا يستغنى عنه المتآلفان، وهما ممازجة طَبْع، وموافقة شَكْلٍ وخَلْق، ومطابقة خِيم[1] وخلُق، وما وصلتنا حالٌ تجمعنا على ائتلاف، وَحَمَتْنَا من اختلاف، ونحن في طرفي ضدَّين، وبين أمرين متباعدين، وإذا حصَّلت الأمرَ وجدتُ أقل ما بيننا من البعاد، أكثر مما بين الوِهاد والنِّجَادِ[2]، وأبعد مما بين البياض والسوادِ، وأيْسَر ما بيننا من النفار أقلّ [ما بيننا من التّضار، وأكثر ما] بين الليل والنهار، والإعلان والإسرار.

[حسن التأتي للأمور]

قال أسد بن عبد الله لأبي جعفر المنصور: يا أميرَ المؤمنين، فَرْطُ الخُيَلَاء، وهيبةُ العزة، وظلُّ الخلافة، يكفُّ عن الطلب من أمير المؤمنين إلاّ عن إذْنِه، فقال له: قل، فقد والله أصبتَ مَسْلَكَ الطلب، فسأل حوائجَ كثيرةً قُضِيَتْ له.

وقال عمرو بن نهيك لأبي جعفر المنصور: يا أميرَ المؤمنين، قد حضر خَدَمك الإعظام والهيبة عن ابتدائك بطلباتهم، وما عاقبةُ هذين لهم عندك؟ قال: عطاء يزيدهم حياءً، وإكرامٌ يكسوهم هيبةَ الأبد.

قال عيسى بن علي: ما زال المنصور يشاورُنا في أمره حتى قال إبراهيم بن هرمَة فيه:

إذا ما أراد الأمر ناجَى ضَمِيرَهُ ... فَناجَى ضميراً غير مُختلفِ العَقْلِ
وَلم يُشْرِكِ الأدنين في جُلِّ أمرِهِ ... إذا اختلفتْ بِالأضعفينِ قُوَى الحَبْلِ

فِقَر في ذكر المَشُورة

المشورةُ لِقَاحُ العقل، ورائدُ الصواب، وحَزْمُ التدبير. المشاورة قبل المساوَرة[3]. والمشورةُ عينُ الهداية.

ابن المعتز: من رَضِي بحالهِ استراح، والمستشِيرُ على طرف النجاح.

وله: مَن أكثرَ المشورة لم يعدم في الصواب مادحاً، وفي الخطإِ عاذراً.

---

(١) الخيم: الطبع والسجية.
(٢) الوهاد: جمع وهدة، وهي ما انخفض من الأرض. والنجاد: جمع نجد، وهو ما ارتفع من الأرض.
(٣) المُسَاوَرَةُ: المواثبة، ويقال: ساورته الهموم والهواجس والأفكار: صارعته.

بشار بن برد: المشاور بين إحدى الحسنيين: صواب يفوزُ بثمرته أو خطأ يُشارك في مكروهه، وقال:[1]

إذا بلغَ الرأي المشورةَ فاستعِنْ ... بعَزْمِ نَصيحٍ أو مَشُورةِ حَازمِ[2]
وَلا تَحْسَبِ الشُّورَى عليكَ غَضاضةً ... فإنّ الخَوَافِي قوةٌ للقوادمِ[3]
ومَا خير كفٌ أمسكَ الغُلُّ أُخْتَها ... ومَا خَيْرُ سَيْفٍ لم يُؤيَّدْ بقائمِ[4]
وَخَلِّ الهُوَيْنَى لِلضَّعيفِ ولا تَكُنْ ... نَؤُوما فإن الحُرَّ ليس بنائمِ[5]
وَأدْنِ إلى القربِ المُقرَّبَ نَفْسَهُ ... وَلا تُشْهِد النّجوى امرأً غيرَ كاتمِ[6]
فَإنّك لا تَسْتَطْرِدُ الغمّ بِالمُنَى ... وَلا تَبْلُغُ العليا بِغَيْرِ المكارمِ[7]

دخل الهذيل بن زفر على يزيد بن المهلب في حمالات لَزِمَتْه فقال: أيها الأمير، قد عَظُمَ شأنك أن يُسْتعانَ بك أو يستعانَ عليك، ولستَ تفعل شيئاً من المعروف إلا وأنتَ أكبرُ منه، وليس العجبُ من أن تفعل، بل العجب من ألاَّ تفعل؛ فقضاها.

[تأريخ الكتب والرسائل]

استخلص القاضي أبو خليفة الفضلُ بن حباب الجمحيُّ رجلاً لِلأُنْس به، فقال: أُغَيِّر ثيابي وأعود، قال: ما أفعل، إيناسك وَعْدٌ، وإيحاشك نَقْدٌ، وكان أبو خليفة من جلَّةِ المحدثين، وله حَلاوةُ معنى، وحسن عبارة، وبلاغةُ لفظ. قال الصولي: كاتبتُ أبا خليفة في أمور أرادها فأغفلتُ التاريخَ منها في كتابين، فكتب إليّ بعد نفوذِ الثاني: وصل كتابك

---

(١) بشار بن برد، الديوان: ٤/ ١٧٥. والأبيات من قصيدة قالها في أبي مسلم الخراساني، وقيل: في الخليفة المنصور، لكنه غيَّر فيها خشية الملاحقة والقتل.
(٢) «إذا بلغ الرأي المشورة» أي: إذا عرض له من الأشكال ما يدعو إلى المشورة. وفي البيت إشارة إلى مشاورة المنصور إسحاق بن مسلم العقيلي بشأن أبي مسلم الخراساني حين هَمَّ بقتله.
(٣) يريد أنّ المشورة تقوي الرأي، مثلما تُقوِّي خوافي الطير قوادمه.
(٤) الغلّ: القيد. وقائم السيف: مقبضه.
(٥) في الديوان: «فإنّ الحَزْمَ لَيْسَ بنائمِ».
(٦) في الديوان:
وَأدْنِ على القُرْبَى المُقَرِّبَ نَفْسَهُ ... وَلا تُشْهِدِ الشُّورَى امْرءًا غَيْرَ كاتمِ
(٧) العلياء (بالمد): اسم للعلوّ، وقصره للضرورة.

ـ أعزَّك الله ـ مُبْهَم الأوان، مُظْلم المكان، فأدَّى خيراً ما القرب فيه بأولى من البُعْد؛ فإذا كتبت ـ أكرمك الله تعالى! ـ فلتكن كتبُك مرسومةً بتاريخ؛ لأعرِف أدنى آثارك، وأقرب أخبارك، إن شاء الله تعالى.

وقال بعض الكتاب: التاريخ عمودُ اليقين، ونَافي الشك، به تُعْرَف الحقوق، وتُحفَظُ العهود.

وقال رجل لأبي خليفة سَلَّمَ عليه: ما أحسبك تعرف نسبي، فقال: وجهك يدلُّ على نسبك، والإكرامُ يمنع من مسألتك، فأَوْجِدْ لي السبيل إلى معرفتك.

وسأل أبو جعفر المنصور قبل أن تُفْضِيَ إليه الخلافةُ شبيبَ بن شيبة، فانتسب له فعرفه أبو جعفر، فأثنى عليه وعلى قومه، فقال له شبيب: بأبي أنت وأمي! أنا أحبّ المعرفة وأجِلّك عن المسألة، فتبسَّم أبو جعفر وقال: لطف أهل العراق! أنا عبد الله بن محمد [بن علي] بن عبد الله بن العباس، فقال: بأبي أنت وأمي! ما أشبهك بنسبك؛ وأدلّك على منصبك.

فِقر وأمثال، يتداولها العمال

الولاية حلوة الرضاع مرَّة الفطام. غُبَارُ العمل خيرٌ من زعفران العطلة.

ابن الزيات: الإرجاف[1] مقدمة السكون.

عبد الله بن يحيى: الإرجاف رائد الفتنة.

حامد بن العباس: غرسُ البلوى، يثمر الشكوى.

أبو محمد المهلبي: التصرف أعلى وأثنى، والتعطل أَصْفَى وأعفى.

أبو القاسم الصاحب: وَعْدُ الكريم، أَلْزَمُ من دَيْنِ الغريم.

ابن المعتز: ذلُّ العَزْلِ يضحك من تِيه الولاية. وقال:[2]

كَمْ تَائِهٍ بِوِلايَةٍ وَبِعَزْلِهِ رَكْضَ البَرِيدُ
سُكْرُ الوِلايَةِ طَيِّبٌ وَخُمَارُهَا صَعْبٌ شَدِيدُ[3]

(١) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب.

(٢) ابن المعتز، الديوان: ص ٢٣٧.

(٣) الخُمَارُ: صداع الخمرة. وقد جاء حرف الرويّ في الديوان ساكناً، وكلاهما صحيح.

وقال: من ولي ولاية فَتَاهَ فيها فأخبره أنَّ قدره دونها. العزل طلاقُ الرجال وحيض العمال. وأنشدوا:

وَقَالُوا العَزْلُ للعمالِ حَيْضٌ لَحاهُ اللَّه من حَيْضٍ بَغيضِ[١]
فَإنْ يَكُ هكذا فَأَبُو عَلِيٍّ من اللائي يَئِسْنَ من المَحيضِ[٢]

منصور الفقيه:

يا مَنْ تولَّى فأبدى لنا الجفا وتَبدَّلْ
أَلَيْسَ مِنْكَ سَمِعْنَا مَنْ لَمْ يَمُتْ فَسَيُعْزَلْ

وقال أيضاً:

إذا عُزِل المرءُ واصَلْتُهُ وَعِنْدَ الولايةِ أَسْتَكْبِرُ
لأنَّ المُولّى لهُ نَخْوَةٌ وَنَفْسي على الذلِّ لا تَصْبِرُ

[من ترجمة منصور الفقيه، وأخباره]

ومنصور هذا هو منصور بن إسماعيل بن عيسى بن عمر التيمي[٣]، وكان يتفقّه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وهو حلو المقطعات، لا تزالُ تندر له الأبيات مما يُسْتَطْرَفُ معناه، وَيُسْتَحْلَى مغزاه، [ويبقى ثَنَاه]، وهو القائل لما كفَّ بصره:

مَنْ قال ماتَ ولم يَستَوْفِ مُدّتهُ لِعظْمِ نَازلةٍ نَالَتْهُ مَعْذُورُ
ولَيْسَ في الحكم أن يحيا فتًى بَلغَتْ بهِ نِهايةَ ما يَخْشَى المَقاديرُ
فَقُلْ له غَيْرَ مُرْتَابٍ بِغَفْلَتِه أو سوءِ مذهبِه: قَدْ عاشَ مَنْصُورُ

وعَتَبَ على بعض الأشراف، وكانت أمُّه أمةً قيمتها ثمانية عشر ديناراً، فقال:

مَنْ فَاتَنِي بأبيهِ وَلَم يَفُتْنِي بِأُمِّهْ

---

(١) لحاه الله: قَبَّحهُ.

(٢) «اللائي يئسن من المحيض»: هو من قوله تعالى: ﴿واللائي يَئِسْنَ من المحيضِ من نِسَائِكُم إن ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهنَّ ثلاثةُ أَشْهُرٍ﴾ (سورة الطلاق، آية ٤).

(٣) في نسخة: «التميمي».

وَرام شَتْمِي ظُلْماً سَكَتُّ عن نِصْفِ شَتْمِهْ

وقال:

لو قيلَ لي خُذْ أماناً مِنْ حادثِ الأزمانِ
لما أخذْتُ أماناً إلاّ مِنَ الإخْوَانِ

وقال:

رَضيتُ بما قَسَمَ اللَّهُ لي وَفَوّضْتُ أمري إلى خالِقي
كما أَحْسَنَ اللَّهُ فيما مضَى كَذلِكَ يُحْسِنُ فيما بَقِي

وقال:

لَوْ كُنْتُ منتفعاً بِعلْمـ ـمك مَعْ مواصلةِ الكَبائرْ
ما ضَرَّ شُرْبُ السمّ واعـ ـلَمْ أنّ شُرْبَ السُمِّ ضَائرْ

وقال:

إذا القُوتُ تأتّى لـ ـكَ والصحةُ والأَمْنُ
وَأَصْبَحْتَ أخا حُزْنٍ فَلا فَارقكَ الحُزْنُ

ورأيت له في أكثر النسخ ـ على أنَّ أكثر الناسِ يرويه لإبراهيم بن المهدي، وهو الصحيح ـ:

لَوْلاَ الحياءُ وأنني مَشْهُورُ وَالعَيْبُ يَعْلَقُ بالكبيرِ كَبيرُ
لَحلَلْتُ مَنْزِلَنا الذي نَحْتلّهُ وَلكانَ مَنْزِلُنا هُوَ المهجورُ

وهذا كقول الصاحب أبي القاسم:

[دَعَتْنيَ عيناكِ نحو الصبا دُعاءً يُكَرَّر في كُلِّ ساعَهْ
فَلولا وَحقّك عُذْرُ المشيبِ لَقُلْتُ لِعَيْنَيكِ سَمْعاً وطَاعَهْ

وقال ابن دريد في معنى البيت الأول فأحسن:]

إذا رأيتَ امرأً في حالِ عُسْرَتهِ مُصَافِياً لك ما في وُدِّه خَلَلُ
فلا تَمنَّ لهُ أنْ يَستفيدَ غِنًى فإنهُ بانتقالِ الحالِ يَنْتَقِلُ

[تغير الحال، بكثرة الأموال]

وكان لمحمد بن الحسن بن سَهْل صديقٌ قد نالته عُسرةٌ، ثم وُلِّيَ عملاً، فأتاه محمد قاضياً حقاً ومسلماً عليه، فرأى منه [نبوةً و] تغيّراً، فكتب إليه:

لَئن كانتِ الدنيا أَنالَتْكَ ثَرْوَةً ... وَأَصْبَحْتَ ذا يُسْرٍ، وَقد كُنْتَ ذا عُسْرِ
لَقَدْ كَشفَ الإثراءُ مِنْكَ خَلائقاً ... من اللؤمِ كانت تحتَ ثَوْبٍ من الفقرِ

وقال أبو العتاهية في عمرو بن مَسْعَدة، وكان له خِلاً قبل ارتفاعِ حاله، فلما علَتْ رُتْبَتُهُ مع المأمون تغيّر عليه:

غَنِيتَ عنِ العهدِ القديمِ غَنِيتَا ... وَضيَّعتَ عَهداً كانَ لي وَنَسيتَا
وَقد كُنْتَ لي أيام ضَعْفٍ من القوى ... أَبرّ وأَوْفَى مِنْكَ حينَ قَوِيتَا
تَجاهَلْتَ عما كُنْتَ تُحسِنُ وَصْفَهُ ... وَمُتَّ عنِ الإحسانِ حينَ حَيِيتَا

من بديع الزمان لابن المرزبان

وكتب بديعُ الزمانِ إلى أبي نصر بن المرزبان فيما ينخرطُ في هذا السلك: كنتُ ـ أطال اللهُ بقاءَ الشيخ سيدي وأدام عزَّه ـ في قديم الزمان أتمنَّى الخيرَ للإخوان، وأسألُ الله تعالى أن يُدِرّ عليهم أخْلاَفَ الرزقِ[١]، ويمد لهم أكناف العيش، ويؤتيهم أصنافَ الفَضْل، ويوطئهم أكنافَ العز، وينيلهم أعرافَ المجدِ، وقُصارايَ الآن أن أرغبَ إلى الله تعالى ألاَّ يُنِيلَهم فوق الكفاية، فشدّ ما يَطْغَونَ عند النعمة ينالونها، والدرجةِ يعلونها، وسَرُعَ ما ينظرون من عال، ويجمعون من مال، وينسون في ساعة اللدونة أوقاتَ الخشونة[٢]، وفي أزمان العذوبة أيام الصعوبة، وللكتّاب مَزِيَّةٌ في هذا الباب؛ فبينهم في الغربة أعوان كما انفرج المشط، وفي العُطْلَة إخوان كما انتظم السِّمْطُ، حتى إذا لحظهم الجدُّ لحظةَ حَمْقاء بمنشور عمالة، أَوْ صَكّ جعالةٍ؛[٣] عادَ عامر مودتِهم خراباً، وانقلب شرابُ عهدهم سَرَاباً، فما اتّسعت دُورُهُم إلا ضاقت صُدورُهم، ولا عَلت قُدُورُهم إلا خبَتْ بُدورهُم، ولا عَلتْ أمورُهم إلا أُسْبِلَتْ سُتورُهم، ولا أُوقِدَتْ نارُهم إلا انطفأ نُورهُم. ولا هَمْلَجَتْ

---

(١) الأخلاف: جمع خِلْف، وهي حلمة ضرع الناقة.
(٢) اللدونة: اللين، وقد لَدُنَ الشيء لدانةً ولدونةً: لان، والخشونة ضده.
(٣) الجَعَالةُ: ما جُعِلَ على العمل من أَجْرٍ أو رشوة، والجِعالُ والجَعَالةُ واحد.

عِتَاقهم[١] إلا فظعت أخلاقهم، ولا صلحت أحوالهم، إلا فسدت أفعالهم، ولا كَثُرَ مالهم، إلا قلَّ جمالهم، وعزَّ معروفهم، وورمَت أنوفهم[٢]، حتى إنهم ليصيرون على الإخوان مع الخطوب خَطْباً، وعلى الأحرار مع الزمان أَلْبَا. قُصَارَى أحدهم من المجد أن ينصبَ تحته تَخْتَه، وأن يوطيء استه دِسْتَه، وحَسْبُه من الشرف دارٌ يصهرجُ أرضَها[٣]، ويزخرف بعضَها، ويزوِّق سقوفها، ويعلّق شفوفها[٤]، وناهيه من الشرف أَنْ تغدو الحاشيةُ أمامَه، وتحمل الغاشية قُدَّامَهُ، وكفاه من الكرم ألفاظ فقاعية[٥]، وثيابٌ قداعية[٦]، يلبسها ملوماً، ويحشوها لُوماً، وهذه صفة أفاضلهم. ومنهم من يَـمْنَحُكَ الودَّ أيام خُشكاره حتى إذا أخصب جعل ميزانَه وكِيلَه، وأسنانه أَركِيله، وأنيسه كِيسه، وأَليفه رغيفَه، وأميَنه يمينه، ودنانيره سَميره، وصندوقه صديقَه، ومفتاحه ضجيعَه، وخاتمه خادِمَه، وجمع الدرَّة إلى الدرَّة، ووضع البَدْرَة على البدرة، فلم تقع القَطْرَة من طَرْفه، ولا الدرة من كفِّه؛ ولا يخرج ماله من عهدة خاتمه، إلى يوم مَأتمه، وهو يجمعُ لحادثِ حياتِه، أو وارثِ وفاتِه؛ يسلُكُ في الغَدْرِ كلَّ طريق، ويبيعُ بالدرهم ألْف صديق؛ وقد كان الظنُّ بصديقنا أَبي سعيد ـ أيده الله تعالى ـ أنه إذا أخصب آوانا كنفا من ظلّه، وحبَانَا من فضله، فمَنْ لنا الآن بعدله؟ إنه ـ أطال الله بقاءَه ـ حين طارت إلى أُذنه عُقاب المخاطبة بالوزير، وجلس من الديوان في صَدْر الإيوان افتضّ عُذْرة السياسة لديّ، بتعرض بعض المختلفة إلي، وجعل يعرضه للهلاك، ويتسبب إليه بمال الأتراك، وجعلت أكاتِبه مرة وأقصِدُه أخرى، وأذكّره أن الراكب ربما استنزل، والوالي ربما عُزِل، ثم يجف ريق الخجل على لسان العذر، فتبقى الحزازة في الصَّدْرِ، وما يجمعني والشيخ إن كان زَادَهُ قولي إلا علوًّا في تحكمه، [وغلوًّا في تهكمه] وجعل يمشي الجَمَزَى[٧] في ظلمه؛ [ويبرأ إليَّ من علمه]، فأقولُ ـ إذا رأيت ذِلّةَ السؤال مني وعزَّةَ الرد منه لي ـ:

قُـلْ لـي مَتَـى فَـرْزَنْـتَ سُـرْ عَـةَ مـا أَرَى يـا بَيْـذَقُ[٨]

(١) هَمْلَجَت الدابة: سارت سيراً حسناً في سرعة.
(٢) ورم أنف فلان: كناية عن إظهاره الكِبرْ.
(٣) صهرج الحوض ونحوه: طلاه بالصاروج، وهو خليط يُستعمل في طلاء الجدران والأحواض.
(٤) الشفوف: جمع شِفّ، وهو الرقيق من الثياب.
(٥) فقاعية: ذت تشدُّق.
(٦) القِدْعَةُ من الثياب: الدُّرَّاعة القصيرة لا تبلغ الساقين.
(٧) الجَمَزَى: سير قريب من العَدْو.
(٨) الفرزان: قطعة في لعبة الشطرنج (الوزير) لها أهمية كبيرة، ويقال له: «الفرز»، وفرزن: صار فرزاناً. والبيذق: قطعة أخرى هينة الشأن، واللفظان أعجميان.

وما أضيع وقتاً فيه أَضَعْتُه، وزماناً بذكره قَطَعْتُه، هلمَّ إلى الشيخ وشرعته، فقد نكأ القلب بقَرْحه، وكيف أصِفُ حالاً لا يقرع الدهر مَرْوَةَ حالِه، ولا ينتقض عُرْوَةَ إجلالِه؛ فما أولاني بأَن أذكره مُجْملاً، وأتركه مفضَّلاً، والسلام.

رسالة أخرى من البديع لبعض إخوانه

وكتب إلى بعض إخوانه في أمر رجل ولي الأشراف:

فهمت ما ذكرت ـ أطال الله بقاءك ـ من أمر فلان أنه ولي الأشراف، فإن يصدق الطير يكن إشرافاً على الهلاك، بأيدي الأتراك، فلا تَحْزُنْكَ ولايتُه فالحبل لا يبرم إلا للفتل، ولا تعجبك خلعته فالثور لا يُزَيَّنُ إلا للقتل، ولا يرعك نِفاقه فأرخص ما يكون النِّفط إذا غلا [وأَسفل ما يكون الأرنب إذا علا]، وكأنِّي به وقد شنَّ عليه جران العَوْدِ، شنَّ المطر الجَوْد، وقيد له مركبُ الفجار، من مربط النجار، وإنما جرّ له الحبل، لِيُصْفَعَ كما صُفِع من قبل، وستعودُ تلك الحالة إحالة، وينقلبُ ذلك الحبلُ حِبَالة، فلا يحسد الذئب على الإلهية يُعْطَاها طعمة، ولا يحسب الحبَّ يُنثر للعصفور نِعمة، [وهبه وُلّي إمارة البحرين أليس مرجعه ذلك العقل، ومصيره ذلك الفضل، ومنصبه ذلك الأصل. وعصارته ذلك النسل، وقعيدته تلك الأهل]، وقوله ذلك القول، وفعله ذلك الفعل، فكان ماذا؟ أليس [ما] قد سلب أكثر مما أُوتي، وما عدم أوفر مما غنم! مالك تنظرُ إلى ظاهره، وتعمى عن باطنه؟ أكان يعجبك أن تكونَ قعيدتُه في بيتك، وبغلتُه من تحتك، أم كان يسرُّك أن تكون أَخْلاَقُه في إهابك، وبوّابُه على بابك، أم كنت تودّ أن تكونَ وَجْعَاؤه[1] في إزارك، وغلمانه في دارك، أم كنتَ تَرْضَى أن تكون في مربطك أفراسُه، وعليك لباسُه، ورأسك راسُه؟ جعلت فداك! ما عندك خيرٌ مما عنده، فاشكر اللهَ وحدَه على ما آتاك، واحمَدْه على ما أعطاك، ثم أنشد:

إن الغنـيَّ هـو الـراضـي بِعِيشَتِـهِ   لا مَـنْ يَظَـلُّ علـى الأقـدارِ مُكْتَئِبـا

[في البخل]

بين سهل بن هارون والحسن بن سهل

أَلَّف سهل بن هارون كتاباً[2] يمدح فيه البخلَ ويذمُّ الجودَ؛ ليظهر قدرته على البلاغة،

---

(١) الوَجْعَاءُ: الدُّبُر.

(٢) أنظر كتاب «البخلاء» للجاحظ، ففيه رسالة سهل بن هارون في البخل، وكان وجهها إلى بني =

وأهداه للحسن بن سهل في وزارته للمأمون، فَوَقَّع عليه: لقد مدحتَ ما ذَمَّه الله، وحسَّنْتَ ما قبّح الله، وما يقوم صلاحُ لفظك بفساد معناك، وقد جعلنا نوالك عليه قُبولَ قولِكَ فيه.

وكان الحسنُ من كرماء الناس وعقلائهم. سُئل أبو العيناء عنه، فقال: كأنما خَلف آدمَ في ولده، فهو ينفع عَيْلَتهم، ويسدُّ خَلَّتهم[١]، ولقد رفع اللهُ للدنيا من شأنها، إذ جعله من سُكَّانِها.

أخذ هذا المعنى أبو العيناء من قول الشاعر:

وَكـأنَّ آدمَ كـان قَبْـلَ وَفـاتِـهِ أَوصـاكَ وَهْـوَ يَجُـودُ بالْحَـوْبَـاءِ[٢]
بِبَنِيـه أَنْ تَـرْعَـاهُـم فَـرَعَيْتَهُـمْ وَكَفَيْـتَ آدمَ عَيْلَـةَ الأبْنَـاءِ

وأخذ أبو الطيب المتنبي آخر كلام أبي العيناء فقال:[٣]

قَـدْ شَـرَّفَ اللَّـهُ دُنيـا أَنْـتَ سَـاكِنُهـا وشَـرَّفَ النـاسَ إذْ سَـوَّاكَ إنسـانـا[٤]

وقيل للحسن بن سهل: لم قيل: قال الأول، وقال الحكيم؟ قال: لأنه كلام قد مرَّ على الأسماع قَبْلَنا، فلو كان زللاً لما نُقِل إلينا مُسْتَحْسَناً.

ومن أمثال البخلاء، واحتجاجهم، وحِكمهم

أبو الأسود الدؤلي: لا تُجاوِد الله؛ فإنه أجودُ وأمجد، ولو شاء أن يوسِّع على خَلْقه حتى لا يكون فيهم محتاج فعل. وقال: لو أطَعْنا المساكين في إعطائنا إياهم كنا أسوأ حالاً منهم.

وقال الكندي: قولُ «لا» يدفع البلاء، وقول «نعم» يزيل النعم. وقال: سماع الغناء بِرْسام حادٌّ؛ لأن المرءَ يسمع فيطرب، فيسمح فيفتقر، فيغتم فيمرض فيموت. وقال لابنه: يا بني، كُنْ مع الناس كالملاعب بالقمار، إنما غَرَضُه أَخذ متاعهم، وحِفْظُ متاعه.

= عمّه من آل راهيون حين ذمُّوا مذهبه في البخل، وعابوه عليه.
(١) العَيْلَةُ: الفقر والحاجة، وكذلك الخَلَّة.
(٢) الحوباء: النفس.
(٣) المتنبي، الديوان: ١/٣٣٨. والبيت من قصيدة يمدح بها أبا سهل سعيد بن عبيدالله بن الحسن الأنطاكي.
(٤) في الديوان: «قَدْ شَرَّف الله أَرْضاً أَنْتَ سَاكِنُها».

وقال [غيره:] مَنْعُ الجميع أَرْضَى للجميع. إذا قبح السؤال حسن المنع.

وقال عليُّ بن الجهم: من وَهَب في عمله فهو مخدوع، ومن وَهَب بعد العَزْلِ فهو أحمق، ومن وَهب من جوائز سلطانه أو ميراث لم يَتْعَب فيه فهو مخذول، ومن وهب مِنْ كِيسِه وما استفاد بحيلته فهو المطبوع على قلبه، المختوم على سمعه وبصره.

ومن إنشاداتهم:

لا تَجُدْ بالعطاءِ في غيرِ حقٍّ ... ليس في مَنْعِ غير ذي الحقّ بُخْلُ

وقال كثيّر:

إذا المالُ لم يُوجِبْ عليك عَطاءَهُ ... حَقيقةُ تَقوًى أو صَديقٌ تُرافِقُهْ
مَنعْتَ، وَبَعْضُ المَنْعِ حَزْمٌ وَقُوّةٌ ... وَلم يَفْتَلِتْكَ المالَ إلا حَقائِقُهْ[(١)]

ابن المعتز:[(٢)]

يا ربَّ جُودٍ جرَّ فَقْرَ امرئٍ ... فَقامَ للنَاسِ مقامَ الذَّليلْ
فَاشْدُدْ عُرا مَالِكَ وَاستَبْقِهِ ... فَالبُخْلُ خيرٌ مِنْ سؤالِ البخيلْ[(٣)]

وكتب بعضُ البخلاء يصفُ بخيلاً: حضرت ـ أعزَّك الله ـ مائدةَ فلانٍ للقَدَر المجلوب، والحَينِ المُتَاح[(٤)]، والشقاء الغالب، فرأيت أواني تروق العيون محاسنُهَا، ويُونِقُ النفوسَ ظاهرها وباطنها، وتزهى اللحظات ببدائع غرائبها، وتستوفي الشهوات بلطائف عجائبها، مُكَلَّلَة بأَحسن من حلى الحسان ووجوهِها وزَهْر الرياض ونَورها؛ كأنَّ الشمسَ حلّت بساحتها، والبدر يغرف من جوانبها فمددت يداً عَنَّتْها الشراهة، وغلبها القدر الغالب، وجرّها الطمع الكاذب، وإذا له مع كَسْرِ كل رغيف لحظة نُكْر، ومع كل لُقْمَةٍ نَظْرة شَزْر، وفيما بين ذلك حُرَقٌ قائمة، يَصْلَى بها مَنْ حضره من الغلمان والحشم، [وقام بين يديه من الولدان] والخدم، ومع ذلك فترة المغشّى عليه من الموت؛ فلما وضعت الحربُ أوزارها

---

(١) لم يفتلتك المال: لم يأخذه منك بسرعة. والحقائق: جمع حقيقة، والمراد بها هنا مصارف المال، التي يحق صرفه فيها، مثل الإعانة على مكرمة، أو سدّ حاجة، أو تنفيس كُرْبَة.

(٢) ابن المعتز، الديوان: ص ٥٨٥.

(٣) يقول: رُبّ كرم أدّى بالإنسان إلى الفقر وأذلّه، فاحتفظ بمالك، فخير لك أن يقال إنك بخيل من أن تطلب من البخيل عطاءً.

(٤) الحَيْنُ: الهلاك. والمتاح: المُقدَّر، المُهيَّأ.

برفع الخِوَان، وتخلت عنه سماديرُ الغشيان[١]، بسط لسان جَهْلِه، ونصر ما كان من بخله، ونظر إلى مؤاكِلِه، نظر المسترقِّ له بأكلته، المالك لِخَيْطِ رقبته! يظنُّ أنه أولى من وَالديه بنسبته، وأحقّ بماله، من وَلده وعياله، يرى ذلك [فضلاً، وحقاً لازماً، وأمراً واجباً] نزل به الكتابُ والسنة، واتَّفقَ عليه قُضَاةُ الأمة، فإنْ دفعه رد حكم القضاة عليه، وإن سَمَح به فغيرُ محمود عليه.

فقر لابن المعتز وغيره في الصديق والصدق

إنما سُمِّي الصديقُ صديقاً لصدقِهِ فيما يدَّعيه لك، وسُمِّي العدو عدواً لِعَدْوِهِ عليك إذا ظفر بك. علامةُ الصديق إذا أراد القطيعةَ أن يؤخّر الجواب، ولا يبتدىء بالكتاب. لا يفسدنك الظنُّ على صديق قد أصلحك اليقين له. إذا كثرت ذنوبُ الصديقِ أنْمَحَقَ السرورُ به، وتسلطت التهم عليه. من لم يقدم الامتحانَ قبل الثقة والثقة قبل الأُنس أثمرت مودّتُه نداماً. نُصْح الصديق تأديبٌ، ونصحُ العدو تأنيب. ظاهرُ العتاب خيرٌ من باطن الحقد، ما جُمِش[٢] الودّ بمثل العتاب.

تَــرْكُ العتــابِ ـ إذا استحــقَّ أَخٌ ... مِنْــكَ العتــابَ ـ ذَرِيعــةُ الهَجْــرِ

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى صديق له من الحَبْس: نحن في الصحبة كالنَّسْرَيْن[٣]، لكني واقع، وعلى الطائر أن يغْشَى أخاه ويراجع. من قَلَّ صِدْقُهُ قد صَدِيقُه. من صدقت لهجته ظهرت حُجَّته. الصادق بين المهابة والمحبة. من عُرِف بالصدق جاز كذبه، ومن عرف بالكذب لم يَجُزْ صِدْقه، ومن تمام الصدق الإخبار بما تحتمل العقول.

[كتاب الحسن بن وَهْب إلى أبي تمام يصف بلاغته]

وكتب الحسن بن وهب إلى أبي تمام الطائي: أنت حفظك الله تَحْتَذي من البيان في النظام، مثل ما نقصد نحن في النثر من الإفهام، والفضلُ لك ـ أعزك الله ـ إذ كنت تأبه في غاية الاقتدار، على غاية الاقتصار، في منظوم الأشعار، فَتحل معتقده، وتربط متشرده،

(١) السمادير: شيء يتراءى للسكران بسبب ضعف بصره الناشيء عن السكر، وهو أيضاً ما يغشى المرء من دوارٍ أو نُعاس.
(٢) يقال: جَمَشَ نبات الأرض جَمْشاً: حصده، وجَمَشَ رأسه: حَلَقَهُ.
(٣) النسران: نجمان في السماء، يقال لأحدهما: النسر الواقع، ويقال للآخر: النسر الطائر.

وتضم أقطاره، وتجلو أنواره، وتفصله في حدوده، وتخرجه في قيوده، ثم لا تأتي به مهملاً فيستبهم، ولا مشتركاً فيلتبس، ولا متعقّداً فيطول، ولا متكلفاً فيحول؛ فهو منك كالمعجزة تضرب فيه الأمثال، وتشرح فيه المقال؛ فلا أعدمنا الله هَدَاياك واردة، وفوائدك وافدة، وهي طويلة. وفي هذه الرسالة يقول أبو تمام، وقد أَرى أنه قال ذلك في غيرها:(١)

[لَقَدْ جَلّى كِتابُكَ كُلَّ بَثٍّ جَوٍ، وأصابَ شاكلةَ الرمِيِّ(٢)
فَضَضْتُ خِتامَه فَتبلَّجَتْ لي غَرائبُهُ عنِ الخبرِ الجلِيِّ(٣)
وَكانَ أغَضَّ في عيني وأَنْدَى على كبدي مِنَ الزهرِ الْجَنِيِّ
وَأحْسَنَ موقعاً مني وَعِنْدي مِنَ البُشْرى أتتْ بعَدَ النعيِّ
كَتَبْتَ بهِ بلا لفظٍ كَريهٍ على أُذنٍ، ولا لفظٍ قَمِيِّ(٤)
وَضُمِّنَ صَدْرُهُ ما لم تُضَمَّنْ صُدورُ الغانياتِ من الحليِّ
فإن تكُ من هداياكَ الصَّفايا فَرُبَّ هَديةٍ لكَ كالهَدِيِّ(٥)
لَئِنْ غَرَّبتَها في الأرضِ بِكْراً لَقَدْ زُفّتْ إلى سَمْعٍ كَفِيِّ

وقال البحتري في الحسن بن وهب:(٦)

وإذا تألف في النَّدِيِّ كلامُهُ الْـ ـمَصْقُولُ خِلْتَ لِسانَهُ من عَضْبِهِ(٧)
وَإذا دَجَتْ أقلامه ثم انْتَحَتْ بَرَقَتْ مصابيحُ الدجا في كُتْبِهِ
باللفظِ يَقْرُبُ فَهْمُهُ في بُعْدِهِ منّا، وَيبْعُدُ نَيْلُهُ في قُرْبِهِ
حِكَمٌ فَسَائِحُها خلالَ بَنَانِهِ مُتدفّقٌ وَقليبُهَا من قَلْبِهِ(٨)

(١) أبو تمام، الديوان: ٢/ ١٩٠.
(٢) جَلّى: كشف. البَثُّ: الحزن. الجويّ: المتطاول الوقت. شاكلة: خاصرة. الرَّميُّ: المَرْمِيُّ بالسهام.
(٣) تبَلَّجت: ظهرت.
(٤) في الديوان: «ولا حظٌ قَمِيٌ». القمي: مخففة من القميء: الذليل.
(٥) الصفايا: المنتخبة. يقول: إن كانت هذه الرسالة من هداياك المختارة، فَرُبَّ هديةٍ لك في حسنها كالعروس التي تُهْدَى.
(٦) البحتري، الديوان: ٢/ ٣٣٥.
(٧) خِلْتَ: ظننت. والعضب: السيف القاطع، ومن عادتهم تشبيه اللسان بالسيف.
(٨) سائح: اسم فاعل من ساح الماء ونحوه سيحاً وسيحاناً: سال وجرى. والقليب: البئر.

كـالـروضِ مُـؤتلـقٌ بحُمْـرَةِ وَرْدِهِ وَأنيـقِ زَهْـرَتِـهِ وَخُضْـرَةِ عُشْبِـهِ[١]
أَوْ كـالبـرودِ تُخُيِّـرتْ لِمُتَـوِّجٍ مـن خـالـهِ أو وَشْيِـهِ أو عَصْبِـهِ[٢]
وَكـأنَّهـا وَالسَّمْـعُ مَعْقُـودٌ بِهـا وَجْـهُ المُحـبِّ بـدا لِعَيْـنِ مُحبّـهِ[٣]

أنشد بعضُ الكتاب هذه الأبيات أبا العباس ثعلباً، فاستعادها حتى فهمها، ثم قال: لو سمع الأوائل هذا ما فَضّلُوا عليه شعراً.

وقال بعض الكتاب:

وَرسـالـةٍ ألفـاظهـا فـي النظـمِ كـالـدّرّ النَّثِيـرْ[٤]
جَـاءتْ إليـكَ كـأنهـا الـ ـتَّـوفيـقُ فـي كـلّ الأمـورْ
بـأرقّ مـن شكـوى وأحْـ ـسـنَ مِـنْ حيـاةٍ فـي سُـرُورْ
لـوْ وَاجَهَـتْ أعمـى لأصْـ ـبَـحَ وَهْـوَ ذو طَـرْفٍ بَصِيـرْ
فَكـأنهـا أمـلٌ سَـرَى مـن بعـد يـأسٍ فـي الصُّـدورْ
أو كـالفقيـدِ إذا أتَـتْ لِقُـدومـه بُشْـرَى البشيـرْ
أو كـالمَنـامِ لِسَـاهـرٍ أو كـالأمـانِ لِمُسْتَجيـرْ
كُتِبَـتْ بِحِبـرٍ كـالنَّـوَى أو كُفْـرِ نُعْمَـى مـن كَفُـورْ
فَكـأنمـا هُـوَ بَـاطِـلٌ مـا بَيْـن حَـقٍّ مُسْتَنِيـرْ

وقال أحمد بن أبي العباس بن ثوابة]:

فـي كـلّ يـومٍ صُدورُ الكُتُبِ صـادِرةٌ مـن رأيـهِ وَنـدى كفّـه عـن مِثْـلِ
عن خَطِّ أقلامِه يجري القضاءُ على كل الخلائقِ بين البيضِ والأسَلِ[٥]
كَـأن أَسْطُـرَهُ فـي بَطْـنِ مُهْـرَقِـهِ نَوْرٌ يُضَاحِكُ دَمْعَ الواكفِ الخَضِلِ[٦]

---

(١) في الديوان: «كالرَّوْضِ مُؤتلقاً بِحُمْرَةِ نَوْرِهِ»، و«بياضِ زهرته».
(٢) الخال: الثوب الناعم. الوشي: أصله نقش الثوب، وسمي به نوع من الثياب. والعصب: ضرب من برود اليمن، يُصْبَغ غزله ثم يُنْسَج.
(٣) في الديوان: «شخص الحبيب بدا لعين محبه».
(٤) النثير: المنثور.
(٥) البيض: السيوف، والأسل: الرماح.
(٦) المهرق: الصحيفة يكتب فيها. والواكف: المطر الغزير. والخَضِلُ: النديّ.

لُعَابُهُ عِلَلٌ والصدرُ يَنْفُثُها وَرُبّما كانَ فيه النفعُ لِلعلَلِ
كالنارِ تُعطيكَ من نُورٍ ومَنْ حُرَقٍ وَالدهرِ يُعطيكَ من غَمّ وَمِنْ جَذَلِ[1]

وقال آخر:

مِدادٌ مثلُ خافيةِ الغرابِ وَرقٌّ مثلُ رَقْرَاقِ السرابِ[2]
وَأقلامٌ كأرواح الجواري وألفاظٌ كأيام الشبابِ

[مُثل من بلاغة عمرو بن مسعدة]

قال أحمد بن يوسف: دخلت على المأمون، وفي يده كتابٌ، وهو يعاود قراءته مرة بعد مرة، ويصعّد فيه بصرَه ويصوِّبُه، فالتفت إليّ وقد لحظني في أثناء قراءته الكتاب، فقال: أراك مُفَكِّراً فيما تراه مني! فقلت: نعم، وَقَى اللهُ أمير المؤمنين المخاوف! قال: لا مكروه إن شاء الله، ولكني قرأتُ كتاباً وجدتُه نظيرَ ما سمعت الرشيد يقوله عن البلاغة، فإني سمعتُه يقول: البلاغةُ التباعد من الإطالة، والتقرب من البغية، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى، وما كنتُ أتوهمُ أن أحداً يقدر على هذه البلاغة حتى قرأت هذا الكتاب من عمرو بن مسعدة إلينا فإذا فيه:

كتابي إلى أمير المؤمنين ومَنْ قِبَلي من الأجناد والقوّاد في الطاعة والانقياد على أحسن ما تكونُ عليه طاعةُ جُنْدٍ تأخَّرَتْ أعطياتهم، واختلت أحوالهم! ألا ترى يا أحمد إلى إدماجه [المسألة في الإخبار]، وإعفائه سلطانَه من الإكثار. ثم أمرَ لهم برزق ثمانية أشهر.

وفي عمرو بن مسعدة يقول أبو محمد عبد الله بن أيوب التيمي:

أعِنّي على بارقٍ ناصبِ خفيٍّ كَوَحْيِكَ بالحاجبِ[3]
كأنَّ تألُّقه في السماء يدَا كاتب أو يَدَا حاسِبِ
فَروّى منازلَ تذكارُهَا يُهيّج من شوقك الغالبِ
غَريبٌ يحنّ لأوطانِه وَيَبْكي على عَصْرِهِ الذاهبِ
كفاكَ أبو الفضل عمرو الندى مُطالعة الأمَلِ الكاذبِ

---

(١) الجذل: السرور.
(٢) المداد: الحبر. الرَّقُّ: جلد رقيق يكتب فيه، أو الصحيفة البيضاء.
(٣) الناصب: المتعب، ويقال: عيش ناصب: فيه كَدٌّ وجَهْدٌ.

وَصِدْق الرجاء وَحُسْن الوفاءِ لعمرو بن مسعدة الكاتبِ
عَريض الفِناءِ طويل البنا ءِ في العزّ والشرف الثاقبِ[١]
بنى الملك طَوْد له بيتهُ وأهل الخلافة من غالبِ
هُو المرتَجى لِصُروفِ الزمانِ وَمُعتَصمُ الراغبِ الراهبِ
جَوادٌ بما ملكت كفُّهُ على الضيف والجار والصَّاحبِ
بأُدْمِ الركابِ وَوَشْي الثيا بِ والطِّرفِ والطّفْلَةِ الكاعِبِ[٢]
نُؤملهُ لِجسامِ الأمورِ وَنَدْعُوه للجَلَلِ الكارِبِ[٣]
خَصيب الجنابِ مَطِير السحابِ بشيمته ليّن الجانِبِ
يُروّي القنا من نُحورِ العِدَا وَيُغْرق في الجودِ كاللاّعبِ
إليك تَبدَّتْ بأكوارِهَا حَراجيجُ في مَهمَهٍ لاحبِ[٤]
كأنّ نَعَاماً تَمادَى بنا تَزايَلُ مِنْ بَرَدٍ حَاصبِ
يَردْنَ نَدَى كَفِّكَ المُرْتَجى وَيقْضِينَ من حَقّكَ الواجبِ
وَللَّه ما أنتَ مِنْ جابرٍ بسجْلٍ لِقَوْمٍ وَمِنْ خاربِ
يُساقي العِدا بِكُؤوسِ الرَّدى وَيسْبِقُ مسألَةَ الطالبِ
وَكم راغبٍ نلته بالعطا وَكَمْ نِلْتَ بالحَتْفِ من هاربِ
وَتِلكَ الخلائق أُعْطِيتَها وَفَضْلٌ من المانع الواهبِ
كَسبْتَ الثناءَ، وكَسْبُ الثنا ءِ أفضلُ مَكْسَبَةِ الكاسبِ
يَقينُكَ يَجْلو سُتُورَ الدُّجى وَظَنُّكَ يُخْبِر بالغائبِ

وهذا الشعر يتدفق طبعاً وسلاسة.

---

(١) الفناء: الساحة في الدار أو بجانبها.
(٢) أُدم الركاب: جلودها، الواحد: أديم. الطِّرْفُ: الكريم من الناس والخيل ونحوها. والكاعب: الجارية التي نهد ثديها.
(٣) كارب: اسم فاعل من كرب فلاناً الغَمُّ والأمرُ والعبء: اشتد عليه وثقل.
(٤) الأكوار: جمع كور، وهو الرحل بأداته. والحراجيج: جمع حرجوج، وهي السمينة الطويلة من النوق، أو الشديدة الضامرة. واللاحب: الواضح. والمَهْمَه: الفلاة الواسعة.

[الكلام الجيد الطبع، والكلام المصنوع]

قلت: والكلامُ الجيد الطبع مقبول في السمع، قريبُ المِثَال، بعيد المَنَال، أنيق الديباجة، [رقيق الزجاجة]، يدنو من فَهْم سامِعه، كدنوّه من وهم صانعه، والمصنوع مُثقَّف الكعوب، معتدلُ الأنبوب، يطّرد ماءُ البديع على جَنبَاته، ويجول رَوْنَق الحسن في صفحاته، كما يجول السِّحْر في الطَّرْف الكحيل، والأثْرُ في السيف الصقيل، وحمل الصانع شعره على الإكراه في التعمل وتنقيح المباني دون إصلاح المعاني يعفي آثار صنعته، ويطفىء أنوار صيغته، ويخرجه إلى فسادِ التعسف، وَقُبْح التكلف؛ وإلقاءُ المطبوع بيده إلى قبول ما يبعثه هاجِسُه، وتنفثه وساوِسُه، من غير إعمالَ النظر، وتدقيق الفِكر، يخرجه إلى حَدّ المشتهر الرث، وحيّز الغث؛ وأحْسَنُ ما أجري إليه، وأعوّل عليه، التوسطُ بين الحالين، والمنزلة بين المنزلتين، من الطبع والصنعة.

وقد قال أعرابي للحسن البصري: علمني ديناً وسيطاً، لا ساقطاً سقوطاً، ولا ذاهباً فروطاً، قال الحسن: أحسنت، خيرُ الأمور أوساطها. والبحتري عن هذا القوس ينزع، وإلى هذا النحو يرجع.

قد تمّ ـ بعون الله تعالى وتوفيقه ـ الجزء الثالث من كتاب «زهر الآداب، وثمر الألباب» لأبي إسحاق الحصري، ويليه ـ إن شاء الله تعالى ـ الجزء الرابع مفتتحاً بقول المؤلف «ومن الشعر الذي يجري مع النفس قول ابن المعتز يمدح المكتفى» نسأله سبحانه أن يوفق إلى إكماله.

فهرس المحتويات